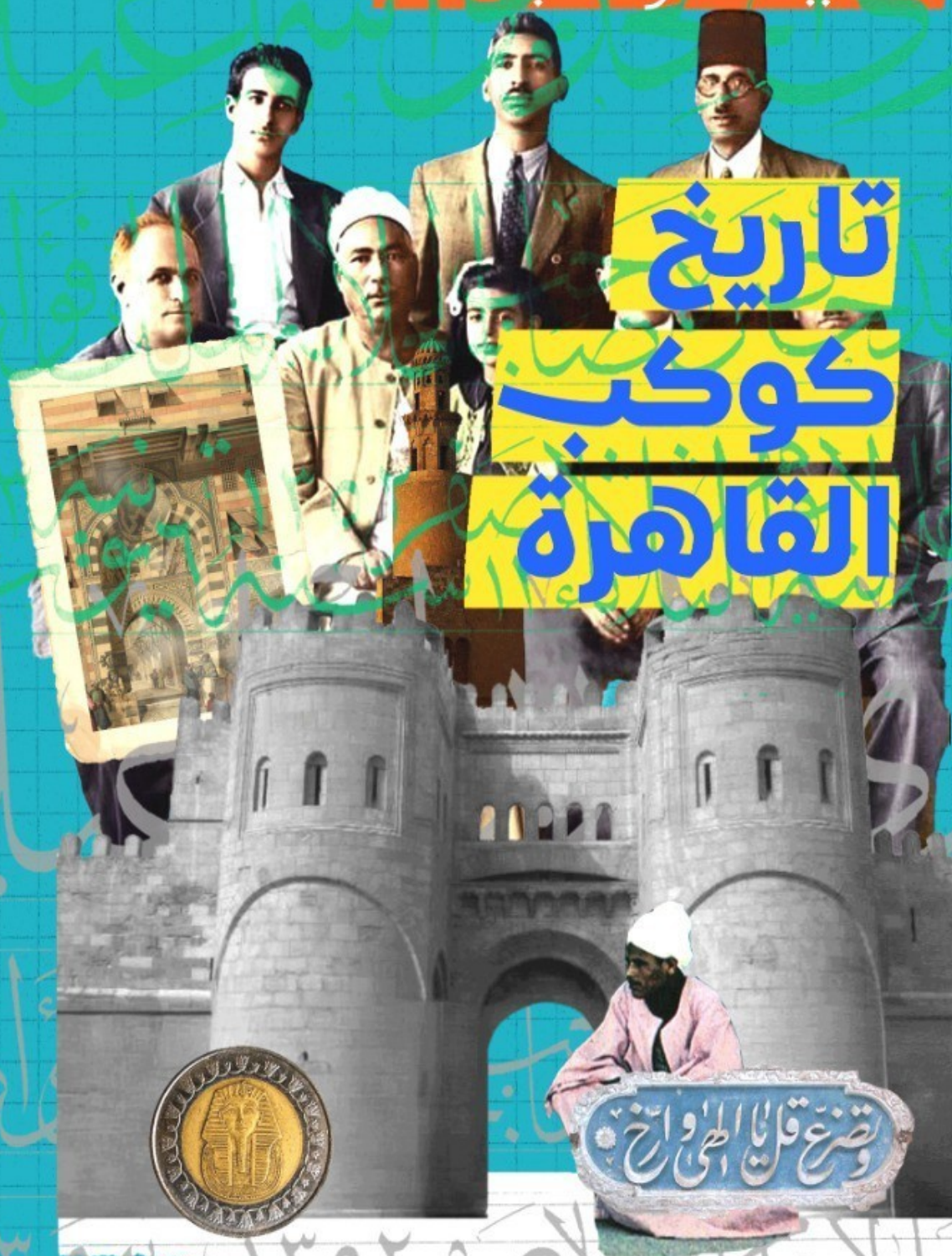


د. ياسر ثابت

تاريخ كوكب القاهرة



??Do?;!:JN?4?ㄢ`,?j?zw?-?hCK?}?Zn?y?M?3??6\$???
?6`?+?[,0e?s??H8?P ?cFPv??ibAc?D?@,???.?{???+??5??Ps?d,
?????&WJ?G?IC????\$Q???f?p?□□□8
:□G??w?Y?:?t??u??V+??cD????A????b=?<??2m?U?OCJ\$??d
??>??□nCCj?ph?9????+???@?~|??遯
?????y?i7?Ij??~?Un?v??x'l ?ǝM?????½0??'??J
????Q`"?y*|r???y?Û????Ry??N?g?襦?¿j/.?C4_??1?p?!
??11??w?P?.?p ??a{S?

تاريخ كوكب القاهرة

د. ياسر ثابت

الطبعة الأولى : 2025

تصميم الغلاف : إسلام أحمد

تدقيق لغوي : شركة المحرر

إخراج فني : يوسف الفرماوي

رقم الإيداع : 2024 / 25955

الترقيم الدولي I.S.B.N : 978-977-8842-20-3

إخراج فني : أحمد معتوق

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي I.S.B.N :

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقياً أو إلكترونياً أو صوتياً إلا بإذن خطي من الناشر.



تاريخ كوكب القاهرة

د. ياسر ثابت



إهداء

إلى روح "حبيبة" ..

مذاق العسل المُصفى الذي قرصَ قلبي بالفرح، قبل أن يصبح دمعتي الأبدية!

مقدمة

هذا كتابٌ عن التاريخ تحت مظلة الوطن.

والوطن هنا هو مصر، وفي القلب منه القاهرة، التي تمتلك تاريخاً فريداً وثرياً، كلما نهلنا من نبعه ازددنا عطشاً. لا عجب، إذن، أن المصريين، وخصوصاً في المحافظات والأقاليم، يشيرون إلى القاهرة باستخدام كلمة مصر. إنها علامة على الهيمنة.

إن القاهرة هي أدق تفاسير الإنسانية لرصد تطور الحضارات وصراعاتها الرهيبة، وهي أيضاً وسيلة مثالية لمعرفة ما جرى في هذه الحاضرة على اختلاف مسمياتها ومكوناتها من الأعراق والجماعات والأفكار والمذاهب والطوائف.

في عصور مختلفة، وخصوصاً في العصور الوسطى وعصر النهضة، بدت القاهرة مدينة صناعية معولة بمثل ما هي مدينة للسكنى، وكانت بثروتها من العمارة الفخمة المترفة والأسواق والوكالات وشبكاتها التجارية والدبلوماسية العالمية، توصف بأنها أكبر مدينة في العالم، حتى أثار سحرها الخاص اهتمام القاصي والداني.

تنبض القاهرة بالحياة، في عادات سكانها وأعيادهم واحتفالاتهم بالمناسبات المختلفة، وفي مواكب الزفاف وطقوسه، والأُمسيات في المقاهي، وفي حلقات الذكر والدروايش، وفي رقص الغوازي وغناء العوالم، وفي المطاعم والمسارح، وفي الشوارع التي قدّر علي مبارك في خطه عددها بقرابة ١٢٩٠ شارعاً، وفي الأحياء التي تتجاوز فيها علامات الثراء والفقر ويتصالح فيها المقيمون والوافدون.

وفي كل قراءة متأنية، يسهم موكب تطور القاهرة في تأصيل هويتها ذات الوجوه المتعددة. ربما يلاحظ البعض تناقضات القاهرة الحديثة، لكنها مدينة يصعب ألا تقع في غرامها، فهي كما وصفها الرحالة ابن بطوطة في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار":

"هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد.. محط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف" (ص ٥٤).

وإذا شئنا المصارحة، فإن كثيراً مما ورد في هذا الكتاب ينتمي إلى الأحداث التي لم تُدوّن على نحو كافٍ ووافٍ من جهة، وإلى ما يطلق عليه اصطلاحاً التاريخ السائل، أي التاريخ الذي يتشكل أمام أنظارنا، وتصهره الأيام حتى يستقر الرأي على تصنيفه تاريخاً.

والتاريخ هنا هو تاريخ اجتماعي واقتصادي وسياسي وصحي، وكل ذلك كما أسلفنا تحت مظلة اسم مصر.

ومصر وطنٌ يتخطى الأديان والأعراق والانتماءات، ويتجاوز التصنيفات والتقسيمات، وهو البلد الوحيد الذي يعاد اكتشافه يومياً والكشف عن مزيدٍ من آثاره وأسراره يومياً، فيمنح العالم فرصة لإعادة كتاب تاريخ الخليقة، كما لو أنه يتحدّى الجميع قائلاً: الأقدم هو الأحدث.

في القاهرة، التي استحققت اسمها بكل المقاييس ومختلف التأويلات، نحاول استقراء تاريخنا وتمثلاته الثقافية والفكرية والاجتماعية، مع رصد التطور المعماري والعمراني، عسانا نفهم المدينة التي تجمع بين كونها قصة التاريخ الإنساني وصورة النقيض التي تجمع بين العشوائيات تارة والمجمعات المسوّرة تارة أخرى ومأوى النازحين واللاجئين والمغتربين على حدٍ سواء.

ربما جاز القول إننا نولي أهمية خاصة لكل من الأسلوب والوضوح والدقة في الكتابة البحثية والتاريخية، مع بناء التاريخ على الأدلة المتاحة، والإيمان بعدم وجود مناطق محرّمة على التاريخ.

الفكرة النازمة للكتاب هي البحث عن ملامح تائهة أو غائبة لتاريخ مصر وجغرافية العاصمة (الفسطاط/ العسكر/ القطائع/ القاهرة). والقاهرة هنا تشمل القاهرة المعزية وقاهرة صلاح الدين وقاهرة الممالك والقاهرة في عهد العثمانيين فضلاً عن القاهرة في القرنين التاسع عشر والعشرين. والشاهد أنها جميعاً تقع ما بين شاطئ النيل الشرقي وتلال المقطم، وكان طبيعياً أن تلي الواحدة الأخرى ناحية الشمال، أو بعبارة أخرى أن يكون نمو القاهرة وامتدادها من الجنوب إلى الشمال.

تناولنا عاصمة البلاد وحاضرة الملوك ومركز السيادة، في "القطائع.. مدينة الأحلام"، و"أحاديث الجوى" و"القاهرة التي اختفت"، و"كوكب القاهرة.. مدينة بروحين". ولعلنا ننوه هنا أن مصر بريفيها وحضرها، وبشواطئها وصحاريها، إنما هي واحدة خصبة وغنية وسط قارة كان معظمها حتى ذلك الوقت مجهولاً أو موحشاً أو متخلفاً، فمن البدهي أن تكون مصر مسرحاً لعملية اختلاط سلاي ممتدة وهائلة، وأن تكون لهذه العملية آثار فيزيقية (جسمانية) ونفسية واجتماعية في الوقت نفسه.

وتكلمنا عن التطور المعماري والعمراني والمائي للقاهرة في "عمارة الأثرياء"، و"الممالك.. البناؤون العظام"، و"إصلاح ما خربه الفرنسيين" و"مقياس النيل.. بين حلوان والروضة"، و"كومباوندات وعشوائيات.. تحديات المستقبل".

نقف أيضاً عند محطات فاصلة، في فصول مثل "أسوأ خطة عسكرية في التاريخ"، و"القاهرة ١٩٢١".. جمل تشرشل وكبرياؤه!..

ونستعرض حكايات عن المحظوظين وغيرهم في "لم يُصبه العرش!"، و"أولاد الناس.. في زمن الممالك"، و"عندما يحكم العيال"، و"خمارويه.. ومن الترف ما قتل".

ونتجول في أرجاء "ساعة الحظ في الأزيكية!"، و"أسرار جمهورية شبرا"، و"بركة الفيل.. أجمل متنزهات القاهرة" و"زقاق القناديل.. شارع الأشراف".

ولا بأس من فتح ملفات "قاهرة النصارى"، و"أمن المدينة.. بين الأغا والوالي"، و"من الممالك إلى العثمانيين.. تاريخ الفساد"، و"طوائف وجرف" و"القاهرة السينمائية: تجاعيد مدينة"، و"نفوذ الشوام" و"الأجانب.. تجار وصناع ومحتكرون".

ولعل من أهم فصول الكتاب تلك التي تتناول "بيمارستانات مصر"، و"سعود الطب وانهيائه"، لما للطب والتداوي من ارتباط بحياة أهل المحروسة.

متون الكتاب مفتوحة على حقول معرفية أخرى كالتاريخ والسياسة والاجتماع والدبلوماسية والحضارة والأنثروبولوجيا والرحلة وغيرها، مما قد يمنح الكتاب قيمته المعرفية.

أما الإطار الزمني، فهو مفتوح القوسين؛ إذ نعرّج على تاريخ مصر في قرون وحقب وعصور متعددة، لنحاول فهم تأثير التاريخ والصراعات في تطور القاهرة وغيرها من المدن ومنشآتها والأدوار التي لعبتها هذه العوامل المتشابكة في تشكيل ملامح مصر عبر التاريخ.

كلنا أمل في أن يجد القارئ في هذا الكتاب فضلاً أو موضوعاً يستهويه وينال من اهتمامه، بما يفتح أمامه باباً للقراءة والاستزادة

أتمنى لكم قراءة تجمع بين الفائدة والمتعة.

ياسر ثابت

القاهرة

٢٤ أغسطس ٢٠٢٤

Email: yasser.thabet@gmail.com

أسوأ خطة عسكرية فيه التاريخ

في الكتاب الممتع "القاهرة مؤرخة: فقرات من تاريخ وعمران المدينة عبر الزمن" (1)، (دار العين، ٢٠٢٤)، تستوقفك فقرة دالة كتبها محرر الكتاب د. نزار الصياد (أستاذ العمارة والتخطيط وتاريخ العمران في جامعة كاليفورنيا بيركلي الأميركية)؛ إذ يقول: "عندما يتحدث أحدنا عن القاهرة، يتحدث عما يعرفه منها أو عنها، فلكل منا قاهرة خاصة ومختلفة. ليست هناك قاهرة واحدة، بل عدة قاهرات، وكلُّ منا يعرفُ المدينة من خلال الأحياء التي يعيش فيها أو يعمل بها أو يزورها أو يدرسها".

العبارة صحيحة، فهناك قاهرة الفسطاط أو مصر القديمة، المدينة التي وُجدت قبيل القاهرة ومن دونها لم يكن للقاهرة حياة. وهناك القاهرة، المدينة التاريخية ما بين الأسوار الفاطمية. وهناك قاهرة صلاح الدين، المدينة الموحدة التي غيّرت ثقافة مصر كلها. وهناك قاهرة المماليك، المدينة التي أضحت من أجمل مدن العالم وأهمها في العصور الوسطى.

الشاهد أن القاهرة بتمدها المطرد استوعبت العواصم التي سبقتها بما فيها منف في مصر القديمة وقد أُنشئت قبل ٥ آلاف عام، وقامت على أطلالها الفسطاط التي أسسها عمرو بن العاص، ثم العسكر التي أسسها الأمويون عام ٧٥٠م، شمال شرقي الفسطاط، ولم يبقَ منها شيء. ويؤخذ من وصف المقربي لموقع العسكر في خطته أنها كانت تمتد بمحاذاة الشاطئ الشرقي للنيل، الذي كان يحف بجدران جامع عمرو حينذاك، ويحدها جنوباً قناطر المجرى (العيون) (2). وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب، حيث كانت قناطر السباع (3). أمام المشهد الزينبي، وغرباً بين شارع السد والديورة، وشرقاً خط وهمي يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولي بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة، المعروف قديماً بباب المجدم (4).

استمرت العسكر حاضرة البلاد، إلى أن قدم أحمد بن طولون، فوجدها لا تتسع لجندته وحاشيته، وما اعتزم تشييده من منشآت، فاستقر عزمه على تأسيس القطن عام ٨٧٠م، وأنشأ الفاطميون القاهرة عام ٩٦٩م وجعلوها مقر حُكم مصر وعاصمة الخلافة الإسلامية.

يزخر الكتاب بالكثير من الحكايات والقضايا المتعلقة بالقاهرة، وقد احتشد للتصدي لها عددٌ من العلماء والكُتّاب الكبار والشباب، ممن ركزوا على حالة القاهرة من منظورين؛ الأول تاريخي والثاني تمثيلي. عبد الرحمن الطويل، وطارق سويلم، وحسن حافظ، وأمنية عبد البر، وناصر الرباط، وحامد محمد حامد، ومعاذ لافي، ومحمد حسان الدين إسماعيل، وخالد فهمي، وعمرو عصام وعاطف معتمد. كلُّ واحدٍ من هؤلاء، وغيرهم، جعلوا من الكتاب كنزاً ثميناً لأي باحث مهتم بالتاريخ.

أتوقف هنا -مستعيناً بالكتاب ومراجع أخرى سأذكرها في موقعها- عند ما يمكن وصفه بأنه أسوأ خطة دفاعية شهدتها مصر في تاريخها، وتعني بذلك الحريق الذي أمر الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي بإشعاله في الفسطاط عام ١١٦٨، خوفاً من هجمة صليبية وشيكة بقيادة مري ملك الفرنج!

كان شاور قد شرع في بناء سور على مدينة مصر واستعمل فيه الناس فلم يبق أحد من المصريين إلا وعمل فيه، وحفر من ورائه خندقاً، فلم يكمل من ناحية النيل. وعمل في السور ثمانية أبواب أحدها بدار النحاس على ساحل البحر، هدم في سنة واحد وخمسين وستمئة وآخر بجانب كوم البواصين، وثالث على سكة سوق وردان سقط سنة إحدى وستين وستمئة، وباب في طريق زين العابدين، وباب عُرف باب الصفاء، وباب بحري وصل الأموات سقط قبيل سنة خمسين وستمئة، وباب عند أقمنة الجبر مما يلي درب السرية، وباب لقنطرة بني وائل وتحتة قنطرة بني وائل التي تصب في بركة الشعيبة، التي كانت قديماً بستان الأمير تميم بن المعز، وكان الماء يدخل إليها من خليج مصر.

في أحد فصول الجزء الأول من كتاب "القاهرة مؤرخة: فقرات من تاريخ وعمران المدينة عبر الزمن"، يحاول عبد الرحمن الطويل استكشاف الأسباب العسكرية والاجتماعية لعدم تسوير المدينة والبدايل التأمينية التي وفّرتها السلطات في العصور المختلفة، وأول سبب يراه هو أن المدن

الأمصار التي أسسها العرب في عصر الفتوحات لم تعرف التسوير، مثَّل الفسطاط في هذا كمثّل البصرة والكوفة، والسبب الثاني أن العرب في جاهليتهم لم يعرفوا المدن المسوّرة إلا باستثناءات محدودة وكان الغالب عليهم المدن والقرى ذوات الحصون، يلجأون إلى حصونها إذا دهمهم عدو، والثالث أن المدينة ظلت عاصمة ولاية لمدة قرنين ونصف منذ نشأتها، ولم تحكمها أسرة حاكمة يشغلها تأمين ملكها وحمايته من غزو الغزاة، والرابع أن الفسطاط نشأت منذ اللحظة الأولى على ساحل النيل، ومع نمو المدينة صار دور الميناء التجاري، على النيل، أحد أدوارها الأساسية، وأحد أسباب ازدهارها الاقتصادي غير المسبوق.

وكثيراً ما لفتت كثرة السفن على ساحل الفسطاط انتباه الرّحالة والزّائرين وانتزعت دهشتهم، كما يحكي المقدسي، الذي زارها في بداية العصر الفاطمي. يقول: "وكنْتُ يوماً أتمشّى على الساحل وأتعجّب من كثرة المراكب الراسية والسائرة، وقال لي رجل منهم من أين أنت؟ قلت من بيت المقدس، قال بلد كبير، أعلمك يا سيدي، أعزّك الله، أنّ على هذا الساحل، وما قد ألق منه إلى البلدان والقرى، من المراكب ما لو ذهبت إلى بلوك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يُقال كان ها هنا مدينة" (5).

ولا يتبادر إلى الذهن أن شاطئ النيل الحالي من جهة الشرق هو نفسه الذي كان موجوداً وقت إنشاء مدينة الفسطاط. فالشاطئ الحالي يبعد عن الشاطئ القديم بنحو ٥٠٠ متر، انتقلها الشاطئ القديم نحو الغرب. وهذه ظاهرة جغرافية تمتاز بها الأنهار في مجاريها الدنيا. فقد روت المصادر التاريخية أن حصن بابلون وقت الفتح، وجامع عمرو، كانا يشرفان على النيل، وأن باب الحصن الغربي الذي كان يُعرف بباب الحديد، كان مشرفاً على النيل، إلا أن هذا الباب الذي يوجد اليوم في كنيسة المعلقة، يبعد عن النيل حالياً بأكثر من ٥٠٠ متر، كما يبعد جامع عمرو عن النيل بالمسافة نفسها (6).

عن موقع الفسطاط يقول المقرئ:

"إن مدينة مصر محدودة الآن بحدود أربعة، فحدها الشرقي اليوم - أي سنة ٨٢٠ هـ (١٩١٧م) - من قلعة الجبل، وأنت أخذ إلى باب القرافة، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارج، وتمر من كوم الجارج وتجعل كيما مصر كلها عن يمينك حتى تنتهي إلى الرصد، حيث أول بركة الحبش، فهذا طول مصر من جهة الشرق، وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق. وحدّها الغربي: من قناطر السباع خارج القاهرة إلى ماردة الحلفاء، وتأخذ على شاطئ النيل إلى دير الطين، فهذا أيضاً طولها من جهة المغرب. وحدّها القبليّ من شاطئ النيل بدير الطين حيث ينتهي الحدّ الغربيّ إلى بركة الحبش تحت الرصد، حيث انتهى الحدّ الشرقيّ، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التي تسميها أهل مصر الجهة القبليّة.

وحدها البحريّ: من قناطر السباع حيث ابتداء الحدّ الغربيّ إلى قلعة الجبل، حيث ابتداء الحدّ الشرقيّ، فهذا عرض مصر من جهة الشمال التي تعرف بمصر بالجهة البحرية، وما بين هذه الجهات الأربع فإنه يطلق عليه الآن مصر، فيكون أول عرض مصر في الغرب بحر النيل، وآخر عرضها في الشرق أول القرافة، وأول طولها من قناطر السباع، وآخره بركة الحبش" (7).

ظلت الفسطاط عاصمة للديار المصرية منذ نشأتها سنة ٢١ هـ (٦٤١م) حتى سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م)، وقد نشأت الفسطاط في أول أمرها بسيطة التخطيط والمباني، ولكنها ما لبثت أن ازداد عمرانها، وكثرت دورها، وحسنت عمارتها، وتعددت شوارعها وطرقاتها، وعمرت أسواقها، وتقدّمت صناعاتها.

بلغ عدد الطبقات في بعض هذه الدور ثمانين طبقات، واشتملت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على أفنية تتوسطها فسقيات تصل إليها المياه، وتتصرف منها في مجاري مبلطة. وتحيط بتلك الأفنية أروقة وقاعات وغرف، بعضها لسكنى الحرّيم، والبعض الآخر للاستقبال، كما يحددها من الجنوب أحواض الزهور، وتظللها من جهة الغرب الأشجار (8).

ويقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو:

”وترى مصر، من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات.. وبها أسواق وشوارع، توقد فيها القنادل؛ لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها - لأنها مسقوفة“ (9).

وازدانت الفسطاط بكثير من الدور والقصور والبساتين، من ذلك دار عمرو الكبرى، ودار ابنه عبد الله، التي عُرفت بدار عمرو الصغرى، وكانت شرقي جامع عمرو، ودار الزبير بن العوام، غربي دار عبد الله بن عمرو. وشيّد عبد الله بن أبي سرح لنفسه قصرًا كبيرًا، كان يُعرف بقصر الجن، لكبره وضخامته.

كانت الفسطاط تغص بالأسواق المليئة بمختلف السلع والمتاجر، فقد بنى عبد العزيز بن مروان قيسارية العسل، وقيسارية الحبال، وقيسارية الكباش، وقيسارية البز (المنسوجات)، ووفدت على الفسطاط السلع والبضائع من بحر الروم (البحر المتوسط) بواسطة النيل، ومن بحر القلزم (البحر الأحمر) بواسطة الدواب أو خليج أمير المؤمنين (10).

لم تعرف الفسطاط سوريًا طيلة القرون الخمسة الأولى، كما يذهب عبد الرحمن الطويل، ولم تشهد محاولة لتسويرها إلا بعد ٥٤٣ عامًا من بنائها، وهو ما منحها حرية التوسع والتمدّد في عصورها المبكرة فنشأت خططها خلال عصر التأسيس متباعدة، وعلى رقعة شاسعة، ومن إحدى هذه الخطط ظهرت القرافة، فباتت مدينة للموتى والأحياء معًا، وتمددت شرقًا وشمالًا وجنوبًا لتمنح صفتي الازدواجية والاتساع لجبانات القاهرة.

إلا أن مدينة الفسطاط تعرّضت في عام ١١٦٨ لأقسى ضربة أضرت بعمرائها، وأفقدتها مكانتها في صدارة المدن بمصر لصالح القاهرة.

ففي هذا العام تمكّن الفرنج من ديار مصر وحكموا فيها حكمًا جائرًا، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم وقد تيقنوا أنه لا حامي للبلاد، وتبين لهم ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس. فجمع مري جموعه واستشارهم في قصد ديار مصر، ففقوا عزمه على المسير إليها فأجمع أمره على الرحيل واستدعى وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لأصحابه، ففرق قراها عليهم بعد ما كتب جميع قراها وارتفاع كل ناحية؛ واستنجد عسكريًا قوي به جنده (11).

وحاصر البلد حتى افتتحها قهرًا بالسيف يوم الثلاثاء ثاني صفر وأخذ الطاري والناصر ابني شاور أسيرين، وقتل جميع من كان فيها وأسره وسباهم ونهب سائر ما تحتوي عليه وأسر المعظم سليمان بن شاور وقيس بن طي بن شاور.

وأرسل إلى شاور يقول له: إن ابنتك قال أبحسب مري أن بلبيس جبنة يأكلها! نعم بلبيس جبنة والقاهرة زيدة (12).

صعد شاور إلى الخليفة العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف، وسأله مكاتبة نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، وطلب معونته فإن الفرنج قد ملكوا بلبيس والمسلمون يضعفون عن وقفهم وأنه متى حصل التقاعد أخذت مصر وأسر الفرنج من فيها من المسلمين ويحثه على إرسال من يتدارك هذا الأمر.

ويقول ابن الأثير (13) إن جماعة من أعيان المصريين كانوا قد كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور، منهم ابن الخياط، وابن قرجلة، وجماعة؛ ففوي جنان الفرنج، وساروا من بلبيس إلى مصر، فنزلوا إلى القاهرة عاشر صفر، وحصروها، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد، وقتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة، ولكن الله تعالى حسن لهم ما فعلوا؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨م)، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن يذهب البلد، فانتقلوا، وبقوا على الطرق، ونهبت المدينة، واقتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفاً أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

ويقول المقرئ:

“وإذا بشاور قد قام في حريق مصر، وأمر شاور الناس بالانتقال منها إلى القاهرة، وحثهم على الخروج منها. فتركوا أموالهم وأثقالهم ونحوا بأنفسهم وأولادهم وحرمتهم؛ وقد ماج الناس واضطربوا اضطراباً عظيماً.

ووقعت النار في الأسطول فخرج العبيد إلى مصر وقد انطلقت النار في مساكنها فانتهبوا سائر ما كان بمصر. وبلغ بالناس الحال أن كانت الدابة تكرى من مصر إلى القاهرة ببضعة عشر ديناراً والجمل بثلاثين ديناراً. ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها، وملأوا جميع الشوارع والأزقة، وصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم على الطرق وقد ذهبت أموالهم وسلبت عامة أحوالهم؛ وهم مع ذلك ينتظرون هجوم الفرنج على القاهرة وقتل رجالها وسي من بها من الحریم والصبيان.

وكان ابتداء الحريق بمصر في يوم الثلاثاء التاسع من صفر الموافق له ثامن عشر هاتور؛ واستمرت النار في المساكن أربعة وخمسين يوماً، والنهاية تهد ما هنالك وتحفر لطلب الخبايا” (14).

وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويُعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغيثن بك؛ لتنقذهن من الفرنج، فشرع في تسيير الجيوش.

يضيف المقرئ:

“ونزل مري بعساكره على بركة الحبش في يوم الأربعاء العاشر من صفر، فخرج إليه شمس الخلافة. فلما دخل إليه سألته أن يخرج معه إلى باب الخيمة، فخرج؛ فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له أترى دخاناً في السماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر ما أتيتك إلا وقد احترقت بعشرين ألف قارورة نقط وفرق فيها عشرة آلاف مشعل، وما بقي فيها ما يؤمل بقاؤه ونفعه؛ فخل الآن عنك. فقال مري: لا بد من النزول على القاهرة ومعني فرنج من هذا البحر قد طعموا في أخذها.

ثم رحل فنزل على القاهرة في عاشر صفر مما يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرح تقع في خيمته. وقاتل أهل القاهرة قتلاً شديداً وحفظوها وبذلوا جهدهم. واشتد الفرنج في محاصرة القاهرة وضيقوا على أهلها حتى تزلزل الناس زلزالاً شديداً وضعفت قواهم، وشاور هو القائم بتدبير الأمور، فتبين له العجز عن مقاومة الفرنج وأنه يضعف عن ردهم. وخاف من غلبتهم فرجع عن مقاومتهم إلى مخادعتهم وإعمال الحيلة؛ فأرسل شمس الخلافة إلى مري يطلب منه الصلح على أن يحمل إليه أربعمئة ألف دينار معجلة. فأجاب إلى ذلك. ويقال إنه خوفاً من نور الدين واعتذر بأنه لولا الخوف من العاضد ومن معه من المسلمين وإلا سلمه البلد؛ وأنه تقدم له بألف ألف دينار. فتقرر الصلح” (15).

وبرواية ابن الأثير، فقد سارت الأمور على النحو التالي:

“وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها، وشاور هو المتولي للأمر والعساكر والقتال، فضاق به الأمر، وضعف عن ردهم، فأخذ إلى أعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبتة القديمة له، وأن هواه معه؛ لخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح، وأخذ مال لثلاثين ألف دينار من نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويمهل البعض، فاستقرت القاعدة على ذلك” (16).

أما نهاية شاور فقد كانت القتل؛ إذ قتله [أسد الدين شيركوه بن شاذي](#) بأمر من الخليفة [العاقد لدين الله](#)؛ حيث يُذكر أن شاور قد دعا [صلاح الدين](#) الأيوبي وعمه إلى وليمة ووضع فيها السم، لكن ابن شاور قد أبلغ صلاح الدين وعمه بالأمر، وعندما لم يأتوا للوليمة ذهب شاور بنفسه إلى معسكرهم فقتلوه.

القطائع.. مدينة الأحلام

نشأ أحمد بن طولون في مدينة سامراء العاصمة الإمبراطورية الجديدة، التي تأسست عام ٨٣٦م حيث كانت مدينة ساحرة مليئة بالقصور والدور الفارهة وميادين السباق المتقنة والمساجد وأماكن الترفيه الرائعة. ما من شك في أن ابن طولون أحب أسلوب حياته في سامراء حتى إنه بمجرد تعيينه والياً لمصر شرع في بناء مدينة الأحلام لنفسه، مدينة تُضاهي معشوقته سامراء، وبذلك أصبحت تلك المدينة تُعرف بالقطائع عام ٨٧٠م وأُضحت ثالث عاصمة إسلامية لمصر بعد مدينتي "الفسطاط" و"العسكر".

يقول البلوي، وهو أبرز مؤرخي القرن الميلادي العاشر، إنه عندما عاد ابن طولون منتصراً إلى مصر بعد أن هزم ابن الشيخ في بلاد الشام، وجد أن حاشيته من العبيد وجيشه المكون من ١٠٠ ألف رجل، قد ازداد عددهم بدرجة كبيرة، مما أدى إلى اكتظاظ التكنات المتوافرة، فقرر ابن طولون بناء مدينة تستوعب جميع السكان.

يقول ابن تغري بردي: "وكان موقعها من قبة الهواء التي صار مكانها الآن قلعة الجبل، إلى جامع ابن طولون، وهو طول القطائع وأما عرضها، فإنه كان من أول الرميلة (17)، من تحت القلعة، إلى الموضع الذي يُعرف الآن بالأرض الصفراء، عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين الدين. وكانت مساحة القطائع ميلاً في ميل (18)".

وقد حدد الأثري محمد رمزي هذه المدينة كما يلي:

"الحد البحري، ويبدأ من جامع سنجر الجاولي حتى باب العزب بالقلعة، والحد الشرقي سور القلعة، من باب العزب، حتى جامع السلطان الأشرف قانصوه الغوري، عند باب اليسار، المعروف الآن بباب الجبل. والحد القبلي ويبدأ من جامع الغوري المذكور، حتى جامع سيدي علي زين العابدين. والحد الغربي من جامع سيدي علي زين العابدين، وينتهي بجامع سنجر الجاولي (19)".

قُسمت المدينة الجديدة إلى مناطق وحُصص كل منها لقبيلة أو مجموعة راقية أو طبقة اجتماعية من السكان الذين رافقوا ابن طولون من سامراء إلى مصر، وسُميت المناطق على أسمائهم، ويُفسر هذا التكوين الاجتماعي والمكاني سبب تسمية المدينة بالقطائع التي تعني "الحي" كما قُسمت الأحياء إلى "سكك" و"أزقة" ضيقة بها مساجد، ومطاحن "طواحين"، وحمّامات عامة "حمّامات"، ومخازن "أفران" أيضاً. وكانت بعض الأحياء مخصصة لخدم القصر "فراشين"، وللإسودانيين، والنوبيين، والروم، بالإضافة إلى منطقة معينة تُسمى هارون وكذلك، كان للعبيد "الغلمان" منطقتهم الخاصة. واليوم، من المستحيل تحديد مكان وجود هذه الأحياء داخل المدينة (20).

بنى ابن طولون قناطر في جنوب المدينة، وصفها البلوي بأنها هيكل "مناسب"، وذكر أن مياه القناة جاءت من بئر أبي بن خالد في منطقة المعافر (21).

وذكر أن التكلفة بلغت ٤٠ ألف دينار، ويقول المقرئ إنها بُنيت بالقرب من بئر قديم كان يُعرف باسم بئر عضة (22). ويضيف البلوي أنها بُنيت باستخدام كنز اكتشفه ابن طولون في موقع تنور في تلال المقطم (23). ويقول الباحث طارق سويلم إنه يمكننا اليوم تحديد من أين تبدأ قناة ابن طولون؛ إذ من الممكن رؤية بقاياها في المنطقة المعروفة حالياً باسم "بئر أم السلطان"، جنوب القاهرة (24).

ووفقاً لابن دقماق والمقرئ، بدأ ابن طولون بتشييد قصره وملعبه عام ٨٦٩م، ثم قام، بعد فترة، بتوسيعه وتحسينه وتجميله، وضمّ إلى أراضيه ميداناً رائعاً أو "ساحة عرض مفتوحة" حيث كانت تُمارس الألعاب.

وكان حيّ الميدان له عددٌ من الأبواب أو البوابات يستعرضها طارق سويلم، وأولها باب الصوالجة أو باب الميدان، وكان لهذه البوابة اسمٌ مزدوج: باب الميدان (باب ساحة العرض المفتوح)، وباب الصوالجة (بوابة مطارق البول). ويقول البلوي إن غالبية عناصر الجيش يدخلون ويخرجون من منطقة القصر من باب الميدان. ومن المحتمل أنه تم استخدام هذه البوابة من قبل من يلعبون لعبة البول، وبما أنهم كانوا في الغالب من أفراد الجيش، فقد يتصور المرء أن هذه البوابة تقع بين القصر وأرض العرض المفتوح؛ أي في الجزء الشرقي من أرض العرض المفتوح.

ثمة أيضاً باب الخاصة "بوابة الرجال الكرام"، وقد استخدم هذا الباب فقط من قبل أبناء الطبقة العليا والنبلاء المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بابن طولون. ويمكن اعتبار الخاصة حرساً شخصياً للحاكم، كما كان يُشار إليهم في الفترة المملوكية اللاحقة بالخاصكية.

ثالث الأبواب هو باب الحرم "باب أجنحة النساء"، الذي يعد مقصراً على الحرم؛ أي النساء المرتبطات ارتباطاً وثيقاً بابن طولون، وكذلك النساء من أفراد أسرته وخدمهن من الخصيان.

يضاف إلى هذه الأبواب باب الجبل، وباب الدرمون، وباب الدعناج، وباب الساج، وباب الصلاة/السباع. كان الباب الأخير الأكثر إثارة بين جميع الأبواب، فقد كان ابن طولون يقود الطريق للصلاة هناك. ويصف البلوي باب الصلاة بأنه مُزين بأسدين (سبعين) مصنوعين من الجص (الجبس)، ولهذا السبب عُرفت البوابة باسم باب السباع(25).

يستعرض الباحث طارق سويلم مقابر ابن طولون وخمارويه، والشارع الأعظم، وقبر سيدي هارون، ودار الإمارة، ومسجد ابن طولون، وأسواق المدينة، وقيّة الهواء، ويقول إنه للأسف في عام ٩٠٥ هـ هاجم جيش من الجنود بقيادة القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب مصر، وبعد مقاومة محدودة استسلمت المدينة ودُمّرت وسُوّيت جميع المباني الرئيسية بالأرض، لدرجة أنه تم حراثة القصر الملكي، وهذا يعني أن جميع المباني الفخمة بما في ذلك قصر الحرم والأجنحة المنيّة في الدّكة وبيت الذهب تعرّضت للنهب مثلما سويت بالأرض. وتستمر مدينة القطائع في الموت ببطء وأضحّت كل من مدينتي القطائع والعسكر في حالة بائسة، لدرجة أنه بعد قرن ونصف القرن بُني سور حولهما لإخفاء حالتهم البائسة عن بقية العاصمة الكبرى العاصمة.

كوكب القاهرة.. مدينة بروحين!

ينشط القُصّاص كعاداتهم في نسج قصة طريفة اقترن بها بناء العاصمة الجديدة، فيروون أن جوهر الصقليّ نظر إلى السهل الرملي الواقع شمالي القسّاط وكان خلوّاً من المباني إلا القليل الملحق بالبستان الكافوري ودير فسيح يطلق عليه دير العظام وحصن صغير يسمى الشوك فاخبط فيه مدينته وأحاطها بسياج من الأعمدة الخشبية وأوصلها جميعاً بالحيال التي تتدلى منها أجراس قصد بها أن تدقّ جميعاً في لحظة واحدة عندما تعطى الإشارة بذلك لكي تكون إيذاناً بوضع الأساس وقد ترقبوا مرور كوكب ميمون الطالع في سماء المدينة الجديدة ليوضع الأساس عند إشرافه تفاعلاً بمستقبل سعيد مرموق لها، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ حط فوق أحد الحبال غراب فدقت الأجراس لفورها فوضع العمال الأساس وفقاً للتعليمات المعطاة. واتفق أن ظهر في تلك اللحظة كوكب المريح قاهر الفلك كما يطلقون عليه فلما رفع الأمر للخليفة المعز عند قدومه إلى مصر في ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٢م) وكان عالماً في التنجيم، وافق على نسبة المدينة الجديدة إلى كوكب القاهرة الذي كان يتعهد فيه يُمنّ الغدوات وبركة الروحات وأضيف إليها اسم المعز، فصارت تُعرف باسم القاهرة المعزية أو القاهرة المعز (26).

ومهما يكن من أمر فليست هذه القصة وأضرابها بالشيء الجديد في عالم العواصم القديمة، فتقليل منها من لم يقتنر إنشاؤه بقصة طريفة من هذا النوع لتكسيها روعةً وجدة على مر العصور والأزمان.

وليس بعجيب أن يكون أول شيء يبدأ به جوهر في بناء العاصمة الجديدة بناء السور؛ إذ كان المقصود بالمدن في العصور الوسطى أن تكون قلاعاً حصينة يحتمي وراءها السكان ضد الغزاة الفاتحين ونواة الأبنية في تلك المدن قصور الخلفاء والوزراء وملحقاتها من دور الحكومة والدواوين، ثم المساجد وأماكن العبادة وغيرها. وهذا ما حدا بالمقريزي أن يذكر أن بناء القاهرة إنما قصد به أن تكون "منزل سكنى الخليفة وحرمة وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلجأ إليه" (27).

وقد شغلت القاهرة أول قطعة من الأرض مساحتها ٣٤٠ فدناً على شكل مربع طول ضلعه ١٢٠٠ متر تقريباً وكانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالاً حتى باب زويلة جنوباً وأحاطها جوهر بسور من اللبن، بقيت منه بقية حتى عهد المقريزي (أي إلى أوائل القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي) فوصفها بقوله: "أدركت من هذا السور اللبن قطعاً وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرج بطوط هدمها شخص من الناس في سنة ٨٠٣ هـ فشاهدت كبر لبنها ما يتعجب منه في زمننا حتى أن اللبننة تكون قدر ذراع في ثلثي ذراع وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان وكان بعيداً عن السور الحجر الموجود الآن وبينهما نحو الخمسين ذراعاً، وما أحسب أنه بقي الآن من هذا السور اللبن شيء" (28).

يقول المقريزي:

"إنه لما قدم [القائد جوهر] الجيزة بعساكر مولاه الإمام المعز لدين الله أبي تميم معد أقبل في يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمئة وسارت عساكره بعد زوال الشمس وعبرت الجسر أفواجاً وجوهر في فرسانه إلى المناخ الذي رسم له المعز موضع القاهرة الآن، فاستقر هناك واختط القصر وبات المصريون فلما أصبحوا حضروا للهناء فوجدوه قد حفر أساس القصر باللبن وكانت فيه ازورارات غير معتدلة فلما شاهدها جوهر لم يعجبه، ثم قال: قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام. ويقال: إن القاهرة اختطها جوهر في يوم السبت لسبب بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها: فزويلة بنت الحارة المعروفة بها واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين: حارة الروم الآن وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر وقصد جوهر باختطاط القاهرة حيث هي اليوم أن تصير حيناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على مناخه الذي نزل فيه بعساكره وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً وأعدّها معقلاً يتحصن به وتنزله عساكره واحتقر الخندق من الجهة الشامية لينعج اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة وكان مقدار القاهرة حينئذ أقل من مقدارها اليوم فإن أبوابها كانت من الجهات الأربع، ففي الجهة القبيلية التي

تفسي بالسالك منها إلى مدينة مصر: بابان متجاوران يقال لهما: بابا زويلة وموضعهما الآن بحذاء المسجد الذي تسميه العامة: بسم بن نوح ولم يبق إلى هذا العهد سوى عقده ويعرف باب القوس وما بين باب القوس هذا وباب زويلة الكبير ليس هو من المدينة التي أسسها القائد جوهر وإنما هي زيادة حدثت بعد ذلك وكان في جهة القاهرة البحرية وهي التي يسلك منها إلى عين شمس بابان أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التي قدام الجامع الحاكمي الآن وأدركت قطعة منه كانت قدام الركن الغربي من المدرسة القاصدية وما بين هذا المكان وباب النصر الآن مما زيد في مقدار القاهرة بعد جوهر والباب الآخر من الجهة البحرية: باب الفتوح وعقده باق إلى يومنا هذا مع عضادته اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفي وموضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرحلين وأول رأس حارة بهاء الدين مما يلي باب الجامع الحاكمي وفيما بين هذا العقد وباب الفتوح من الزيادات التي زيدت في القاهرة من بعد جوهر وكان في الجهة الشرقية من القاهرة وهي الجهة التي يسلك منها إلى الجبل بابان: أحدهما يعرف الآن: بالباب المحروق والآخر يقال له: باب البرقية وموضعهما دون مكانهما إلى الآن ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة: بين السورين وأحد البابين القديمين موجود إلى الآن اسكفته وكان في الجهة الغربية من القاهرة وهي المطلة على الخليج الكبير بابان أحدهما: باب سعادة والآخر باب الفرج وباب ثالث يعرف: بباب الخوخة أظنه حدث بعد جوهر وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع يقال لأحد القصرين: القصر الكبير الشرقي وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمة وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك وهو الذي أسسه القائد جوهر وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء، والآخر تجاه هذا القصر ويُعرف: بالقصر الغربي وكان يشرف على البستان الكافوري ويتحول إليه الخليفة في أيام النيل للنزهة على الخليج وعلى ما كان إذ ذاك بجانب الخليج الغربي من البركة التي يقال لها بطن البقرة ومن البستان المعروف بالبغدادية وغيره من البساتين التي كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهري وكان يقال لمجموع القصرين: القصور الزاهرة ويقال للجامع: جامع القاهرة والجامع الأزهر⁽²⁹⁾.

عاشت القاهرة الفاطمية، بروحين، بين ظاهرها كمقر ملكي لخلفاء فاطميين يحكمون رعايا من مختلف المذاهب والأديان، وبين باطنها كمقر للدعوة الإسماعيلية، حيث يُنظرُ من خلالها للقاهرة كمدينة مقدسة، لأنها محل للأئمة.

هذه الثنائية حكمت كل شيء في المدينة الفاطمية، وتم إغلاق أبواب القاهرة "المدينة المقدسة" وقصرها على الخليفة وحاشيته الإسماعيلية ومنع دخول الرعية، من أهالي القسطنطينية إلا بشروط وطقوس مُعيّنة، إلى الاحتفالات الفاطمية ذات البذخ الأسطوري التي أُجريت في محيط القصور الفاطمية، فضلاً عن المنشآت الأخرى، التي استُخدمت في تكريس عظمة الفاطميين، باعتبارهم خلفاء يصارعون خلفاء العباسيين على الشرعية في العالم الإسلامي، ومن جهة أخرى كأئمة إسماعيلية⁽³⁰⁾.

كان الجامع الأزهر مقراً لنشر الفقه الإسماعيلي وكان مسموحاً لكل مسلم بحضور هذه الدروس، في حين حُصص مبنى "المحول" لنشر الدعوة الإسماعيلية (أي باطن الشريعة وتفسيرها المرتبط بالفلسفة) وهي دروس اقتصر حضورها على أتباع المذهب الإسماعيلي، ليعكس المبنى اللذان يقع بينهما قصر الخلافة الفاطمي المنظومة التي عملت بها السلطة لنشر أيديولوجيتها الإسماعيلية في شقيها: الباطني والظاهري معاً.

إن ما يُعبّر عن تقديس الحاضرة الفاطمية هو الخطاب الرسمي، ومن حسن الحظ لدينا سجل فاطمي رسمي حفظه لنا المؤرخ المملوكي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، يتعلق بولاية القاهرة، والسجل الصادر في الفترة الفاطمية المتأخرة، يكشف بوضوح عن النظرة التقديسية للمدينة، ومكانتها لدى الفاطميين؛ إذ يصف القاهرة بقوله:

"واعلم أن هذه المدينة هي التي أسس على التقوى بُنيانها، ولها الفضيلة التي ظهر دليلها ووضح برهانها؛ لأنها حُصت بفخر لا يُدرك شأوه ولا تُدرك أماده؛ وذلك أن منابرها لم يُذكر عليها، إلا أئمة الهدى آباء أمير المؤمنين وأجداده، ثم إنها الحرم الذي أضحى تقديسه أمراً حتماً، وظل ساكنه لا يخاف ظُلماً ولا هضماً، وغدت النعمة به متممة مكملته"⁽³¹⁾.

في هذا النص نرى بوضوح نظرة الفاطميين الرسمية للقاهرة باعتبارها مدينة مقدسة؛ تكتسب أهميتها وقداستها من كونها المدينة التي حل بها أئمة الإسماعيلية، وهو نص يكشف لنا عن تصور أهالي القاهرة للمدينة في الزمن الفاطمي.

يبدو هذا جلياً في أن مركز المدينة هو قصر الخلافة، الذي تحوّل إلى نقطة الارتكاز في المدينة؛ إذ يطل على الشارع الرئيس والرحبة الرئيسة بالمدينة، في حين حظي جامع القاهرة (الأزهر) بوضعية هامشية في تخطيط القاهرة (32)، ولم يكن ذلك اعتباطاً بل تأكيداً على المكانة الاستثنائية للإمام الإسماعيلي باعتباره ظل الله على الأرض، والتوجه إليه أهم من التوجه إلى القبلة في المعتقد الإسماعيلي، فكان حضور الإمام/ الخليفة مركزياً، ما انعكس على قصر الخلافة الذي حصده المركزية نفسها.

هناك في الزمن الفاطمي نلتقي بأكثر من قاهرة في اللحظة نفسها، تختلف باختلاف المنظور الذي ننظر منه، فأهل الفسطاط نظروا إلى القاهرة كمنافس لمدينتهم مركز النشاط الاقتصادي والثقافي، وكرمز لسلطة مختلفة مذهبياً ودينياً عن عموم المصريين. أما جنود الخلافة الذين عاشوا في حارات منفصلة، فنظروا إلى ساحة المدينة كفرصة لفرض القوة والحصول على امتيازات، فيما نظر دعاة الإسماعيلية إلى المدينة وتحركوا في منشآتها باعتبارها مدينة مقدسة يعملون على جعلها المدينة التي تحكم العالم.

من جهتهم، عكس الخلفاء رؤية مختلفة قوامها الاستمتاع بما توفره المدينة من أماكن للنزهة والتنزه في حياتهم الشخصية المحجوبة عن الأنظار من ناحية، وفرصة للإعلان عن أحقيتهم بقيادة العالم الإسلامي عبر تصدير صورة معينة وشديدة البريق للمدينة ومؤسساتها ومنشآتها؛ التي ظهرت تبعاً لتوافق كل هذه الأغراض والأهداف المختلفة (33).

ويتعيّن الإشارة إلى بناء وإدارة "المجمع الفخم" الذي سُمي "القاهرة المعزية"، نسبة إلى الخليفة الفاطمي الأول المعز لدين الله والذي يعده "قصرًا أكثر منه مدينة حقيقية". وبعد وصول صلاح الدين وقعت القاهرة تحت سيطرة الأيوبيين لنحو سبعة عقود. في هذه الفترة تمت إعادة تشكيل عمران المدينة وتغيّرت معالمها بهدف طمس باطنها الإسماعيلي وتحويل ظاهرها إلى الفكر السني، تحديداً الفقه الشافعي.

هذا التحوّل لم يقتصر على مستوى الفكر، بل تجلّى أيضاً في التشكيل السكاني، وهو ما نحدّه في عمران المدينة التي فتحت أبوابها أمام المصريين من مختلف أنحاء البلاد، بشكل كامل ودائم. وبعد أن كانت قاهرة الفاطميين مقصورة على سكنى الخلفاء وحاشيتهم، شجع صلاح الدين أفراد الشعب على سكنى القاهرة، وإقامة المنازل فيها، فنقلوا الأنقاض من مدينة مصر "الفسطاط" التي تخلّفت عن حريق شاور في ٣٠ ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ (أول يناير سنة ١١٦٩م)، ذلك الحريق الذي استمر ٥٤ يوماً، واستعملوا الأنقاض في تشييد مبانيهم (34).

والواقع أن صلاح الدين هو الذي وضع أساس القاهرة الحالية، بعد أن وحّد بين العواصم الأربع القديمة، وهو الذي مهّد لها كي تصبح أكبر مدينة في الشرق. فقد أوكل وزيره أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين، مهمة إنفاذ خطته والإشراف على أعمال البناء، فأنفذ الأخير تلك الخطط بكل نشاط وإحكام، ومن جاءت شهرته بالصرامة والحزم، حتى لقّبه الناس قراقوش، ومعناها الطائر الأسود "العقاب" عنواناً للصرامة والاستبداد.

بلغت القاهرة أوج تألقها المعماري في العصر المملوكي الذي دام ٢٥٠ عاماً، فبحلول عام ١٣٤٠م أصبحت المدينة واحدة من أكبر المدن في العالم المعروف آنذاك. ازدهرت ثقافياً ومعمارياً وأصبحت المقر الرئيس للتعليم في العالم الإسلامي، ووصل عدد سكانها في منتصف القرن الخامس عشر إلى قرابة نصف مليون نسمة يعيشون في منطقة أكبر بخمسة أضعاف من المدينة الفاطمية الأصلية المسوّرة.

ويمكن القول إن العمران المديني للقاهرة الفاطمية ظل ينمو خلال العصر المملوكي إلى أن عبر نهائياً الخليج المصري، وانتهى غرباً عند خط يكد يتفق مع مسار شارع الجمهورية الحالي بين المقس (باب الحديد) وعابدين والناصرية إلى السيدة زينب. كما أن العمران في الشمال امتد خارج الأسوار إلى منطقة الحسينية وبركة الشيخ قمر والظاهر وبركة الرطلي وأرض الطبالة (الفجالة). كذلك امتد العمران جنوب القاهرة الفاطمية في اتجاه

القلعة، وبذلك يكون العمران في منطقة القاهرة قد نما بحيث أدى إلى التحام بين النواتين الرئيسيتين: مدينة مصر ومدينة القاهرة -أو ما سمي: مصر الفسطاط، ومصر القاهرة- برغم أنه حينما تم الالتحام كانت مدينة مصر قد تدهورت كثيراً، وقد تم الالتحام في منطقة: السيدة زينب -الناصرية- فم الخليج من ناحية، وفي منطقة: السيدة زينب -القلعة- الحلمية من ناحية أخرى(35).

عمارة الأثرياء

كان تاريخ بناء بهاء الدين قراقوش لسور مجرى العيون سنة ١١٦١ ميلادية في عهد صلاح الدين الأيوبي تاريخاً فاصلاً في التطور العمراني لمصر العاصمة، فقد كان عمران مصر العاصمة ولدة خمسة قرون مضت على هذا التاريخ -منذ أنشئت الفسطاط سنة ٦٤١ ميلادية- يتركز في الجنوب حيث الفسطاط والعسكر والقطائع وفي الشمال حيث القاهرة الفاطمية، وفيما بينهما متناثرات عمرانية جهة الغرب وجهة الشرق في سفح جبل المقطم والباقي برك ومستنقعات، كانت كل مدينة من المدن الأربع المكونة لمصر العاصمة خلال القرون الخمسة الأولى تنتمي لفئة عرقية تستطيع تمييزها بسهولة، وكل مدينة مقسمة لأحياء يسكن كل منها قبيلة، زد على ذلك اعتلاء حكم مصر فئة مذهبية شيعية رسخت لمذهبها ليس دينياً فقط بل بشكل اجتماعي مؤثر فأسبغت عادات وتقاليد مذهبها على مستوى الشارع، كانت أعيادهم مناسبات اجتماعية وأفراحهم أحداثاً ينتظرها الصغير والكبير، كانوا ما بين الوضوح الإعلامي حين يرددون والغموض الباعث على نسج الأساطير حول حياتهم، وكان الشعب على اختلاف مشاريعه ومآربه ينقاد للوضوح مرة وينساق لأساطيره مرات وتخرج من بينها حكمته بتلقائية الأفعال ولطائف الأقوال، ويتعايش من لا حيلة لهم فيتحاولون على أرزاقهم ويطلقون النكات حتى على أنفسهم وأحداث حياتهم.

وشيئاً فشيئاً أخذت الأركان العمرانية الأربعة لمصر العاصمة في الانصهار الاجتماعي داخل نسق فئوي وطبقي كما لو كان متفقاً عليه، نسق اجتماعي كان يقوي في ذاته فيهمزم ما طاب له من عادات الوافدين على الحكم ويلغظ منها ما لا تستسيغه طبائع الناس ومكوناتهم التراثي الذي يتعاطم يوماً بعد يوم، ويبدو أن هذا النسق أوجد قواعد عرفية في التعامل بين الناس، حتى بين أبناء الطبقة الواحدة وإن اختلفت فئاتهم وبين أبناء الفئة الواحدة وإن اختلفت طبقاتهم، ولم نحد منطقة عمرانية واحدة اقتصرت على فئة أو طبقة اجتماعية إلا ولها جذور في منطقة عمرانية مختلفة في فئتها أو طبقتها، ويعد امتزاج الخليط المغربي بالأسيوي والمصري بالرومي، ومع بداية العهد المملوكي استقبلت مصر العاصمة مهاجرين بأعداد كبيرة من أهالي العراق والشام بعد الغزو التتري لبلاد الرافدين، كما انتقل الكثير من سكان مصر القديمة إلى شمال السور منذ حريق الفسطاط، حتي صارت مصر العاصمة بأركانها الأربعة وأصولها الفئوية وطبقاتها الفقيرة والغنية واحتواء النازح والمهاجر داخل تلك المساحة التي يحدها السور والجبل والنيل هي ساحة الأمان وعقيدة في الوجود أنهما مصر المحروسة.

تضاعفت أعداد السكان وزادت كثافتهم، فمال الأثرياء منهم إلى الخروج نحو المتسع بانتقاء أماكن يقدر على تعميرها، ورغم أن هذا الحراك كان ظاهرة عمرانية فإنه لم يمثل قراراً منظماً بل فردياً تقع مسؤوليته على المبادرين به ثم تتوالى الانتقالات ربما في جوار أو تباعد غير أن جوارهم براح وتباعدهم تناثر، إلى أن اتخذ حكام الماليك من ذلك توجهاً باتخاذهم مساكن خارج القاهرة وتباروا في فنون العمارة وتنوعت الأنماط والطرز بحسب ما يبغي الحاكم لوضع بصمة تحمل ذكره أو مناقب حكمه وتضع ريشاً من تراث أصله، هذا من أواسط آسيا وذاك رومي وآخر من جزيرة وغيره من جبل، في حين دأبوا على تطوير وأحياناً تعديل أو تغيير في عمار ومثشآت القاهرة الفاطمية التي تشهد انفتاحاً لسكنى العامة من الناس، واختفت تقريباً طبقة الأثرياء من القاهرة الفاطمية ومحيطها حيث صارت مركزاً اقتصادياً وحرفياً وتجارياً، واتجهوا للسكن غرب القاهرة حول بركة الأزبكية وما بعدها، وكان أثرياء الجنوب ومصر القديمة يتحركون نحو الغرب حتى عمرت الروضة والشمال فعمرت بركة الفيول وصار الطريق على شاطئها حتى القلعة مساراً عليه مساكن الأثرياء وكذلك الناصرية وبركة الفوالة، وبعض من أثرياء الفسطاط فضل الخروج نحو ضاحية حلوان التي أحيها الوالي عبد العزيز بن مروان زمن وباء الطاعون بالفسطاط وأعادوا الحياة فيها. (36)

لم تكن تلك الامتدادات إلا للقادرين من الأثرياء على الخوض ما بين المستنقع والبركة لتعبيد الطريق وتمهيد الأرض للبناء، ولم ينته عصر الماليك إلا ومال العمران جميع جهات مصر المحروسة، وفي كل مرحلة من مراحل المد العمراني غرباً لم يعد هناك متنفس سوى أراضي طرغ النهر التي تظهر كلما شح فيضانه وانخسر في مساره إلى جهة الغرب مخلفاً مساحات مستنقعية تحتاج من يستثمر في تحويلها لأرض صالحة للبناء عليها، وظلت الامتدادات تعتمد على رغبات الأثرياء في النزوح نحو مناطق متسعة قليلة الكثافة مخلفين وراءهم دوراً وأماكن يليهم عليها الطبقة المتوسطة بمختلف فئاتها، وظل الحراك العمراني الاجتماعي على هذا المنوال خلال العهد العثماني كله، الذي بدأ عام ١٥١٧م، بعد أن كان الطرح السابع

لأراضي نهر النيل قد حدث في ١٤٠٣م وقد كان شريطاً ضيقاً غرب بولاق أبو العلا الحالية وهو تقريباً الحد الحالي للنهر، علماً بأن الطرح الثامن والأخير الذي رسم الحدود الحالية حدث عام ١٨٣٠م مخلفاً شريطاً يبدأ من شمال كوبري أبو العلا الحالي ومتجهاً شمالاً في شريط غرب شبرا تقع عليه حالياً عمارات أغاخان وكورنيش شبرا.

ويلاحظ الباحث معاذ لافي أن معظم الأحياء في القاهرة ظلت متجانسة سكانياً، لكن تركز الاختلاف في نمط البيوت وطبيعة الخدمات المتاحة. فلم يأخذ الاختلاف شكل الفصل المكاني الكامل بين الفقراء والأغنياء؛ إذ إن بيوت البكوات والطبقة الأرستقراطية كانت ضمن النطاق الجغرافي للمدينة بصفة عامة وإن كانت في أحياء أكثر اتساعاً وأقل كثافة. كما يشير إلى انشغال البكوات بجني الأموال والجري وراء المناصب السياسية والامتيازات الاجتماعية وانعزالهم داخل أروقة منازل فارمة لفترات طويلة، على رغم مشاركتهم في أحياء يعيش فيها أيضاً بعض الفقراء (37).

في القاهرة الغالبية من عامة المصريين، لم تعد الفراغات هي المتحكمة في عمارة المنزل، بل أصبحت الحاجة هي التي تتحكم في عمارة البيت وأصبحت المتطلبات من السكنى هي الأساس، فالحجرات المنزلية أصبحت ذات أولوية من فراغ الحوش الداخلي، حيث تمت الاستعاضة عن الحوش الذي كان البوصلة للبيت بالسلم الداخلي الذي يربط كل الحجرات ببعضها بعض.

تُبرز نللي حنا ملامح تلك البيوت من خلال الوثائق التي وصفت طبيعتها المعمارية:

”وتبيّن من أوصاف البيوت الواردة في عقود البيع أنها تختلف بادئ ذي بدء في عمارتها عن القصور والبيوت الكبيرة.. والفارق بينهما أولاً هو أن مساحات هذه البيوت كانت أصغر، ويتضح ذلك من عدد الغرف الوارد وصفها في عقود البيع، ومن دور الحوش الداخلي الذي لم يعد عنصراً لا غنى عنه، فوجود الحوش الداخلي يتطلب بالضرورة حداً أدنى من الحيز لم يكن متوفراً دائماً؛ لأن المساحة المتاحة كانت مستخدمة في عناصر تعتبر على الأرجح أساسية بقدر أكبر“ (38).

أصبحت حتى الأمور الضرورية في الحياة مثل الحمامات والطواحين، غير موجودة في أصل المنزل، بل أصبحت خاصة بمجموعة من المنازل في درب أو حي واحد. في حين أنه إذا توافرت حواصل ضرورية مثل المطبخ مثلاً تكون ضيقة إلى حد كبير. تحدد نللي حنا كذلك أمراً غاية في الأهمية، وهو العلاقة بين ثمن المنزل ووظيفة الغرف. فالبيوت الأبسط بها نسبة أكبر من أماكن الإقامة في حين كانت نسبة الغرف المخصصة لخدمات أعلى في البيوت المترفة (39).

وتكون تلك الغرف المترفة مثل غرف الاستقبال مثلاً، فمعظم تلك البيوت لم تكن تحتوي على أي غرف للاستقبال لدرجة أنه ربما في بعض الأحيان يتم تهيئة غرف النوم لتكون غرفاً لاستقبال الضيوف بشكل مؤقت، أو استقبال الناس خارج المنزل نفسه كما يبرز إدوارد وليام لين: ”فالمصري من الطبقة الدنيا، الذي لا تسعفه ظروفه المادية لاستقبال ضيوفه دال منزله، كان يستقبل أصدقاءه ويحتسي معهم القهوة، متبادلاً أطراف الحديث بكل بساطة أمام منزله وعلى مصطبة دكانه“ (40).

ويمكن القول إن شوارع القاهرة كانت تتنعت دائماً بكون شوارعها ضيقة وبيوتها ضيقة؛ إذ يقول إدوارد وليام لين:

”وشوارع القاهرة غير مرصوفة ومعظمها ضيق متعرج، وهي في الواقع أزقة أكثر منها شوارع، والمار في الشوارع لا يرى في القاهرة سوى مدينة ضيقة المساحة، مكتظة بالسكان“ (41).

خلت القاهرة في القرن الثامن عشر من متنفس عمراحي حقيقي، وكانت هناك محاولات بطيئة وضعيفة لنقل بعض الأسواق خارج حدود القاهرة، خاصة تلك التي تؤثر على الصحة من خلال الرائحة الكريهة، مما جعل المدينة الفاطمية إبان هذا القرن مدينة متهالكة تماماً لا يسكنها إلا الفقراء، في حين هجر الأغنياء والبكوات الأحياء الواقعة بين الرميطة وابن طولون، حيث عُرفت بتجارة الماشية والحبوب بالإضافة إلى السلخانات (42).

نمت مصر المحروسة خلال العهد العثماني -الذي استمر ٢٨١ عامًا- نموًا ذاتيًا اتسعت خلاله الرقعة المعمورة بتشديد الأثرىاء للدور والعائثر وشيد ولاية الحُكم أوقافًا للسكن والخدمات بعد أن صارت مصر ولاية، وخلال ما يقرب من ثلاثة قرون كان نتاج الأبنية العامة ١٤٠ مسجدًا، ٣٠ حمامًا، ٢٢ مدرسة، كما زاد كبار التجار الوكالات التجارية إلى ١٠١ وكالة وزادت الخانات من ١١ إلى حوالي ٣٠ خانًا، في دلالة على تعاظم الاقتصاد المحلي ومكانة مصر المحروسة التجارية رغم تفريغها من مهرة الحرفيين والبناء. واتسم ذاك العهد معماريًا بطراز بسيط بعيد عن البهرجة والتنافس في فخامة البناء وتشطيبه ولم يختلف العمران في بساطته عن ذلك من حيث اعتماده على الاحتياج الذي يقابله مدُّ تلقائي تحكمه أعراف البناء والانتقاء الاجتماعي الذي شكّله الظروف السياسية وانصراف الولاة في إدارتهم عن صالح الشعب وانفصال ولاءاتهم عن قلب المجتمع، مما أثر في حركة العمران، وإن كان هناك ارتباط رمزي بين آخر طرح للنيل عام ١٨٣٠م وإعادة الرؤية العمرانية كما لو كان النيل يُهدي مصر آخر قطعة أرض تتوسع عليها ويعلن بدء عهد عمراني تالٍ يستمر إلى ما بين الحربين العالميتين، لتعمير مناطق مخططة يُجذب إليها الأثرىاء لصالح رؤية عمرانية مجددة ومؤسسة لمصر الحديثة.

وفي آخر القرن الثامن عشر سجّلت الحملة الفرنسية خريطة القاهرة في صورة مستطيل كبير حدّه الشرقي من القلعة إلى تلال قطع المرأة في الدُراسة إلى تلال ومقابر باب النصر، وحدّه الغربي خط يكاد يوازي شارع عماد الدين ومحمد فريد من باب الحديد إلى السيدة زينب، وحدّه الشمالي من الحسينية إلى الفجالة وباب البحر، وحدّه الجنوبي من القلعة إلى طولون إلى البغالة (السيدة زينب)، ومن هذا المستطيل الكبير بدأت المدينة تنمو في القرن التاسع عشر، ومقدمات النمو أخذت صورة متكررة من إنشاء قصور للحكام خارج المركز المدني، وأهم الأمثلة: قصر محمد علي بشبرا، وقصر عباس بالعباسية، وقصر القبة، والقصر العالي لإبراهيم باشا بجاردن سيتي(43)، وفي اتجاه تلك القصور كان العمران يمتدُّ مع الطرق الواسعة المتجهة إليها من المدينة. لكن أهم دفعة في النمو المركزي للمدينة بدأ بردم بركة الأزبكية في عهد محمد علي، وإنشاء شارع الموسكي من ميدان العتبة الخضراء إلى الأزهر والحسين، وشق طريق من الأزبكية إلى بولاق، وتحسين شارع الخليج وغيره الذي يقود من الموسكي إلى القلعة، وبدايات إنشاء شارع محمد علي من القلعة إلى العتبة، وفي عهد الخديو إسماعيل تواصلت هذه المجهودات في إنشاء الشوارع الحديثة المستقيمة من محطة القطار في باب الحديد إلى العتبة والأوبرا وقصر عابدين، وإنشاء كوبري قصر النيل عام ١٨٧٢ للوصول إلى القصر الجديد الذي أنشأه إسماعيل في الجزيرة - الذي أصبح فندق عمر خيام الجزيرة ثم فندق ماريوت الآن.(44)

وكذلك كان هناك دفعة جديدة في النمو المركزي، هي تلك التي التزمت بتخطيط منطقة واسعة سُميت الإسماعيلية والتوفيقية، وشملت ما بين بداية ميدان التحرير إلى شارع ٢٦ يوليو شمالًا، ومن جسر قصر النيل غربًا إلى دار الأوبرا شرقًا، وهي الآن "وسط البلد"(45). ارتبط ذلك التوسع بإنشاء جسر قصر النيل كخطوة في سبيل إنشاء طريق رئيس بين عابدين وقصر إسماعيل في الجزيرة. لم يتم ذلك إلا بعد إنشاء كوبري البحر الأعمى (الجلاء) عام ١٨٧٧، وعلى هذا النحو تقدّم العمران المخطط بين باب الحديد وبولاق شمالًا وباب اللوق وميدان الإسماعيلية (التحرير) جنوبًا، متجهًا من المدينة القديمة إلى منطقة عابدين صوب الغرب حتى ضفة النيل، ويمر فيها طريقان رئيسيان: الشمالي: من الأزبكية إلى بولاق (شارع ٢٦ يوليو)، والثاني: من عابدين إلى قصر النيل (شارع التحرير)، وفيما بين باب اللوق والسيدة زينب امتد العمران إلى الغرب أيضًا حتى شارع قصر العيني والقصر العالي (قصر الدوبارة) غربًا، وشارع المبتديان جنوبًا.

وفي هذه المنطقة الجديدة أنشئت عدة قصور للأثرىاء، مثل: قصر إسماعيل باشا المفتش (وزارة المالية) في لاذ أوغلي، وكان لتركز الحُكم بين قصر عابدين والوزارات في لاذ أوغلي أثر كبير على امتداد العمران في منطقة المالية والسيدة زينب وجنوبها إلى البغالة. لكن وجود تلال زينب أوقفت النمو في هذا الاتجاه، ونما العمران بعض الشيء من الحسينية وبركة الرطل قليلًا إلى الشمال صوب منطقة السكاكيني وغمرة والعباسية.

الممالك.. البنائون العظام

كان الممالك بناءين عظامًا، وقد لعب اهتمامهم بالقاهرة دورًا أساسيًا في خلق إرث هائل تشتهر به المدينة، ولأن الطبقة الحاكمة كانت تسيطر على جميع الجوانب المالية والتقنية تطورت بالتالي القاهرة بسرعة كبيرة جدًا، وتحولت إلى مدينة نابضة بالحياة تعكس رغبات وطموحات حاكميها، هذه الرعاية المدهشة منحت العاصمة المصرية بُعدًا مهيبًا جديدًا خاصة مع نموها وتمددّها خارج حدودها(46).

استثمر الممالك في مشروعات كبرى حققوا بها إنجازات غير مسبوقة، ومن المذهل حقًا كم كان اهتمامهم بأدق التفاصيل، كما أن مستويات الإتقان التي وصلت إليها المهارات الحرفية المختلفة بذلك الوقت مبهرة. هذا بالإضافة إلى أنهم تغلبوا أيضًا على تحديات هندسية متعددة.

وبوجه عام، يُنظر إلى فترة حكم الممالك باعتبارها فترة انطلقت فيها بقوة الأفكار والابتكارات التصميمية الإبداعية، كان معمارهم ضخماً، لكنه لم يكن أبداً مرهّباً، فكلما ارتفعت قامته، وقعت أسيراً له، إن معظم معالم وملامح المدينة المتبقية من العصور الوسطى شكلها المعمار الملوكي. وقد لعب اهتمام الممالك بالقاهرة دورًا أساسيًا في خلق هذا الإرث الهائل الذي تشتهر به المدينة. ولأن الطبقة الحاكمة كانت تسيطر مباشرة على جميع الجوانب المالية والتقنية.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن القاهرة الملوكية كانت فعلاً كعبة الإسلام وعاصمته الدينية والعلمية والثقافية وإن لم تكن عاصمته السياسية الوحيدة. فالممالك، الذين بدأوا بداية متعثرة لم يعرفوا فيها كيف يعالجون مسألة شرعية حكمهم بعد قتلهم تورانشاه ابن أستاذهم الصالح نجم الدين أوب في ١٦ محرم عام ٦٤٨ / ٢٠ أبريل ١٢٥٠، تمكنوا وبسرعة من إيقاف المد المغولي الشره والدموي في معركة عين جالوت (٣ سبتمبر ١٢٦٠)، ومن تحجيم الإمارات الصليبية على الساحل الشامي والقضاء على الإمارات الأيوبية في الشام -إلا واحدة في حماة- وضماها إلى أراضي السلطنة، موحدين بذلك مصر وبلاد الشام في ظل نظام عسكري متناسق ودقيق وصارم. وصارت القاهرة في ظل حكمهم عاصمة السلطنة وقلعتها مركز السلطنة ومقر حكمه ومنزل جيشه السلطاني، وتقلص نفوذ المدن السورية التي أصبحت مراكز نيابات للسلطان يُعيّن حكامها من مصر. أنشأ الممالك إدارة مركزية في القاهرة كانت قرارات التعيين والفصل من المناصب لكل الوظائف الإدارية والدينية في أرجاء السلطنة كافة تتخذ فيها(47).

اقتصرت تدخلات الممالك العمرانية في القاهرة في بداية عهدهم على ملء المناطق غير الآهلة ضمن مخطط سور صلاح الدين الكبير بين القاهرة والفسطاط والقلعة، وتخطيطها لتستوعب طائفة جديدة من العسكر الوافدين من مغول وغيرهم، كما حدث في منطقة الحسينية شمال شرقي القاهرة الفاطمية خلال عهد الظاهر بيبرس، أو لتحيط بالقلعة من غربها وجنوبها بزنار سكني آمن، تكوّن معظمه من قصور الأمراء، بما أن شمال القلعة وشرقها كانا محميين بمرتفعات المقطم.

إلا أن استقرار السلطنة وازدهارها في القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، وخصوصاً خلال حكم الناصر محمد بن قلاوون الطويل، أدى إلى توسع المدينة توسعاً لا سابق له، ولن تبلغه لاحقاً بعد انكماشها إلا في نهاية القرن التاسع عشر على عهد الخديو إسماعيل. امتد العمران جنوباً ليصل القاهرة الفاطمية بالفسطاط، وشمالاً خلف الأسوار الفاطمية لتأسيس أحياء جديدة على امتداد الطريق إلى بركة الحاج، وغرباً لابتلاع الأرض التي ظهرت إثر تراجع مجرى نهر النيل الذي تسارع في تلك الفترة وكشف مساحات شاسعة من الأراضي القابلة للتحكير(48).

ورث الممالك مدينة في مرحلة انتقالية، مقسمة بين القاهرة والفسطاط، وتضم مسجدين جامعين: هما جامع الحاكم في الشمال، وجامع عمرو في الجنوب. امتدت التوسعات العمرانية على يد الممالك، الذين لعبوا دوراً محورياً في تطوير المدينة عمرانياً. تضاعفت أعداد المنشآت في الكثير من الأحياء، حتى وصل الحراك العمراني إلى ذروته بحلول منتصف القرن الرابع عشر، خلال الفترة الثالثة للسلطان البحري الناصر محمد حكم من ١٣٠٩ إلى ١٣٤٠، ثم استقرت المدينة لاحقاً في عهد السلاطين الجراكسة، ولم تشهد بعد ذلك تحولات تذكر. وكما يقول المقرئ عن حكم الناصر

محمد، "وكان يحب العمارة، فلم يزل من حين قدم من الكرك إلى أن مات مستمر العمارة، فجاء تقدير مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف درهم. وكان ينفق على العمارة المئة ألف درهم، فإذا رأى فيها ما لا يعجبه هدمها كلها وجدها على ما يختار" (49).

وخلال تلك الأعوام العظيمة، رغم ما صاحبها من عدم استقرار سياسي، توسعت القاهرة حتى غطت مساحة وصلت إلى ٢١ كم^٢، في حين كانت دمشق، ثاني مدن السلطنة المملوكية، تشغل وقتها مساحة ٢٠٧ كم^٢ فقط (50).

عندما وصل المماليك إلى السلطة، لم يكن في القاهرة قلعة واحدة، بل قلعتان: قلعة الجبل وقلعة الروضة، التي بناها السلطان الأيوبي السابع والأخير الصالح نجم الدين (حكم من ١٢٤٠ إلى ١٢٤٩)، حيث ترك قلعة الجبل بسبب الوضع السياسي غير المستقر، ونقل عائلته والمماليك إلى جزيرة الروضة.

ولم يستمر انتقال السلطة إلى قلعة الروضة طويلاً، فبعد وفاة السلطان الصالح وتأسيس السلطنة المملوكية، عادت قلعة الجبل مرة أخرى لتكون هي المقر الرسمي للحكم. ومع ذلك، فإن هذا الانتقال إلى الروضة والذي لم يدم طويلاً ترك بصمة على المدينة. فقد بنى الصالح جسراً عند مدخل الخليج المصري وأمر ببناء مناظر على جبل يشكر -أو قلعة الكيش- غرب مسجد ابن طولون. تزامن في ذلك الوقت ظهور مواقع بناء على ضفاف بركة الفيل (51).

بتعيين القول إن هدم القصور الفاطمية بدأ في عصر الأيوبيين، حيث حُوِّلَت بعض المساحات إلى بيوت للطبقات العليا الجديدة، وأُخِّلِيَتْ قصور أخرى، لإعادة استخدام أرضها في بناء منشآت دينية، وقد بنى صلاح الدين خانقاه وبيمارستان لكنهما اختفيا اليوم، أما السلطان الكامل فقد استكمل بناء مدرسة ورُبِع، على قطعة أرض تضم أجزاء من القصور الغربية، كما قام السلطان الصالح بهدم جزء من القصور الشرقية ليقوم مدرسته، ثم جاءت شجرة الدر واتخذت قراراً جريئاً بإقامة ضريح زوجها المتوفى في موقع مركزي بالمدينة، فهدمت الإيوان المخصص للمذهب المالكي، الواقع على الجزء الشمالي من مدرسة الصالح، وشيِّدت قبة مكانه، كما انتقلت وزوجها المملوكي الجديد، السلطان المعز أيبك، إلى خارج المدينة، حيث كانت الأرض متاحة بوفرة، وبنت مدرستها الجنائزية في مقابر السيدة نفيسة، أما بيبرس فبعد عامين من توليه حكم السلطنة أمر أحفاد العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين، بنقل ملكية ممتلكاتهم كافة داخل القصور الفاطمية وملحقاتها إلى بيت المال، وهكذا تم بشكل شرعي تجريد الأصحاب الشرعيين من أملاكهم، ومنحها للدولة المملوكية، ثم جاء المنصور قلاوون إلى الحكم وهو أحد أعظم بناءة القاهرة، وبعد أربع سنوات من تأمين حكمه أسس في مقابر السيدة نفيسة مدرسة جنائزية لزوجته فاطمة خاتون، ودفن بعد ذلك ابنهما ووريثه الصالح فيها، وبنى قلاوون، في ثلاثة عشر شهراً فقط، مجموعته الجنائزية وهي تمثل أحد أكثر مواقع البناء طموحاً في القاهرة ومثالاً للمعمار المبهر وروعة التصميم ودقة الصنع حتى اليوم.

هدم المماليك قلب القاهرة، وبنوا فوق بقايا ما بناه الفاطميون من أجل إفساح المجال للعهد الجديد. استهدفت التوسعات الرئيسية منطقتين: المنطقة الأولى غرب قناة الخليج المصري، بما أن مجرى النيل تحوّل أكثر نحو الشرق؛ مما أتاح الفرصة لظهور أراضٍ جديدة، ثم المنطقة الثانية الواقعة في المنطقة الوسطى بين القاهرة والفسطاط. فبعد انتقال الحكم مرة أخرى إلى قلعة الجبل، ظهرت أحياء جديدة عند سفح القلعة وحول مسجد ابن طولون (52).

تغيّرت هذه المنطقة بدرجة كبيرة، سواء لأسباب سياسية أو عسكرية، وقد وصفت أبو لغد هذا التوسع بأنه أكبر تحوّل في المدينة (53). فقد امتد الشارع الرئيسي من الشمال إلى الجنوب والمعروف بـ"القصة"، مروراً بخط الصليبية، وربط القاهرة بهذه الأحياء الجديدة، الممتدة من باب زويلة إلى ضريح السيدة نفيسة. هذه الأحياء الجديدة الواقعة خارج أسوار القاهرة تطورت إلى قطاعات كثيفة عمرانياً وسكانياً، وبعد فترة وجيزة، بدأت تنافس الأحياء القديمة داخل السور.

كما خضعت المقابر التاريخية أيضًا لعمليات توسعة وتطوير مكثفة، بدءًا من حدودها الشمالية وصولًا إلى جنوب القلعة، ومن باب القرافة مرورًا بضريح الإمام الشافعي، ووصولًا إلى القرافة الصغرى جنوبًا. هذا الضريح الشهير، بقبته التي تعد أكبر قبة في القاهرة، تم بناؤه بتكليف من السلطان الأيوبي الكامل (حكم من ١٢١٨ إلى ١٢٣٨)، وفي وقت سابق كان صلاح الدين قد بنى للإمام الشافعي مسجدًا. مجمع الإمام الشافعي هذا بُني في منطقة تضم أصلًا مقابر أخرى لصالحين مثل الإمام الليث وسيدي عقبة. في عام ١٢١٧، زار ابن جبير المنطقة وأبدى اقتنانه بمعمارها، ووصف المناطق المحيطة بأنها مدينة قائمة بذاتها بما تشمله من بنية تحتية وخدمات (54).

شكّل الممالك قلب المدينة التاريخي، إذ انطلقوا في عملية بناء كبرى، وأقاموا عددًا من المشروعات الطموحة التي نفّذها بناة مهرة ليتركوا أثرًا يحيي ذكراهم ولكي تثير منشآتهم إعجاب الناس. فقد كانوا يُنشئون مدارس ودورًا للعبادة لنشر صورة للتقوى والفضيلة. وكان هذا الحراك المعماري يحدث لغرض شخصي أو مثل وفاء بنذر قام أحدهم به، إذا نحا من خطر هدد حياته. لكن ذلك لا يجوز أن يمنعا من إدراك أن الممالك كانوا يبنون من أجل تجميل المدينة وتطويرها والحفاظ على مكانتها الشهيرة كعاصمة لسلطنة قوية.

قام الإقطاع وتوظيف الأوقاف والحد من توريث الأبناء بدور كبير في تحفيز الممالك على البنين كوسيلة لنقل الثروة إلى ذريتهم. يعد درب الأحمر (أحد الأحياء المتاخمة لوسط القاهرة الآن) مثالًا يعد إبداعًا مملوكيًا خالصًا بدأ برغبة سلطانية في وصل القاهرة الفاطمية بالقلعة (مقر الحكم) عمرانيًا وبصريًا ومراسميًا (55).

تحوّل شكل الشارع وامتداده على امتداد الفترة المملوكية كلها لكي يستجيب لعمارية المباني المهمة على طرفيه ولكي يبقى المرور سالكًا من المدينة إلى القلعة. وحول الممالك درب الأحمر، كما فعلوا في الشارع الأعظم وفي خط الصليبية، ولاحقًا في درب باب الوزير المؤدي إلى ما عُرف لاحقًا بقرافة الممالك حيث بنى معظم السلاطين والأمراء المتأخرون قبابهم الضريحية، إلى دروبٍ للاستعراض، حيث قدّم معماريوهم أفضل ما لديهم من الابتكارات البصرية والفراغية لإبهار المارة وإبراز عظمتهم وسيطرتهم على المدينة والسلطنة.

امتدت القاهرة في عهد الممالك البحرية صوب الشمال، في الطريق التي رسمها لها صلاح الدين الأيوبي من قبل، فهدموا ما تبقى من القصرين الفاطميين الكبيرين، كذلك لم يتركوا قطعة أرض فضاء، داخل حدود القاهرة، من جنوبيها إلى شماليها، إلا وأقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلّة، ولم تقف في وجوههم الأسوار الشمالية، بل تخطوها وبنوا المساجد الفخمة. واقتفى أثرهم الممالك الشراكسة أو البرجية، فعمرّوا الصحراء وشيّدوا فيها المساجد والأضرحة.

كذلك امتدت القاهرة صوب الغرب والشمال الغربي، فنشأت أرض اللوق وجزيرة الفيل، التي قامت عليهما فيما بعد أحياء بولاق وشبرا وروض الفرج والإسماعيلية وباب اللوق (56).

وحذا الممالك الشراكسة حذو الممالك البحرية في مد حدود القاهرة من ناحية الشمال، وساروا بها شوطًا بعيدًا صوب الشمال الشرقي، وعمرّوا صحراء الريدانية (العباسية)، وامتدت أبنيته مسافاتٍ بعيدة في تلك الصحراء حتى وصلت إلى ما يُعرف الآن بكوبري القبة، حيث شيّد الأمير يشبك الدوادر، أحد أمراء الأشراف قايتباي قبة جميلة بكوبري القبة، وإلى جهة الخانقاه، حيث شيّد الأسرف برسباي جامعًا.

أنشأ الممالك الساحات الواسعة والميادين الكبيرة، ومن هذه الميادين "الميدان الصالحي" الذي أنشأه الصالح نجم الدين أيوب للعب الكرة في أراضي اللوق، وصار يركب إليه ويلعب فيه بالكرة، وما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح إلى أن خسر ماء النيل من تجاهه، وبعد عنه. وأنشأ الملك الظاهر بيبرس "الميدان الظاهري" في طرف أراضي اللوق، وظل يلعب فيه بالكرة هو ومن أتى بعده من ملوك مصر حتى سنة ٧١٤. وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون "ميدان سرياقوس" شرقي ناحية سرياقوس، بالقرب من الخانقاه، واستمر في زيارته ولعب الكرة فيه إلى

أن توفي، فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده. كذلك أنشأ الناصر أيضًا "الميدان الناصري" من جملة أراضي بستان الخشب، فيما بين مدينة مصر والقاهرة. أنشأه للعب الكرة، وكان ركوبه إلى هذا الميدان دائمًا يوم السبت(57).

الشاهد أن العاصمة المملوكية استعادت مجدها القديم الذي كانت عليه أيام المماليك البحرية مع تولي الأشرف قايتباي كرسي السلطنة (حكم من ١٤٦٨ إلى ١٤٩٦)، فقد انطلقت في عهده نهضة عمرانية في العاصمة، وقام عددٌ من أمرائه وكبار الشخصيات بالبناء في المدينة. واختار قايتباي الصحراء لبناء مجموعته الجنائزية، إلا أنه على الجانب الآخر أقام أيضًا مدرسة في قلعة الكبش وأول سبيل وكُتّاب مستقل في شارع الصليبة. وشهد عهده إجراءات تدخلية كبيرة، حيث أمر السلطان بترميم عدد كبير من المباني التي تعود إلى كلتا الفترتين المملوكيتين.

سقط المماليك على يد العثمانيين، بشكل مباغت وعنيف، إلا أن إرثهم ما زال حيًّا حتى اليوم ورعايتهم للعمارة تقرأها معالم راقية صنعوها وتركوها وراءهم.

"أحاديث الجوى" والقاهرة التي اختفت

كتاب "أحاديث الجوى في اقتفاء أثر القاهرة" (دار الرواق، ٢٠٢٤) للباحث الأنثروبولوجي والتاريخي حامد محمد حامد، يجمع بمهارة بين التعمق في تاريخ القاهرة المنسي والأسلوب الأدبي رفيع المستوى.

يتساءل إبراهيم ناجي على لسان أم كلثوم في أغنية "الأطلال":

كيف ذاك الحبُّ أمسى خبراً .. وحديثاً من أحاديث الجوى؟

في هذا الكتاب الذي يقع في ١٩٢ صفحة من القطع المتوسط، نقف على أطلال القاهرة لا لنبيكها، بل لنطمئن أنفسنا أنه حتى لو زالت صروحها وبادت رسومها، فإن الحكايات قادرة دوماً على أن تحييها من جديد، لنراها رأي العين، ولو كانت عين الخيال.

يقول حامد محمد حامد في مفتح في الكتاب:

"دعنا نتفق على أنك لم ترَ أيًا من الأماكن التي سيرد ذكرها في هذا الكتاب من قبل، والمؤسف أنك على الأغلب لن تستطيع أن تراها أبداً!

"فهذا الكتاب يتحدث عن طبقة من طبقات القاهرة لم يعد لها وجودٌ فعلي اليوم. طبقة بادت كوردة جفت أوراقها وتساقطت ولم يبقَ منها سوى بقية من عبقتها القديم ماثلة في بطون الكتب وعلى ألسنة الرواة هنا وهناك" (ص ٧).

تخلص الكاتب من كل قلقه، واضطراب الكتابة، فظهرت سطوره جلية، ومتألقة، وشديدة الإيجاز، تناسب العصر، في الحجم، والتلخيص، ومسار الحدث وتوجيهه، حتى لا يحدث تشتت أو ملل، حتى اللغة هي أجمل ما في الحكايات. قد يبدو متأثراً، بلغة المقرزي وابن إياس، لكنها لغة جذابة، وشائقة، تمتع قارئها وتضيف إليه.

وهنا الاستدعاء، يلعب دوراً كبيراً، فكل مكان له شخصياته، وكل شخصية تستدعي حكاية، حتى تفك شفرة المكان، وما خفي منه.

الكتاب رحلة في دروب القاهرة العامرة، يصحبك فيها المؤلف عبر ٢٦ واقعة تاريخية، منها: كُتيفات وفرصة تغيير العالم، حارة واحدة ويانسان، رحلة أبي ركة من الأندلس للحسينية، معركة الفرخ والفُروج، في الجوزرية سوف ترى، البحث عن صاحب الكبش، ديك الجمالية، لغز السيد الخشاب.

ولعل أول واقعة في الكتاب، وهي تحمل عنوان "عن بهادر وما جرى له" تعطي فكرة عن مضمون هذا الكتاب الممتع، إذ إنه يوضح للقارئ أن "البراح الذي ظننت أنه الأصل في جامع الإمام الحسين لهو حادث طارئ عليه، وأن الجامع الحالي قد التهم -ليصل إلى براحه الحالي- دوراً وخطأ لا يعلمها إلا الله، بل والتمهم قبوراً عامرة بسكانها أيضاً، فالجبرتي يُخبرنا عرضاً أن الأمير علي بك الحسيني توفي في شهر رجب سنة ١٢٠٦ للهجرة بالطاعون، ودُفن بالمشهد الحسيني بمقابر القضاة" (ص ١٣).

يتحدث الباحث عن الموضع الذي كانت تشغله دار سيف الدين بهادر، رأس النوبة، وهي إحدى الوظائف العسكرية المرموقة، التي كان صاحبها يرأس المالك السلطانية كلها، ويُنفذ أوامر السلطان فيهم.

يقول المؤلف:

”وتلك الدار ستصير جزءاً من جامع الإمام الحسين. ومع أن وجوه الأماكن قد تبدلت عبر القرون، إلا أن عنوان دار بهادر المقترض ظل محفوظاً مع ذلك في خطط المقرئزي: درب جُرْجي المقابل للأبارين“ (ص ١٤).

تستدعي دار بهادر واقعة شهيرة، هي اغتيال السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، الذي يقول عنه الذهبي: ”وكان منهمكاً في اللذات لا يعبأ بالتحرز لفرط شجاعته، ولم أحسبه بلغ ثلاثين، ولعل الله -عز وجل- قد عفا عنه وأوجب له الجنة لكثرة جهاده وإنكائه في الكفار!“

كان سيف الدين بهادر أحد الذين شاركوا في اغتيال الأشرف خليل، بل إنه تعامل مع الجثة بوحشية، ومارس طريقة الخوزقة التي أصبحت شائعة بعد ذلك أيام العثمانيين.

بعد واقعة الاغتيال، اختفى بهادر ورفيقه أقوش الموصلي الحاجب حتى يهدأ الحال، إلى أن عثر عليهما زين الدين كتيغا نائب السلطنة، وبعث لهما بالأمان، وأرسل يستدعيهما إلى قلعة الجبل. ”وهناك، لم تكد تقع أعين المماليك الأشرفية -أي ممالك الأشرف خليل- عليهما إلا وقد بادروهما بالهجوم فذبحوهما على الفور دون انتظار أوامر السلطان الطفل الناصر محمد بن قلاوون أو نائبه ومدبر مملكه، قبل أن يُعلّق رأس بهادر على باب بيته، ربما هاهنا موضع جلوسك!“ (ص ١٦).

بعد قطع الرأسين، أُحرِقت الجثتان في ”قمين جير“ كما يذكر ابن تغري بردي، وهي تفصيلة على بساطتها تدعو إلى التمعن.

ومع ذلك، نفهم من المقرئزي أن الجثمانين لم يحترقا تماماً؛ إذ إن رفاتهما قد رُبط من أقدامهما وجُرَّ إلى الكيمان المحيطة بالقاهرة⁵⁸، أي تلال القاذورات والمزابل!

ينتهب المقرئزي الفرصة ليحكى أن بهادر وقت حفر أساس داره وجد قبوراً كثيرة، فنبشها وبعثر عظامها، وحين بلغ الخبر قاضي القضاة تقي الدين بن العيد، أرسل إلى بهادر ينهيه عن نبش القبور ورمي العظام، ويحذره من مغبة ذلك، فأجابه بهادر مستهيناً: ”إذا متُّ يجروا رجلي ويرمونني“، وهو ما كان! (ص ١٧).

يعيد حامد محمد حامد النباش في طبقات المدينة التاريخية بحثاً عن قصصها المنسية. فهو لا يتوقف مع الآثار الباقية عن القرون الخالية، والتي تراها العين مبهورة في شوارع المعزية الآن، بل أنه يميّط اللثام عن الآثار المندثرة التي لم تصل إلينا بسبب عوامل الزمن والبشر.

ففي فصل تحت عنوان ”حكايات من خط الأبارين“ ينقل لنا عن المقرئزي معلومة أن الخلفاء الفاطميين كانوا إذا ما أرادوا أن ينتقلوا من القصر الشرقي الكبير إلى الجامع الأزهر، خرجوا من باب الديلم حيث المشهد الحسيني الآن، وساروا عبر سبع خوخ متتالية كانت تفصل بين باب الديلم ورحبة الجامع الأزهر.

والخوخة هي الباب الصغير، ووصف ”الصغير“ يُقصد به بالمقارنة بأبواب القاهرة مثل باب الفتوح وباب النصر.

أما الخوخ السبع فهي خط مشهور بالقاهرة فيما بين إسطنبول الطارمة والجامع الأزهر، كان يتوصل منه الخلفاء الفاطميون حين يخرجون من باب الديلم الذي هو باب المشهد الحسيني الآن إلى الجامع الأزهر، ولم يكن مسلوكاً للناس، وكان يُعرف بخط الشريف عقيل؛ أخي العزيز بالله الفاطمي، ثم عُرف بعد انقضاء الدولة الفاطمية بخط السبع خوخ؛ ويعرف في زمن المقرئزي بالأبارين؛ حيث أصبح مساكن وسوقاً يباع فيه الإبر والمسلات -وهي الإبر الكبيرة- التي يُخاط بها.

ويحكى لنا الباحث عن بيت في الأبارين ارتبط بالأمير فخر الدين أبان الزاهدي، وأغلب الظن أن أبان هو المنشئ الأول للبيت. أبان الزاهدي، الذي نفهم من اسمه أنه كان أحد ممالك الصالح نجم الدين أيوب، شخصية مجهولة بالنسبة إلينا، وقد آل البيت بعد ذلك بطريقة لا يعلمها إلا

الله للطواشي بشير الجمدار. والأخير هو من أتمَّ رخام مدرسة السلطان حسن بعد اغتيال السلطان (ص ٢٢).

تُخبرنا المصادر أن بشير الجمدار كان تقيًا مستقيمًا، ليس فقط للمنشآت الدينية التي أقامها مثل مدرسته الصغيرة، أو التي تطوَّع لترميمها وإصلاح جدرانها وسقوفها وتبليط أرضيتها وتوسعتها مثل الجامع الأزهر، ولا حتى بسبب الدرس الذي رتبَه في الحرم المكي بحيث تتولى أوقافه الإنفاق عليه.

تُخبرنا المصادر مثلاً عن سعد بن عبد الله الحبشي البشيري، أن سيده بشير الجمدار قد "اعتنى به وعلمه القرآن".

يحدث هذا رغم أن وظيفة الجمدارية في حد ذاتها كانت مثيرة للريبة، فقد امتألت كُتُب الحسبة بالتحذير من تخنث الجمدارية الذين كان يتم اختيارهم عادة من الشباب المرد حسني الهيئة أو من الطواشية -أي الخصيان- والتشديد عليهم في عدم التشبه بالنساء (ص ٢٢).

إلا أن المقرئ يروي لنا أن السلطان حسن بلغه أن مملوكه المقرب يلغا العمري الخاصكي يتآمر عليه ويريد قتله، وأنه يُخفي سلاحه تحت ملابسه وهو في مجلس السلطان. أمر حسن بالقبض على يلغا في حضرته وخلع ثيابه عنه، فلم يُعثر على شيء، فاعتذر له السلطان وطُيَّب خاطره. وخرج يلغا من المجلس وهو يتميز غيظًا.

بعدها بثلاثة أيام، بلغ السلطان حسن أن يلغا قد أظهر العصيان وجَهَّز ممالিকে للقتال، فقرر الناصر حسن أن يباغته، ولكن يلغا عرف بنية السلطان من بشير الجمدار!

وكان ما كان وقُتِلَ السلطان حسن قبل طلوع الشمس.

يرجح المؤلف أنه لو صح أن الجمدار هو من نقل إلى يلغا العمري عزم السلطان على إمساكه، فإن هذا قد يكون بدافع من حُسن النية لا غير، ورغبةً في حقن دم يلغا العمري ورجالته. ويقول حامد محمد حامد: "وغالبًا لم يخطر ببال الجمدار أن وشايته تلك ستتسبب في مقتل السلطان وإخفاء جثته إلى الأبد" (ص ٢٤).

"أحاديث الجوى" كتاب مترابط الفصول، تكاد كل قصة تاريخية تُسلمك إلى ما بعدها، بسلاسة يغبط عليها المؤلف الذي استطاع أن ينسج بأسلوب أدبي بنفس روائي هذا العمل المهم، دون أن يفقد الدقة التاريخية أو أن يحيد عن خط الباحث المتمكن الذي يحترم الوقائع التاريخية، لكنه لا يتوقف عندها بالسرد، بل يشتبك معها محللاً وفاحصاً ومدققاً إذا لزم الأمر. إلا أن حامد محمد يتميز بقدرته على الإمساك بيد حازمة بخيال الروائي، واليد الأخرى تمسك بقدره الباحث المدقق الذي لا يحيد عن دقة الوقائع.

وحين نطالع ما كتبه الباحث تحت عنوان "كُتيفات وفرصة تغيير العالم" نحد العجب العجائب.

معلوم أن الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله قد اغتيل دون أن يعقب ولداً، ولأول مرة في تاريخ الفاطميين غدت الدولة بلا إمام، مما دعا اثنين من كبار غلمان الأمر وهما هزار الملك جومراد والعاذل برغش، لتنصيب الأمير أبي الميمون عبد المجيد، أكبر الأمراء الفاطميين سناً ولياً للعهد، باعتباره "إماماً مستودعاً"، أي أن يتولى الحكم بشكل استثنائي عن الإمام بحكم غيابه. واتخذ عبد المجيد من هزار الملك وزيراً له، ولكن طوائف الجند لم ترضَ بوزارته، فنارت عليه وادت تقتحم القصر الكبير لتقتل به، وشهد ذات المجلس الذي خلع فيه عبد المجيد على هزار الملك خلعة الوزارة، جنود القصر وهم يأخذونه إلى مكان أمين، حيث قتلوه بهدوء، قبل أن يُلقوا برأس الوزير المغدور للجموع الثائرة التي تحاصر القصر، فدامت وزارة هزار الملك نصف يوم من غير تصرف كما يقول المقرئ ⁵⁹.

وبعد ذلك قرروا تنصيب أبي علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، وكان أبو علي هذا -ولقبه كُتَيْفَات- معتقلاً من أيام الأمر، فأخرجهم الجنود من السجن لدار الوزارة (ص ٣٢).

كان كُتَيْفَات وريث أسرة خبرت الأئمة الفاطميين وساست الدولة بحزم منذ أيام جده بدر الجمالي وزير المستنصر؛ لذا كانت قراراته حادة ونافاذة، أمر بالقبض على ولي العهد عبد المجيد واحتجازه في إحدى خزائن القصر، قبل أن يشرع في قلب نظام الدولة الفاطمية.

كان كُتَيْفَات شيعياً إمامي المذهب، وليس إسماعيلياً كالفاطميين، وبدت له اللحظة الراهنة هي المثل لتغيير مذهب الدولة من الإسماعيلية للإمامية الاثني عشرية، ولا سيما أن منصب الإمامة الفاطمي كان شاغراً، فأسقط اسم الحافظ من خطبة الجمعة، وأمر الخطباء أن يجعلوا دعاءهم للإمام المنتظر الاثني عشري، ونقش كُتَيْفَات اسمه على السكة باعتباره نائباً عن الإمام الغائب، وعمل على إضعاف المذهب الإسماعيلي بشتى الطرق. في الوقت نفسه، تقرب إلى الأهالي بتوزيع الغلال عليهم، وأمر برد الظالم والمصادرات إلى أصحابها⁽⁶⁰⁾.

ويقول حامد محمد حامد:

”فلو كان الأفضل قد نحح في مسعاه واستطاع تغيير مذهب الدولة الفاطمية الرسمي، أو على الأقل أبقى على المذهب الإسماعيلي صوراً في أروقة الفاطميين لبا غير، مستلهماً في ذلك تجربة البويهيين الشيعة في بغداد، فلربما غدت القاهرة قبلة ومستقراً لشيعة العالم، ولربما أصبحت مصر في حينها النموذج الأول للدولة الشيعية الإمامية سابقة بذلك الدولة الصفوية بألف سنة كاملة، ولا نبالغ حين نقول إنه لو قُدر لكُتَيْفَات النجاح، لتشيعت مصر بأكملها في وقت وجيز“ (ص ٣٣).

ولكن ما حدث هو أن أبا علي كُتَيْفَات قُتِل وهو يلعب بالكرة بيد غلمان الأمر وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانس، بعد سنة واحدة قضاها كُتَيْفَات في الوزارة، فكفى المصريين مؤونة تغيير العالم الذي نعرفه!

الأديب حاصر في كل صفحة من صفحات ”أحاديث الجوى“، منذ المقدمة البديعة كتابة وفكرة، التي يمزج فيها المؤلف بين أم كلثوم صوت القاهرة الصالح، وهي تشدو بأغنية ”الأطلال“. وبين فكرة الكتاب الذي يسعى لاستعادة الصروح الهاوية في بئر النسيان، وصولاً إلى فصول الكتاب أو نقول قصصه التاريخية. فهنا يستخرج حامد محمد كل الإمكانات الدرامية الهائلة في قصص العابرين في سماء المدينة، وهي قصص حافلة بتناقضات البشر وتلاعبات القدر. هنا حس الأديب يطغى في عملية السرد بشكل مذهش ويجبر القارئ على القراءة المتواصلة وصولاً إلى خط النهاية.

يشرح الباحث المفاهيم والمسميات بسلاسة ومعلومات غزيرة قد تطلعتها لأول مرة، ومن ذلك قوله إن خضر الكردي -الذي كان أول من بشر بتولي الظاهر بيبرس السلطنة- كان ملامتياً!

”واللامتية هي مذهب من مذاهب الزهد ظهر للمرة الأولى في نيسابور، وجوهره لوم النفس باستمرار واتهامها بالتقصير، وعدم الإخلاص لله بدرجة تليق بجنابه. واللامتية ليست طريقة صوفية، ولكنها مذهب في الزهد، فالصوفي من الممكن أن تبدو عليه آثار تصوفه، فيبدي صلاحه أو كراماته مثلاً، أما الاماتي فلا يُظهر كرامة ولا ولاية، وبلا يُظهر أبداً علامة على عبادة زائدة ولا حالاً من أحوال المحبين، ليظل محافظاً على إخلاصه التام لله، فصلاخه وعبادته وتقواه سرُّ بينه وبين خالقه“ (ص ١٣٦).

يرى الملامتي أن مُعاملته مع الله سرُّ بينه وبين ربِّه لا يصحُّ أن يطَّلَع عليه غيره، فهو حريص على كتمان ذلك السرِّ، غيور على محبوبه أن يطَّلَع الخلق على صلته به، فهو يظهر للخلق بآداب العبودية ويحفظ سرِّه مع الله. بل إنَّ الملامتيَّة — خوفاً من أن تنكشف أحوالهم وأسرارهم التي يَضُنُّون بها على الخلق، وخشيةً من أن يتسرَّب الغُرور إلى نفوسهم إذا ظهروا للناس بما يُوجب مدحهم — تَمَدُّوا فعل ما يجلب عليهم من الخلق السُّخط والازدراء ويُرسل ألسنتهم بالذمِّ والتأنيب. وهذا هو لوم الناس إِيَّاهُمْ. ويُشير إلى هذا المعنى قول بعضهم: ”المَلَامَةُ ألا تُظهر خيراً ولا

تُضْمِرُ شَرْأً. وقول الآخر: "وأهل الملامة أظهروا للخلق ما يليقُ بهم من أنواع المعاملات والأخلاق وما هو نتائج الطُّباع، وصانُوا ما للحقِّ عندهم من ودائعهِ المكنونة"^[61].

والى ملامة النفس وملامة الغير تُشير عبارة أبي حفص وقد سئل عن مذهبه فقال: "أهل الملامة قَوْمٌ قاموا مع الحقِّ تعالى على حفظ أوقَاتِهِمْ ومُراعاة أسرارهم فلا مُوا أنفُسَهُمْ على جميع ما أظهروا من أنواع القُرْب والعبادات، وأظهروا للخلق قَبَائِح ما هُم فيه وَكَتَمُوا عنهم مَحَاسِنَهُمْ، فلانهم الخلق على ظواهرهم ولا مُوا أنفُسَهُمْ على ما يَعْرِفُونَهُ من بَوَائِنِهِمْ"^[62].

ويلتقط الكاتب تفاصيل دقيقة، مثل حكاية خزانة البنود.

وبحسب تعليق محمد رمزي على "النجوم الزاهرة" على موقع خزانة البنود، فقد قَدَّر أنها كانت تقع بين قصر الشوق وباب العيد، في المنطقة التي شغلها اليوم البنايات المحصورة بين شارع قصر الشوق من جهة الشمال، وبقيّة الشارع ذاته ودرب القزازين من جهة الشرق، ومن الجنوب عطفة القزازين، وكانت الخزانة ملاصقة للقصر الشرقي^[63]. "وببعض التجاوز، يمكننا القول إن خزانة البنود كانت تشغل المنطقة التي تقع خلف جامع الحسين كلها" (ص ٧٩).

قال ابن عبد الظاهر عن خزانة البنود:

"كانت هذه الخزانة سلاح في الدولة المصرية. فلما كان في سادس صفر سنة إحدى وستين وأربعمئة وهب الإمام المنتصر بالله لسعد الدولة المعروف بسلام عليك حملة من السلاح مما كان بخزانة البنود فأخذ من جملتها ألف وسبعمئة درقة لمطي وغير ذلك من قضيب الذهب والفضة والأسلحة. وفي خلال ذلك وقعت شرارة من نقط الشمع من يد أحد الفراشين فوقعت في أعدال الكتان ومتاع فاحترق واحترقت الخزانة كلها وخاف أهل القصر بل خاف أهل القاهرة من ذلك الحريق.

"ورأيتُ كتاباً ذُكر فيه جملة من الذخائر والمهدايا وشيء من أخبار الدولة المصرية قال: أخبرني عظيم الدولة صاحب الستر أن مبلغ ما كان فيها من الأمتعة والأسلحة والذخائر احترق واحترق ما لا يحصى كثرة. وأن المنفق فيها في كل سنة من سبعين ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار من وقت دخول القائد جوهر إلى مصر وإلى حين الحريق وهو فوق المئة سنة. وأن جميع ذلك احترق في هذه الليلة. ومن جملة ما احترق عشرة آلاف قرابة نفط ومثلها زراقات نفط وعشرة آلاف سيف؛ وبعد ذلك احتيج إلى سيوف فكُشِف ما احترق فوجدوا خزانة السيوف قد سلمت من النار فوجد فيها خمسة عشر ألف سيف مجوهر سوى غيرها.

قال حدّثني الأمير أبو الفضل بن عبد المنعم بن سنان الخفاجي الحلّي أنه شاهد في خزائن السلاح من الدروع والخوذ والتخافيف والسيوف المجوهرة المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الجديدة والصناديق النصول وجعباة السهام الخلنج وصناديق القسي الرماح الزان الخطية وشذات القنا الطوال والزرد والبيض والنبيل مئين ألوف، وأن كل صنف مفرد عشرين ألوف. ثم بعد ذلك صارت حبسًا في الأيام المستنصرية وفيها يقول المذهب بن الزبير لما اعتقل بها وكتب بها إلى الملك الكامل بن شاور"^[64].

الباحث ذو النُفُس النقدي يطل علينا بوضوح بين ثنايا الكتاب. فالمؤلف لا يكتفي هنا بالانضباط في سرد الوقائع التاريخية؛ إذ يعتمد على استنطاق الدراما الداخلية للحدث التاريخي ذاته دون إضافة أي مكسبات درامية أو تخيلية. ويُقدِّم لمحات شديدة الذكاء ومنثورة عبر صفحات الكتاب، يمكن جمعها واستخلاص منهجه التاريخي والكيفية النقدية التي ينظر بها إلى الأحداث والروايات التاريخية. وهي نظرة ذات بُعد نقدي تميل إلى العلوم الاجتماعية، وهو أمر يُكسب الوقائع التاريخية التي يرويها علينا حامد محمد حامد فرادة. فرغم أنها قديمة فإن تناوله لها واستنطاق كل ما تحمله من محاولات تاريخية ذات أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية يجعلها تبدو للمتخصص وغير المتخصص جديدة دوماً. ومن هنا سر الدهشة التي تصاحب قارئ الكتاب.

وربما تسحرك قصة السجال بين الطبيب المصري أبو الحسن بن رضوان بن علي بن جعفر، والطبيب البغدادي ابن بطلان، في أروقة دار الحكمة، حول مدى حرارة الفرخ والفُروخ!

والفرخ هو الزغلول، أي صغير الحمام، أما الفُروخ فهو صغير الديك.

وعبر عدة رسائل متبادلة بينهما، دافع كل واحد منهما عن رأيه بضراوة، مستخدماً البراهين العلمية والمنطقية لإثبات صحة رأيه ونقض رأي خصمه، وفي سبيل ذلك لم يتورعا عن رمي بعضهما بعضاً بالكذب والسفسطة تارة، وبالجهل بقواعد الطب فنونه تارة أخرى، قبل أن يذيع صيت مسألة حرارة الفرخ والفُروخ ويشعل جدل الأطباء حولها الأطباء في مصر وخارجها (ص ٥٢).

يتصدى حامد محمد لعملية صعبة لا تتوقف عند الطبقة السطحية من الرواية المتعلقة بأثر ما في شوارع القاهرة. بل يغزل بمهارة بين أخبار تاريخية من عصور متفرقة لكتابة بطاقة هوية للمكان عبر فترات من التحول التاريخي، منذ لحظة ميلاد الأثر ثم ازدهاره وصولاً إلى لحظة اندثاره. فلا تنسى أنك تقرأ عن الأطلال الدائرة التي غاب رسمها وأن حفظت لنا كتب التاريخ اسمها. ربما يُعبّر عن هذا المنهج الفصل المعنون بـ "كتيفات وفرصة تغيير العالم". فالفصل يبدأ من أحد جوامع القاهرة الكبيرة من العصر المملوكي الذي لا علاقة مباشرة تجمعهم بكتيفات رجل الدولة الفاطمي، لكن القصة تعيد ربط المتناثر عبر صفحات التاريخ ليعاد حكاية تاريخ القاهرة بشكل مركب.

روح الناقد التاريخي حاضرة بين صفحات الكتاب، فنرى حامد محمد حامد يلجأ إلى حيلة بث أفكاره التي لا يريد لها أن تصدم القارئ فيمررها بين سطور الحكايات، لكنه يُنبه إلى أخطاء في القراءة التاريخية تستحق التنبيه. فهو يحذر مثلاً من أن "نُسِط ما نراه حولنا اليوم على الماضي فنصل بدون وعي إلى قناعات مغلوطة عن التاريخ والأماكن". فهنا يريد منا حامد محمد حامد أن نقف أمام كل أثر في القاهرة العامرة ونبحر في التاريخ المركب الذي يختفي خلف الأحجار والنقوش، لنكون صورة أعمق وأشمل عن طبقات المدينة التاريخية التي بنيت فوق بعضها البعض بحسب تغير الدول والعصور وأحوال العباد.

يُشكّل الكتاب إجابة واقعية وشديدة النجاح والتميز والذكاء حول مستقبل الكتابة التاريخية الموجهة للقارئ المتخصص والعالم. فهنا يُقدّم حامد محمد حامد توليفة لا تتنازل عن دقة المعلومات التاريخية التي يتذرع بها البعض من أجل تقديم كتابة أكاديمية جامدة، لكنه يزيد عليها بالنفس القصصي الذي يُقدّم هذا الكم من الأخبار والمعلومات التاريخية. بأسلوب شديد التشويق يشد القارئ ويجذبه بسلاسة لقراءة المكتوب بل وعدم التوقف عنده؛ إذ يتخذ مقدمة لمزيد من القراءة والإبحار في الكتب التاريخية، شريطة أن تكون مكتوبة بهذا الأسلوب الذي يكسر جمود السرد التقليدي القائم على جمع المادة التاريخية. ووضعها بجوار بعضها دون حبكة ولا تحليل ولا قدرة على التخيل. وهذه كلها مزالق عبرها صاحب "أحاديث الجوى" بمهارة.

"آولاد الناس".. فيه زمن الممالك

تمتعت مصر والشام بين دول العصور الوسطى في الشرق والغرب بمكانة مرموقة خلال عصر سلاطين الممالك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧ م). ومع ما شكّلته هذه الدولة من بناء سياسي كبير، إلا أنها اشتملت على بناء اجتماعي متباين وطبقات شعب متعددة شغل السلطان المملوكي والأمراء الممالك الطبقة العليا فيها، ثم تبعهم بقية طبقات الشعب المصري، وكان طبيعياً أن يحتل هؤلاء الممالك أعلى وظائف الدولة، أما حياتهم الاجتماعية فقد كانوا منعزلين نسبياً عن المجتمع الذي حكموه وظلوا لفترة طويلة ومنذ نشأتهم لا يشاركون في الحياة الاجتماعية المصرية إلا من خلال الموكب السلطانية والأعياد الدينية والاحتفالات، ومنذ عصر السلطان الظاهر برقوق بدأ الممالك ينزلون من طبقات القلعة ويسكنون القاهرة ويتزوجون من المصريات(65).

أما أبناء الممالك الذين وُلدوا في مصر ولم يمسهم الرق ولم يُجلبوا إليها مع النخاسين، فقد عُرفوا في مصطلح ذلك العصر باسم "أولاد الناس" (66)، وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من الأمراء الممالك، فهم فئة خرجت من قلب طبقة الممالك لتصبح فئة من فئات الشعب المصري في العصر المملوكي.

كانت هذه الطبقة إحدى لبنات البناء الاجتماعي في عصر سلاطين الممالك -لا سيما في المجتمع المصري- وإن كانت قد عُرفت أيضاً في المجتمعات الشامية؛ وكانت قريبة من طبقة الحكام، وإن لم تكن منها، أو مرتبطة على نحو ما بأصولهم الاجتماعية والعرقية. الأهم من هذا وذاك أن هذه الطبقة التي عُرفت إجمالاً بأنهم طبقة "أولاد الناس" التي كانت مصطلحاً اجتماعياً بالغ الدلالة ينطبق على قطاع عريض من الطبقة التي ارتبطت اجتماعياً باسم أولاد الحكام والأمراء الذين احتكروا مناصب السلطة ووظائفها؛ ولكنهم توزعوا ما بين وظائف الدولة، ووظائف المجتمع التي تولوها في شتى القطاعات والاتجاهات.

بيد أن أهم ما يتعلق بمصطلح "أولاد الناس" أنه كان مصطلحاً يتحدث عن فئة ذات وضع اجتماعي ممتاز، سواء على مستوى الدور الذي تقوم به اجتماعياً، أو على مستوى الوظائف المنوطة بها وظيفياً في وظائف الدولة المتنوعة اجتماعياً، ودينياً، واجتماعياً، وتعليمياً.

ونحن نرى من خلال المزيد من التأمل في مدلولات مصطلح "أولاد الناس" أنه لم يكن مصطلحاً محدد الدور الوظيفي والاجتماعي، كما أنه لم يكن قاصراً على دور أو وظيفة محددة، وإنما كان مفتوحاً بقدر ما قيض للمجتمع نفسه وأفراده من فرص واتجاهات(67).

تؤكد الحقائق أن الممالك لم تكن لهم تلك الحياة الأسرية التي نعرفها بأن الأسرة هي كيان من كيانات المجتمع ولبنة من لبنات ذلك البناء الاجتماعي، بل اعتمد وجودهم في الأساس على قوتهم الذاتية، فقد كان لكل أمير من أمرائهم عالمه الخاص. يتجلى ذلك مثلاً في الممالك الذين يتبعونه فهم سنده وعدته وعناده في نفس الوقت استعداداً منه وتحسباً لأي صراع قد ينشأ مستقبلاً بينه وبين غيره من الأمراء، ومن هنا كان الأمراء يبذلون قصارى جهودهم في سبيل العناية بمماليكهم ورعايتهم التامة على أكمل وجه، لدرجة أن الأمير قد لا يتناول طعامه دون دعوة مماليكه معه، وكان يغضب ممن لا يأكل عنده منهم.

من هنا نحد أن بعض الممالك لم يكن لديهم الوقت الكافي لرعاية أبنائهم، فينشأ هؤلاء الأبناء بين الحریم بعيدين تماماً عن الأجواء التي يعيش فيها الآباء، وكان هناك تعبير دارج يطلق على أصحاب هذه النشأة وهو يدل على أنهم تربوا في "حجور النساء".

وإذا كان الممالك عاشوا غرباً عن المجتمع المصري، فإن "أولاد الناس" اتصلوا بجموع الشعب واندمجوا فيه، فقد شاركوا في حياته ومارسوا أنشطته المختلفة من اتجاههم للعلم والانشغال ببعض الحرف والصناعات اليدوية(68)، حتى ذابوا في الشعب المصري. تميز من أبناء هذه الطبقة بعض من ظهوروا وبرزوا بمؤلفاتهم في مجال التاريخ والتراجم، ومنهم على سبيل المثال:

- ابن أبيك الدودار "أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدوداري"، وهو صاحب كتاب "الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية" وهو الجزء الثامن من حوليته "كنز الدرر وجامع الغرر"، وكتاب "الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر" وهو الجزء التاسع من كتاب "كنز الدرر وجامع الغرر".
- خليل بن شاهين الظاهري "غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري" - ت ٨٢٧هـ - وهو صاحب كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" - طبع في باريس عام ١٨٩٤م.
- صارم الدين بن دقماق "صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العملائي" - ت ٨٠٩ هـ - وهو صاحب كتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" نشر جزئيه الرابع والخامس "قولر" مطبعة بولاق ١٣١٤هـ.
- ابن تغري بردي "جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي" - ت ٨٧٤هـ - وهو صاحب كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" - ١٦ جزءاً - وكتاب "منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور" - أربعة أجزاء.
- ابن إياس "أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصري" - ت ٩٣٠هـ - صاحب كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" وكتاب "نشق الأزهار في روض المعطار".
- بيد أننا يجب أن نشير إلى أن "أولاد الناس" قد شاركوا في الحياة السياسية سواء من خلال مناصرة السلاطين ضد الثارين عليهم أو تأمرهم على السلاطين والمشاركة في خلعهم، ويرجع ذلك إلى تولي فريق منهم مناصب عسكرية مهمة ولجوء الدولة إليهم في بعض الأوقات لصد غارات العربان (69). وكما شارك "أولاد الناس" في حفظ الأمن والنظام العام، والتصدى لغارات الصليبيين، فإنهم تزعموا بعض الفتن والقلاقل ضد السلاطين من أجل أن تكون لهم السلطنة، ففي حوادث سنة ٥٢٤هـ عندما قاد الأمير رمضان مؤامرة ضد أخيه السلطان الصالح إسماعيل، واستغل الأمير رمضان خروج السلطان الصالح إلى سرياقوس، فتأخر الأمير رمضان بالقلعة وتحدث مع طائفة المماليك في إقامته سلطاناً (70). واضطر السلطان الصالح -رغم مرضه- إلى استنهاض قواه والخروج لمقاتلة الأمير رمضان وتفريق جمعه قبل القبض عليه.
- أما عن كيفية تمضية "أولاد الناس" لأوقاتهم، فقد كانوا يقضونها في ممارسة بعض الألعاب والرياضات كالفرسية ولعب الكرة ورمي الرمح والنشاب وما إلى ذلك، أو يبدؤون في الاختلاف إلى مجالس العلم كما كان بعضهم ينضم إلى الحلقة ليكون من جنود الجيش المملوكي.
- وكانت لتلك الثروات التي يرثونها عن ذويهم أو الإقطاعات التي كان السلاطين يمنحونها لهم تكفل لهم العيش في رغد وهناء وحياة متنعمة، ويمكن القول بأنهم من الطبقة الحاكمة وإن عاشوا على الهامش منها.
- ولكن ليست الحياة هي الرغد والدعة والهناء فقط، فقد حدث أن تعرض "أولاد الناس" لعدة متاعب في خلال الفترات التي كانت دولة المماليك تعاني تدهوراً أو اضمحلالاً، ولما لم يستطع السلطان قايتباي في سنة ٨٧٣هـ يستطع الإنفاق على أصحاب الجوامك (71) منهم فقد عزم على اختبارهم بنفسه لإرسالهم في إحدى الحملات أو مطالبتهم ببذل نقدي، فامتنع البعض منهم وادعى على حد قولهم بأن "غالبيتهم ما يملك عشاء، ولا فرساً يركبه، ولا بدلة يلبسها ثانية غير ما هو لابس إن لم يكن استعاره" (72). ورمى البعض منهم بـ "جامكيته" أي تنازل عن مكانته ووظيفته ولم يقبلوا من قايتباي ذلك.
- ومما تجدر الإشارة إليه أن عصري الناصر حسن (سلطته الأولى والثانية) والأشرف شعبان، يعدان عصرين ذهبيين لأبناء هذه الطبقة، حيث تم ترقية عدد لا بأس به منهم في الإمارات المختلفة والمناصب الإدارية.
- يبقى القول إن "أولاد الناس" بمشاركتهم المجتمع أفراده وأتراحه، من احتفالات زواج وميلاد وختان ومآتم وأحزان، والظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي أحاطت بهم، جعلتهم أقرب طوائف المماليك إلى الشعب المصري وأكثرهم ارتباطاً به وإحساساً بمشكلاته

مقياس النيل.. بين حلوان والروضة

اهتم حكام مصر وأهلها منذ أقدم العصور بقياس ارتفاع الزيادة المتدرجة لنهر النيل في فترة الفيضان السنوي.

فقد ظل النيل لقرون يهجر مجراه الشرقي في اتجاه الغرب، ويترك جزراً متعددة نمت ثم اختفت بالالتحام بالشاطئ مثل جزيرة الفيل (شبرا) وجزيرة بولاق، أو بالتحام جزيرتي حلیمية وأروى في جزيرة واحدة هي جزيرة الزمالك الحالية بعد تعميق مسار البحر الأعلى بينها وبين الجزيرة. أما جزيرة الروضة فقد ظلت ثابتة في مكانها مع بعض تغيرات في سواحلها الغربية، وهو ما يثير تساؤلات جيومورفولوجية وهيدرولوجية حول أشكال واتجاهات النحت والإرساب النهري لتفسير هذا الثبات النسبي لجزيرة الروضة مع حدوث تغيرات كثيرة في الجزر القريبة منها. ولكن يبدو أن للإنسان يدًا في ذلك؛ ففي العهد الأيوبي قام الملك الصالح بحفر وتوسيع مجرى سيالة الروضة بعد أن كادت أن تنسد وتلتحم بشاطئ الفسطاط ودير النحاس، وذلك لسببين؛ أولهما: أن انسداد السيالة أو ضيقها وقلة عمقها نتيجة الإطماء سوف يقضي على مصدر مياه الخليج المصري الذي كان مأخذه من هذه السيالة، وفعلًا اشتكى الناس كثيرًا من قلة جريان الماء في الخليج وتوقفه تمامًا وقت التحاريق، والسبب الثاني: أن الملك الصالح كان قد أنشأ في جزيرة الروضة قصرًا جعله مقرًا له بدلًا من المقر الرسمي في القلعة، وبنى حصونًا ومعسكرات كبيرة لماليكه الذين أسسوا فيما بعد سلطنة المماليك البحرية؛ نسبةً إلى سكنهم جزيرة الروضة. وقد تلا ذلك حركة تعمير من قبل السكان في الروضة. وأراد الملك الصالح بأن يُبقي على الجزيرة كأحد أسباب الدفاع عن مقر الحكم في تلك الفترة، وكوسيلة إضافية أغرق الملك عدة مراكب عند الرأس الجنوبي للجزيرة أمام شاطئ الفسطاط عند باب القنطرة بحيث يضمن تحول جانب لا بأس به من مياه النيل إلى سيالة الروضة لرفع منسوب المياه فيها(73).

في العصر الأموي أنشأ عبد العزيز بن مروان والي مصر مقياسًا للنيل في حلوان، لكن هذا المقياس تهدم بعد بنائه بأعوام قليلة في عام ٧٩٦هـ/ ٧١٤م، وسار أسامة بن زيد التتوخي بالكتابة إلى الخليفة بهذا الأمر، فأمره بتشييد مقياس آخر في الجزيرة الواقعة في وسط النيل بين رافد الفسطاط ورافد الجيزة الكائن في جزيرة الروضة، وكان ذلك في عام ٩٧هـ/ ٦١٧م، في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، ويعد من أكبر مقاييس النيل.

ويُعرف هذا المقياس الشهير بصفة خاصة باسم "مقياس"، وبدأ العمل في إنشائه في السنة المذكورة، وتم الانتهاء منه في أقل من عام واحد. وعمر هذا المقياس طويلاً، حتى إن عمود مقياس النيل الموجود في وسط هذا البناء هو نفسه الذي أقامه أسامة بن زيد(74).

وفي العصر العباسي ظل المقياس على حاله حتى عصر الخليفة المأمون، حيث أصدر أمره بإعادة بناء مقياس الروضة من جديد في عام ١٩٩هـ/ ٨١٤م، بعد أن تهدم نصفه لعدم العناية به، ثم أعاد المتوكل بناء المقياس من أخرى في حوالي عام ٢٢٣هـ/ ٨٤٧م، وأسموه "المقياس الجديد"، وأعيد إصلاح هذا المقياس للمرة الثانية في عهد المتوكل كذلك في حوالي عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١م؛ أي بعد نحو ١٥٠ عامًا من بنائه الأول في العصر الأموي. وتم في هذه المرة رفع عمود مقياس النيل بعارضة دعم استندت على الجدارين الشرقي والغربي للحوض، وذلك حتى لا ينهدم العمود(75).

في عهد أحمد بن طولون، أمر بإصلاح المقياس في عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، وقدر له ألف دينار فُعْمِر. أما في العصر الفاطمي، فقد أجرى الخليفة المستنصر عدة إصلاحات في المقياس قبل عامين من وفاته؛ أي عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، وأضفت هذه الإصلاحات على المقياس شكلًا جديدًا ظل لقرون، ثم أضاف إليه مسجدًا(76).

وتذكر المصادر في هذه الإصلاحات ما نصه :

"ثم جددوا للماء مقياسًا عند حلوان... وهذا المقياس الآن عاشر مقياس بُني للنيل المبارك.. لهذا المقياس عمود في وسط فسقية مقسوم بأصابع مقدرة على أذرع"(77).

ولا تكاد تعثر في المصادر والمراجع المتاحة على أخبار عن النيل وفيضانه وتحاريقه في عصر سلاطين المماليك سوى ما ذُكر عن الملك الأشرف قايتباي الذي توجه إلى المقياس، ودخل إلى قاعدته، وأمر بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه، وذلك في ربيع الآخر عام ٨٨٦ هـ/ يونيو ١٤٨١ م (78).

في المقابل، حظي مقياس النيل باهتمام الإدارة العثمانية في مصر، وهو ما يتضح من وثائق الديوان العالي وكتابات الرحالة خاصة؛ حيث يُستدل منها على وصفٍ دقيق له في ذلك العصر، يستفاد منه أن عمود المقياس كان موضع اهتمام الجميع سواء الإدارة أو الأهالي. وهو عمود محدد بأذرع يقع في جزيرة الروضة، التي تتحول إلى جزيرة عند الفيضان وتقع في جزء صغير من النيل قرب مصر القديمة. ويقع هذا المقياس قرب جامع القياس في وسط غرفة مغلقة، ويدخل الحجرة مجرى مائي يمر تحت الأرض مقتبل شاطئ النيل، وعندما تبدأ المياه في الارتفاع تدخل الممر، حيث يقوم الأشخاص المكلفون من الباشا بمراقبة ارتفاعها، وينادون في المدينة بهذا الخبر السعيد (79)، ويجري إبلاغ القناصل الأجانب والشخصيات المهمة في القاهرة.

نال المقياس في العصر العثماني احترامًا كبيرًا، لدرجة أن الإدارة العثمانية في مصر -ممثلة في الباشا ومعاونيه- كانت تعتبره من المقدسات، ولا تتهاون في توقيع أقصى العقوبة على كل من تسول له نفسه المس به، وفي حالة التجاز تصدر البيورلدات (80) باللغتين العربية والعثمانية التي تنص على إنزال أشد أنواع العقاب على كل من تسول له نفسه تدنيس الأماكن المحيطة به من شرب خمر أو زنا أو ما شابه ذلك، وأطلقت الوثائق على المقياس لفظ "المقياس الشريف" (81).

ولم تشر المصادر إلى الإصلاحات التي أجريت على المقياس خلال العصر العثماني إلا فيما ندر، ومنها الإصلاحات في أجراها والي مصر حمزة باشا عام ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٦ م، حيث أمر بإحلال دعامة جديدة مكان الدعامة القديمة، ونقل النصوص الكوفية القديمة التي ترجع لعصر المتوكل العباسي بحروف أخرى زينت كل جوانب الدعامة الجديدة مع الاحتفاظ بالتاريخ القديم لهذه النصوص (82).

ورغم سطوة البكوات المماليك ونفوذهم إبان العصر العثماني، فإنهم لم يعطوا المقياس الاهتمام الذي يستحقه؛ وإن قاموا من وقت لآخر ببعض الإصلاحات الضرورية وأعمال الصيانة.

في المقابل، نال المقياس قدرًا كبيرًا من عناية الفرنسيين أثناء احتلالهم مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١)، وسعى مهندسو الطرق والكباري الفرنسيون إلى التعرف على حالة المقياس والتأكد من احتفاظه بالدرجات المسجلة عليه لمعرفة معدل فيضان النيل؛ لذا بدأوا في قياس الارتفاع الحقيقي للعمود وتقسيمه إلى أذرع، وقد اختلف على ذلك الكتّاب والرحالة وحتى الأهالي أنفسهم، ثم طهروا الحوض بدءًا من أساساته، فهو المكان الذي يتوسطه عمود المقياس، وتمت هذه العملية في حضور الشيخ مصطفى قاضي المقياس وسقا باشي (رئيس السقايين) عندئذٍ ظهر التقسيم الأول السفلي للعمود. كما رُم الفرنسيون محيط البئر والرواق الذي يحيط بالحوض، ووضعت حواجز خشبية جديدة بين الأعمدة الموجود على جوانب الحوض، وأنشئت غرفتان مجاورتان لهذا الرواق لخدمة شيخ المقياس، وأضيف رواق خارجي في مدخل المبنى، ووضع لوح من الرخام الأبيض أعلى الباب الخارجي وأسفل هذا الرواق، نُقشت عليه كتابة باللغتين العربية والفرنسية تشير إلى تاريخ الإصلاحات الجديدة، وتسجل حالة النيل في هذا العام سواء في انخفاضه أو فيضانه الكبير (83).

ويصف الجبرتي الإصلاحات التي أجراها الفرنسيون فيقول:

"فإن الفرنسيون لما غيروا معالم المقياس رفعوا الخشبة المركبة على العمود، وزادوا فوق العمود قطعة رخام مربعة مهندمة، وجعلوا ارتفاعها مقدار ذراع مقسوم بأربعة وعشرين قيراطًا، وركبوا عليها الخشبة" (84).

إصلاح ما خربه الفرنسيين!

تعرّضت القاهرة لحالة تخريب وحرق وتهديم للمباني في مطلع القرن التاسع عشر -سواء أثناء وجود الحملة الفرنسية أو أثناء خروجها من مصر، أو من جانب فتن الجنود بعد عودة مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية- وأصاب حي بولاق كثيرٌ من الدمار، كما تعرّضت خططُ بأكملها للتدمير في عام ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م -أي في عهد قيادة مينو للحملة الفرنسية- مثل خط الحسينية، والخروي "في مصر القديمة"، وبركة جناق (وكانت تُعرف ببركة درب عجور بباب الشعرية)، وبركة الفيل. وقد كشفوا سور القاهرة القديم، من باب النصر إلى باب الحديد. كما تعرّضت المساطب في أحياء بأكملها للهدم كالصليبة، وقناطر السباع، ودرب الجماميز، ودرب سعادة، وباب الخرق فيما يليه إلى باب الشعرية. وتم قطع الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة في القاهرة، وبولاق، وقصر العيني، والروضة، ومصر القديمة وخارج الحسينية، وبركة الرطلي، وأرض الطبالة، وبساتين الخليج (85).

دفع هذا الوضع محمد علي وأسرته ورجال دولته إلى تعمير مباني القاهرة وإصلاحها. حرص أبناء محمد علي ورجال دولته على تعمير عدة مناطق غرب القاهرة وجنوبها ومنطقة بولاق والزمالك، ونشأ في عهد حي شبرا وروض الفرج، وأخذ سليمان أغا السلحدار وحسين بيك الشماشجي من رجال محمد علي مناطق الجمالية والدرب الأحمر (86).

وتقول المراجع التاريخية إن إبراهيم باشا أمر أثناء وجوده في اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٨) بإزالة الكيمان الموجودة بين القصر العالي (منطقة جاردن سيتي) والقاهرة المعروفة بتل العقارب ومساحتها حوالي ثلاثة أفدنة، فأزيلت في ٣٩٣ يوماً، كما أزيلت التلال الواقعة فيما بين الناصرية والقصر العالي ومساحتها ٣٨ فداناً وغرس بها أشجار الزيتون، وانتهى العمل في شعبان ١٢٤٥ هـ / يناير ١٨٣٠ (87).

كانت جزيرة الروضة أيضاً من نصيب إبراهيم باشا فبنى فيها قصرًا من الجهة الشمالية أمام القصر العالي ومدرسة القصر العيني وفم الخليج، عُرف بقصر المغارة لأنه بنى فيه مغارة وروص حيطانها بالقواقع الملونة بأشكال مختلفة، وذكر كلوت بك أنه قسّم حديقة هذا القصر إلى قسمين، أحدهما على الطراز الإنكليزي والآخر على الطراز الفرنسي، وجمع فيها نباتات أوروبية وأميركية وهندية (88).

كما بنى ولي أفندي قصرًا على شاطئ النيل أمام السواقي السبع سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م وألحق به بستانًا، واستخدم في بنائه أنقاض المباني التي هدمها في مصر القديمة -ربما كان ينقل أنقاض قصر محمد بك الأفلي الذي كان بشاطئ النيل أمام المقياس (89)- ومات قبل إتمامه سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م، وأتمه شريف بك -شريف باشا الكبير زوج ابنته- الذي تولى مناصبه، ثم أعد هذا القصر لينزل به إبراهيم باشا ابن محمد علي عند وصوله من الحجاز بعد انتصاره على الوهابيين سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م، وبني كوبري يصل بين مصر القديمة والروضة لسهولة المرور إلى القصر (90)، وكان موقعه فيما بين كوبري الملك الصالح وشارع النيل من الجهة الشمالية ممتدًا إلى الكوبري الذي أمام مجرى عيون فم الخليج.

بنى إبراهيم باشا كذلك إلى الشمال من العباسية في طريق الخانقاه، بجوار قبة الأمير يشبك من مهدي الدوادار ما يُعرف بقصر القبة وغرس إلى الشمال منه بستانًا، ثم آل من بعده إلى ابنه مصطفى باشا (91).

من جهته، زار الخديو إسماعيل باريس في عام ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م وشاهد التخطيط الجديد لباريس الذي وضعه المهندس هاوسمان، الذي ذاع صيته في أنحاء أوروبا في ذلك الوقت، وقابل هذا المهندس وطلب منه وضع تخطيط جديد لمدينة القاهرة، كما قابل بيير غران -الذي أصبح من كبار مهندسي القاهرة فيما بعد- والمهندس جان بيير بارليه- ديشان الذي أنشأ غابة بولونيا في باريس، واتفق معه على وضع تخطيط جديد لحديقة الأزبكية (92)، ثم بدأ إسماعيل في تنفيذ خطته لإعادة تخطيط مدينة القاهرة في سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م، حيث أصدر أمرًا في ٢٤ محرم / ٦ مايو لنظارة الأشغال لإعداد المقاسات اللازمة لفتح بعض الشوارع وإنارتها ومد المناطق المحيطة بها بالمياه (93).

أراد إسماعيل أن يجعل من مصر قطعة من أوروبا، كما أراد التخلص من البرك التي تفصل القاهرة عن النيل وتسبب انتشار الأمراض مثل الملاريا(94)، فأمر بتعديل الشوارع وتوسيعها في المدن عمومًا ليدخل الهواء والشمس إلى المنازل لجلب الصحة(95). وقد تكلف شراء الأراضي في القاهرة والإسكندرية لإنجاز هذه المشروعات مبلغ ١٠,٣٩٠,١٩٥ جنيهًا(96).

بدأ إسماعيل بدم الطرق الطويلة المستقيمة، ولم يكن يوجد في القاهرة سوى شارع واحد طويل، هو شارع الحسينية. ومن الشوارع التي أنشأها شارع الفجالة الجديد، وشارع كلوت بك، وشارع محمد علي (القلعة حاليًا)، وشارع عبد العزيز (الذي سُمي كذلك تخليدًا لزيارة السلطان عبد العزيز لمصر في عهد إسماعيل)، وشارع عابدين، وبها سهل الانتقال من أقصى المدينة إلى أقصاه، في وقت قليل، وبجهد ضئيل.

وأنشأ إسماعيل أحياء جديدة مثل الإسماعيلية، والتوفيقية، وعابدين، وميدان الأوبرا، ونم جهات الجزيرة والجزيرة، وأنا حديقة الجيزة، وروم بركة الرطلي وأنشأ بها الشوارع المستقيمة، وأصلح ميدان الرميّة، الواقع بجانب القلعة، ووسعه، وغرس به الأشجار، وأوصله بشارع محمد علي، فصار من أفسح ميادين القاهرة. وأنشأ في عام ١٨٦٩ الطريق المُعبّد بين القاهرة والأهرام، ورصفه بالأحجار. كما اهتم بضاحية حلوان الحمامات، لما تبيّن من جفاف هوائها ومزايا مياهها الكبريتية، وأدخل الإنارة بغاز الاستصباح، فأضيئت شوارع القاهرة، واهتم بتوزيع المياه بالأنابيب في عام ١٨٦٥ (97).

نظم الخديو إسماعيل منطقة غرب القاهرة الممتدة من الخليج المصري (شارع بورسعيد الحالي) إلى شاطئ النيل في بداية حكمه وسماها "الإسماعيلية"، وكان يود تنظيم ما بقي من القاهرة بنفس الأسلوب لتكون شوارع المدينة صالحة لمجابهة التوسع التجاري والاقتصادي وكثرة عربات الركوب وعربات نقل البضائع(98)، وصدرت أوامره لديوان الأشغال بذلك، وصممت المشروعات حسب أوامره.

ويصف علي باشا مبارك هذه المرحلة بقوله: "وأن يعمل له قانون يأتي على المرام، وكان قبل ذلك رسم القاهرة محوّلًا على فرقة من المهندسين تحت رئاسة المرحوم محمود باشا الفلكي، فرسموها على ما كانت عليه، وبناء على هذا الرسم كتبت الإشارات فوقه بعمل هذه التنظيمات الموجودة بالمدينة المشاهدة الآن مثل شارع محمد علي وميدانه وشوارع الأزبكية وميدانها وما بعابدين من الشوارع ونحوها وباب اللوق وغير ذلك مما هو بداخل المدينة وخارجها، وجرى العمل على ذلك، فظهرت كل هذه المباني الحسنة والشوارع المستقيمة المحفوفة بالأشجار الخضرة النظرة المستوحية للقادمين على المدينة انشراح الصدور والفرح والسرور، وأزيل ما كان يجهتها البحرية من التلال التي كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح، ثم تبرع الخديو إسماعيل باشا على الراغبين بمواقع كثيرة، فأنشأ بها المباني المشيدة والبساتين العديدة، وناهيك بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها التي يكل الوصف عن محاسن بهجتها"(99).

أصدر إسماعيل عدة أوامر لتنظيم العمل في تطوير مدينة القاهرة وباقي المدن المصرية فأصدر في ٥ شعبان ١٢٨٤هـ / ٢ ديسمبر ١٨٦٩م أمرًا بتشكيل مجلس بلدي، حدد فيه إيرادات مدينة القاهرة ومصروفاتها من نظارة المالية. كما أسند إدارة المدينة إلى هذا المجلس ليعمل على تنظيمها ويكون له الحق في تنظيم ميزانيتها وصرف ما يراه مناسبًا للأعمال النافعة بها، شأنه في ذلك شأن المجالس البلدية في البلاد الأخرى(100). أصدر كذلك أمرًا في ١٤ محرم سنة ١٢٨٦هـ / ٢٧ أبريل ١٨٦٩م لرئيس القومسيون الخصوصي باختصاصات هذا المجلس. ومنها فرض ضرائب حسب الحاجة لتوفير ما يلزم من متطلبات المجلس.

تمكّن إسماعيل من إنشاء الحدائق والمسارح والقصور مثل دار الأوبرا وحديقة الأزبكية وقصر عابدين، ووهب أراضي لرجال دولته فبنوا عليها قصورًا على الطرز الأوروبية، وربط القاهرة الجديدة بالقديمّة بفتح شارع محمد علي وأنم فتح شارع السكة الجديدة، ومد خط سكة حديد بين ميدان القلعة وضاحية حلوان، فترك إنجازات معمارية وعمرانية ما زالت حديث المصريين.

أمن المدينة.. بين الآغا والوالي

مع دخولها تحت لواء دولة الإسلام في عام ٢١هـ/٦٤١م، شهدت مصر تغيرات جذرية في مفهوم نظام الشرطة. فالعرب كانت لهم رؤيتهم الخاصة لعمل الشرطة التي ظهرت لأول مرة تحت مُسمى نظام "العسس" في عهد الخليفة عمر بن الخطاب لضبط الأمن وتعقب الجناة والمفسدين (101). وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب نُظِّمَت الشرطة وأُطلق على رئيسها "صاحب الشرطة"، وكان يُختار من عليّة القوم ومن أهل القوة (102). وفي مصر الإسلامية كان زكرياء بن جهنم بن قيس أول من تولى شرطة عمرو بن العاص (103). بعد الفتح الإسلامي، وكان منصب صاحب الشرطة بمنزلة نائب الوالي. وكان الوالي يعهد إلى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التي توقع بمعرفته، وربما تولى صاحب الشرطة بنفسه فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة، بجانب عمله مع القاضي في تطبيق الأحكام الشرعية (الحدود- القصاص- التعازير) بعد التحري والاستدلال على مرتكبي الجرائم؛ ليكون الحُكم قائماً على "البينة" والوثوق من أقوال الشهود (104).

تم تأسيس دار للشرطة في مدينة القسطنطينية (105). بجوار دار الوالي (106). وفي العصر العباسي، أنشئت دار الشرطة العليا في مدينة العسكر التي أسسها صالح بن علي العباسي عام ٧٥٠م، في حين استمرت دار الشرطة في القسطنطينية في أداء عملها، وأُطلق عليها اسم دار الشرطة السفلى.

كذلك أُطلق على كلمة الشرطة كلمة "المعونة" لما تحويه من معانٍ، إلا أن كلمة "المعونة" اقتصر إطلاقها على غير شرطة العاصمة، فقد كانت تُطلق على ما نعرفه بشرطة الأقاليم على حد تعبير آدم متز (107)، في حين يذكر الطبري أن صاحب الشرطة في مصر أطلق عليه "عامل المعونة" (108). ووردت كلمة الشرطة أيضاً مرتبطة بكلمة "الشحنة"، ويُسمى متوليها "صاحب الشرطة" (109).

ظل للشرطة في مصر إبان حُكم الأمويين ما كان لها في عهد الخلفاء الراشدين من جاهٍ ونفوذ. ورأينا في العصر الأموي من يجمع بين منصبي قائد الشرطة والقاضي، مثل عابس بن سعيد المرادي سنة ٦٠ هـ = ٦٨٠م، أثناء ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري (110). وفي عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ظهر تعبير "صاحب الأحداث" كناية عن قائد الأمن، وعُدلت بعض اختصاصاته مع تعزيز طابعها العسكري. وكُلِّف صاحب هذا المنصب إلى جانب عمله المدني باستخدام القوة عند الضرورة لتثبيت سلطة الدولة وإخماد الفتن وقمع الثورات. في الوقت نفسه، ضعف عدد رجال الشرطة، واتخذت إجراءات عدة ليُأمن الناس على أرواحهم (111).

عادت كلمة "الشرطة" للتداول مرة أخرى في العصر العباسي، واهتم الخلفاء العباسيون بوظيفة الشرطة اهتماماً كبيراً، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور يسير دائماً وصاحب الشرطة بين يديه (112). وفي عصر الأيوبيين والمماليك، ظهر لقب "الوالي" وتُخِيت كلمة "الشرطة" مجدداً (113)، وأصبحت من الكلمات التاريخية الغابرة، حتى إن المقرئ عندما يتحدث في خطبه عن الولاية يقول "وهي التي يسميها السلف الشرطة" (114)؛ وظلت الحال كذلك قبل أن تستعيد الكلمة مكانتها حتى يومنا هذا.

كان صاحب الشرطة في العصر العباسي خليفة للوالي، والحاكم الفعلي للمدينة، وأسندت إليه مهمة الإشراف على الآداب والأحوال الداخلية والتصدي للصوم والمفسدين والقبض عليهم لمنع أضرارهم (115). واشتد بعض الولاة وأتباعهم من أصحاب الشرطة في الضرب على أيدي العابثين بالأمن، فأنزلوا الرعب في نفوسهم وأشاعوا السكينة والاستقرار في أنحاء البلاد، ومن أشهر هؤلاء الولاة أبو صالح يحيى الخرسى وصاحب شرطته عسامة بن عمر. وفي عهدهما اشتد الفتك بقطاع الطرق، وقُطعت أيدي اللصوص، ولم تأخذهما بلص شفقة، وكانت الحوانيت تُفتح على مصارعها ليلاً، بسبب انتشار الأمن والأمان.

تولى صاحب الشرطة مهمة التصدي للاضطرابات والفتن، أيًا كان سببها والدافع إليها، وإعادة الاستقرار الأمني إلى ربوع البلاد. ونجد في ولاية عيسى بن يزيد الجلودى ٢١٣-٢١٥ هـ = ٨٢٨-٨٣٠م، محمد بن عيسى صاحب الشرطة يتصدى للاضطرابات التي شهدتها مصر لزيادة الخراج والظلم الذي استشره الأهالي من صاحب الخراج، مما أدى إلى حدوث تدمير عام، فخرج صاحب الشرطة لقتال بعض الأهالي (116).

ونتيجة للفوضى السائدة في تلك الحقبة، لا يبدو مستغرباً أن ينقلب محمد بن طاهر بعد عزله من منصب صاحب الشرطة العليا إلى قائد لاضطرابات جديدة، لتجتاح البلاد موجة جديدة من الفوضى والإرهاب، "ونشأ الفساد وقطع الطريق بالديار المصرية، فعظم ذلك على أهل مصر، ولاسيما الرعية" (117).

في العصر الفاطمي، وجّه جوهر الصقلي اهتمامه إلى الشرطة عقب فتحه لمصر سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م، واستمر تقسيم الشرطة إلى عليا وسفلى إلى أن تم بناء مدينة القاهرة، فانتقلت إليها الشرطة العليا وظلت الشرطة السفلى واختصاصها الفسطاط، وإن كانت نُقلت إلى دار أخرى (118).

حرص جوهر الصقلي على وضع أصحاب الشرطة تحت إشرافه المباشر. وكان المنصب يخضع لتعديلات في الاختصاص الجغرافي؛ إذ قد نحد أحياناً اثنين يتقاسمان رئاسة الشرطة السفلى مثل عمر بن إبراهيم وشبل المعري في عهد جوهر (119). وفي أحيان أخرى تُسند رئاسة الشرطة العليا والسفلى إلى شخص واحد مثل جبر بن القاسم في عهد المعز لدين الله (120).

وحدث في أحيان أخرى أن أضيفت إلى صاحب الشرطة اختصاصات أخرى مثل القضاء والحسبة؛ إذ تولى علي بن سعيد الجولي رئاسة الشرطتين والقضاء في عهد العزيز بالله (121). وفي عهد الحاكم بأمر الله، تولى "غبين" الشرطتين والحسبة (122)، وأطلق عليه "قائد القواد وأستاذ الأستاذين" (123). في المقابل، كان انتقام الخلفاء عظيمًا من أصحاب الشرطة في حالة وقوع خلاف أو اكتشاف خيانة أو تمرد، فعندما اكتشف الحاكم بأمر الله أن صاحب الشرطة "غبين" يتجسس عليه سنة ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م، قطع يده، وكان قد سبق أن قطع يده الأخرى قبل توليه الشرطة، وأخيراً قطع لسانه، ففارق الحياة (124).

وتولى عدد من أصحاب الشرطة مناصب أكبر، مثل جبر بن القاسم الذي أصبح وزيراً في عهد العزيز بالله، وأبي الفتوح موسى بن حسين الذي عُين وزيراً في عهد الظاهر لإعزاز دين الله (125). وكان صاحب الشرطة -أو صاحب العسس كما كان يُطلق عليه أحياناً- يتمتع بنفوذ كبير وسلطات واسعة. نظرًا لكونه أداة تنفيذ أوامر الخليفة وأحكام القضاء (126).

اهتم صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من سلاطين دولة بني أيوب بإشعار المواطن بالأمن، وذلك بالتصدي للصوص والمفسدين وإنزال العقاب الرادع بهم. وفي عهد الملك الكامل وصلت الهيبة أعلى درجاتها، فكان الإنسان يمر بالصحراء وحده ومعه كثير من الذهب دون خوف، وكانت الجماعات تسير في الصحراء ومعها أحمال كثيرة بغير خوف من قطاع الطرق (127).

ويشير المقريزي إلى أنه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، تصدى صاحب الشرطة في شهر المحرم من سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤١ م لخمسة من اللصوص تسللوا ليلاً إلى المشهد النفيسي وسرقوا من فوق القبر ستة عشر قنديلاً من الفضة وهربوا، فبذل صاحب الشرطة مجهوداً عظيماً حتى تمكن من ضبطهم والقبض عليهم بعد أن مكثوا عشرة أيام في مدينة الفيوم، فاعترف أحدهم ويزاً بقية أصحابه؛ وشنقه صاحب الشرطة بجامع المشهد النفيسي، وتركه مدة طويلة مصلوباً على الخشب، حتى صار عظاماً (128).

في عصر المماليك، عُرفت هذه الوظيفة باسم "الولاية" (129)، أو "ولاية الشرطة" (130)، وعُرفت أيضاً بـ"ولاية حرب" (131)، وأصبح "الوالي" الذي يقود الشرطة، له نائب، و"أعوان" أو "نقباء" وكانوا بمنزلة ضباط الشرطة، ويعهد إليهم بالقبض على المتهمين وإحضارهم وتنفيذ ما يصير من أحكام عليهم. وشمل نظام الأمن أيضاً الجنود، والخفراء أو "الإدراك" ممن يحرسون الدروب والحارات، وطائفة "المشاعلية" ممن يشتركون في المطاردات والدوريات الليلية، ويكلفون بإبلاغ أوامر الوالي ونداءاته وسائر المراسيم (132).

أشرف والي الشرطة في عصر سلاطين المماليك على تنفيذ الأحكام الصادرة عن كلٍّ من القاضي والمحتسب، الذي من حقه أن "يُشدّ منه" والي الشرطة "إذا احتاج إلى ذلك" (133). للاستعانة به على القيام بواجبه في معاقبة الفاسدين، خاصة إن اقتضى الأمر عقوبة بدنية رادعة كالضرب أو التجريس في الشوارع. كما كان بعض المحتسبين يجمعون بين الحسبة وولاية الشرطة، ولاسيما إذا كان المحتسب أميراً (134).

في غضون ذلك، كان من المناظر المألوفة في القاهرة أن تنقلب شوارعها وأحيائها بين عشية وضحاها إلى ميدان حرب، بين أميرين وأنصارهما، فتتفرق من المارة، ويغلق التجار حوانيتهم، خشية سلب ما بها من أموال وتجارة، وأن يترك الناس الخوف والفرق، فيحتشرون بأبواب الحارات والمساجد أو يقبضوا في بيوتهم إلى أن تنجلي الغمة وتمر العاصفة(135).

لم يُنَجِّ جهاز الأمن في العصر العثماني مما أصاب سائر أجهزة الدولة في مصر من تعقيد وفساد واضطراب، نتيجة لتنازع سلطات مختلفة حكم البلاد، ومحاولة كل فئة السيطرة على مقاليد الحكم. أُسندت مهمة الأمن في القاهرة إلى أكثر من جهة يكاد ينعدم التعاون بينها. فقد كان هناك الوالي أو الباشا وهو مندوب السلطان العثماني لحكم مصر، وينازعه في السلطة رؤساء الجند أو رؤساء الوجاقات -وهي وجاقات الانكشارية أو المستحفظان والمتفرقة والعزب والجاويشية والهجانة والتفكجية والشراكسة- وهم قواد الفرق التي تركها السلطان سليم في مصر ويشكلون الحامية العثمانية؛ وينازع الجهتين البكوات المماليك الذين كانوا يتحكمون في الأقاليم خارج العاصمة(136).

وكان أغا الانكشارية هو رئيس الوجاقات كلها، وكان يطلق عليه أحياناً "أغا المستحفظان"، أي المكلف بحفظ الأمن والنظام(137). ويتولى الباشا اختيار الولاية الثلاثة لكل من القاهرة ومصر القديمة وبولاق، وهم تحت إشراف أغا المستحفظان. ومع الوقت، أصبح لوالي القاهرة سلطة الإشراف على الواليين الآخرين، ويُعرف والي الشرطة أيضاً باسم "الصوباشي" و"الزعيم"(138). وكان للوالي نائب أو وكيل "كتخدا" ينوب عنه عند غيابه، وكان له أعوان آخرون أشبه بالضباط يُسمون "المقدمين" و"النقباء" و"الملازمين"(139).

بشكل عام، انقسم الأمن في العاصمة إلى قولقات (جمع قولك، ويشبه قسم أو مركز الشرطة)، ويخدم فيها أوضاباشية البوابات لوجود هذه القولقات بجوار بوابات القاهرة الرئيسية (مثل باب الفتوح وباب الحديد وباب زويلة، التي كانت تفتح في الصباح حتى الغروب). كما انقسمت هذه القولقات إلى مجموعة "دركات" (شبيهة بنقطة الشرطة حالياً). وعليه فقد توزعت مهام الأمن على مناصب من أهمها هؤلاء الأوجاق أو الآغات مستحفظان وبين الأوضاباشية وعلى رأسهم جميعاً ولاية الشرطة(140).

لم يتغيّر وضع الشرطة في العصور الإسلامية المتلاحقة إلا في تقسيم الشرطة بين إدارتين إحداهما في العسكر والقطائع (العاصمة الجديدة)، والأخرى في الفسطاط في العصر الفاطمي، وهو ما ظل متبعاً في عهد سلطين الأيوبيين والمماليك(141). حتى الفتح العثماني لمصر في سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، لتشهد مصر بعدها حالة من الانفلات الأمني، في ظل الصراع بين القوات العثمانية ممثلة في الباشا وقوات الانكشارية والعربان وبقياء أمراء المماليك بزعمامة شيخ البلد، وهو النزاع الذي مكّن قائد الغزو الفرنسي نابليون بوناپرت من احتلال مصر عام ١٧٩٨.

كانت القاهرة خلال الحقبة العثمانية مقسّمة إلى نحو خمسين حارة(142). كانت تلك الحارات أشبه بأحياء سكنية ذات بوابات تغلق أثناء ساعات الليل لحفظ الأمن، وكان لكل حارة شيخ، يسمى شيخ الحارة، وبعد المسؤول عن حفظ الأمن بها(143).

بُعِيد استيلاء السلطان سليم على المدينة عام ١٥١٧، أُسندت مسؤولية حراسة المدينة ككل، وقلة القاهرة بشكل خاص، لطائفة الانكشارية، وأصبحت مهمة أغا الانكشارية (أي قائدها) هي إدارة شرطة المدينة أثناء النهار(144). إلا أنه بمرور الوقت انخسر دور الأغا وبرز دور الوالي؛ أي حاكم المدينة (والذي كان يسمى في العصر المملوكي "المتولي"). يمكن القول إن تقسيماً دقيقاً للعمل بدأ في الظهور اضطلع الأغا بمقتضاه بمهمة حفظ الأمن أثناء النهار، في حين باشر الوالي (الذي كان يُعرف أيضاً بـ"صوباشي") مهامه أثناء الليل؛ لذا اقترن ذلك الأخير في أذهان العامة بالإشراف على الحانات والعاهرات اللاتي كان يحتفظ بأسمائهن(145).

بالإضافة إلى الأغا والوالي، اضطلع موظفان آخريان بمهمة حفظ الأمن، هما القاضي والمحتسب. فأما القاضي فقد كان يتدخل من حين لآخر في أمور تخص أمن المدينة. فقد كان من عادته أن يرسل نائبه للنظر في شأن المباني المستحدثة والتثبت من أنها لا تعوق المرور وللتأكد من أن فتح طاقة (أي نافذة/شباك) لا يجرح الجيران(146). وأما المحتسب فقد انخسرت مهمته في الإشراف على أسواق الطعام ومنع الغش فيها، إضافة إلى مراقبة

الأسعار والمكايل والعملة(147). وكان هؤلاء الموظفون يوقعون عقوبات فورية على المخالفين، وكانت تلك العقوبات في أغلبها عقوبات بدنية (مثل الضرب بالقلعة والجلد)، بالإضافة إلى الغرامة والحبس. أما الجرائم الخطيرة كالقتل، فكانت تحال إلى القاضي الذي كان ينظر فيها بناءً على قواعد الفقه الصارمة، في حين كان الوالي ينظر في تلك الجرائم في ديوانه بناءً على قواعد السياسة(148).

كانت مهمة تأمين المدينة تقع بالأساس على عاتق الحارات وطوائف الحرف(149)، فبحكم كونها أماكن منعقدة بشكل ما، مارست الحارات مهمة حفظ الأمن فيها مع ما تشمله تلك المهمة من حماية الأهالي من الاقتتال الدائر بين البيوتات الحاكمة، وحل الأزمة التابعة من الحارات نفسها، والتعرف على الأشخاص الذين يلاحقهم الوالي أو الأغا، والقبض عليهم وتسليمهم إليهما. أما الطوائف فقد قامت أيضاً بحفظ الأمن في المناطق التي كانت كل طائفة تتركز فيها جرفتها، بالإضافة إلى اضطلاعها ببعض المهام المتعلقة بإدارة المدينة مثل نظافة الشوارع والإنارة(150).

خلال الحملة الفرنسية، عيّن بوناپرت ديواناً من تسعة أشخاص من المشايخ والأعيان لفرض سيطرته على البلاد، كما أبقى على الثلاثي المتمثل في الأغا والوالي والمحتسب، لكنه أدرك أيضاً الدور الحيوي الذي لعبه مشايخ الحارات ومشايخ الطوائف في حفظ الأمن.

بالإضافة إلى ذلك، ابتدعت سلطات الاحتلال وسيلتين جديدتين تمثلان تطوراً مهماً في طرق السيطرة الأمنية على المدينة. كانت أولى تلك الوسائل ذات طابع طبوغرافي، فقد رأى الفرنسيون أن الحارات الكثيرة مع ما بها من دروب وسكك متعرجة ومقفولة تمثل خطراً أمنياً على جيش الاحتلال؛ لذا قرروا تجميع حارات القاهرة في ثمانية أخطاط، ووضعوا كل خط تحت رئاسة قائد عسكري فرنسي. كما قرروا نزع بوابات الحارات. وبنفس هذا المنطق الأمني، تقرر إزالة المصاطب الموجودة أمام المحال التي تعوق السير في الشوارع ولمنع استخدامها متاريس في حالات التمرد(151).

أما الوسيلة الثانية التي ابتدعتها الفرنسيون فكانت تتعلق بالصحة العمومية؛ إذ فرض الفرنسيون الحجر الصحي على القاهرة عندما ضرب الطاعون البلاد عام ١٧٩٩، وكانت الملصقات التي وضعتها سلطات الاحتلال في كل نواحي المدينة يوم ٢٤ مارس ١٧٩٩ والتي أعلنوا بها فرض الحجر الصحي ذات دلالة مهمة، ليس فقط لأنها تمثل وسيلة لم يسبق لها مثيل للتعامل مع خطر مألوف ومعهود، وليس بسبب العقوبات القاسية (التي وصلت للإعدام) التي نصت عليها الملصقات، بل لما توضحه هذه الإجراءات من منطق جديد للتعامل مع السكان(152).

من ١٨٠١ وحتى ١٨٠٥، وبعد جلاء الفرنسيين عن البلاد، انزلت القاهرة إلى مستنقع من الفوضى العارمة، واحتدم القتال بين الفرق العسكرية المختلفة: الألبان والمماليك والبدو والدلاة الشوام؛ الأمر الذي كان له بالغ الأثر على المدينة واستقرارها.

لم تنقطع حالة الفوضى تلك إلا مع وصول محمد علي إلى سدة الحكم في عام ١٨٠٥، فقد تعامل بحزم مع تحالف القوى الذي وقف بجانبه في فترة الصراع على السلطة، وأطاح الألبان (الأنراؤوط) الذين كانوا مصدر قوته الحقيقية، ولكنه فض الشراكة معهم، وسيطر على المشايخ ورجال الدين وكذا التجار، قبل أن يأتي الدور على المماليك الذين كانوا حكام البلاد الفعليين، إلى أن دبر لهم محمد علي مذبحة شهيرة.

بدأ محمد علي في تنظيم جهاز الشرطة ضمن مشروعه التحديثي، وأوكل هذه المهمة إلى "لاطوغلي" كنتخدا (وكيل) محمد علي، الذي أعاد تنظيم الشرطة في كيان محكم. وتوسعت مهام الشرطة التي بدأت تأخذ طابعها العصري من حفظ الأمن في مختلف مرافق الدولة. وبدأ استحداث بعض الإدارات التابعة لجهاز الشرطة، مثل شرطة الجمارك وشرطة البصاين (الشرطة السرية)، وكانت مهمتهم التنكر في أزياء الباعة الجائلين والتردد على دور الأعيان الناقمين على السلطة الجديدة ورفع تقارير إلى أولي الأمر لاتخاذ اللازم. ساعدت هذه الطريقة في كشف بعض المؤامرات التي كانت تُحاك في الظلام للانقضاض على محمد علي.

استحدث محمد علي منصب "الضابط"، وفي أحيان أخرى كان اسمه "ضابط بك"، وانحصرت مهمته في الحفاظ على الأمن في المدينة ككل. وترجع هذا المسؤول على رأس جهاز جديد اسمه "الضبطية" الذي تعود بداياته إلى أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر. وكان مقر الضبطية اسمه

"الضابطخانة" وكان مقرها في شارع الموسكي، الذي عمل وسكن فيه الكثير من التجار الأوروبيين. وسرعان ما تحولت الضابطخانة إلى مركز للنظام الشرطي الجديد، وبسطة نفوذها على شتى أنحاء المدينة، مزينة الوالي الذي كان المسؤول الأول عن تأمين المدينة. وقد لاحظ الرحالة الأوروبيون هذا التحول في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وكتبوا عن صعود نجم الضابط بك وانخسار دور الوالي وتراجع نفوذه (153). وفي أواخر أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، انتقلت الضابطخانة من الموسكي إلى حي الأزبكية القريب وأصبحت تُعرف باسم "ضبطية مصر" (وهي بمنزلة مديرية أمن القاهرة الآن) وأصبح مديرها يُعرف بلقب "مأمور ضبطية مصر" (154).

أدرك الباشا الميزة التي قام بها الفرنسيون من تجميع حارات المدينة الخمسين في ثمانية أقسام؛ لذا عمل على إعادة العمل بهذا التقسيم الفرنسي ولكن بعد إدخال تعديلات مهمة عليه، إذ ألغى "الأخطاط" واستحدث مكانه لفظ "الثمن". وبذا أصبحت القاهرة مقسمة إلى ثمانية أثمان، هي: باب الشعرية، والجمالية، والدرب الأحمر، والخليفة، وعابدين، والسيدة زينب، والموسكي والأزبكية. ثم أضيف حيًا بولاق ومصر القديمة، لتصبح القاهرة عشرة أثمان (155). وكان كل ثمن من هذه الأثمان يترأسه مسؤول اسمه "شيخ الثمن"، وهو يعين من قبل السلطة البيروقراطية. وافتتح داخل كل ثمن مخفر للشرطة أطلق عليه اسم "ضبطية الثمن"، وكان مديره يُطلق عليه لقب "مأمور ضبطية الثمن"، وكان هذا المأمور مسؤولاً عن حفظ الأمن في ثمنه. وترأس كل من الوحدات السكانية والجغرافية الأصغر؛ أي الحارات، شيخ يسمى "شيخ الحارة"، كما كان داخل كل حارة "قراقول" يديره ضابط اسمه "ناظر القولق" الذي كان جنوده منضبطين، ذوي زي موحد، وسبق أن تلقوا تدريبهم في الجيش، وهو أمر بالغ الدلالة.

خضعت هذه المنظومة المقتدرة من رجال الضبطية ومخافر الشرطة (ضبطيات الأثمان) ومأموري الضبطيات، لرقابة ديوان جديد مقره القلعة اضطلع بالإشراف على كل الأمور الداخلية، باستثناء المالية. أسس هذا الديوان، ثم تحول اسمه إلى ديوان الخديو، وكان في أعوامه الأولى يديره حبيب أفندي، وهو من أخلص مساعدي محمد علي.

وشكل محمد علي قوات خاصة لحفظ الأمن في القاهرة والمدن المصرية، وهي قوات غير نظامية عُرفت باسم "السرسواري"، بالإضافة إلى جماعات من السُكبان (ضرب من الجنود المشاة) والقواسمة (ويقال أيضًا: القواسمة) الأتراك. واستمرت هذه القوات في أداء مهمة حفظ الأمن في مدن مصر، حتى تشكيل قوات "الجندرمة" في مطلع عهد الاحتلال البريطاني (156).

وإذا كان والي مصر عباس باشا قد استعان بالعسكريين الأتراك في الدواوين المركزية والأقاليم، فإنه منح المدنيين الذين عُيّنوا في هذه الوظائف ووكلاءهم رتبًا عسكرية تتناسب مع مكانتهم. وكان الهدف من وراء عسكرة وظائف الإدارة عمله على استتباب الأمن؛ حيث كلفهم بمطاردة اللصوص والأشقياء وقطاع الطرق، وكان يوبخهم عند أي تقصير منهم. وقد عومل هؤلاء الأشقياء بقسوة بالغة (157)، ووصل به الأمر إلى هدم الكفور التي يلجأ إليها أمثال هؤلاء (158)، حتى إنهم خشوا بأسه وانقطع دابرهم وأمن الناس شرورهم.

لم تُستخدم كلمة "البوليس" في مصر إلا نحو عام ١٨٦٣، حين استدعى الخديو إسماعيل الضباطين الإيطاليين كارلسيمو Carlsimo والماركيز نيجري Marquis Negri وأوكل إليهما تشكيل قوة نظامية لحفظ الأمن، تحل محل طائفة "القواسمة" الأتراك غير النظاميين (159).

ومع التلازم الذي نشأ بين تشييد المدن والجهود الرامية إلى حفظ الأمن، انتشرت كلمة "البوليس"، وهي مفردة لاتينية تعني بالعربية "المدينة" -ليس بمبانيها وإنما بالحضارة والمدنية فيها- لتدل على من اختيروا لحماية الاستقرار داخل المدن (160). وذاع استخدام كلمة "البوليس" في مصر في بعض فترات الاحتلال الأوروبي؛ خصوصًا الاحتلال البريطاني، وما زالت متداولة حتى يومنا هذا بشكل واسع (161). ويشير د. عبد الوهاب بكر إلى أن كلمة الشرطة لم تُستخدم كاسم لجهاز الأمن إلا في عام ١٩٥٩، أما قبل ذلك فقد كان اسمه هو "البوليس" (162).

هكذا، إذًا، تطورت طبيعة الأجهزة الأمنية في مصر ومسمياتها وأدوارها وإجراءاتها، في ظل المتغيرات السياسية والاجتماعية المختلفة. وعلى سبيل المثال، فقد حاولت الإدارة العثمانية تأمين القاهرة وحمايتها من أعمال النهب والسلب والاعتداء على الممتلكات وانتهاك الحرمات وخطف الأطفال

التي تزامنت مع سلسلة اضطرابات شهدتها مصر بين عامي ١٥١٧ و ١٥٩٧ (163)، بوضع إجراءات أمنية اتسمت بالتدرج، بدءاً من المناداة بالأمان وسريان كافة المعاملات دون خوف، مروراً بإصدار السلطان سليم الأول أمراً في العام ١٥١٧ بعمل دروب وخوخ في بعض الحارات، وسد بعض الطرق لحفظ الأمن بها، والأمر في العام التالي بإغلاق الأسواق والحوانيت مساء، والزام الانكشافية في عام ١٥١٩ بالإقامة في طباق الممالك بالقلعة، وعدم النزول إلى المدينة، ثم يصل الأمر ذروته بصور فرمان سلطاني في العام ١٥١٩ بشنق كل من تسول له نفسه من القوات العسكرية بالتشويش على أحد من الرعية (164).

ومع تعرض ضواحي القاهرة لهجمات الغربان، الذين انتشروا في المناطق الصحراوية المحيطة بالمدينة، ودأبوا على ارتكاب أعمال السلب والنهب، اتخذ العثمانيون إجراءات أمنية احترازية مثل سد جميع منافذ المدينة وبناء الحيطان للوقاية من خطرهم (165)، وأرسلوا حملات متكررة لمطاردة الغربان. وعلى سبيل الاحتواء، سمحوا للغربان بالتزام الأدراك والقيام بأعمال الخفارة سواء بأحياء القاهرة أو ضواحيها (166).

ولحفظ الأمن الاجتماعي أو الشخصي، اهتمت الإدارة العثمانية بأبواب القاهرة، وكان هناك ثمانية أبواب رئيسية، تتم مراقبة الداخلين والخارجين منها (167). وتم تقسيم القاهرة إلى أدراك أمنية، وتعهد مقدمو تلك الأدراك بحفظ الأمن ورد المسروقات، أو دفع قيمتها عند تعذر استرجاعها (168)، كما انتشرت دوريات العسس بالمدينة في محاولة لمنع الاضطرابات والتربص باللصوص، وفي كل ليلة كانت هذه الدوريات تغير من طريقها لإشاعة الأمن بالمدينة ومفاجأة اللصوص (169).

وكان النشالون يعدون طائفة غير أخلاقية مسجلة بدفتر الصوباشي، وهذا التسجيل جعلهم تحت سيطرة الأمن؛ إذ يمكن للصوباشي استدعاء أي من هؤلاء في حالة وقوع جريمة تتفق طريقة تنفيذها مع أسلوب هذا المستدعي (170). كما استعان الصوباشي بأعوانه من قصاصين وبصاصين لتتبع آثار الجريمة ومعرفة الفاعل (171).

وإذا كان عمل الشرطة في عهد الاحتلال الروماني عملاً تطوعياً مدنياً، لا يتلقى عنه الفرد أجراً، ربما بدافع تجنب بناء قوات بوليس نظامية إلى جانب جيشهم (172)، فإنه ومع ازدياد الحاجة إلى قوات الأمن -بدءاً من عصر الاحتلال البيزنطي لمصر- أصبحت وظيفة لها أجر وراتب (173)، مثلما لها سطوة ونفوذ. وتطور بطريقة متدرجة نظام الخفر، الذي جاءت بدايته عندما أشارت "لائحة زراعة الفلاح" الصادرة في عام ١٨٣٠ إلى وجوده (174)، لكن الأمور أصبحت أكثر وضوحاً مع إصدار ديوان المالية في ٢٥ يونيو ١٨٤٤ قانوناً يقضي بضرورة ترتيب مشايخ النواحي "ما يلزم من الرجال لغفارة النواحي ليلاً". وقد أكد "القانون المنتخب" (١٨٤٥) على هذا القانون فضمه ضمن بنوده، حيث أخذ هذا القانون رقم ١٢١ (175)، ليصبح هذا القانون هو الميلاد الحقيقي لنظام الخفر في مصر.

نشير هنا إلى أن د.عبد الوهاب بكر يقول إن أول محاولة للتفكير في تقنين أعمال حفظ الأمن في الريف المصري كانت في عام ١٨٧٠، عندما أصدر المجلس الخصوصي ما يُسمى بـ"الرابعة التي صار استحسان الإجراء بموجبها في حق الخفر"، وصدر الأمر العالي باعتمادها في العام المذكور (176).

توالت بعد ذلك منشورات عدة (في أعوام ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٥٤) عن قيام مشايخ النواحي بترتيب الخفر في قراهم، ثم أصدر سعيد باشا لائحة ٢٠ أغسطس ١٨٥٨ التي ضمت سبعة بنود واستحدثت نظاماً جديدة مثل منصب شيخ الخفر، ونظام "الدرك"، أي تحديد منطقة محددة لكل خفير بحيث يكون مسؤولاً عن حراستها ليلاً، ونظام "الطوافة" أي الخفر الجوالين الذين ليس لهم درك معين. هدفت اللائحة إلى ترتيب الخفر بالنواحي والبلاد للقضاء على الأتقياء والقبض على المجرمين، وحددت مهامهم ومهام المشايخ نخوهم؛ لمنع تهريبهم من تحمل المسؤولية عن الحوادث التي تقع في بلادهم (177). ونصت اللائحة على ترتيب مرتبات شهرية للخفر وشيخهم، بحيث يكون مرتب الخفير ٣٠ قرشاً شهرياً، ومرتب شيخ الخفر ٤٠ قرشاً (178).

في عهد سعيد باشا أضيفت أعباء ومهام جديدة على العمد والشيوخ، ومن ذلك تعيين خفراء على البلاد التي تمر بها خطوط السكة الحديد، وحماية هذه الخطوط وعدم إتلافها، وتحصيل أجور الخفراء من الأهالي وصرفها لهؤلاء المكلفين بالحراسة والخفر بالحدود والدركات بالطرق والنواحي، كما كان عليهم ضبط الأشقياء واللصوص والعصابات المسلحة والهاربين، والذين يتسببون في إقلاق راحة الأهالي ويهددون أمنهم وينهبون أملكهم وأموالهم، وخاصة في الوجه القبلي(179).

مع حُكم الخديو إسماعيل، سجدت فريضة من العاملين على حفظ الأمن في القرى والنجوع يتقاضون أجورًا، لكن وظائفهم بقيت غير حكومية. وصدرت في عهد إسماعيل لائحة في ١٠ يناير ١٨٧١، سحب حَق اختيار الخفر من المشايخ ومنحته للمديرية، وحددت مهمة الخفر بحراسة "الغيطان والدركات والحدود"، وفرضت عليهم زياً موحداً، وألزمتهم بحمل ما يشبه بطاقات الهوية، على أن يُصرف لهم السلاح من مخازن الحكومة(180). وتبعه قانون ثان خاص بالخفر في العام ١٨٨٤، أي بعد مرور عامين على الاحتلال البريطاني لمصر، ليضيف إلى المهام والتكليفات السابقة عقوبات وحقوقاً ومميزات، لعل أبرزها الأجور التي كان يدفعها أهالي البلدة، وقد أصبحت ٥ قرشاً شهرياً للطواف و٧ قرشاً لشيوخ الخفر، مع بقاء مرتب الخفير على حاله (٣٠ قرشاً)(181).

ولم تلبث نظارة الداخلية أن وضعت لائحة عامة لتنظيم عمل الخفراء في عام ١٨٨٩ إذ كانت مرتباتهم تأتي من أموال أصحاب الأقطان وكبار المُلأك، وتُصرف بمعزل عن ميزانية الدولة(182).

تطور جهاز الأمن مع قيام الدولة الحديثة، تزامناً مع إرادة الحاكم ورغبته في الحماية واستمرار نظامه، لذلك حرص على تخصيص فئة من رجال الشرطة لملاحظة ومراقبة المواطنين الذين يخشى من تصرفاتهم. ومن هؤلاء، فالتين بيكر الذي أصدر الخديو توفيق مرسوماً بتعيينه مفتشاً عاماً لقوات الشرطة في يناير ١٨٨٣. وقبله أسندت قوات الاحتلال إلى تشارلز برسفور إدارة الشرطة بعد احتلال الإسكندرية في يوليو ١٨٨٢(183). وقد أنشئت قوات البوليس والجندرية تحت إشراف فالتين بيكر، الذي صار يطلق عليه مفتش عموم الجندرية والبوليس و"قومندان عموم الجندرية والبوليس"(184).

وفي ٣ نوفمبر ١٨٩٤ صدر أمر عال بإلغاء نظام الإشراف البريطاني على جهاز البوليس والمسمى "تفتيش عموم البوليس"، وحل مكانه نظام جديد تحت اسم "قسم الضبط والربط"، فاختص فرع "الضبط" بأعمال الأمن العام، في حين اختص فرع "الربط" بالأعمال النظامية والشؤون العسكرية في البوليس.

وعندما أُعيد تنظيم مكونات نظارة الداخلية في ١٩ مارس ١٨٩٥، تأكد هذا التقسيم عندما جرى تقسيم "قسم الضبط والربط" إلى "قسم الضبط" و"قسم النظام"، أو قسم النظام العسكري، في حين تشكلت باقي فروع النظارة من "قسم الإدارة"، وقسم المحاسبة، وقسم مخازن البوليس، وإدارة الجرائد الرسمية، وقلم المطبوعات، والقلم الأفرنكي". وفي ١ يناير ١٩٠١، أدمج قسما "النظام العسكري" و"المحاسبة" في قسم واحد يُسمى "قسم المستخدمين والمحاسبة".

وفي فبراير ١٩٠٩ أنشئ قسم جديد للتفتيش أطلق عليه اسم "قسم تفتيش النظام" كان اختصاصه "التفتيش على نظام بوليس الأقاليم فيما يتعلق بالواجبات العسكرية والمهام وغيرها والمراقبة على الدوريات ودركات الخفر، ويكون هذا القسم تحت رئاسة موظف يلقب بـ"باشمفتش نظام البوليس"(185).

وفي يونيو ١٩٠٩، أُعيد تنظيم "قسم الضبط" إلى "أقسام" ثلاثة، اختص الأول منها (أ) بمنع الجريمة، وتولى الثاني (ب) بالأعمال اللاحقة على وقوعها وعمل الإحصاءات الجنائية، أما الثالث (ج) فقد كانت مهمته متابعة المستحدث من الأساليب العلمية المطبقة في الدول المتقدمة في مجال التحري عن الجرائم؛ ليطبقها في نظارة الداخلية وفي جهاز البوليس.

وكانت السيطرة البريطانية تسود كل هذه التنظيمات بطبيعة الحال (186).

وإذا كانت مصر قد عرفت مفهوم الأمن العام منذ وقت طويل، فإن إنشاء إدارة خاصة به جاء في ٢٩ يناير ١٩١٣، حين صدر أمر إداري بإلغاء "قسم الضبط" وإنشاء "إدارة عموم الأمن العام"، التي تشكلت من "إدارة الضبط"، و"إدارة اللوائح والرخص"، و"إدارة المطبوعات". ولتيسير التعرف على معتادي الإجرام، أنشئت إدارة لتحقيق الشخصية ضُم إليها قلم السوابق (187).

أجريت سلسلة تعديلات على إدارة الأمن العام -رمز المركزية في البوليس- في أعوام ١٩٢٣ و١٩٢٤ و١٩٣٦، وفي العام الأخير جرى تفتيتها بمقتضى الأمر العمومي رقم ١٧٩ الصادر في ١٧ إبريل ١٩٣٦ (188)، وهو القرار الذي يمكن شم رائحة السياسة فيه.

وإذا كان عهد محمد علي باشا قد شهد في عام ١٨٠٥ إنشاء ما سُمي بديوان الوالي؛ ليكون مسؤولاً عن الضبط والربط في المدينة -أي العاصمة- والبت في الخلافات التي تقع بين الأهالي والأجانب، فإنه بعد مرور ما يقرب من نصف قرن، وتحديداً في ٢٥ فبراير ١٨٥٧، قرر والي مصر محمد سعيد باشا رفع ثلاثة دواوين -الداخلية والجهادية والمالية- إلى مستوى آخر في الهيكل التنظيمي الإداري، هو مستوى النظارة.

أصبح لنظارة الداخلية ناظر يدير شؤونها، وكانت اختصاصاتها موزعة من قبل على عدة دواوين، وأسندت إلى تلك النظارة مهام عدة، بينها حفظ الأمن الداخلي وتنظيمه، فضلاً عن إجراء مضابط مجلس الأحكام، وتولي أعمال الهندسة العمومية وأشغال قناة السويس، إلى جانب إدارة إصطبل شبرا والمستشفى الملكي وديوان المحافظة (189).

عهد سعيد إلى أحمد رفعت باشا ابن أخيه إبراهيم بنظارة الداخلية، التي كانت تعد من أهم النظارات؛ حيث اختصت بجميع الأمور العمومية وإدارة المحافظات والمديريات، والنظر في شكاوى الأهالي ضد حكام الأقاليم والمجالس، والنظر في مضابط مجلسي تجار الإسكندرية والقاهرة قبل عرض ما يلزم عرضه على الوالي، ومراجعة تفاصيل جلسات مجلس الحقانية ومجلس الزراعة، ثم أحييت إليها المدارس الابتدائية الحكومية والمطبعة وطبع الصحف وغيرها، وأحييت إليها أيضاً بعض الأقسام التي كانت تتبع محافظة مصر (القاهرة) بعد إلغائها في ٢ مارس ١٨٥٨، ومن أهم هذه الأقسام والمصالح: إدارة المحاسبة والهندسة ومصالح الإستهاليات (المستشفيات) وبيت المال، واعتبر البعض أن نظارة الداخلية كانت مثلاً جيداً للتطور الهيكلي إلى حدٍ بعيد (190).

تولى إسماعيل عاصم نظارة الداخلية بعد أحمد رفعت الذي مات غريباً عام ١٨٥٨، وظل عاصم في منصبه حتى وفاته عام ١٨٦٠، ليأمر سعيد باشا بإلغاء هذه النظارة بعد وفاة إسماعيل عاصم، وتوزيع اختصاصاتها على ديواني المالية والخارجية، مما يشير إلى أن أمور الإدارة العامة كانت ترتبط أحياناً بأشخاص، دون اعتبار لأهمية استمرار أداء هذا الديوان لاختصاصه ومهامه (191). ترتب على إلغاء نظارة الداخلية قيام المحافظين والمديرين بإدارة كافة شؤون المحافظات والمديريات، مع الرجوع إلى الوالي في المسائل المهمة.

ظل لقب "ناظر الداخلية" معتمداً بشكل رسمي، حتى هبت عليه رياح التغيير مع إعلان الحماية البريطانية على مصر، ليصبح القائم على حفظ الأمن "وزيراً"، وكان حسين رشدي باشا أول من نال لقب "وزير داخلية" بدلاً من ناظرها في عام ١٩١٤. واحتفظ عدد كبير من رؤساء الوزراء لأنفسهم بمنصب وزير الداخلية، لما يمثله من ثقل يجعله محركاً رئيسياً للأحداث داخل البلاد، حيث يمكنه التحكم في الانتخابات واختيار رجال الإدارة ومراقبة خصومه السياسيين (192).

من المماليك إلى العثمانيين.. تاريخ الفساد

امتلكت الدولة العثمانية الكثير من الولايات في المشرق والمغرب، حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف، غير أن بُعد مركز الدولة في إسطنبول عن ولاياتها سمح بقيام الثورات والتمرد والخروج عن طاعة الدولة، خاصة مع تولية السلاطين الضعاف الذين لم يتمكنوا من السيطرة على الحكم وإحكام سيطرتهم على تلك الممتلكات الشاسعة.

ولم يطرأ على القاهرة العثمانية أي تغيير أو تبديل في تخطيطها، ولم تتسع مساحتها أو تزداد رقعتها عما كانت عليه في عهد المماليك. وظلت القاهرة بحدودها القديمة المعروفة، وكان باب الحديد نهاية حدود مبانيها الشمال الغربي، والأزليكية وما حولها من مبان نهاية العمران غرباً. والطريق بينها والطريق بينها وبين بولاق مقفرة، خالية من العمران. لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي القاهرة في ذلك العهد، كذلك كانت مصر القديمة أيضاً. وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن، ليس بها إلا مزارع وحدائق. ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض مبانٍ قليلة، مثل قصر إبراهيم بك (قصر العيني)، تجاه الروضة، وبجواره بيت لمحمد الكاشف الأرنؤوطي، وعن شماله بيت لمصطفى بك (193).

الشاهد أن الدولة العثمانية أخفقت في إرسال حكام أو باشوات لمصر يتمتعون بالكفاءة أو القدرة على إدارة البلاد ورعاية العباد، فلم يستطع معظم الولاة العثمانيين في مصر أن يقوموا بالإدارة الحازمة للبلاد، خصوصاً في مراحل الانهيار التي انتابت الدولة مع بدايات النصف الثاني من القرن السادس عشر (194)، فمنهم من قُتل على أيدي المماليك، ومنهم من عُزل ومنهم من سُوِّلت له نفسه أن يستقل عن الدولة العثمانية، ومنهم من ارتشى أو تاجر في قوت الشعب أو زَيَّف العملة.. إلخ (195).

ويطول الحديث عن فساد عدد من الباشوات العثمانيين في مصر، ممن وصلوا إلى المنصب بعد دفع رشوة (196)، كما عجز كثيرٌ منهم عن الإدارة العادلة أو الحازمة. ويمكن أن نشير إلى أحمد باشا (الخائن) الذي تولى حُكم مصر عام ١٥٢٤ وطمع في الاستقلال عن الدولة العثمانية، فادعى السلطنة وضرب العملة باسمه (197)، ودارت بينه وبين الفرقة الانكشارية مواجهات، قبل أن ينتهي الأمر بمقتله على أيدي جنود السلطان العثماني (198).

كلك ظهر الفساد من محمد باشا الذي تولى حُكم مصر عام ١٥٥٤ وعُرف عنه حُبُّ اللهو والطرب والخروج للمتنزهات وعدم الاهتمام بشؤون الحُكم (199)، وحدث في عهده غلاءٌ عظيم، وهلك الفقراء من شدة الجوع (200). وكذلك مصطفى باشا الشهير بشاهين، الذي تولى الحُكم عام ١٥٦٠، ووُصِفَ بأنه جبارٌ ظالم سفاك للدماء (201)، وأنه جعل الرشوة شعاراً له والظلم دستوراً (202).

أما علي باشا الصوفي الذي تولى الحُكم في عام ١٥٦٤، فقد وُصِفَ بأنه أول من جعل الفساد في العمل لخلط النحاس بزيادة القدر القانوني، كما كثر في عهده المناس (أي اللصوص). وكذلك محمود باشا، الذي تولى الحُكم عام ١٥٦٦ عُرف عنه أنه سافكٌ للدماء كثيرٌ لمصادرات الناس (يتحفظ على أموالهم) (203)، وقد قتله أحد الأفراد ببندقية ولاذ بالفرار. وعُرف عن حسن باشا الخادم الذي تولى الحُكم في عام ١٥٨٠ حُبُّه للرشوة، وقد وجدوا بعد عزله أموالاً كثيرة.

ولا ننسى ظهور المماليك مرة أخرى على ساحة الحُكم في ظل الدولة العثمانية، بل والسيطرة على جميع شؤون الإدارة الداخلية في مصر، ومحاولتهم الانفصال عن الإدارة العثمانية؛ لاستعادة مجد الدولة المملوكية مرة أخرى، وما ترتب على ذلك من إفسادهم وظلمهم للشعب المصري الذي وقع بين شقي الرحي: المماليك والعثمانيين (204).

حاولت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول وفي عهد ابنه السلطان سليمان تنظيم الأمور في مصر وسن القوانين التي تحفظ للدولة العثمانية سلطتها ونفوذها.

وترجع بدايات إنشاء القوانين في عهد السلطان سليم الأول الذي اتخذ بعد دخوله مصر في عام ١٥١٧ بعض التدابير(205)، حيث عيّن خاير بك كحاكم مملوكي يستطيع أن يجذب إليه المماليك الفارين على حُكم العثمانيين، كما أصدر عفوًا عن المماليك وسمح لهم بالدخول في طاعة الدولة العثمانية عبر توليهم مناصب إدارية، وترك أيضًا حامية عثمانية مكوّنة من أربعة آلاف جندي لحماية البلاد، وديوانًا يعقد في وجود كبار الأمراء لمعاونة خاير بك في الحُكم. ومن الجلي أن السلطان سليم أراد توزيع المشاركة في حكم مصر على الحاكم والديوان والحامية(206)، حتى لا يطفئ أي منهم على الآخر ويستقل بحكم مصر(207).

ومع الاضطرابات التي حدثت من خروج بعض المماليك عن طاعة الباشا العثماني عقب وفاة ملك الأمراء خاير بك وتعيين أول باشا عثماني على مصر، بحث السلطان سليمان عن أسباب خروج المماليك عن طاعة الدولة العثمانية، فبعث الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكلفه إصلاح الأوضاع في مصر ومنحه صلاحيات واسعة، فأصدر إبراهيم باشا قانون نامة مصر، وأوردت نصوصه العقوبات الصارمة على من يخرج عن طاعة الدولة العثمانية، ومن هذه النصوص ما يخص القوات الإسماعيلية، التي تألفت من أوجاق الكوكليان (أي المتطوعين) وأوجاق التفنكجيان (بمعنى المحاربين بالبنادق) وأوجاق الشراكسة. وكان لجنود الإسماعيلية نفوذ كبير في الريف؛ إذ تركزت مهمتهم الأساسية في مساعدة الكشاف (المسؤول عن تفقّد أحوال المديرية) على أداء واجباته من خلال حفظ الأمن في الريف وحماية الأراضي الزراعية وطرق المواصلات من اعتداءات العربان والمحافظة على شبكات الري(208).

وقد قام الجنود العثمانيون بثورات متعددة، يرجع معظمها إلى أسباب مادية نتيجة ضعف قيمة العملة وضعف المرتبات التي يتقاضونها، حيث كانت فرقة الإسماعيلية تمثل أقل المرتبات التي تتقاضاها الفرق العسكرية(209). ويُفسّر قطب الدين النهروالي هذه الثورات بقوله: "لم تعد علوفات الجند تقوم بمصروفه ولا تفي بثمن القهوة التي يشربها، فضلًا عن سائر حوائجه، فشرع جنود الإسماعيلية في ظلم الرعايا لضيق معاشهم، وصار الحكام تتغافل عن إنصاف الرعية لعلمهم بشدة ضراوة الجنود"(210).

ومما ذُكر أيضًا عن أسباب ثورات الجنود زيف العملة، فقد بدأ خلطها بالنحاس زيادة عن القانون في عهد علي باشا الصوفي ١٥٥٦م، فكثر المفسدون وقطاع الطرق، وانتهز الجنود تلك الفوضى لسلب الفوضى ونهبه نتيجة انخفاض قيمة العملة، كذلك استغلال نفوذ الجنود من رجال الإسماعيلية في الريف، وفرضوا لأنفسهم الكثير من الامتيازات والعادات التي لم يستطع أهل الريف الفكّك منها، على الرغم من أن مهمة هؤلاء الجنود هي حماية الفلاحين وليس استغلالهم(211).

وعقب وفاة السلطان سليم الأول، همت طائفة من الإسماعيلية لنهب الأسواق ومهاجمة العامة في الحارات(212)، حيث طالبوا خاير بك بأن ينفق عليهم أسوة بالانكشارية، ولكن خاير بك رفض ذلك وقال لهم: إن الانكشاريين مماليك السلطان والإسماعيلية خدامه ويتقاضون الجوامك نظير خدمتهم.

ولم تكن فرقة السباهية وحدها مصدر الثورات والاضطرابات، فقد ازداد دور القوات الانكشارية منذ النصف الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وبدأوا في التمرّد على حكامهم من الولاة أو السلاطين، فضعت قوة الدولة في التصدي لهم، حتى أن السلطان سليم لم يسلم منهم، حيث رفضوا تنفيذ أوامره بعد موقعة جالديران عام ١٥١٤ مع الشاه إسماعيل، وأجبروا السلطان على عدم مواصلة الزحف نحوه للقضاء عليه(213).

وأحدث جنود الانكشارية الكثير من القلاقل والاضطرابات والثورات على الباشوات في مصر، وكان العامل الاقتصادي هو المحرك الأول لثوراتهم وتمردهم مثلهم مثل الإسماعيلية، فقد ثارت الفرقة الانكشارية من بدايات حُكم العثمانيين في مصر. أراد الانكشاريون أن يتلقوا معاملة المماليك الجراكسة في الأموال التي يتقاضونها، كما أنهم اشتكوا لخاير بك من اختلال العملة وضعف القوة الشرائية لها، مما جعلهم يريدون لحمًا وعليقًا (علف الدواب) مثل الجراكسة(214).

وقد وقعت الكثير من المواجهات بين رجال الانكشارية والإسباهية(215)، ولم تكن علاقة الانكشارية والمماليك أحسن حالاً، حتى أنه حدثت مشاجرة بين المماليك الجراكسة والانكشارية في حضرة خاير بك(216).

والى جانب فساد المماليك وطغيان العريان ونهبهم، فقد تعرّض أهل مصر للسلب والنهب من الجنود العثمانيين في ظل عجز الدولة عن زيادة مرتباتهم، حتى صار الأهالي في حالة غضب من سوء عمل الجنود(217).

طوائف وحرف

تعددت الآراء حول بداية نشأة جماعات وطوائف الحرف في مصر، حيث يردّها البعض إلى العصر الروماني، بينما يعزو آخرون بدء هذا النظام إلى القرن العاشر الميلادي، وفي هذا السياق تبدو بدايات الطوائف الحرفية موعلة في القدم بالفعل، ولكن يمكن أن نرصد تحوّل تلك الظاهرة الاجتماعية إلى ظاهرة بارزة ومرتبطة في العصر الأيوبي، الذي انتظم خلاله مختلف أرباب الحرف في طوائف خاصة بهم(218).

أخذ نظام طوائف الحرف صفة الثبات والاستقرار في العهد المملوكي، وترسخت قواعده وأعراف تنظيم معاملاته بين أبناء الحرف بعضهم البعض وبينهم وبين الجمهور.

شكّلت طوائف الحرف الجانب الأكبر من الطبقات الاجتماعية في مصر المملوكية، وإذا كان معظمها انتقل سكنياً إلى أحياء القاهرة المملوكية فإن البعض منها ظل باقياً في مكانه المتوارث منذ العهود الأولى، على نحو ما نحد من تمرکز لطائفة الفخاريين والخزافين في القسطة، جنوب غرب القاهرة الفاطمية. حيث كانت القسطة واحدة من مراكز الصناعات الكبرى منذ دخول الإسلام مصر. وقد أُطلق عليهم أحياناً مسمى: أهل الصنائع، وأحياناً أخرى اسم "الأصناف"، وتارة ثالثة: أصحاب الحرف. وكانت كل حرفة تتركز في منطقة جغرافية بعينها ترتبط بأسواق تصريف منتجاتها، كما كان أصحاب كل حرفة يسكنون، غالباً، حارة بعينها، وهو الأمر الذي نستشفه من أسماء الحارات: الصنادقية، المغربيين، الصاغة، الخيامية، والسقاويين.. إلخ.

والى جانب خضوع كل طائفة مهنية إلى شيخ يرأسها، فقد كانت هذه الحارات من جانب ثانٍ يضطلع بأمورها الإدارية شيخ الحارة، ضمن الهيكل التنظيمي الذي وضعته الحكومة لتمكينها من مفاصل المجتمع.

وإذا كانت هذه الطوائف قد نشأت من تلقاء نفسها لتلبية لاحتياجات أعضائها وتنظيم شؤونهم وسنّ الحدود والحقوق والواجبات وضبط علاقاتهم من جانب، فإنها من جانب آخر عملت على تنظيم العلاقة مع أسواق منتجاتهم ووضع الأسعار المناسبة لمجهوداتهم، والتحكم في كمية المعروض منها بالأسواق، حدث ذلك دون تدخل مباشر من السلطة المملوكية التي اكتفت بإسناد الرقابة عليها إلى وظيفة المحتسب، وهو الرجل الذي كان معنياً بشؤون الأسواق، ومن خلاله كان يمكن السيطرة بطريق غير مباشر على حركة هذه الطوائف، سيما أنها كانت تمثل مصدر قلق دائم للحكومات، عبر هبات وانتفاضات كانت تقوم بها ضد القرارات الاقتصادية الجائرة وتعسف الولاة أو نوابهم تجاههم، خصوصاً في أزمنة الأوبئة والمجاعات.

استمر الأمر في فترة الحكم العثماني، حيث كان ملائماً لسياسة العثمانيين التي كانت تقضي بالعزوف عن التدخل في حياة السكان، ولا تتعدى فيه مسؤوليات الدولة حدود جمع الضرائب والدفاع عن الولايات ضد الأخطار الخارجية والفصل في الخصومات بين الناس(219).

بسبب حدود الممارسة العثمانية تلك لمسؤوليات الحكم، كان الناس ولا سيما في المدن ينتظمون في طوائف حسب مهنتهم مثل: "الصاغة والحدادين والجزارين والخبازين والقياسين والوزانين والنحاسين والسروجية والبزازين والعطارين.. إلخ"، وكانت كل طائفة لها رئيس يسمى شيخ الطائفة، يتولى تنظيم شؤونها، والفصل في المنازعات بين أفرادها، وتنظيم العلاقة بينها وبين الحكومة. يليه النقيب، وهو نائب شيخ الطائفة في إدارة أمورها، كما كان حلقة الوصل بين الطريقة الصوفية التابع لها وأعضائها من الحرفيين. وكان النقيب مسؤولاً عن الوظائف الاجتماعية والاحتفالية للطوائف المتصلة بعبادتهم(220). أما المعلم أو الأسطي، فهو أكبر الشخصيات في مكان العمل. أما العمال، فهم المزاولون للحرفة، ولم يكن مسموحاً لهم الانتقال من حرفة إلى أخرى إلا بعد إجراءات شديدة التعقيد ضماناً لاستمرار الحرفة واستقرار شؤونها. أصغر حلقة في هذا البناء هم الصبية، وهم المبتدئون، المدربون الناشئون. ولم تكن هناك مدة محددة لتدريب الصبي، بل كانت ترتبط غالباً ببلوغه مرحلة الرجولة واكتسابه مهارات الحرفة وإتقانها.

وكانت الطوائف توفر لأعضائها الرعاية الاجتماعية التي تُعينهم على تحمل أعباء الحياة، مثل دعم المرضى والمسنين والمنكوبين. (221).

ورغم عدم التدخل المباشر من جانب الحكومة في ذلك النظام، فإن شيوخ الطوائف وفق هذه الخلفية اعتُبروا ذراع الحكومة في عالم الصنائع، و"كانت الحكومة تستعين بهم دائماً لتوفير احتياجاتها من منتجات بعينها، أو إمدادها بصناع مهرة لإنجاز أعمال مخصصة بها، ففي عام ١٨٢٨ ألزم الديوان الخديو شيخ الخياطين بتدبير مئتي خياط وإرسالهم إلى ورشة الخياطة بالداورية، وذلك لإنهاء خياطة الملابس المطلوبة قبل العيد، كما كلف الديوان شيخ التريزة بتدبير ٣٠٠ ترزي مصري ومئة ترزي من الأرناؤوط وخمسين من ورشة التريزة بالقلعة وإرسالهم إلى ورشة تريزة الجوخ لإنهاء الملابس المطلوبة للآليات" (222).

لم تقتصر طوائف الحرف في مصر في هذا الإطار، على فئات التجار والصنّاع، بل ضمت فئات مهنية أخرى كالكتابة والسماصرة والمداحين، وتكاد ألا تكون هناك مهنة أو حرفة مهما تواضعت، إلا ونحدها انتظمت في طائفة، كما نحد في طوائف الدخاينية والحمالين والعريجية وخدم المنازل والقردياتية، بل حتى الحرف السيئة والإجرامية انتظمت في طوائف، حيث كان هناك طائفة للنشالين مقرها القاهرة ولها رئيس هو شيخها، وكثيراً ما كان الناس يطالبونه بالبحث عن مسروقاتهم وتقديم السارقين إلى المحكمة. كما كان هناك أيضاً طائفة للشحاذين والمتسولين (223). وبحسب غابرييل باير (224)، فقد ضمت قائمة الطوائف والحرف الراقية في القرن السابع عشر كلاً من: الأطباء، والوزانين، والنساجين، والعطارين، وبائعي الكتب.. إلخ. أما قائمة الطوائف والحرف المتدنية في القرن السابع عشر فقد ضمت كلاً من: العاهرات (طائفتين)، وأولاد باب اللوق (225)، والقوادين (ثلاث طوائف)، والمتشردين، والشحاذين، وحاملي المشاعل في الاحتفالات، وتجار العبيد (226)، ومن يقومون بخصي العبيد السود (227)، والحمّارين (228)، وحلاقي الحمير.

وحتى العاهرات انتظمن في طائفة خاصة بهم، وتوسع العصر المملوكي في الاعتراف ببنات الخطأ أو الخواطي، إلى الصورة التي جعلت منهن طائفة مهمة تجني الحكومة من ورائها الضرائب، وعيّنت لهذا الشأن مشرفة عرفت باسم "ضامنة المغاني"، "تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها، وكانت هذه الضامنة تتعهد بدفع مال إلى الدولة في مقابل أن تتولى جمع ضريبة المغاني من النساء البغايا في مقابل حماية الدولة لهن... ويبدو أن الموقف الرسمي للدولة المملوكية من ممارسة البغاء ارتبط بالظروف الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة من يتولى السلطنة. فعندما ينقص منسوب مياه النيل، يسود اعتقاد بأن ذلك مرجعه إلى غضب من الله سبحانه وتعالى على الرعايا لانتشار الرذيلة والفساد ومن هنا يأتي تحريم الحرف المرتبطة بهذا الفساد ومنها البغاء، وحينما يتولى سلطان جديد السلطنة تصدر بعض القرارات لاسترضاء الرعايا منها إلغاء الضريبة المفروضة على مهنة البغاء" (229).

ومع الربع الأخير من القرن السابع عشر باتت البغايا تسجلن في سجلات الشرطة وتحصى أعدادهن، وتحفظ الشرطة هذه السجلات التي تضم أسماء محترفي البغاء من النساء ومن الذكور لأغراض الضرائب، وكانت هناك ثلاثة نطاقات لمن يسمون (شيوخ العرصات) يعمل أحدهم في القاهرة، والثاني في بولاق، والثالث في مصر القديمة. كانت مهمة هؤلاء الشيوخ هي جمع الضريبة من النساء والصبية، وكان تحت إدارة قائد الشرطة (الصوباشي) أربعون رجلاً يُعرفون بجاويشية باب اللوق مهمتهم حصر الصبية والبغايا ومعرفة من قضى منهم الليل خارج منزله أو داخله. وظل هذا النظام سارياً حتى أبطله الوالي حسين باشا جنبلات (١٦٧٣ - ١٦٧٥م) (230).

خلال القرنين الأول والثاني من الحكم العثماني، كانت الدولة تُعيّن مشايخ الطوائف بشكل سافر، وهو الإجراء الذي انتقده أعضاء الطوائف وبدأوا في تجاوزه خلال نهاية القرن الثامن عشر، وصار بإمكانهم انتخاب شيوخ الطوائف مع احتفاظ الدولة فقط بحق مراجعة الاختيار (231).

تكوّن مجتمع القاهرة في العهد العثماني من مجموعة كبيرة من الطوائف الحرفية، وكان لكل طائفة شيخ أو نقيب، وكان الشيخ يُختار من قبل أبناء الطائفة نفسها. وفي كثير من الأحوال تركز ذلك المنصب بطريق الوراثة في عائلة بعينها ولم يكن ينتقل إلى آخر إلا في حالات الوفاة أو الاستقالة أو

العزل من قبل الحاكم سواء لعدم التوافق معه أو بسبب مطالب أبناء الطائفة. وكان لشيخ الطائفة صلاحيات واسعة في تأديب أعضاء الطوائف، ووضع القواعد الضامنة للالتزام بتقاليد الحرفة وأخلاقياتها، في سياق لائحته الخاصة.

تولى شيخ الطائفة حل الخلافات بين الحرفيين أو بينهم وبين عملائهم، كما كان ضامناً للحرفيين العاملين تحت رئاسته لئلا يهربوا إلى مكان آخر تخلصاً من ديون عليهم أو إتاوات مفروضة من جانب السلطة، أو فراراً من مشكلات تورطوا فيها، ورغم كونه الشخص الأول المسؤول عن أعضاء طائفته، فإنه من العادات التي التزمها أصحاب الصناعات أن شيخهم حين يتعرض لضائقة مالية كانوا يتعاونون معاً من أجل فك ضائقتها.

ومن وقائع كثيرة يُستدل أن بعض هؤلاء الرؤساء، ربما، اشتروا مناصبهم سواء بالرشوة أو ببذل الأموال، إضافة إلى اعتيادهم تقديم مبلغ من المال لكل محتسب جديد يتولى شؤون الحسبة.

ولتحقيق شرعية مناصب هؤلاء الشيوخ، كانت المحكمة الشرعية تقر تعيينهم على رئاسة طوائفهم بحضور أعضائها وشهودهم بذلك، وتُصدر مرسوماً يحدد نطاق عمله ومسؤولياته وواجباته، والالتزام بطاعته من قبل طائفته (232).

من ناحية أخرى، كان للضباط حق جمع الضرائب من شيوخ الطوائف بعد جمعها من أطراف طوائفهم (233). وفي القاهرة القرن السابع عشر، كان ضباط منزل الباشا والمحاسب يتنافسون على التحكم في طائفة معينة، تنتقل ملكيتها تبعاً لتغير سلطة الباشا (234).

وقد أسهم نظام الطوائف في منع استبداد أصحاب رؤوس الأموال واستئثارهم بأرباح الصناعة وتسخير عمالهم لمصلحتهم الذاتية، كما أسهم كذلك على مستوى آخر، في خلق رقابة دقيقة على الصناع، وفي الارتقاء بمستوى الصناعات والحرف من الناحية الفنية (235).

تهتم جميع المصادر الأساسية والثانوية الخاصة بطوائف الحرف في القرن التاسع عشر وما قبله بطوائف مدينة القاهرة. وبالإضافة إلى التفاصيل الموجودة في السجلات الرسمية والمراسلات القنصلية ومواد أرشيفية أخرى وتواريخ وكتب أخرى وكتب الرحلات، لدينا قائمة تفصيلية تحدد طوائف حرف القاهرة من نهاية القرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر. وفيما يتعلق بنهاية القرن الثامن عشر فلدينا ما كتبه اثنان من المشاركين في كتاب "وصف مصر"، هما غاسبار دي شابرول وآدم فرانسوا غومار، وقائمة شاملة لطوائف حرف القاهرة الجديدة والقاهرة القديمة وبولاك والجيزة أدها الجيش الفرنسي عام ١٨٠١ (236)، وقائمة بطوائفها اشتركت في مراسم حفل زواج إسماعيل بن محمد علي في آخر ديسمبر من عام ١٨١٣ (237).

ثمة دراسة مهمة لطوائف حرف القاهرة بقوائمها حسب مختلف فروع الصناعة، نُشرت بدون اسم كاتبها في ١٨٣٨م (238)؛ وتقرير مفصل يلقي الضوء على هذه الطوائف كُتِب عام ١٨٧٠ بواسطة القائم بعمل قنصل بريطانيا عضو مجلس اللوردات البريطاني في القاهرة رافائيل بورغ (239) Raphael Borg، وقائمة رسمية بنقابات القاهرة نُشرت عام ١٨٧١ (240)، وأخيراً فصل في خطط علي مبارك، به قائمة لطوائف الحرف وتفاصيل أخرى نُشرت عام ١٨٨٦م ولكنها على الأرجح تعود إلى سبعينيات القرن التاسع عشر على شاکلة المواد الأخرى في عمل علي مبارك (241). كما أن القاهرة هي المدينة الوحيدة التي كانت طوائفها موضوعاً في كتاب جيرمان مارتن "أسواق القاهرة والجرف الصغيرة عند العرب" (242).

بالنسبة إلى عدد طوائف القاهرة في القرن التاسع عشر، لدينا رقمان محل ثقة يستندان إلى معلومات رسمية، الأول في عام ١٨٠١ وكان عددها في مصر عموماً ١٩٣ طائفة، باستثناء القاهرة القديمة وبولاك والجيزة. والرقم الثاني في عام ١٨٨٦، حينما نشر علي مبارك جزءاً من قائمة من ١٩٨ طائفة تعود في الأغلب إلى أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر (243). ومما يلفت النظر أن هذين الرقمين متقاربان بدرجة واضحة مع ملاحظة أنه بين عامي ١٨٠١ و١٨٨٦، نُشرت أرقام أخرى أقل منها، فقد ذكر الجبرتي أن ما بين ٩١ طائفة و١٠٦ طوائف اشتركت على التوالي في موكبي عُرس مع بداية عام ١٨١٤، لكنه لم يزعم أن هذه هي كل الطوائف الموجودة في القاهرة في ذلك الوقت (244).

وفي حوالي عام ١٨٤٠ ذكرت مصادر أخرى ١٦٤ طائفة، وأوردت قائمة ريني Regny لعام ١٨٧١ م ٦٤ طائفة(245). وهذا التقارب في الأرقام يتضح من خلال المقارنة بين القائمتين، فبينما يذكر ريمون في قائمته شيخاً لكل من جزاري الخراف في حي الحسينية، وجزاري البقر والجاموس، وجزاري الماعز وجزاري الخراف في حي الخليفة، نحد قائمة عام ١٨٣٨ تتحدّث عن الجزارين ككل(246). وعلى هذه الشاكلة يذكر ريني طائفتين من النجارين، في حين يذكر علي مبارك خمس طوائف(247).

ومن أهم الطوائف التي شهدها مجتمع القاهرة في العصر العثماني :

١ - طائفة الصيارفة

٢ - طائفة المبيضين

٣ - طائفة المغربيين

٤ - طائفة الصاغة

٥ - طائفة الحريرية

٦ - طائفة القزازين

٧ - طائفة القمصنجية

٨ - طائفة الصاغة

٩ - طائفة الحريرية

١٠ - طائفة القهوجية

١١ - طائفة النقاشين

١٢ - طائفة القبانية

١٣ - طائفة السقايين

١٤ - طائفة الحلوانية

١٥ - طائفة الخبازين

١٦ - طائفة العتالين

١٧ - طائفة المخللاتية

١٨ - طائفة الرخواتية بسوق القماش

- ١٩ - طائفة النحاسين
- ٢٠ - طائفة القبانين
- ٢١ - طائفة المدابغية
- ٢٢ - طائفة السماسرة
- ٢٣ - طائفة الحفارين
- ٢٤ - طائفة الحمامية
- ٢٥ - طائفة الصبانية
- ٢٦ - طائفة الخراطيين
- ٢٧ - طائفة الخياطين
- ٢٨ - طائفة المعصرانية
- ٢٩ - طائفة العطارين
- ٣٠ - طائفة المناخلية
- ٣١ - طائفة الحمامة
- ٣٢ - طائفة الفواله
- ٣٣ - طائفة النجارين
- ٣٤ - طائفة الحدادين
- ٣٥ - طائفة السمكية
- ٣٦ - طائفة صناع السلاح
- ٣٧ - طائفة الكتبة
- ٣٨ - طائفة البيطرة
- ٣٩ - طائفة الداخنية
- ٤٠ - طائفة الكيالين

لا يكاد ذكر الطوائف الحرفية يغيب في المصادر التاريخية، في جميع الأحداث الكبرى في التاريخ المصري خلال بدايات العصر الحديث. في هذا السياق يروي المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" المعروف بـ "تاريخ الجبرتي"، مشاركة الطوائف يوم الثلاثاء ٣ صفر ١٢١٣هـ الموافق ١٧ يوليو سنة ١٧٨٩م، في الاستعداد لمعركة إمبابة مع جيش المماليك، الذي خرج للدفاع عن القاهرة ضد بونابرت، ويقول:

"كانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجتمعون الدراهم من بعضهم وينصبون خياماً أو يجلسون في مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك" (248).

اشترك أيضاً رجال الصناعات والحرف في ثورة القاهرة الأولى، التي بدأت يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨، حيث حدثت اتصالات بين قيادة تلك الثورة وشيوخ الطوائف، وأصدر كل شيخ تعليماته إلى طائفته، بإغلاق محالهم عند صدور أول إشارة، وكان الجامع الأزهر هو مكان تجمع التجار والصناع والحرفيين الذين التحموا مع الثائرين ضد الجنود الفرنسيين. (249).

لم يقتصر اشتراك الحرفيين على ثورة القاهرة الأولى، بل شاركوا كذلك في ثورة القاهرة الثانية التي اندلعت في ٢٠ مارس ١٨٠٠م بشكل واسع وكبير.

ويروي الجبرتي في هذا الإطار بعض تفاصيل مشاركة أرباب الصنائع والتجار في تلك الثورة، ويقول:

"أنشأ عثمان كتحداً معملًا للبارود بببيت قائد أغا بخط الخرنفش وأحضر القندقية والعربية والحدادين والسباكين لإنشاء مدافع وبنيات وإصلاح المدافع التي وجدوها في بعض البيوت، وعمل العجل والعربات والجلل وغير ذلك من المهمات الجزئية، وأحضروا لهم ما يحتاجون إليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك، فصار كل هذا يصنع بببيت القاضي والخان الذي بجانبه والرحبة التي عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني" (250).

لعبت طوائف الحرف أيضاً دوراً بارزاً في الثورة التي أدت إلى تولية محمد علي باشا والياً على مصر، بقيادة الشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف، الذي استطاع تعبئة ٤٠ ألف مسلح، وفرض ضريبة على الأثرياء، حتى يستطيع أن يشتري السلاح ويوزعه على الأهالي، ولكي يفرض رواتب للصناع الذي تركوا حرفهم لكي يتفرغوا للقتال (251).

وقد برزت في خضم تلك الأحداث قيادات حرفية لعبت دوراً محورياً في هذا السياق، مثل حجاج الخصري شيخ طائفة الخضرية بالقاهرة وابن شمعة شيخ الجزارين اللذين ركب كل منهما في موكب النصر الذي ذهب يوم الاثنين ١١ ربيع الثاني ١٢٢٠هـ، الموافق ٩ يوليو ١٨٠٥م لاستقبال القابجي العثماني (الرسول) الذي يحمل أمر تولية محمد علي والياً للقاهرة. وهنا لأول مرة منذ قرون نحد القوى والزعامات الشعبية في مصر هي التي تصنع التاريخ، بعد أن كانت هي التي تعاني دوماً من ويلات (252).

في وقت متأخر من القرن التاسع عشر، ساندت عدد من الطوائف حركة أحمد عرابي، في مواجهة الشراكسة والأتراك والخديو، من أجل الحصول على سلطة برلمانية أكبر في عام ١٨٨٢، حيث تكاثفت الطوائف كطائفة الإسكافيين وبائعي البن والخياطين والحمالين من أجل إعادته لمنصبه كوزير للحربية في مايو من ذلك العام (253).

ويروي الجبرتي ضمن حوادث عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م، تأثر أرباب الحرف بسياسات محمد علي القائمة على الاحتكار والهيمنة على الموارد، ويعدد تفصيلاً نماذج منها:

”ومنها التحجير على الأجراء والمعمرين المستعمرين في الأبنية والعماير مثل البنائين والنجارين والنشارين والخراطين والزمامهم في عماير الدولة بمصر وغيرها بالإجارة والتسخير، واختفى كثير منهم وأبطل صناعته، وأغلق من له حانوت حانوته (...) وتكسب بحرفة أخرى فتعطل بذلك احتياجات الناس في التعمير والبناء، بحيث إن من أراد أن يبني له كائناً أو مزوداً لدابته تحير في أمره“ (254).

وفي عام ١٨٢١م، أصدر محمد علي أمراً ينص على منع كافة الأهالي من تشغيل أنوال الغزل والدوبارة، ويهدد بمعاقبة من يتجاسر منهم على الاستمرار في تشغيل تلك الأنوال، كما غلق مصانع السكر الأهلية عندما بدأت مصانع الحكومة في إنتاج السكر. وبهذا ألحق محمد علي بالصناعات وأهلها ضرراً بليغاً، من خلال سيطرته الاحتكارية التي أدت إلى ترك الكثير من الصناعات صناعاتهم، على نحو ما فعل الزراع أيضاً الذين تركوا زراعتهم جراء الظلم والقسوة والعسف، بينما تحول باقي المزارعين والحرفيين إلى مجرد أجراء لدى محمد علي. (255).

وإزاء ذلك، انقسم الحرفيون إلى فصيلين، الأول انحرف في ورش الحكومة التي أنشأها الباشا، والآخر ظل يعمل بمفرده تحت إشراف الحكومة، وبينما راح الأول يتقاضى أجوراً ثابتة وكبيرة نسبياً، فقد عانى الثاني من القرارات المالية التي كان يتحمل عبئها لتمويل الحكومة، وهو ما أدى إلى اختيار القطاع الثاني للعمل في مصانع الحكومة.

ويرى جبرمان مارتن في كتابه ”أسواق القاهرة والحرف الصغيرة عند العرب“ (256)، أن الطوائف بعدما دُمّرت عن طريق محمد علي ونابليون، دُمّرت مرة ثانية على يد سعيد باشا، الذي جرد الشيوخ من سلطتهم في توجيه عقوبة جسدية، ومرة أخرى عن طريق الخديو إسماعيل الذي قام أولاً بتعيين الشيوخ ونقلهم إلى وظائف حكومية، وأخيراً عن طريق الاحتلال البريطاني الذي قضى على النظام النقابي في عام ١٨٨٢م وحرّم الشيوخ من الوظيفة المالية التي يتمتعون بها سابقاً. وقدّم مايهرهوف Meyerhof رأياً مماثلاً في مقاله عن العطارين (257).

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولت معيشة الحرفيين باستثناء بعض الصناعات إلى معاناة، بسبب انفتاح البلاد أمام الواردات الأجنبية رخيصة الثمن متقنة الصنع، وبدء عصر الامتيازات الأجنبية، بعد سقوط نظام الاحتكار عام ١٨٤١، بعد هزيمة محمد علي أمام تحالف القوى الأوروبية، وهو ما أجهض فرصة عودة الازدهار إلى الحرف والصناعات المصرية بعد إلغاء نظام الاحتكار، وعودة الحرية الاقتصادية لطوائف الحرف والتجارة للعمل من جديد في الفترة بين عامي ١٨٤١ و ١٨٩٠ (258).

وانتهى، أخيراً، نظام طوائف الحرف في مصر، نتيجة للأمر الصادر في ٩ يناير من عام ١٨٩٠، الذي قرر حرية احتراف أي مهنة، دون اشتراط أن يكون المحترف صبيّاً متمرناً (259). أخيراً، اختفت آخر الوظائف المهمة لشيخ الطائفة، ألا وهي توفير العمال للعمل، خلال العقد الأول من القرن العشرين، ففي عام ١٩٠٢ أصدرت الحكومة قراراً ينص على الشروط الواجب توافرها في الأفراد الذين يقومون بمهمة تشغيل خدم المنازل، ولم يرد في هذا القرار ذكر أي طائفة أو شيخها (260).

ومع نهاية العقد الأول من القرن العشرين، حل متعهد العمال (الخولي) محل شيخ الطائفة بالنسبة لتوفير العمالة اللازمة. وفي جرفة البناء، أدى هذه المهمة شخص يعمل في الوقت نفسه ملاحظ عمال. بدا واضحاً أن شيوخ طوائف الحرف قد حُرموا من جميع مهامهم تقريباً، وكان سبب ذلك يرجع جزئياً إلى تعليمات حكومية واضحة محددة ويرجع أساساً إلى أن هذه المهام قامت بها مصالح وإدارات حكومية مختلفة، أو مؤسسات اجتماعية واقتصادية جديدة.

ماتت الطوائف موتاً بطيئاً، وإذا كان عدداً كبيراً منها قد اختفى خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، فإن بعضها استمر بعد ذلك. ولم تعد ثمة أخبار بعد الحرب العالمية الأولى عن تعيينات لشيوخ طوائف أو عن أي مهمة قامت بها طوائف الحرف في الحياة العامة في مصر، التي كانت

مدنها قد تغيّرت تغيّرًا كاملاً من النواحي الاجتماعية والسياسية.

ويرى غابرييل باير أن تفكك الطوائف جاء نتيجة لعدم وجود نظام صارم للتمرين على الحرف، وعدم وجود تمييز واضح بين الصبي في الحرفة والعامل الماهر، ولم يكن هناك جمعيات للعمال المهرة، كما كان من السهل نسبيًا لأي متمرّن أو عامل بارع أن يصبح معلمًا. ويشير إلى أن مرجع هذا التدهور هو عدم حدوث أي تطور اقتصادي جاد في مصر لعقود متتالية بعد فشل تجربة محمد علي الصناعية، وقيام عباس وسعيد باشا بتصفية جزء من مصانع محمد علي، والجزء الآخر باعه سعيد ومنحه على هيئة التزام لأفراد. وحاول الخديو إسماعيل إحياء الصناعة عن طريق تبني مشروعات حكومية وإرسال بعثات للخارج، لكن الإنتاج تحوّل ليصبح غير ذي عائد اقتصادي؛ لذا تمت تصفية مجموعة كاملة من المصانع في عام ١٨٧٥ وتحوّلت المباني إلى ثكنات (261).

الأكيد أنه مع نقص التطور الصناعي وتدهور الطوائف المحلية، تأثرت الحرف التقليدية بشدة بتغيّر العادات الاستهلاكية، والتدفق المتزايد للبضائع الأجنبية، لتتفكك للأسواق التقليدية على نحوٍ متدرج، وتنتشر تجارة التجزئة في أنحاء المدينة، يتسلل الأجانب إلى الفروع التي لطالما احتكرها التجار المصريون في السابق.

ميراث العثمانيين.. محشي وبقلاوة!

بعد تعاقب الثقافات والحضارات على أي دولة تتأثر معرفتها وعاداتها وتقاليدها، بل معجمها اللغوي الخاص، بتلك الثقافات، وهذا ما حدث في مصر إثر خضوعها للإمبراطورية العثمانية، حيث رحلت الإمبراطورية وبقي بعض شواهدا وطقوسها وعاداتها وتقاليدها، فضلاً عن قاموسها اللغوي.

ولأن مصر ظلت خاضعة للحكم العثماني لأكثر من ثلاثة قرون فقد تأثرت بالدولة العثمانية، التي تأثرت هي أيضاً بطبيعة الحياة وتقاليدها في مصر، فيما يمثل تأثيراً تبادلياً، وقد امتد تأثير الحقبة العثمانية في مصر إلى الكثير من نواحي الحياة، بما في ذلك العادات والتقاليد، وأصبح لتركيا عادات وتقاليدها مقتبسة من مصر والشام، وكذلك اقتبس المصريون والعرب عادات وتقاليدها مقتبسة من الحكم العثماني.

وتركت الحقبة العثمانية في مصر الكثير من الشواهد المعمارية الباقية مثل الأسبلة؛ ففي عهد عبد الرحمن كتحدا في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، شهدت مصر بناء عدة أسبلة وكتاتيب بعضها متصل بالمسجد والبعض منفصل عنه، ومن هذه الأسبلة: سبيل محمد علي في النحاسين وعبد الرحمن كتحدا في الجمالية وسبيل الوالدة باشا في شارع الجمهورية، ومن الآثار والشواهد البارزة أيضاً مسجد محمد علي بالقاهرة بمآذنه وقبابه المتعددة، الذي صممه المهندس العثماني سنان لمحاكاة مسجد السلطان أحمد بإسطنبول، ومسجد محمد أبو الذهب، ومسجد سارية الجبل أو سليمان باشا، ويقع داخل قلعة صلاح الدين، وهو أول مسجد في مصر أنشئ على الأسلوب العثماني، ومسجد سنان باشا ومسجد الملكة صفية في شارع محمد علي بالقاهرة، وهي زوجة السلطان مراد الثالث، ومسجد تغري بردي، ويقع في شارع المعز لدين الله، ومسجد سيدي عقبة بن عامر، ومسجد ميرزا.

ومن الشواهد المعمارية التي خلفها الحكم العثماني لمصر أيضاً التكايا، التي أقامها العثمانيون لاستقبال المتصوفين الذين ينقطعون للعبادة، ومنها التكية السليمانية وتكية السلطان محمود في شارع بورسعيد، ومن أهم المنشآت في ذلك العصر سبيل خسرو باشا بالنحاسين، ويقع بجوار قبة السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

استحدث العثمانيون في بناء الجوامع بمصر الشكل التركي، وهو متخذ من شكل الكنائس البيزنطية القديمة، ومن مظاهر هذا الاقتباس اتخاذ القباب بدلاً من السقف المستوية، فصارت القبة في كل جامع هي المركز الذي يدور عليه بناء الجامع، وكانت القباب قبل ذلك تستخدم في الأضرحة فقط.

ويعد عبد الرحمن كتحدا هو شيخ المشيدين والمرممين في ذلك العصر؛ فله ١٨ جامعاً في القاهرة من بين منشأ حديثاً ومجدد، وأشهر ترميماته ترميمه الجامع الأزهر وضريح السيدة زينب والسيدة سكيته، وآخر ما أقيم في مصر من الآثار التركية السبيل والكتاب اللذان بناهما السلطان مصطفى الثالث تجاه مسجد السيدة زينب، وسبيل وكتاب السلطان محمود الأول في شارع درب الجمامين.

وفيما يتعلق بالطقوس الرمضانية فإن مدفع رمضان هو تقليد بدأه العثمانيون في مصر لإعلان حلول الشهر ومواقيت الإفطار والإمساك.

ومما خلفته الفترة العثمانية من تأثير على القاموس المصري أن تركت مجموعة كبيرة من الكلمات التي نستخدمها في حياتنا اليومية دون أن يعرف كثيرون أن أصلها "عثماني"، وقد امتزجت بالقاموس الذي يستخدمه المصريون في حياتهم اليومية، ومن هذه الكلمات ما هو موجود في مجالات العمارة والتجارة والسياسة وفي المجال العسكري أيضاً، ومن هذه الكلمات كلمة "جمرك" التي تعني "الضريبة التي تؤخذ على البضائع"، وكلمة "شنطة" للدلالة على الحقائق، وبخاصة الصغيرة منها، وكلمة "جزمة" وأصلها "تشيزمه" بالتركية بمعنى حذاء(262).

ومن الألفاظ التي يستخدمها المصريون أيضًا كلمة الأسطى، وأصلها (أستا)، وهي فارسية دخلت اللغة التركية والعربية، وتعني "الأستاذ"، كما تعني في أساسها الصانع الحرفي الماهر الذي أتقن صناعته، كما أنها تعني في مصر "السائق" أيضًا، وكلمة "الطوبجي" كلمة تركية بمعنى "المدفعجي"، وهو القائم بإطلاق المدفع، وكان للطوبجية أميرالاي أو "قائد المدفعجية"، في حين أن "الطوبخانة" تعني "مخزن مدافع الجيش".

أما إضافة حرفي الجيم والياء في نهاية الكلمة التي تعبر عن كل مهنة فأصلها تركي أيضًا، ومنها: "مكوجي وبوسطجي وقهوجي وقومسيونجي وقانونجي وسفرجي".

أما كلمة (بُتْجَة) فأصلها تركي ويستخدمها البسطاء تعبيرًا عن القماشة التي يجمعون فيها متعلقاتهم في شكل (صُرَّة)، وأيضًا كلمة "دولاب" وكلمة "قبضاي" وتستخدم للتعبير عن قوة الشخص وجراته، وتعبير "عقارم عليك" يعني "أحسننت"، وكذلك كلمة "شاكوش" أي "المطرقة"، وكلمة "طابور" للدلالة على "الصف" وتعني "جماعة من العسكر يتراوح عددهم من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠"، وكلمة "درازين"، وهو السياج على جانبي السُّلم، وكلمة "كوبري" للدلالة على "الجسر".

ومن الكلمات المستخدمة في البلاط الخديوي قديمًا في مصر كلمة "قادين"، وتطلق على الجارية بعد أن تصبح خليعة الخديو، وما زالت كلمة "قادين" تستخدم في تركيا، ومعناها "امراة"، وهناك كلمة تركية نحتها في الأغاني المصرية الفولكلورية القديمة وهي كلمة "ياواش ياواش"، ومعناها بالعامية المصرية "بشويش".

وتعد الألقاب التي اعتاد المصريون استخدامها من قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ إلى الآن، وهي "بك وباشا وأفندي وأفندم وهانم"، تركية أيضًا، وكانت كلمة "أفندي" لقبًا للأمرء وأولاد السلاطين، كما كانت لقبًا لرؤساء الطوائف الدينية والضباط والموظفين، أما كلمة "البازار" فهي فارسية الأصل دخلت اللغة التركية وتأتي بمعنى "السوق"، وتعني كلمة "الباش أو الباشي": الرئيس أو المسؤول، مثل "باش كاتب" أو "باش مهندس"، وتأتي أحيانًا في آخر الكلمة مثل "بك باشي" ومعناها مقدم و"حكيم باشي"، واشتق منها لفظ "باشا".

أما عن الرتب والألقاب العسكرية فأغلبها يعود لأصل تركي، ومنها كلمة أونباشي، وهو المسؤول عن عشرة عسكريين، أي "أون"، وكلمة "يوزباشي"، وهو المسؤول عن مئة جندي.

وتبادل المطبخان التركي والمصري التأثير في قاموس الطبخ وأنواع الأطعمة وأسمائها، وهناك أكلات متشابهة بين المطبخين تحمل نفس الاسم. ومن أشهر الأكلات التركية التي يضمها المطبخ المصري وأصلها عثماني: "المحشي" والمعروف في تركيا باسم "دولة" والكباب والكفتة والشكشكية والشكشوكة والشاورمة والكبيبة وبابا غنوج والشيخ طاووق.. كلها تركية، أما الحلويات فأبرزها الكنافة والبسبوسة والبقلاوة، وعن أصل تسميتها تقول إحدى الروايات إنه كان للسلطان العثماني عبد الحميد طبخة اسمها "لاوة"، وهي التي ابتدعت هذه الحلوى، وعندما ذاقها السلطان لأول مرة قال لضيف عنده: "باق لاوة نه بايدى"، أي: انظر ماذا صنعت الطباخة "لاوة".

ويفتخر الأتراك بامتلاكهم الحق التاريخي في البقلاوة، وقيل إن تاريخها يعود في شكلها الأول إلى الآشوريين، ثم أخذها عنهم الأتراك في عصور الدولة العثمانية وطوّروها، أما أشهر الأكلات المصرية التي نقلها المطبخ التركي فهي الفطير والحمام.

الآجانب.. تجّار وصّناع ومحتكرون

تدفق الأوروبيون على مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر. وبالإضافة إلى الآلاف من اليونانيين الذين استجلبهم محمد علي، بلغ عدد الأوروبيين العاملين في خدمة الباشا في عام ١٨٣٦ ثلاثة آلاف من مختلف التخصصات العسكرية الفنية، بالإضافة إلى من عمل منهم في التجارة⁽²⁶³⁾. وتشير إحصاءات إلى أن عدد الآجانب بلغ نحو ستة آلاف فرد عام ١٨٤٧ وفي عام ١٨٧٢ بلغ عدد الأوروبيين ٨٠ ألفاً، في حين قدّر الخديو إسماعيل عددهم بنحو ١٠٠ ألف⁽²⁶⁴⁾، تركزت غالبيتهم في مدينتي القاهرة والإسكندرية حيث المجال المفتوح لممارسة المهن التجارية⁽²⁶⁵⁾. وكان منهم ٣٠ ألفاً من اليونانيين، و١٥ ألفاً من الإيطاليين، ثم بلغ عددهم ذروته في عام ١٩٠٧، عندما ارتفع إلى ٢٢١ ألفاً، أو ٢٪ من السكان. تنوع الآجانب في مصر ما بين الإنجليز والفرنسيين واليونانيين والإيطاليين والأرمن والروس والأميركيين والنمساويين والبلجيكي والبلغار⁽²⁶⁶⁾.

تمركز الأوروبيون في المدن، حتى أصبحوا يشكّلون في عام ١٩٠٧ ما يعادل ١٦٪ من سكان القاهرة، و٢٥٪ من سكان الإسكندرية، و٢٨٪ من سكان بورسعيد⁽²⁶⁷⁾.

غير أن قوة تأثير هذه المجموعة ونفوذها تجاوزا حجمها. فيحلول نهاية القرن التاسع عشر، كان الآجانب يمتلكون ٩٦٪ من رأسمال سوق الأسهم المتنامية آنذاك، وأخذوا يمتلكون البنوك والفنادق والمتاجر الفخمة والمصانع التي عملت من أجل تقديم الإمدادات مباشرة إلى حركة البناء المزدهرة. وامتلك الأوروبيون نسبة لها وزنها من الأراضي (١٢٪ عام ١٩٠٩) وكانوا يشكلون الكتلة الأساسية من المهندسين، ومنهم أغلب من في مصر من أطباء، ومهندسين، ومحامين بدرجة أقل، وعدد من العاملين في الوظائف المدنية العليا.

الأكثر أهمية من ذلك، أن الأوروبيين كانوا هم الذين يمتلكون ويديرون أغلب المؤسسات المالية والتجارية والصناعية الأساسية. وفي عام ١٩١٠، كان ثمن سكان القاهرة الـ ٧٠٠ ألف نسمة، من الآجانب، وفي غرب ميدان العتبة، كان عدد الآجانب يزيد على عدد المصريين بنسبة ثلاثة إلى واحد، وكان للآجانب في مصر حلاّقوهم الخصوصيون، وبائعو الخردوات وصانعو أحذيتهم، ومستشفياتهم ونواديهم ومدارسهم⁽²⁶⁸⁾. أما القاهرة الأخرى، فقد أصبحت بالنسبة لهم مجرد منظر مسرحي خلفي للمتعة والتسلية المؤقتة. وفي عام ١٩٣٧، كان الآجانب يمتلكون في مجموعهم نحو ١٠٪ من إجمالي الثروة في مصر، ويتمتعون بامتيازات ضريبية وقضائية وسياسية⁽²⁶⁹⁾.

يمكن القول إن الرأسمالية الأجنبية بدأت نشاطها في مصر مع بدء نظام الامتيازات الأجنبية الذي يقضي بأن يعامل أصحابها معاملة خاصة، من حيث عدم الخضوع للقضاء المحلي⁽²⁷⁰⁾، ومحاكمتهم أمام قناصلهم وإعفائهم من الضرائب⁽²⁷¹⁾ وحرية ممارسة المعتقدات الدينية، وحرية التجارة الأجنبية في كل الإمبراطورية العثمانية، وحرية المسكن.

وتعهّدت الدولة العثمانية في تلك الامتيازات بحماية أرواح الآجانب وأموالهم ومنح قناصل الدول الأجنبية حق النظر في شؤون رعاياهم المدنية والتجارية، والفصل في كل ما ينشأ بينهم من منازعات وخصومات.

دفعت مصر ثمن هذه الامتيازات منذ صدورها في عام ١٥٢٥، وكان كل قنصل يعتبر الحاكم الفعلي لأعضاء جاليته وقاضياً يفصل في الشكاوى والقضايا التي تُرفع ضدهم⁽²⁷²⁾.

منحت السلطات في مصر ابتداءً من عهد الخديو إسماعيل الكثير من الآجانب تصريحاً بإنشاء شركات لإدخال المياه وتوصيل الكهرباء والغاز في القاهرة والإسكندرية ومدن أخرى، الأمر الذي جنى من ورائه هؤلاء الأشخاص مبالغ ضخمة وأرباحاً طائلة انتعشت بها ثروتهم.

هذه الفرص الجديدة للإثراء أضيفت إلى الأراضي التي سمح لهم محمد علي بامتلاكها منذ أوائل حكمه، لتصل مساحة أطيان الأبعادية التي كانوا يملكونها بحلول عام ١٨٤٠ إلى ٢٥ ألف فدان. ومنح فرمان ١٨٧٦ للآجانب من الأتراك والشراكسة والأوروبيين حق تملك الأراضي داخل

الإمبراطورية العثمانية، تتويجاً لنفوذهم المتنامي (273).

بالإضافة إلى ذلك فقد أسرف كبار ملاك الأراضي المصريين في الديون لتغطية نفقات حياتهم الاستهلاكية، الأمر الذي انتهى بهم إلى بيع أراضيهم للأجانب، وهي حقيقة تؤكد حركة بيع الأراضي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فمن أطياف عبد اللطيف باشا البالغة مساحتها ٢٠٥٠ فداناً في عهد إسماعيل والموزعة على مديريات الشرقية والجيزة وأسيوط وجرجا، اشترى الألماني كاريس بيرس من رعايا بروسيا ٣٨٥ فداناً، واشترى يوناني اسمه "استرايو" وإنجليزي يُدعى "فتسترو" ٤٠٥ أفدنة، وحدث الأمر نفسه بالنسبة لأطياف كثيرين من "الذوات" باعوها ليونانيين وأرمن ونمساويين وفرنسيين (274).

ولم يحل عام ١٨٨٧ حتى كانت مساحة ما يملكه الأجانب من الأطياف الزراعية في مصر تبلغ ٢٢٥ ألفاً و ١٨١ فداناً، تضاعفت خلال عشر سنوات لتبلغ ٥٧٣ ألفاً و ٨١٩ فداناً في عام ١٨٩٦، ثم ٦٢٢ ألفاً و ٥٢٢ فداناً في عام ١٩٠٦، أي ما يتراوح بين ١٠٪ و ١١٪ من جملة مساحة أراضي البلاد الزراعية (275).

وخلال الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٥٢، امتلكت عائلتان من الأجانب أراضي تتراوح مساحتهما بين ٥ آلاف فدان و ١٠ آلاف فدان، وهما عائلتا كحيل قسطنطين بالغربية والدقهلية، ودفراخس بالغربية والبحيرة، وبلغ عدد من كان يملك من ألف فدان إلى ٥ آلاف فدان من الأجانب ١٧ عائلة، أبرزها: مازو محالي بالمنيا وبنى سويف، وغالانتى بالفيوم وكفر الشيخ، وبيراكوس بالبحيرة والشرقية، وليخونيتي بالشرقية، وكان عدد العائلات الأجنبية التي تمتلك ما بين ٥٠٠ فدان وألف فدان ٢١ عائلة، أبرزها: غريغوس بكفر الشيخ والغربية، وغرين سلامون بالفيوم والجيزة والصحراء الغربية (276).

برز دور الجاليات الأجنبية التي ضمت عدداً من كبار الأثرياء، ومن ذلك على سبيل المثال أبناء الجالية اليونانية، ممن حققوا ثراءً واضحاً في مصر، ويمكن القول إنهم كانوا أكثر الجاليات الأجنبية تداخلاً مع الأهالي، وامتازوا بالتمسك والترابط؛ لذا تفوقوا في التجارة الداخلية وبصفة خاصة تجارة التجزئة. ومن مشاهير تجارهم في القرن التاسع عشر الخواجة باجييو (277)، وتوسيغا وستورمارا وسكارمانغا وقسطنطينيو وديميتري ستمان بمحلة أبو علي والتاجر محالي إرساكي بالدقهلية والتاجر مانولي بالمنيا (278)، الذين سيطروا على تجارة الحبوب قبل أن ينقلوا نشاطهم إلى تجارة القطن. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر جمعوا بين تجارة القطن وأعمال الوكالة عن بعض الشركات والسمرة بالعمولة والأعمال المتصلة بتمويل منتجي القطن (279)، وكُونُوا جميعاً رؤوس أموال عن طريق العمل بالبقالة وتقديم القروض بالرهن (280)، والربا للفلاحين الذين استغلوا طبيعتهم؛ مما أدى إلى استيلائهم على أراضيهم (281).

عمل اليونانيون في مجالات تجارية متعددة، فاحتكروا تجارة البقالة مع قيامهم ببيع الأقمشة والجوخ والمصنوعات الرخيصة والأدوات المنزلية والمعدنية (282)، إلا أنه أُجِّذَ عليهم بعض أعمال الغش والسرقة والتخريب (283)، في حين أن منهم من اشتهر بحُسن السمعة (284).

برز حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين رجال مال وأعمال يونانيون، مثل م. لاسكاريس، وأنستاسي أكسينوس وديميتري زوتس. وعلى سبيل المثال، فقد ارتبطت صناعة الدخان في مصر باليونانيين والأرمن، ويتضح ذلك من خلال أسماء أصحاب المعامل مثل نستور جنالكليس، وكريازي، وعياش وطنبه، ونيقولايدس، وخريستو كاسمبيس، وسيمونيدس، وماتوسيان.. وغيرهم (285).

كان اليونانيون متضامنين في عقد صفقاتهم ومتعاونين بدرجة كبيرة على رغم قلة رؤوس أموالهم مقارنة بجاليات أجنبية أخرى، فأنشأوا فروعاً لمصارفهم في مصر، مثل بنك أثينا (١٨٩٤) والبنك اليوناني (١٩٠٦). ونظراً لكثرة عددهم، وجدناهم يفتتحون المقاهي والحانات ومحال بيع الخمر.

ومن الإنصاف القول إن عددًا من أثرياء الجاليات الأجنبية أسهموا في إقامة منشآت اجتماعية وتعليمية ومشروعات خيرية. ففي عام ١٩٠٨ أنشأت عائلة سالفاغو من أموالها مدرسة الصناعات في الإسكندرية، ثم أضيفت إليها مدرسة للتجارة. وأنشأ زرفودا كي مدرسة ثانوية في الثغر ووقف عليها الأوقاف الواسعة، وأوصى بندلي فاميلياوس بإنفاق ٣٣٠٠ جنيه على تلك المدرسة.

كما تم بناء "مدرسة فاميليايوس" لكي تقوم على خدمة الأطفال اليونانيين المقيمين بمنطقة العطارين وأيضًا محطة السكك الحديدية الرئيسية، محطة مصر، كما يُطلق عليها. وفي عام ١٩٢٥، وبفضل منحة موجهة من أنطونيس أنطونيايس، تم تأسيس دار لرعاية المسنين. كان والد يوانيس أنطونيايس هو من منح بلدية الإسكندرية القصر الخاص بالعائلة بحدائقه المشهورة للترويج عن أهالي الإسكندرية. وفي هذا المكان الآن توجد حديقة الحيوان وحديقة النباتات. وخلال فترة رئاسته ومن خلال مشاركة ومساعدة عائلة كوتسيكا، تم بناء مستشفى متطور ومتعدد الطوابق، مجهز على أعلى مستوى.

تولت الجمعية اليونانية بالإسكندرية إدارة المستشفى، الذي تم افتتاحه عام ١٩٣٨. لعب مستشفى "كوتسيكيو" دورًا مهمًا أثناء فترة الحرب العالمية الثانية، عندما فر جنود الجيش اليوناني إلى مصر وكذا الحكومة اليونانية المنفية بسبب الغزو الألماني لليونان. وأثناء فترة الحرب تم علاج الجرحى اليونانيين والمصريين وكذا الحلفاء داخل أسرة المستشفى البالغ عددها ٢٥٠ سريرًا.

أما يونانيو القاهرة، فقد أنشأوا ملجأ للعجزة ربما كان الأول من نوعه في مصر، وأقاموا ملاجئ للأيتام مثل ملجأ بناكي وكانيز كيري. بيد أن أهم منشآت الخير التي قامت على أكتاف يوناني في مصر هو مستشفى كبير أنشأه تيوخاري كوتسيكا، الذي أسهم في تأسيس مرفق الإسعاف في مصر وتبرع بأول سيارة إسعاف مجهزة من ألمانيا لخدمة المرضى. وهذا الرجل هو الذي أدخل صناعة الكحول والسيروتو إلى مصر عام ١٨٩٣؛ إذ أنشأ مصنعًا للكحول في منطقة نائية بالقرب من طرة، وكان أغنى أغنياء الجالية اليونانية، وكانت ثروته قبل بزوغ القرن العشرين تقدر بأربعة ملايين جنيه⁽²⁸⁶⁾.

توسّع كوتسيكا في إنتاجه وزوّد مصنع بخطط إنتاج جديدة من الجلوكون والنشا في ١٩٥٤، إلا أن كل هذه الخطوط لم تستمر في جعبة اليوناني ملك السيروتو سوى سبعة أعوام، بسبب قرارات التأميم في عام ١٩٦١ والتي بسببها دُمج المصنع مع عدة شركات امتلكتها جميعًا الشركة المصرية لصناعة النشا والجلوكون.

واليوم، يمر ركاب المترو بمحطة كوتسيكا، دون أن يعرف أغلبهم أن اسمها يعود إلى رجل أعمال يوناني طبّقت شهرته الآفاق في مصر، "وقد ترك ثروة كبيرة تُقدّر بنحو أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات"⁽²⁸⁷⁾.

أما الجالية البريطانية فقد احتلت في عام ١٩٣٧ المركز الثالث من حيث العدد، ثم ارتفعت في عام ١٩٤٧ إلى المرتبة الثانية بعد الجالية اليونانية. تركّز البريطانيون في القاهرة والإسكندرية بشكل كبير، كما أقاموا في السويس ومنطقة القنال، وعملوا في الصناعة والزراعة والنقل والخدمات الاجتماعية وغيرها.

احتكر الإنجليز تجارة الغلال والأرز والأقطان والكتان⁽²⁸⁸⁾، فضلًا عن تجارة الأقمشة الصوفية والقطنية والبياضات والفحم⁽²⁸⁹⁾، ومن أشهر تجارهم في منتصف القرن التاسع عشر الخواجة ناتي وولهايم⁽²⁹⁰⁾ وجورجي⁽²⁹¹⁾.

وبلغ عدد الإيطاليين نحو ١٤ ألفًا في عهد الخديو إسماعيل⁽²⁹²⁾، ووصل عددهم إلى ٣٥ ألفًا عام ١٩٠٩⁽²⁹³⁾، وكانوا الجالية الأجنبية الثانية من حيث العدد والانتشار في مصر حتى بداية الحرب العالمية الثانية، لكن هذه الجالية تراجعت لاحقًا إلى المرتبة الثالثة بعد اليونانيين والبريطانيين.

نح الإيطاليون وتوسعوا في أعمالهم -مثل التجارة والتسويق والصيرفة- منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين، واختلطوا بالأهالي وتركزوا في الإسكندرية. ومن أشهر تجارهم الخواجة إميل باشوة، تاجر الأصناف، ولكثرة تجارته اتخذ إيتريكو جوارنيوه وكيلاً عنه (294).

من جهتهم، تركّز الفرنسيون في القاهرة والقنال والسويس، وعلى رغم قلة عددهم فإنهم احتلوا المرتبة الأولى في مجال التجارة عام ١٩٣٧، واحتكروا في القرن التاسع عشر تجارة المنسوجات الحريرية والدانتيل وتجارة الأقطان والغلّال، كما مارسوا السمسة وشاركوا في صناعات متعددة وخدمات اجتماعية من مستشفيات ومدارس (295).

من أشهر العائلات الفرنسية التي عملت بالتجارة -في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين- وتمتعت بسمعة طيبة عائلة بيترو مرسية، وينتمي إليها التاجران شارل وتيمون (296). واشتهر منهم الخواجة إميل مرسية، الذي أسس شركة تجارية وامتلك الأراضي والوابورات لنقل الأقطان وتصديرها من الإسكندرية (297). وقد قل عددهم عقب الاحتلال البريطاني لمصر بعد أن كان عددهم ١٥ ألف فرد (298).

أما الألمان فقد بلغ عددهم عام ١٨٩٧ نحو ١٢٨١ نسمة (299). وعملوا على تجميع أنفسهم في شكل جالية، كما نشروا ثقافتهم وعاداتهم بين الجنسيات الأخرى (300). وفرضت متاجرهم نفسها على السوق المصرية مع بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فأصبحت الأدوات الصينية والكرتون والقطيفة والحديد والمصابيح والمطاط والطرابيش وأدوات المائدة والعلطور وأنواع الصابون من السلع التي احتكروا تجارتها حتى عام ١٩١٤ (301).

وفي عام ١٨٨٢ بلغ عدد الروس ٥٣٣ نسمة، واشتهروا بتجارة العسل، وكان لهم وكلاء في كل مدينة وتمتعوا بالامتيازات التي منحتها لهم الدولة العثمانية، حيث صدرت الأوامر إلى جمارك الإسكندرية وبولاق ودمياط ورشيد والسويس والقصر، بمعاملتهم مثل العثمانيين في التعريف الجمركية (302).

كذلك انتقل إلى مصر عدد من النمساويين حتى بلغ عددهم عام ١٨٩٧ نحو ٧١١٥ نسمة انتشروا في أنحاء مصر، وعملوا في تجارة الغلال والقطن (303). ومنهم من عمل في مهنة متواضعة مثل الدلالة وغيرها (304)، ونحو ذلك كان نشاط المالبين والإسبان.

من أهم الأعمال التي استهوت الأجانب في مصر واستثمروا أموالهم فيها، الأعمال المالية والتجارية، من بنوك وشركات مال وتأمين وشركات تجارة داخلية وخارجية، وبرز منهم بريطانيون مثل ديليم ماكينزي، وجورج فريدريك بورجودين، وبيتر ألكنسون، وهنري كريشفسكي، ومركو ليفي، وشارل مييلي، وجوزيبي أوزير.

كما برز في هذه الأعمال فرنسيون، أمثال لويس باروخ، وليون بيلويس، وأبرامينو يديد، وإيسات ج. مزراحي، وماكسي مزراحي، ورينيه مولي، وشارل روجيه.

أما الإيطاليون، فقد كان منهم أفراد من عائلة موصيري، مثل: مورييس موصيري وروبير موصيري ومنديز موصيري، إضافة إلى كاترين سيمون شارلوت دريفوس، وأنخلو كارلو مييلي، وريشارد دريفوس، وبيير ويشار، وإيزيدور كوهين، ومورييس ج. كوهين، وفيكتور كوهين.

وبعد صامويل سورناغا رائد صناعة الطوب والخزف، وهو إيطالي يهودي، قدم إلى مصر عام ١٩٠٠ وأصبح رائد صناعة الطوب والخزف، وأسس مصنعاً للطوب الحراري في محافظة القليوبية، وما زال المعمارون يطلقون على هذا النوع من الطوب سورناغا. كان عقلية اقتصادية فذة، ومتسامحاً إلى حد كبير وشيّد مسجداً ضخماً إلى جوار مصنع الطوب (305)، ومن بين أوجه المشاركة الاجتماعية تبرعه لإنشاء هيئة الإسعاف المصرية، كما أسس في عام ١٩٢٠ مصنعاً للفخار والخزف مستخدماً آلات حديثة.

وكان البلجيكي هنري نوس أول رئيس لاتحاد الصناعات المصرية، حيث أسسه عام ١٩٢٢ تحت اسم جمعية الصناعات المصرية. عندما كان رئيسًا للاتحاد المذكور، كان له الكثير من القرارات المهمة، منها الدفع بمنع استيراد السلع التي تنتج محليًا عام ١٩٣٠، إلى جانب إسهاماته المجتمعية، مثل التبرع لإنشاء جامعة القاهرة عام ١٩٠٨، وإنشاء عيادة طبية شاملة في بولاق لتقديم خدمات العلاج الأولية، وتبرعه السخي لإنشاء هيئة الإسعاف المصرية في ١٩١٧، وهيئة الآثار أيضًا. وسُمي شارع باسمه في وسط البلد بعد وفاته عام ١٩٣٨، لكن تم تغيير اسم الشارع في أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢.

ويعد السويسري إرنست ترامبلي رائد صناعة الأسمنت؛ إذ جاء إلى مصر في نهايات القرن التاسع عشر وأصبح الأب الروحي لصناعة الأسمنت في مصر، وأدار أول مصنع لصناعة الأسمنت أسسه البلجيكيون، واهتم بفتيات الصناعة وبحوثها، وساعد في تطويرها وتحديثها. وكان ضمن المشاركين في تأسيس جمعية الصناعات المصرية، وأصبح السكرتير العام الفخري بعد تحوله لاتحاد الصناعات المصرية عام ١٩٣٠ وهو من الشخصيات التي حصلت على نيشان السلطان فؤاد، واعتزل العمل في السبعينيات من عمره وعاش في مصر حتى توفي وعمره ٩٠ عامًا.

من ناحية ثانية، فقد هاجر الأرمن إلى مصر في عصور مختلفة، وشهد حُكم محمد علي نزوح موجات أرمنية كبيرة إلى مصر، حيث وثق محمد علي بالأرمن وجعلهم من أصحاب الرأي والمشورة، كما أداروا الثروات الخاصة لأفراد أسرة محمد علي، فعلى سبيل المثال، أدار سوكياس تشاركيان -والد الأخوين آرتين وخسروف تشاركيان- الأمور المالية لطوسون بن محمد علي. بيد أن المذابح التي تعرّض لها الأرمن على يد العثمانيين تعد السبب الرئيسي في نزوح موجات جديدة إلى مصر خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

بلغ عدد الأرمن في عهد الخديو إسماعيل ١٠ آلاف نسمة، وتفوقوا في تجارة التجزئة وفي الصيرفة مثل الخواجة سركيس في حارة اليهود وفي صياغة الذهب والفضة كالخواجة قرابيت الجواهري في الأزبكية، وبرزوا في المهارة اليدوية فتاجروا في الساعات وتصليحها، وعملوا في مهن متواضعة مثل الصباغة والخياطة والتطريز، واحتكروا تجارة الملح والسجائر بالجملة والقطاعي، مع تفضيلهم التعامل مع بني جنسهم ^[306].

تركز الأرمن أساسًا في القاهرة والإسكندرية وبأعداد أقل في رشيد ودمياط والسويس، ومارسوا نشاطًا اقتصاديًا ملحوظًا في مجالات المال والتجارة والزراعة والحرف والصناعات وملكية الأراضي، كما نالوا وضعية مريحة في الجهاز الحكومي، فكانت نظارة الخارجية احتكارًا أرمنيًا ^[307]، واشتغلوا في أجهزة التعليم والمالية والسكة الحديد والتجارة والخارجية والحقانية والداخلية والأشغال.

انقسم الأرمن إلى شرائح اجتماعية لكل منها سماتها وتقاليدها. فتبوأ الأرستقراطية الأرمنية -مثل عائلات يوسفیان ونوباریان وآبرویان وتشارکیان وحکیکیان ودمیرجیان- قمة الهرم الاجتماعي. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأرستقراطية تندرج في شريحة الذوات أو أعيان (كبار ملاك الأراضي الزراعية) المجتمع المصري وتتساوى معهم في الرُتب والثروة والجاه. ويذهب البعض إلى أن جذور عائلات يوسفیان وآبرویان ونوباریان تمتد إلى نواة واحدة هي أسرة بجرادوني الملكية التي هاجرت إلى أزمير بعد زوال حكمها في آني.

وفي الواقع، كان للأرستقراطية الأرمنية تقاليدها المتأصلة التي أدت إلى توثيق الغرى فيما بينها بشدة. فقد احتفظت أسرنا آبرویان ونوباریان بذاكرة واعية لماضيها الإقطاعي أسهمت في صياغة اتجاه أدوارها الخاصة في الحياة. وسعت الأسرتان بعد زوال حكمهما وأملاكهما إلى أن تستعيدا عن طريق التجارة، الثروة الوضعية اللتين كانا قد اكتسبها عن طريق الإقطاع. ورغم تلاشي وضعيهما الطبقي كنبلاء، فإن الأسرتين ظلتا متمسكتين بأصولهما النبيلة في المياد والتربية ومتشبثتين بالتقاليد الإقطاعية.

وكذا، احتفظت الأرستقراطية الأرمنية بظاهرة القيادة التي تُوجّه شريحتهم وتهيمن عليها. يصدق هذا على بوغوص يوسفیان وآرتین تشارکیان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، كما يصدق على نوبار نوباریان وديكران وآبرویان ويعقوب آرتین خلال النصف الثاني من القرن المذكور.

ويُلاحظ وجود ظاهرة "التبني الفكري" بين الأرستقراطية الأرمنية. فمثلاً، تبنى بوغوص يوسفيان توجيه آل نوباريان فكرياً، وتبنى آل نوباريان توجيه آل آبرويان. ويدل استخدام هذه الشريحة لأسماء أجدادهم من القادة والزعماء المشهورين مثل نوبار وأراكيل وبوغوص وغيرهم، على رغبتهم في تخليد ذكراهم وطبيعة طموحاتهم المحفورة في نفوسهم التي يسعون إلى تحقيقها.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أن أبناء هذه الشريحة قد تزوجوا فيما بينهم للحفاظ على تقاليدهم وتدعيم مكاسبهم الاقتصادية والاجتماعية. فقد تصاهرت على سبيل المثال أسرتا تشاركيان وحكيكيان الكاثوليكيين، وتزوج ديكران آبرويان الأرثوذكسي من زيبا ابنة نوبار نوباريان. ورغم هذا، "كانت تُثار بعض الأحقاد بين أبناء هذه الشريحة بسبب وصول بعضهم إلى مراكز حكومية مرموقة وعدم وصول آخرين رغم كفاءتهم إلى مثل هذه المراكز. فمثلاً، كان المهندس يوسف حكيكيان حزيناً بمرارة لأنه لم يتقلد منصباً مرموقاً كأقرانه الأرمن، مثل آرتين تشاركيان وإسطفان دميروجيان ونوبار نوباريان. لذا، ظل يمتعض هؤلاء الأرمن معتبراً نفسه إنحليزياً لأنه تلقى تعليمه في إنحلترا"³⁰⁸.

كما توجد في سفح الهرم الاجتماعي الأرمني شريحة من الفقراء الذين اعتمدوا في حصولهم على المال على إعانات المجلس المالي وأثرياء الأرمن ومساعدة الحكومة المصرية. أما الأرمن اللاجئون إلي مصر منذ تسعينيات القرن التاسع عشر فقد تجمعوا بالمئات تحت الخيام والعش في أفنية الكنائس والمدارس الأرمنية بالقاهرة والإسكندرية.

كان من شأن الزيادة الملموسة في الدخل الزراعي بين منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر وعام ١٩٠٧ أن تمكن الراغبون من كبار مُلاك الأراضي من تمويل مختلف المؤسسات الأهلية والإشراف عليها، وكذلك كان الأمر بالنسبة للفوائض المتحققة للرأسمالية الإقليمية. كما كان المقيمون من الجاليات الأجنبية، منظمي أعمال مهمين يدعمون منظمات الجمعيات الحديثة في مجالات معينة، من العمل المصرفي إلى إنتاج الأفلام، مروراً بتأسيس "النوادي والجمعيات" للفئات المميزة.

أقامت كل جالية أجنبية مستشفى ضخماً لأبنائها، فوجدنا المستشفى الإيطالي قريباً من ميدان عبده باشا، وما زال تمثل الملك عمانويل بيزين مدخل المستشفى. وأسّرت الجالية اليونانية فأقامت المستشفى اليوناني -غير بعيد عن الإيطالي- للعلاج المجاني. حتى اليهود في مصر أقاموا المستشفى الإسرائيلي بشارع رمسيس قرب غمرة، والمستشفى الفرنساوي في العباسية الشرقية، ثم المستشفى الأنحلو أمريكيان في منطقة الجزيرة، قرب برج القاهرة.. وهكذا.

يضاف إلى من تقدّم من أثرياء تلك الفترة، البارون البلجيكي إدوارد لويس جوزيف إمبان (٢٠ سبتمبر ١٨٥٢ - ٢٢ يوليو ١٩٢٨)، الذي قرر الاستثمار في مصر عام ١٨٩٤، فقد توافرت الظروف لاجتذاب المستثمرين الأجانب آنذاك؛ حيث النهضة العمرانية والخدمات التي تعتمزم الحكومة بدء العمل فيها، من مد خطوط الترام، والإضاءة بالغاز، والمياه، والصرف الصحي وغيرها. وبالفعل، أسس البارون "الشركة المساهمة للترام" في القاهرة؛ ليستثمر فيها أمواله، ويسهم في بناء مشروعات جديدة، ويمد ترام مصر الجديدة، بهدف ربط المنطقة الناشئة بحي وسط القاهرة، وتشجيع الناس على السكن فيها.

وصل البارون إمبان إلى مصر في يناير ١٩٠٤ بغرض إنقاذ أحد مشروعات شركته، وهو إنشاء خط سكة حديدية يربط بين المنصورة والمطرية (مدينة على بحيرة المنزلة - بورسعيد). وعلى رغم خسارته حق إنحاز المشروع الذي أُسيّد إلى البريطانيين بدلاً من شركته، فإنه ظل في مصر ولم يرحل عنها.

وإمبان مثلاً للمغامرين الأجانب الذين وجدوا في النظام الاقتصادي لمصر في مطلع القرن العشرين مرتعاً خصباً لهم. ويقول أحد المؤرخين الأجانب³⁰⁹، إنه لم يكن بطبيعة الحال محبوباً؛ لأن تشبيهه بالأمرء لم يأتلف مع سماعة الشرق، وكان يهيم بالمعارك، لكنه حظي بصدقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

فكر البارون إيمان في الاستثمار العقاري؛ ليواكب متطلبات القاهرة آنذاك بعد أن منح الترام سكانها فرصة الخروج والانتقال إلى أماكن جديدة بعيدة نسبياً. وتصادف أن تلك الحقبة شهدت حُمى مضاربات عقارية على الأراضي، وخاصة تلك المطلة على النيل، وانتشرت أعمال الهدم للمباني القديمة لإعادة البناء، حيث كان ذلك يمثل أفضل استثمار خلال فترة سميت بحُمى الخديو إسماعيل، وسجلت أسعار الأراضي ارتفاعاً هائلاً مقداره أربعون ضعفاً خلال عشر سنوات من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٥، وأسهم ارتفاع ثمن الأراضي في إبطاء حركة البناء، وغرقت القاهرة في أزمتي غلاء معيشة ونقص شديد في توفر المساكن المناسبة، كما أثرت أعمال الهدم على حالة النظافة العامة وغمرت الأتربة المدينة بشكل لم يكن معروفاً من قبل.

هنا يمكن أن نتفهم سر تلك الفكرة العبقريّة التي تبلورت في خيال إيمان، بإمكان حصوله على أراضٍ شاسعة في صحراء مصر القريبة بثمن بخس لإقامة واحة خضراء يتخللها العمران، مع العمل على جذب سكان القاهرة بشتى الوسائل لإغرائهم بالانتقال للإقامة والاستقرار في مجتمع عمراني سكني جديد.

من هنا بدأت المغامرة؛ في ٢٣ مايو ١٩٠٥ حصل إيمان على امتياز بتملك مساحة كبيرة من المنطقة المعروفة آنذاك بصحراء القاهرة بعد شرائها من الحكومة الاستعمارية البريطانية. اشترى إيمان المنطقة الواقعة على بُعد نحو ١٥ كيلومتراً شمال شرق القاهرة بسعر جنيه واحد للفدان^[310].

وأبرم عقد اتفاق مبدئي بين إيمان وبوغوص باشا نوبار نصه: "إن الطرفين اتفقا على إنشاء شركة القاهرة للسكك الكهربائيّة وشركة واحات هليوبوليس، ريثما يتم الحصول على موافقة الحكومة، وتخضع الشركة لمكانتها الخاصة، وهدفها الأساسي إقرار واستغلال الامتياز الذي منحتة الحكومة المصرية في ٢٣ مايو ١٩٠٥ بإنشاء خط للسكة الحديد وحطين للترامواي الكهربائي، ويكون للشركة أن تنتفعه بالقوانين والفوائد والمزايا الواردة في العقد المؤرخ في ٢٣ مايو ١٩٠٥، والذي باعته الحكومة المصرية بمقتضاه وسلمت ونقلت الحقوق الخاصة بملكية مساحة ٢٥ كيلومتراً مربعاً، أي ما يعادل ٢٥٠٠ هكتار أو ٥٦٥٢ فداناً في صحراء العباسية إلى الجنوب الشرقي من الطريق القديم إلى السويس"^[311].

وفي ٢٣ يناير ١٩٠٦ أنشئت الشركة رسمياً، وهي شركة واحات هليوبوليس برأسمال قدره ١٥ مليون فرنك بلجيكي.

وضع البارون التصور المبدئي للمدينة، واستعان بالمهندس البلجيكي الشاب إرنست جاسبر والمهندس الفرنسي لتشييد ضاحية هليوبوليس، التي أرادها أن تكون قاهرة جديدة راقية، تشتمل على جميع مرافق البنية التحتية اللازمة من كهرباء ومياه وصرف صحي وفنادق، بالإضافة إلى ملاعب الجولف ومضمار سباق الخيول ومدينة ترفيهية "لونا بارك" وغيرها من الخدمات الراقية.

اهتم إيمان بالتأكد من خلو الموقع المختار من الآثار، ذلك الاهتمام الخاص بحماية التراث ومعالم الحضارات القديمة أمر نادر الحدوث في مجالات الأعمال والاستثمار، كما اهتم بعدم التصريح بإقامة منشآت متنوعة فوق أراضٍ ذات نوعيات تربة غير متماسكة، حيث استخدمت هذه الأراضي في إقامة حدائق ومساحات مفتوحة، مثل أرض الجولف "الانتفاخية" وأرض السباق "الانهيارية"^[312].

ضمت هليوبوليس مساكن راقية للإيجار مصممة على تصاميم معمارية مبتكرة في ذلك الوقت، تشكل حتى الآن تراثاً معمارياً فريداً. سكنتها الشرائح الاجتماعية الأكثر وفرة والأكثر ثراءً، ومنهم الأجانب، بالإضافة إلى عدد من الأعيان المصريين.

وهليوبوليس بشكل من الأشكال مدينة بُنيت من العدم، ففي حين أنه لم يكن يسكنها سوى ١٠٠٠ شخص عام ١٩١٠، ارتفع الرقم إلى ٥٠ ألف ساكن في عام ١٩٤٧^[313].

ولعل أشهر آثار البارون إيمان في مصر هو قصر البارون (١٩١١) الذي استلهمه من معبد أنكور وات في كمبوديا ومعابد أوريسا الهندية. صمم القصر المهندس الفرنسي ألكسندر مارسيل، الذي كان يعرض تصميمًا لقصر يتبنى الطرازين الأوروبي والآسيوي في معرض هندي في باريس عام ١٩٠٥ فأعجب به البارون واشتراه ليكون من أولى البنايات التي زينت صحراء مصر الجديدة. وقد جلب البارون الرخام المستخدم لبناء القصر من إيطاليا

والكريستال من سلوفاكيا، وأشرف على الزخرفة جورج لويس كلود. وتم تشييد القاعدة الخرسانية لهذه التحفة المعمارية بحيث تدور على عجلات، ليدور القصر بمن فيه ويرى الواقف في شرفته كل ما يدور حوله ويتبع الشمس في دورانها على مدار ساعات النهار. ويشغل القصر وحديقته الواسعة مساحة ١٢,٥٠٠ متر.

والبارون إيمان هو الذي أسس البنك الصناعي البلجيكي والمعامل الكهربائية في شارلوا وسكك حديد الكونغو البلجيكي، وشركات عدة أخرى، وكان عضو مجلس إدارة شركة ترامواي القاهرة، وشركة سكة حديد الوجه البحري^[314].

توفي البارون إيمان في بلجيكا بعد إصابته بمرض السرطان، لكنه دُفن في مصر بناء على وصيته وتحديدًا في كنيسة البازيليك التي بناها بالقرب من قصره، ومرتبطة به عبر نفق خاص. قصر وكنيسة البازيليك ١١ عقارًا هي كل تركة البارون إيمان في مصر التي تقاسمها ولداه جان ولويس.

ترك إدوارد إيمان لولديه هذه التركة الضخمة، والتي قُدرت عام ١٩٣١ بحوالي ١٤٩٧٦٠ ألف جنيه. وبعد وفاة البارون بحوالي العام، رأى الشقيقان أنه قد آن الأوان لفصل التركة وحررا عقد قسمه في ١٢ يناير ١٩٣١، حدد نصيب الابن الأكبر جان بالقصر الهندي، وهو قصر البارون.

وحدد عقد القسمة نصيب الابن جان بالعقارات أرقام ٩ و ١١ و ١٣ بشارع السلطان حسين، وهي تقع على قطعة أرض تبلغ مساحتها حوالي ٢٥٠٠ متر، وهي مكونة من دورين ويضم كل عقار ٦ شقق، والعقار رقم ٧ بشارع كومانوس، وهو مكون من ثلاثة أدوار، والعقار رقم ١٠ بشارع سيزوستريس ومكون من ٣ أدوار أيضًا.

أما أملاك الأخ الثاني لويس، فقد انحصرت في البازيليك مصر الجديدة، وهو مبني على مساحة ١٤٦٤ مترًا، وإبراشية مصر الجديدة التي تضم كنيسة البازيليك، وقد تبرعت بها أسرة لويس بعد ذلك للكنيسة الكاثوليكية بمصر.

وتضمنت تركة لويس أيضًا ٦ عقارات بمصر الجديدة، وقد قدر الشقيقان في عقد القسمة نصيب كل منهما على أساس أن البازيليك والإبراشية اللذين حصل عليهما لويس، تصل قيمتهما إلى ٢٨ ألفًا و ٨٠٠ جنيه، وهي نفس قيمة قصر البارون، الذي حصل عليه البارون جان.

أما العقارات التي دخلت في حصة البارون لويس، فقد بلغت قيمتهما نحو ٤٥ ألفًا و ٥٤٠ جنيهًا، بينما بلغت العقارات التي حصل عليها البارون جان نحو ٤٦ ألفًا و ٦٢٠ جنيهًا، ونص العقد على اعتراف الشقيق بسداد جان ٥٤٠ جنيهًا لشقيقه لويس كفرق عن الأنصبة الخاصة بالتركة^[315].

نفوذ الشوام

عاش الكثير من الشوام في القاهرة في القرن السابع عشر، وربما قبل ذلك (316). كان أكثر هؤلاء المهاجرين الشوام من طائفة الروم الكاثوليك، الذين أتوا إلى مصر للتجارة من فلسطين وسوريا. وازداد عددهم بعد الانقسام الذي دَبَّ في الكنيسة في دمشق عام ١٧٢٤، حيث ادعى كل من كيرلس وسلفستروس تبوء سدة البطريركية. ومارس الأخير الاضطهاد على أنصار خصمه بفضل تأييد الباب العالي له، بإيعاز من البطارقة الأروام في القسطنطينية (317). كان معظم المهاجرين من أصحاب التجارة الواسعة وأهل الصناعات العالية وكُتَّابًا في الدواوين، كما كان عددٌ منهم من الحرفيين وخاصة فئة نساجي الحرير، وجاء فريق آخر منهم إلى مصر طلبًا للعلم والدراسة في الأزهر (318).

أقام أكثر المهاجرين الشوام في أول الأمر في دمياط، الميناء المهم في مصر في ذلك الوقت. وإلى جانب الأرمن، شكَّل المهاجرون الشوام واسطة عقد كل تجارة بين الشرق والغرب. وسكن بعض كبار التجار الشوام في بولاق على النيل؛ ليكونوا على اتصالٍ بدمياط بطريق النهر (319).

أما الإسكندرية فقد عمل فيها أكثر المهاجرين الشوام في النشاط التجاري والصناعي، فكان منهم تجار الجبن والتمر والبهارات والأخشاب والدخان والخبازين والطحانيين والدباغين. وبحلول العام ١٨٧٠ أو ما قبله، ومن خلال التجارة والصفقات الملكية، كانت عائلات سرسق ودبانة وزنانيري وزغيب، التي ترجع أصولها إلى بلاد الشام، قد أصبحت من أغنى العائلات في الإسكندرية.

كما استقر الشوام في الغربية بمدن المحلة الكبرى وطنطا ومحلة حسن، وكان أكثرهم من ذوي النشاط الحرفي الصناعي بجانب الفلاحة، إلى جانب أعداد قليلة في الجيزة والشرقية والصعيد.

وعلى غرار الأقليات الأخرى في مصر، سكن الشوام في أحياء خاصة بهم. ففي القاهرة، أقاموا في مصر القديمة بجوار دير مار جرجس، وفي الحارة الداخلية المعروفة بحارة الروم. وتركزوا في شارع الحمزاوي، حيث كان أغلب تجاره من نصارى الشوام والأقباط مثل الخواجا أنطون عزيز والخواجا حنا عزيز النصراني الحلبي والخواجا أندراوس الشهير بالزهار ولد الذمي قسطنطين النصراني الشامي، ونصري بركات ولد أنطون بركات النصراني الحلبي، ونقولا سيدناوي الذي كان يعمل بتجارة الخردوات والحرير بالحمزاوي.

كما تركز الشوام في عدة وكالات بالجمالية منها وكالة التفاح، ومن الشوام الذين تاجروا فيها عبده سليق بن إسماعيل سليق الشامي الدمشقي، وطالب الدمشقي وكان رئيس التجار بوكالة التفاح، وكذا انتشروا في وكالة القرب التي تخصصت في بيع القرب الآتية من القدس والخليل، ووكالة الصابون، وقد تحكم الشوام القادمون من فلسطين في معظم هذه التجارة الأخيرة (320).

ومن الأرقام المستقاة من سجلات الفرنسيين، يبدو أن عدد العائلات السورية في القاهرة بلغ ٢٠٠ عائلة في عام ١٧٦٠، ثم قفز العدد في أواخر القرن الثامن عشر إلى ٤٠٠ عائلة، بالإضافة إلى مجموعات متفرقة في رشيد ودمياط. وفي عام ١٧٢٢ سُمِحَ بوجود شيخ مسيحي لعموم السوريين في القاهرة، وهو ما يشير إلى أنهم أخذوا في التمايز عن غيرهم كقُتَّة أو مجموعة من سكان مصر.

دخل التجار الشوام في مزاحمة تجارية مع الأقليات الأخرى، كما اهتموا بالعمل في الدواوين. فقد نافسوا اليهود في التزام عائدات الجمرک التي شكلت أهم المصالح في مصر، والتي لم تكن تخرج من يدهم. وكانوا يلتزمون ضمان رسم الجمرک بطريقة سرية من شيخ البلد مقابل ٣٠ كيسًا يدفعونها للخزينة رسمًا رسميًا، لكنهم كانوا في حقيقة الأمر يدفعون أضعاف ذلك لذوي الشأن أو أهل النفوذ من المالكين. ومقابل هذا المبلغ كان يحق لهم أخذ رسم على جميع الواردات بحرًا من أوروبا، وعلى الواردات برًا وبحرًا من بلاد المغرب والهند والحجاز. كما كانوا يحصلون على نسبة تتراوح بين ٣ و ٥٪ على جميع الصادرات من حاصلات مصر والسودان، وعلى ما يمر بها من الهند والحجاز، مما كان يطلق عليه تجارة أصناف البهار (321).

ولم يكن اليهود يستخدمون في هذه المصلحة من كُتَّاب ونُظَّار وخدام وعمال في دمياط وبولاق ورشيد والإسكندرية وغيرها إلا من أبناء ديارنتهم. وعشية استيلاء نابليون بونابرت على مصر، انتقلت مصلحة الجمرِك إلى يد الشوام، واستمرت معهم إلى أيام محمد علي باشا. وزاد بدل الالتزام من ٣٠ كيسًا إلى ١٠٠ حتى بلغ ١٠٠٠ كيس. وأول من تقدَّم بضمانه هو أنطون فرعون، الذي كان أول من أسس كنيسة خاصة للروم الكاثوليك في دمياط. وكان بنفوذه يحميها ويغنيها عن الفرمان السلطاني الذي كان لا بدَّ منه. ولبت أنطون يلتزم الجمرِك أو باسم أخويه فرنسيس ويوسف وباسم ابن عمته أنطون كساب وأخيه يوسف كساب إلى فترة طويلة. واتخذ من أقاربه وأبناء طائفته أعوانًا، منهم حنا فخر على موانئ البحر المتوسط، وميخائيل فرحات على القاهرة خلفًا لليهودي يوسف بن لاوي(322).

غير أن النقلة النوعية في تعداد الشوام في مصر وتعاظم نفوذهم، جاءت في عصر محمد علي الذي استخدمهم في مجالات مختلفة، أبرزها مجال التعليم(323). ويبدو أن استعانة محمد علي بالشوام كان سببها الأساس رغبته في الاستفادة من إتقانهم للغات الأوروبية. فقد كان كل أساتذة مدرسة الطب التي أنشئت عام ١٨٢٧ من الفرنسيين الإيطاليين، ولاحظ كلوت بك أن هيئة التدريس والطلبة يواجهون صعوبات بسبب جهل كل فريق من الأساتذة والطلاب لغة الآخر، فوجد محمد علي وکلوت بك أنه من الأفضل الاستعانة بمن في مصر من الشوام الذين لديهم معرفة باللغات الأوروبية إلى جانب اللغة العربية(324).

والى جانب التعليم، استخدم محمد علي الشوام في مجالاتٍ أخرى، مثل أعمال الجمارك، والترجمة، وفي مجال زراعة التوت لتربية دودة القز لصناعة الحرير(325). ومارس بعضهم تجارة الأخشاب والمنيفاتورة(326) وشاعت على أيديهم تجارة الأقمشة والشالات الكشمير والأجواح الشامية في سوق الترك(327)، وفضَّل بعضهم تجارة الخردوات والسمسرة والدلالة(328) والربا والصيرفة(329).

وكان من أشهر التجار السوريين سليم بك شديد، الذي امتلك ٣٣ ألف فدان، وميخائيل لطف الله، الذي قدم إلى مصر عام ١٨٤٥، وجمع هو وأخوه المترجم حبيب لطف الله ثروة هائلة من التجارة بين مصر والسودان. وفي مطلع القرن العشرين، اشترى حبيب لطف الله ٤٠٢٤ فدانًا من مطاي بمديرية المنيا. واتخذ لطف الله -الذي وُلِدَ في لبنان ونال الجنسية الروسية- سيرة الملوك والأمراء، حتى لقد طمع الأمير لطف الله بن حبيب باشا لطف الله بأن يكون ملكًا على سوريا(330).

كما يُمثل عيسى أفتموس نموذجًا براقًا للشوام الناجحين في مجال التجارة، حيث ترك إحدى الشركات الأجنبية التي كان يعمل فيها مترجمًا في بورسعيد وحاز عددًا من التوكيلات التجارية وأنشأ محلاً كبرى حملت اسمه. ومنهم أيضًا داوود حبيب الذي افتتح محلاً صغيرًا في القاهرة عام ١٨٩٣، ثم توسع وأصبح من كبار رجال الأعمال في بدايات القرن العشرين. وأسس الكونت دي زغيب في نوى بمركز شبين القناطر أول مصنع للمربي والشربات في مصر، وذلك في عام ١٩٠١.

وفي مجال الصناعة كان للشوام فضل تأسيس واحدة من أهم الشركات المصرية، وهي شركة الملح والصودا عام ١٨٩٩ والتي أنتجت منتجات الملح والزيوت لأول مرة في مصر. كذلك فقد أسس جرجس عماد عام ١٨٩٨ مصنعًا للصابون باسمه واستطاع أن يغطي ٨٠٪ من احتياجات البلاد حتى عام ١٩١٢، ومن بعده عمل في الصناعة نفسها إلياس قصيري ويوسف أبو شنب وغيرهما. وفي صناعة حلج القطن نبغ بشارة صليب وجرجي عرمان، وفي ضرب الأرز اشتهر أنطونيو رزق(331).

ومن أشهر الشوام في مجال تجارة الذهب والمجوهرات في القرن التاسع عشر ميخائيل مسديه الجواهرجي بسوق الصاغة ولد الذمي إلياس مسديه الشامي، وعيروط بك جواهرجي الخديو توفيق، وشوشان كيروس ليان، وكان يتاجر في الساعات والجواهر في القاهرة(332).

وجاءت قبضة العثمانيين الحديدية لتدفع بالمزيد إلى الشوام إلى الهجرة والاستقرار في مصر. ووفد إلى مصر عدد كبير من الشوام ممن كانوا هاربين من ملاحقة السلطات العثمانية لهم ومن ضغطها على حرية آرائهم، وبخاصة بعد نشوء فكرة القومية العربية ورواجها في بلاد الشام(333).

ومن يستقرئ تلك الفترة سيجد أن الكثير من الأحداث تعاقبت بعد عام ١٨٦٠، سواءً أكان في الشام أو في مصر، ودفعت بالكثير من اللبنانيين والسوريين إلى الهجرة إلى مصر. ولعل أبرز هذه الأحداث تتمثل في المذابح الدامية التي وقعت عام ١٨٦٠ بين الدروز والأرمن بتدبير من الباب العالي، وانعكاسها على الوضع المادي كما على الوضع الفكري. أضف إلى ذلك تراجع تجارة الحرير، بسبب استيراد أوروبا للحرير الياباني بدلاً من الحرير اللبناني. كما ظهرت انعكاسات الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٧، وما تبعها من فرض للأحكام العرفية، ومن رقابة وضرائب ثقيلة على كافة مقاطعات الإمبراطورية.

أما في مصر، فقد برزت عدة عوامل وتهيأت الكثير من الظروف لتجذب صحافة الشوام إليها، منها تمتّع مصر بنوع من الاستقلالية الذاتية نسبياً، وافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ في عهد الخديو إسماعيل، بحيث دُشن عهد من التطور في كل المجالات: سكك الحديد، خطوط التلغراف، حفر الترع وما تبعه من تضاعف للإنتاج الزراعي، إنشاء المدارس، تطور التجارة، افتتاح بورصة في الإسكندرية عام ١٨٦٦، إصلاح جامعة العلوم الدينية في الأزهر، إيجاد مجلس للنواب عام ١٨٦٦، ومجلس للوزراء عام ١٨٧٧.

يضاف إلى ذلك، عودة البعثات الجامعية التي كان الخديو قد أرسلها إلى الخارج، والتي أتت بدورها لتسهّل دخول الحضارة الغربية إلى مصر. كما ظهر العمل الصحفي وانتشر في المدن المهمة، ليشهد على عصر الانبعاث والنهضة خلال عهد الخديو إسماعيل.

ويبدو أن عصر إسماعيل شهد أيضاً زيادة كبيرة في عدد الشوام المهاجرين إلى مصر نتيجة التحاق الأجانب بالوظائف الحكومية، والحاجة إلى عناصر تجيد اللغات الأجنبية وتستطيع شغل المواقع الوسطى بين الأوروبيين والمصريين في خدمة الحكومة. وفي ظل إجادتهم للغات الأجنبية وسهولة تعامل المسيحيين منهم مع الأوروبيين، فضّلت الإدارة المصرية التعامل مع الشوام دون المصريين في فترة رواج القطن في ستينيات القرن التاسع عشر (334). بلغ عدد الشوام في عام ١٨٧٧ سبعة آلاف فرد، وازداد عددهم في ظل الاحتلال (335). ونشطوا في العمل الحكومي وفي مجال الصحافة، إضافة إلى التجارة، مما جعلهم موضع حنق المصريين، خاصة الأقباط (336).

في المقابل، لقي الشوام ترحيباً خاصاً من اللورد كرومر، ورأى باحثون أن الاحتلال البريطاني كان يهدف من وراء ذلك إلى اصطياد أكثر من عصفور بحجر واحد. فمن جهة، توقعت سلطات الاحتلال أن يكون هؤلاء الشوام موالين له بحكم المصلحة المشتركة، ومن جهة أخرى أراد الاحتلال البريطاني اللعب على وتر المنافسة بين الشوام وبين شريحة من الأقباط في السعي للتقرب من الاحتلال ولطبعهم بالثقافة الإنجليزية (337).

الجدير بالذكر أن الأقباط لعبوا منذ الفترات الأولى بعد الفتح العربي دوراً مهماً في إدارة شؤون مصر المالية، لا سيما جباية الضرائب الزراعية، ونشأت لذلك فئة اجتماعية ومهنية عُرفت باسم "الكتبة والمباشرين الأقباط". وحرصت هذه الفئة على احتكار هذا الدور وهذه الوظائف على مدار قرون (338)، حتى جاء الشوام لينافسهم على هذا الدور.

ويجوز القول إن الاحتلال البريطاني احتضن الشوام؛ إذ رأى أنه ليس باستطاعته الاعتماد على المصريين، من مسلمين أو أقباط، فلم يبق أمامه سوى الشوام، لذا قرّبهم اللورد كرومر واعتبرهم "منحة من السماء"، ولذا وصلوا إلى أعلى المراكز الإدارية، فكان منهم المحاسبون والصحفيون والمترجمون والجباة والمرابون، وأصبحوا قوة اقتصادية وسياسية ذات نفوذ. وقد استمدوا نفوذهم وأهميتهم من المراكز التي شغلوها، فقد كان معظمهم من الطبقة العليا وكبار رجال الدولة (339). ودلّل اللورد كرومر على قوة نفوذ الشوام في مصر اقتصادياً وسياسياً بذكره أنهم كانوا يحتلون في مصر المركز الذي كان يحتله اليهود في البلاد الأوروبية (340).

وإذا كان فريق من الشوام ارتضى التعاون والتعامل مع الاحتلال البريطاني في مصر، فمن الضروري القول إن هذا لم يكن موقف الشوام في مصر على إطلاقهم، فقد وقف عددٌ منهم ضد الاحتلال، مثل نقولا حداد الذي كتب ذات مرة معاتباً الشوام المتعاونين مع الاحتلال قائلاً: "إن تحرير مصر

من الاحتلال الإنجليزي هو أمنية كل مصري، وما من مصري يقبل مناقشة فيه، ولو قلت له إن هؤلاء الإنجليز خدام للنبي محمد لأصر على القول: لا أريدهم. ففي هذا الأمر لا يقبل المصري مناقشة" (341).

أسهم الشوام في إثراء الحياة الثقافية والفكرية في مصر، وكان أغلبهم من ذوي التعليم العالي، وساعدتهم ثقافتهم وأفكارهم على تقبل المفاهيم الغربية والعمل بها. وقد ساعدتهم ميلهم إلى العمل في ميدان الصحافة على نشر الأفكار والآراء الغربية الجديدة في المجتمع المصري (342). وهكذا برز في النقاش حول مسألة القومية العربية والتنوير الفكري، كل من يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) وشبلي شميل (١٨٥٠ - ١٩١٧) وفرح أنطون (١٨٧٤ - ١٩٢٢) وجورجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤)، وسليم النقاش وأديب إسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥). كما ازدهر المسرح والدراما في مصر بفضل مشاركة الفرق الوافدة من الشام اعتبارًا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وكانت أولى الفرق الشامية التي هاجرت إلى مصر هي فرقة سليم النقاش وأديب إسحق التي وفدت عام ١٨٧٦ (343). وأحدث أبو خليل القباني تأثيرًا هائلًا في المسرح المصري، ومن أبرز مسرحياته تلك التي اقتبسها من الفولكلور العربي والتاريخ الإسلامي ومن "ألف ليلة وليلة" (344). وتعد فرقة إسكندر فرج آخر الفرق الشامية التي أسهمت في إرساء قواعد قواعد المسرح المصري. استمرت فرقته "الجوق المصري العربي" تعمل ١٨ عامًا (١٨٩١ - ١٩٠٩)، وكانت تمثل مسرحية جديدة كل شهر.

وعند الحديث عن الشوام في مصر، ثمة حقيقتان أساسيتان: الأولى، هي دور الشوام في تأسيس الصحافة المصرية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ("الأهرام"، "الهلال"، "المقطم"... إلخ). فقد أصدر الشوام في مصر أكثر من ٢٢٠ صحيفة ومجلة في الفترة من ١٨٦٦ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية. والحقيقة الثانية هي دور مصر في استقبال الصحفيين والكتاب الشوام، وفي فتح الأبواب الاقتصادية أمامهم وأمام الهجرة الكبرى من لبنان إلى الإسكندرية والمنصورة وبورسعيد والقاهرة.

وإذا كانت الموجة الأولى لهجرة الصحفيين الشوام قد توقفت بعزل الخديو إسماعيل وتولي الخديو توفيق الذي أغلق عددًا من الصحف الشامية التي كانت تعبر عن الحركة الوطنية، فإن الموجة الثانية من الصحفيين الشوام تدفقت على مصر عقب الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، واستمر هذا التدفق حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ (345).

لم يكن الشوام بارزين فقط في حقل الصحافة، بل الذي ساعدهم ودعم وجودهم هو بروزهم كمجموعة اقتصادية صناعية تجارية كبرى في بلد مفتوح للأجانب، يوم كانت الإسكندرية هي الحاضرة المتوسطة الأولى، وميناء المتوسط الذي لا يهدأ، تجارة ونقلًا ومبادلات. وكذلك كانت بورسعيد وحركة القناة. وقد حاز المهاجرون اللبنانيون على الاعتبار بسبب هذا الدور، وليس فقط بسبب دورهم في الصحافة. غير أن الصحافة بطبيعتها تبرز أصحابها وأهلها فيما يميل رجال المال والاقتصاد إلى الانزواء الاجتماعي (346). وقد برز من هؤلاء كثيرون: فاطمة اليوسف (١٨٩٧ - ١٩٥٨)، وبشارة تقلا (١٨٥٢ - ١٩٠١)، وأنطون الجميل (١٨٨٧ - ١٩٤٨)، وجورجي زيدان، وكريم ثابت. وكان الجميل رئيسًا لتحرير "الأهرام" وعضوًا بارزًا في مجلس الشيوخ. أما كريم ثابت فقد انتقل من الصحافة ليصبح المستشار الصحفي للملك فاروق، قبل أن تدور حوله شبهات بأنه كان أبرز الفاسدين الذين ورطوا فاروق في سقطات أدت في نهاية الأمر إلى سقوط الملكية في مصر.

والثابت أن عددًا من السوريين واللبنانيين المتمصرين الذين هاجروا إلى مصر في شبابه، وفقوا في جمع ثروات طائلة، ومنهم إلياس يوسف الذي اشتهر بتجارة القطن في القرن التاسع عشر. وفي مطلع القرن العشرين، تصدر قائمة الأغنياء من السوريين واللبنانيين المتمصرين كل من حبيب باشا سكاكيني - الذي سنأتي على ذكره لاحقًا - والكونت شديد.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين، كانت القائمة المذكورة تضم سمعان صيدناوي بك صاحب المحل الشهير الذي يحمل اسمه، ولم يكن هناك في مصر من لا يعرف "بنك سمعان" كما يسميه العامة. فُدرت ثروة سمعان صيدناوي في تلك الفترة بنحو ٣ ملايين جنيه (347).

بدأ سمعان بك في محل للخياطة في القاهرة، ثم افتتح بالنقود التي ادخرها مع أخيه سليم محلاً صغيراً في شارع الموسكي، فلازمه حُسن الطالع. وظل هذا المحل ينمو ويتسع رويداً رويداً إلى أن أصبح ذلك المخزن الكبير الذي كان الناس يترددون عليه كل يوم بالملئات في الحمزاوي، قبل نقله إلى موقع آخر في ميدان الخازندار عام ١٩١٣. وانضم إلى إدارة الشركة في مقرها الجديد الخواجة إلياس نحل سليم صيدناوي، وكل من يوسف وجورج نحلي سمعان، بعد أن حصلوا على الجنسية المصرية. وفي عام ١٩٣٧، كان اسم الشركة هو "شركة تجارة الأزياء والملبوسات والأدوات المنزلية" برأسمال وصل إلى ٢١٥ ألف جنيه ارتفع في عام ١٩٤٩ إلى ٦٤٥ ألف جنيه، بعد انضمام شركاء أجنبية واندماج الخبرة المصرية مع الأجنبية في هذا العمل(348).

وفي يوليو من عام ١٩٠٠ اشترى الأخوان صيدناوي مساحة ٤٠١١ فداناً من أطيان الدائرة السنية بمركز إطسا بمديرية الفيوم، وبعد هذا التاريخ بثلاثة أعوام فقط اشترى ١٣٢١ فداناً من أطيان الدائرة السنية بناحية شديرة بالفيوم، كما اشترى أيضاً ٥٣٥ فداناً من تفتيش مغاغة في العام التالي، وبعد عام آخر اشترى الأخوان ١٠٥٢ فداناً من أطيان الدائرة السنية أيضاً بالفيوم، وذلك بعقد في ٢٢ فبراير من عام ١٩٠٦ (349).

ظل سمعان بك محتفظاً بالمكان الصغير الذي كان حجر الزاوية في ثروته الطائلة، على سبيل التذكار والتفاؤل. كان سمعان بك صيدناوي من كبار المحسنين، ولكنه كان يمتنع الإعلان عن مبراته. كما حرص على معاملة موظفي مخزنه معاملة لائقة على المستوى الإنساني وكرامة على المستوى المادي، وبلغ من حرصه على ذلك أنه عندما كان يذهب في الصباح إلى مخزنه ينزل من سيارته بعيداً عن بابه لكي يسير إليه على قدميه أسوة بموظفيه، ثم إنه كان يهدي إليهم هدايا سنوية.

توالى فروع "صيدناوي" في الإسكندرية، والمنصورة، وطنطا وجميع محافظات مصر. وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ تم تأميم محال "صيدناوي" التي يبلغ عددها ٧٢ فرعاً، وأكثر من ٦٥ مخزناً(350). خرج الأخوان صيدناوي من مصر، إلا أن حفيدة عائلة صيدناوي، إليسا صيدناوي، عارضة الأزياء والممثلة الفرنسية الإيطالية ظلت تزور مصر، وافتتحت بالفعل "مؤسسة إليسا صيدناوي" في منتصف أبريل ٢٠١٤، وهي جمعية أهلية لرعاية الطفولة، تتخذ من الأقصر مقراً لها(351).

ومن كبار أغنياء السوريين واللبنانيين المتصرين في الفترة نفسها، د.فارس نمر صاحب جريدة "المقطم". وبعد أن أتم فارس نمر دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت اشتغل بالتدريس فيها لسنوات. أنشأ مع زميله يعقوب صروف مجلة "المقطف"، ثم نزحاً إلى القاهرة وأصدرا "المقطم" مع زميلهما شاهين مكاريوس بك. كان د.نمر آنثي في الثالثة والثلاثين من العمر، فلم يقصر جهوده على الصحافة بل اشتغل بالزراعة أيضاً.

امتلك د.فارس نمر أراضي واسعة تولى إدارتها نحله ألبرت بك، وبلغت ثروته عام ١٩٣٢ نحو مليون جنيه(352). وكان الرجل شريكاً مع رفيق عمره يعقوب صروف في أملاكهما، ولم يعمل على تقسيمها إلا بعد أن تقدّم بهما العمر وكبر أولادهما. وقد ظلا لفترة طويلة يسكنان عمارة واحدة ويذهبان إلى مكتبيهما معاً، إلى أن اشترى د.نمر بيتاً في المعادي، وبنى صروف لنفسه بيتاً في قصر الدوبارة.

ومن أغنيى السوريين واللبنانيين المتصرين في ثلاثينيات القرن العشرين، ألفريد شماس الذي عُيّن عام ١٩٢٣ عضواً في مجلس الشيوخ، واهتم بزراعة القطن، وقُدِّرَت ثروته بنحو ٣٠٠ ألف جنيه(353). الطريف أنه كان قد خسر ثروته الأولى في فترة سابقة، ثم عاد واستردها وزاد عليها. بنى ألفريد أفندي داراً جميلة في مصر الجديدة وسماها "شاتو"، وأقام فيها حفلات عدة، لعل أشهرها الحفل التي أقامها لعددٍ من أصدقائه ومعارفه ليتفرجوا على جوادٍ عربي أهداه إلى ولي عهد البلجيك، عقب لقاء ودي بينهما في بروكسل. وبعد مدةٍ أنعم ملك بلجيكا على ألفريد شماس بنيشان التاج من رتبة كومندور، فأصبح الكومندور ألفريد شماس.

لم يكن في مظهر ألفريد شماس ما ينم على جادٍ أو غنى؛ إذ كان قليل العناية بملبسه وهندامه. وقد ظل حتى عام ١٩٣٠ يقتني مركبة يجرها جوادان مطهمان، ولا يتنقل باستخدام سيارة. لم يرزق ألفريد شماس وزوجته أبناء، فتبنى طفلاً منحه اسمه، وأتى له بمربيةٍ فرنسية.

ومن أغنياء السوريين واللبنانيين المتصرين قبل الحرب العالمية الثانية، برز "الخواجة" أسعد باسيلي تاجر الخشب الشهير، و"الخواجة" شكر الله الذي اشتغل في تجارة الحديد، و"الخواجة" إدوار كرم شقيق توفيق كرم، الذي قتلته عصابة من الألمان -يتزعمها كلاوزن ودويلتش- في داره في "كارلتن" برمل الإسكندرية. حوكم المتهمان أمام محكمة القنصلية الألمانية وصدر حكم بإدانتهم وسجنهما ٨ سنوات جراء السراقات وبالأشغال الشاقة جراء قتل توفيق كرم(354).

وفي سيرته الشائقة "خارج المكان"(355)، قدّم إدوارد سعيد أحد أكثر التحليلات دقة وثراءً عن بقايا الشوام في مصر التي سكنوها بداية من مطلع القرن التاسع عشر، إلى أفول نجمهم في منتصف القرن العشرين، وبين أنهم كانوا أكثر قرباً من الناحية الذهنية للأقليات الأجنبية من المصريين، وأنهم ظلوا يشكلون عالماً شبه مغلق، يغلفه قلق متواصل من الاندماج المزوج بدرجة من التعالي.

انخسرت ظاهرة الشوام في مصر بعد ثورة ١٩٥٢، التي تعتبر الحد الرمزي الفاصل لقوة الأقليات الأجنبية، وإن كان دورهم الاقتصادي موجوداً على استحياء عبر عائلات ذات أصول شامية اختلطت بالمصريين وارتبطت معهم بعلاقات مصاهرة، ذابت فيها الكثير من الانتماءات، لتبقى الأصول الشامية مجرد جزءٍ من ذاكرة العائلة وألبومها القديم، وفرعاً من شجرة الأنساب التي يُقَلَّبُ البعضُ صفحاتها بين الفينة والأخرى.

وكثر وفود المغاربة إلى مصر، فبلغ عددهم في منتصف القرن التاسع عشر ٣١٧٥ نسمة(356) واستقروا في المدن التجارية ومنها الإسكندرية ورشيد ودمياط لوجود الموانئ، وأقاموا وكالات لهم في القاهرة، وتركز نشاطهم في أعمال التجارة(357)، فاشتهر منهم في تجارة الغلال في الإسكندرية التاجران محمد الجعراي(358) ورجب أبو شراح(359)، وعملوا في التصدير والاستيراد بين مصر والحجاز(360).

واشتهر المغاربة بتجارة الكتان والطرايش والأقمشة، في حين مارس آخرون التجارة في كل الأصناف، إلى جانب السمسة والدلالة والقبانة(361).

وقصد مصر بعض أهالي الحجاز وأقاموا علاقات تجارية معها عبر البحر الأحمر، من خلال نقل البضائع الهندية والعربية إلى السويس ومنها إلى أوروبا وبلاد المغرب، وساعدهم على ذلك حكم الموقع(362). وانتعشت حركة التجارة بمرور قوافل حجاج المغرب(363) وتجارة البن(364)، فذاع ذكر التاجرين محمد يحيى ومحمد الطويل من تجار جدة، وكان لهم وكلاء عنهم في مصر وعُرف منهم عبد الله قوطة(365).

قاهرة النصارى

يمكن القول إن للقاهرة في أيام الممالك وجهاً خفياً لم يدركه إلا النصارى، فثمة القاهرة معنوية بالغة الخصوصية تسري بسكون في خطط القاهرة. فما يشعر به نصراني من أهل القاهرة وهو يمتطي حصاناً أو لا يلتزم بلون العمامة الزرقاء أو الزنار الخاص بالنصارى وهو يمر من أمام مقر المحتسب عند باب زويلة، لا يشبه بحال ما يشعر به المسلم، حتى لو لم يتعرض المحتسب له. وعليه تغدو القاهرة بأكملها للنصارى شاهداً ومذكراً على الدوام بما كان، ومحذرة مما سيكون!

يتعين القول إن مصطلح النصارى يستدعي حمولة معرفية تاريخية واجتماعية شديدة الوطأة ومختلفة كل الاختلاف عن مصطلح المسيحيين الحدائي. بل إننا يمكن الزعم بأن وعي النصارى بذاتهم وإدراكهم لهويتهم الخاصة لا علاقة لها قطعاً بما يرى المسيحيون المصريون اليوم أنفسهم عليه. ويلاحظ أنه بالنسبة إلى الدولة وجموع أهل مصر من المسلمين، كان ينضوي تحت لفظ النصارى المسيحيون جميعاً، فلا فارق بين الأقباط اليعاقبة أو الملكانيين أو الأرمن أو التجار الأوروبيين الكاثوليك أو أسرى الفرنج أو أي طائفة أخرى، ودائماً ما كانوا موضع رغبة ومحل اتهام(366).

ويرى عدد من الكتاب والمؤرخين أن الحقبة القبطية هي التي تقع بين ظهور المسيحية في مصر ودخول العرب وتمتد نحو ستة قرون. ويعتقد د. ماجد عزت إسرائيل أن هذه الحقبة تمتد إلى أبعد من ذلك بكثير، وأنها تمتد إلى نهاية الدولة الفاطمية أي عام ١١٧١(367)، فإلى ذلك التاريخ كان الأقباط يؤلفون الأغلبية من السكان أو يزيدون(368). وفي العصر المملوكي (١٢٥٠-١٥١٧) تعرض غير المسلمين لمضايقات(369)، ومع ذلك تولى النصارى عدداً من المناصب القيادية في الجهاز المالي والإداري للدولة(370). وكانوا الأكثر عدداً بين سكان البلاد حتى القرن الرابع عشر الميلادي، حتى أخذ عددهم في التضاؤل على نحو متدرج في نهاية العصر المملوكي بسبب تدمير كنائسهم ومنازلهم وهجرة بعضهم إلى إثيوبيا والسودان(371)، فضلاً عن زيادة هجرة القبائل العربية لمصر، فتحول الأقباط من أغلبية إلى أقلية دينية(372).

في تقديرنا أن الوقائع التي قدامتها لنا المصادر التاريخية مثل كتابات المقريري وابن تغري بردي وغيرهم أصحاب التواريخ والتراجم، تنتج للقارئ القاهرة خاصة بالنصارى بلغت ذروتها في عصر سلاطين الممالك، القاهرة مادية ومعنوية في آن واحد.

ونستدعي في هذا المقام حادثة حكاها المقريري، جرت في أواخر دولة الممالك البحرية، حين قدم إلى القاهرة عدد من مسالة النصارى وأعلنوا ارتدادهم عن الإسلام. كان من الممكن لهم أن يكتفوا حقيقة إيمانهم كما فعل كثيرون ولكن هدفهم كان واضحاً. أرادوا أن يتطهروا من خطيئتهم علانية، ويُقدّموا أرواحهم للمسيح، وقد نالوا ما تمنوه فقتلوا تحت شباك المدرسة الصالحية بـ"بين القصرين"، ربما قريباً من الموضع الذي تشغله اليوم محال بيع الحلي والأحجار الكريمة(373).

أعياد النصارى، تعطينا فرصة لتأمل الطريقة التي كان يتم بها الاحتفال وأماكنه، ولعل أشهر أعياد النصارى هو عيد "النيروز"، أي رأس السنة القبطية. كان الاحتفال يكسر كل الأعراف والمحاذير، وتُعطّل فيه الأعمال وتُغلق الأسواق، ويرش الناس بعضهم بالماء في الشوارع، وكذلك يتقاذفون البيض، وكان فلاحو شبرا من النصارى يعتمدون في سداد ما عليهم للدولة من مبيعات الخمر في هذا اليوم وحده، وعلى ساحل النهر كان المحتفلون ينصبون خيامهم حتى تملأ ضفة النيل، فكانت تلك الخيام السبب وراء تسمية شبرا إلى اليوم بـ"شبرا الخيمة"(374).

وحتى عندما أبطل الأمر الكبير برقوق الاحتفال بالنيروز قبل توليه السلطنة، كان القرار خاصاً بالاحتفالات الصاخبة في الشوارع وتعطيل الأسواق، فأصبح الاحتفال مقتصرًا على الخلجان والبرك ونحوها من أماكن التنزه(375)، وهي الأماكن التي تشغلها أحياء النصارى في الأساس.

ويمكننا أن نستنتج من موقع الكنائس أن ضفتي الخليج المصري كانتا من ضمن التجمعات النصرانية المهمة، كما سكن النصارى على تخوم القاهرة بعيداً عن أي مضايقات أو مناوشات قد يتعرضون لها.

بدا التعصب الديني والمذهبي والحروب الدينية من عناوين العصور الوسطى شرقاً وغرباً. وبهذا تسلل التعصب إلى الحياة المصرية بين عوام المصريين (المسلمين والأقباط). صحيح أنه لم يكن بنفس الحدة التي كان فيها التعصب خارج مصر، وصحيح أنه كان جملة اعتراضية وحوادث استثنائية في تاريخ مصر طويل، ولكنه كان موجوداً وتم تسجيله في أحداث التاريخ متأثراً بالتعصب كثقافة عامة سائدة وبالتعصب الذي قاده الحكام وبالتعصب الذي كان يؤججه فقهاء متعصبون زائرون لمصر فيرون مظاهر التسامح ونفوذ بعض أرباب الوظائف من الأقباط فيثورون ويستخدمون اسم الاسلام لحث الحاكم على اضطهاد الأقباط. بالإضافة إلى تعصب قبطي مضاد مفهوم ولا يمكن تجاهله، وكان يُعبّر عن نفسه لدى القبطي إذا وصل إلى سلطة تتيح له الانتقام من المسلمين فلا يتردد في استغلالها، مما يثير موجة من تعصب (المسلمين). وقد تكرر هذا كثيراً في العصر المملوكي.

يقول المقرئ عن التدمير العام للكنائس المصرية في وقت واحد عام ٧٢١: "ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبعمئة هدمت كنائس أرض مصر في ساعة واحدة" (376).

ويحكي المقرئ في الخط عن كارثة عام ٦٥٨: "أخذ الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي الجوالي من النصارى مضاعفة" (377)، أي إنه ضاعف الضرائب على النصارى، وهذا نموذج لظلم قام به الحكام. وقد يتحالف العوام مع السلطان في اضطهاد النصارى؛ إذ يقول المقرئ: "وفي أيامه ثارت عوام دمشق وخربت كنيسة مريم بدمشق بعد إحراقها ونهب ما فيها، وقتل جماعة من النصارى بدمشق ونهب دورهم وخرابها في سنة ثمان وخمسين وستمئة، بعد وقعة عين جالوت وهزيمة المغل. فلما دخل السلطان الملك المظفر قطز إلى دمشق قرّر على النصارى بها مئة ألف وخمسين ألف درهم جمعوها من بينهم وحملوها إليه بسفارة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أنابك العسكر" (378). السبب أن بعض النصارى تحالف مع المغول الغزاة كيداً للمسلمين؛ لذا كان منتظراً أن ينتقم منهم السلطان والعوام بعد هزيمة المغول.

ويحكي المقرئ عن عين الغزال وفتنة الصليبية أو واقعة النصارى، فيقول:

"وفي سنة اثنتين وثمانين وستمئة كانت واقعة النصارى، ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاع كانت حرمة وافرة في أيام الملك المنصور قلاوون فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم ولا يجسر نصرائي يحدث مسلماً وهو راكب وإذا مشى فيذلة ولا يقدر أحد منهم يلبس ثوباً مصقولاً فلما مات الملك المنصور وتسلطن من بعده ابنه الملك الأشرف خليل خدم الكتاب النصارى عند الأمراء الخاصكية وقوّوا نفوسهم على المسلمين وترفعوا في ملابسهم وهياتهم، وكان منهم كاتب عند خاصكي يُعرف بعين الغزال فصدف يوماً في طريق مصر سمسار شونة مخدمه فنزل السمسار عن دابته وقبّل رجل الكاتب فأخذ يسبه ويهدّده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير وهو يترفق له ويعتذر فلا يزيد ذلك عليه إلا غلظة وأمر غلامه فنزل وكفف السمسار ومضى به والناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبية جامع أحمد بن طولون ومعه عالم كبير وما منهم إلا من يسأله أن يخلي عن السمسار وهو يمتنع عليهم فتكاثروا عليه وألقوه عن حمارة وأطلقوا السمسار وكان قد قرب من بيت أستاذه فبعث غلامه لينجده بمن فيه فأتاه بطائفة من غلمان الأمير وأوجاقيته فخلصوه من الناس وشرعوا في القبض عليهم ليفتكوا بهم فصاحوا عليهم ما يحل ومروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة واستغاثوا نصر الله السلطان فأرسل يكشف الخبر فعرفوه ما كان من استقالة الكاتب النصرائي على السمسار وما جرى لهم فطلب عين الغزال ورسم للعامة بإحضار النصارى إليه. وطلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب والأمير سنجر الشجاعيّ وتقدّم إليهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زال به حتى استقرّ الحال على أن ينادي في القاهرة ومصر ألا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير، وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام فمن امتنع من الإسلام ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم. ورسم للنائب بعرض جميع مباشري ديوان السلطان ويفعل فيهم ذلك فنزل الطلب لهم وقد احتفوا فصارت العامة تسبق إلى بيوتهم وتنهبها حتى عمّ النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم وأخرجوا نساءهم مسبيات وقتلوا جماعة بأيديهم، فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان في أمر العامة وتلطف به حتى ركب إلى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرائي شُقّ وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعدما ضربهم فانكفوا عن النهب بعدما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا منها جماعة، ثم جمع النائب كثيراً من النصارى كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين يدي السلطان عن بعد منه فرسم للشجاعيّ وأمير

جاندار أن يأخذوا عدة معهم وينزلوا إلى سوق الخيل تحت القلعة ويحفرها حفيرة كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب ناراً، فتقدم الأمير بيدرا وشفع فيهم فأبى أن يقبل شفاعته وقال: ما أريد في دولتي ديواناً نصرانياً، فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر في خدمته ومن امتنع ضربت عنقه" (379).

ويقول الباحث حامد محمد حامد: "في أثناء الحروب الصليبية يمكننا تخيل أن الوجدان الشعبي كان مُحَمَّلًا بالغضب نحو النصارى. صحيح أنه غضب غير منطقي، بحكم اختلاف عقيدة الأقباط اليعاقبة، عن عقيدة الصليبيين، ولكن من قال إن العقل الشعبي والحماسة الدينية في أوج فورتها تحتكم للعقل أو التفكير المنطقي؟ حدث ذلك مثلاً مع انتشار حوادث اشتعال أماكن في القاهرة، سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥م أيام السلطان الظاهر بيبرس، وحملت الرواية الرسمية مسؤولية إشعال الحرائق لنصارى القاهرة، الذين ثارت ثائرتهم من انتصارات الظاهر بيبرس على الصليبيين في الشام، ومع أنه لم يثبت تورط النصارى في الحريق، من قريب أو بعيد، إلا أن المناخ العام كان مهياً لقبول الفكرة" (380).

يمكننا القول إن المتاعب التي تعرض لها النصارى طوال عصر المماليك كانت ترجع أساساً لتصدُّرهم لوظائف الدولة العليا بشكلٍ فاق قدرة المجتمع على التسامح والاحتمال. يؤكد ذلك واقعة الوزير المغربي الذي مرَّ على مصر حاجاً عام ٧٠٠ هـ/١٣٠١م أثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية، وبينما هو في سوق الخيل تحت القلعة رأى موكباً ضخماً يتوسطه فارسٌ نصراني عليه عمامة بيضاء ويحيط به العشرات وهم يُقَبِّلون قدميه ويتضرعون إليه، فثارت ثائرة الوزير المغربي وذهب إلى القلعة وهو يبكي وينتحب للسلطان والأمراء مما رآه من تسلط النصارى على المسلمين. وعلى الفور أمر الأمراء باستدعاء بطرك النصارى وديان اليهود والقضاة الأربعة، وفي هذا المجلس ألزم البطرك "طائفته من النصارى بلبس العمام الزرق وشد الزنار في أوساطهم، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال، والتزام الصغار، وحرم عليهم مخالفة ذلك أو شيء منه، وإنه بريء من النصرانية إن خالف"، ووافق ديان اليهود بيد أنه ألزم طائفته بلبس العمام الصفراء (381).

ونحن لا نحاوز الحقيقة حين نقول إن أغلب أحداث العنف التي طالت النصارى وكنائسهم كانت رد فعلٍ مباشر على زيادة نفوذ النصارى أو مسالة النصارى (وهو مصطلح أطلق على كل من اعتنق الإسلام حديثاً من اليهود أو النصارى) بشكلٍ لا يتحملة مجتمع القاهرة القروسطي.

ويلاحظ دونالد ريتشاردز أن كثيراً من منازل المسألة في القرن الخامس عشر كانت تقع في أحياء النصارى، مثل بركة الرطلي شمال باب الشعريه وقريباً من الخليج المصري، وفي حارة زويلة، والمقس وحارة الروم الجوانية، وهو ما يعني أن المسألة لم يتمكنوا فعلياً من الانخراط وسط المسلمين، سواء لأنهم فضّلوا العيش في أماكنهم القديمة التي نشأوا بها وتعودوا عليها، أو لإحساسهم بعد القبول مجتمعياً من غالبية المسلمين (382).

ومع تداعي الفسطاط فترة حكم السلاطين المماليك، لم يكن أمام نصاراها، الذين كانوا حرفيين وكتّاباً، سوى الانتقال شمالاً نحو القاهرة المكتظة بالسكان، لكن أحياء النصارى الموروثة منذ أيام الفاطميين بالعاصمة لم تعد قادرة على استيعاب نصارى الفسطاط، فضلاً عن أن المشاعر العدائية كانت سائدة طوال حكم المماليك البحرية، بدافع من الحروب الصليبية، وبالتالي انتقل نصارى الفسطاط للإقامة في ضواحي القاهرة (383).

وأدى التمدد والنشاط المعماري الهائل للدولة المملوكية خاصة في فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون، إلى دفع أحياء النصارى خارج حدود القاهرة الفاطمية، وحتى أحياء النصارى خارج أحياء القاهرة -التي كان يُعتقد أنها في مأمن- طالتها آلة الإحلال والتطوير في فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون، مما أجبرهم على ترك المدينة والإقامة في ضواحيها وضواحي الفسطاط، تاركين وراءهم كثيراً من كنائسهم. وفي بعض الحالات كان الأقباط يضطرون إلى قطع مسافات طويلة ليصلوا إلى أقرب كنيسة متاحة، مما قد يفسّر حوادث الحرق التي تلت تلك الفترة والتي يعدها بعض الباحثين (384) وسيلة لمقاومة التغيير الديموغرافي للنصارى في المدينة.

على أية حال، شارك الأقباط في الجهاز الإداري للدولة منذ بناء الدولة الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر، ففي عهد محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨) منح لقب البكوية للأقباط لتولي المناصب القيادية في الدولة، فعين أقباطاً مأمورين، مثل بطرس أغا أرمانويس الذي عُيِّن مباشراً

لحاكم جرجا، ثم أصبح حاكماً لمركز برديس، ومكرم أغا حاكم قسم أطفيح، وميخائيل أغا عبده حاكماً على الفشن(385)، وفرج أغا ميخائيل حاكماً على دير مواس وبهجورة، وشغل حنا المنقبادي منصب سكرتير مديرية عموم الوجه القبلي، ورزق أغا حاكماً على الشرقية، وتجدر الملاحظة هنا أن تعيين أقباط مأموري مراكز هو بمنزلة تعيين محافظين للمحافظات الآن(386).

وكان معظم الكتبة أقباطاً في عهد محمد علي باشا وخلفائه، مثل المعلم جرجس ويعقوب وبشارة وجرجس الطويل وأخيه حنا الطويل ونقريوس البتانوني وإبراهيم نخلة. وشغل المعلم وهبة إبراهيم منصب كبير الكتبة -منصب رئيس ديوان رئيس الجمهورية حالياً- ومن بعده شغل المنصب المعلم نخلة(387).

ولا ينسى الأقباط أنه في عهده ألغى محمد علي قيد الزي الذي كان مفروضاً على الأقباط في عصور سابقة، فارتدوا الجبة أو الجلباب(388).

وفي عصر محمد سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣) عمل على استمرار روح التسامح الديني والمساواة بين المسلمين والأقباط، حيث طبق قانون الخدمة العسكرية على الأقباط وألغى في عام ١٨٥٤ الجزية التي كانت مفروضة على الأقباط. ودخل الأقباط لأول مرة في سلك الجيش والقضاء وسافر بعضهم إلى أوروبا. ولا ننسى أن سعيد باشا عين حاكماً مسيحياً على مصوع بالسودان(389).

أما الخديو إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٨) فقد اتخذ مستشارين له وعين عدداً من العُمد وخفراء المشايخ والقضاة من بين المسيحيين، كما أنه أول حاكم يمنح الباشوية لقبطي، وهو واصف عزمي باشا، الذي شغل وظيفة كبير التشريعات(390).

بركة الفيل.. أجمل متنزهات القاهرة

أحبَّ المصريون منذ أقدم العصور الاحتفالات والنزهات، وكانت مصر في تلك الأزمنة وما زالت قائمة على النيل الذي يهب لها الحياة، والزراعة، وتنبت على مجاريه وخلجانه وترعه الأشجار اليناعة، والفواكه الجميلة، والمناظر البهيجة، وبسبب فيضانه السنوي كانت تتكون الكثير من البحيرات في مناطق واسعة من مصر من جنوبها إلى شمالها، ولا سيما القاهرة في عصرها الوسيط.

وبسبب هذه الطبيعة الغناء، والأوضاع الاقتصادية الجيدة، عُرف عن المصريين في عصرهم الوسيط حُبُّ التنزه، والإقبال على الحياة بالكلية، وقد نقل المؤرخ المقيزي هذه الظاهرة وخصَّص لها فصلاً عنوانه "ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم" في كتابه الشهير "المواظ والاعتبار بذكر الخط والآثار"، وفصل فيه القول، وكان مما جاء فيه:

"ومن أخلاقهم (أي أهل مصر في زمنه): الانهماك في الشهوات والإمعان من الملاذ وكثرة الاستهتار وعدم المبالاة، قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب" (391).

غير أن انهماك المصريين في الحياة وزينتها إلى هذا الحد الذي وصفه المؤرخون قبل سبعة قرون كان عائداً إلى استقرار أوضاعهم السياسية والاقتصادية، واعتمادهم على النيل الذي كان يمدِّهم بالأمن والطمأنينة والرخاء، فضلاً عن متنزهات وحدائق غناء كانت وما زالت على طول مجراه.

ومن هنا، ظهرت في القاهرة آنذاك عدة متنزهات، وبعض بحيرات أو برك كما سماها المصريون، وعلى شواطئها كان الناس يقضون أوقاتهم، وأجمل أسماهم، ومن أشهرها بركة قارون، وبركة الحبش (عين الصيرة)، وبركة الشقاف (قرب ميدان التحرير اليوم)، وبركة الأزيكية، وتأتي بركة الفيل التي تُعدُّ واحدة من أقدم وأجمل برك أو بحيرات القاهرة القديمة والتي كانت أيضاً من أشهر متنزهات وحدائق أهل مصر لمدة قرون متتالية.

من المعروف أن الفسطاط العاصمة الإسلامية الأولى لمصر والتي أنشأها عمرو بن العاص عقب استقرار الإسلام في مصر منذ عام ٢٠هـ كانت تتطور سكانياً بمرور الوقت، كما أنشئت بالقرب منها مدينة العسكر في زمن العباسيين في القرن الثاني للهجرة، ثم بالقرب من الفسطاط والعسكر أنشئت القنات عاصمة للطلونيين وفيها جامع أحمد بن طولون الشهير، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وحين دخل الفاطميون مصر بقيادة جوهر الصقلي وشرعوا في إنشاء القاهرة عاصمة لهم سنة ٣٥٨هـ، أنشئت هذه المدينة الجديدة بأسوار ضخمة للفاطميين وجيوشهم وحواشيمهم، وفي القلب منها القصبه أو شارع المعز اليوم، وكانت القاهرة الفاطمية في الشمال من الفسطاط والعسكر والقنات.

وكانت المناطق الواسعة بين الفسطاط (مصر القديمة) في الجنوب والقاهرة في الشمال قليلة السكان، تكثر فيها البساتين والزراعات والخلجان (الترع)، وكانت هذه المنطقة التي يطل عليها باب زويلة جنوب القاهرة من أجمل مناطق مصر لمدة قرون لكونها متنفساً لأهل مصر، وفيها وجدت بركة الفيل، وكانت ذات مساحة هائلة تجعل السكنى على أرضها والتنزه فيها من أمتع الأشياء للترويح عن النفس.

وقد أخبرنا عددٌ من المؤرخين بتفاصيل مهمة عن هذه البركة، يقول المقيزي (ت ٨٤٥هـ) عنها: "هذه البركة فيما بين مصر (القديمة) والقاهرة، وهي كبيرة جداً، ولم يكن في القديم عليها بُنيان، ولما وضع جوهر القائد (الفاطمي) مدينة القاهرة كانت تجاه القاهرة (من الجنوب)، ثم حدثت حارة السودان وغيرها خارج باب زويلة، وكان ما بين حارة السودان وحارة البانسية وبين بركة الفيل فضاء، ثم عَمَّرَ الناس حول بركة الفيل بعد الستمئة (من الهجرة) حتى صارت مساكنها أجلاً مساكن مصر كلها" (392).

وأوضح المؤرخ د. أيمن فؤاد سيد موضع هذه البركة الآن من القاهرة الحديثة قائلاً: "لم تكن بركة الفيل -مثلها مثل بركة الحبش وعدد آخر من برك القاهرة- بركة عميقة فيها ماء راكد بالمعنى المفهوم الآن من لفظ بركة، وإنما كانت تُطلق على أراضٍ زراعية يغمرها ماء النيل سنوياً وقت الفيضان

عن طريق الخليج المصري (قناة من النيل للقاهرة)، وبعد نزول الماء تُزرع أصناف شتوية أشهرها البرسيم الذي كان يُستهلك في تغذية دواب القاهرة، وكانت البركة معترة في دفاتر المساحة من النواحي المربوط على أراضيها الخراج، ولم يُحذف اسمها من جداول أسماء النواحي إلا بعد تحوّل معظم أراضيها إلى مساكن، وبدأت أراضيها في التحول من الزراعة إلى السكن منذ سنة ١٢٢٠هـ / ١٢٢٢م (393).

وموضع هذه البركة الآن من القاهرة حي الحلمية الجديدة بالتقريب، فكانت هذه البركة تشغل المنطقة التي تُحد الآن من الشمال بسكة الحَبّانية ومن الغرب شارع بورسعيد (الخليج المصري)، ومن الجنوب شارع عبد المجيد اللبّان (مراسينا سابقاً)، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقي إلى مدرسة أزيك اليوسفي حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير فيه إلى أول شارع الألفي، ومن الشرق كِمالة شارع نور الظلام فشارع مصطفى سري، فسكة عبد الرحمن بك، وما في امتدادها (394)، في المنطقة الواقعة بين حي الحسين والأزهر في الشمال وبين حي السيدة زينب وعابدين في الجنوب بصورة تقديرية.

وأما عن السبب في تسميتها ببركة الفيل؛ ذلك أن الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٦م) كان مغرمًا باقتناء الحيوانات من الأسود والنمور والفيلة والزرافات، وأنشأ لكلٍ منها مكانًا مخصصًا له، وكان موضع بناء دار الفيلة على حافة تلك البركة من الجهة القبلية الشرقية حيث شارع نور الظلام، وكان الناس يقصدون البركة للنزهة والفُرجة على الفيلة فاشتهرت بينهم ببركة الفيل حتى اليوم (395).

وبالرغم من ذلك التطور والتعدي على هذه البركة ومنتزهاتها فإنها ظلت لعدة قرون واحدًا من أجمل متنزهات المصريين، وقد مرّ ابن سعيد المغربي بالقاهرة في أوائل القرن السابع الهجري فكتب عن هذه البركة وجمالها ومناظرها، أي الأبنية التي بُنيت على شواطئها، قائلاً:

“وأعجبني في ظاهرها (خارج القاهرة) بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر، والمناظر (الأبنية) فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، وتسرج أصحاب المناظر على قدر مهمهم وقدرتهم، فيكون بذلك لها منظرٌ عجيب. وفيها أقول: (396)

انظرُ إلى بركة الفيل التي اكتنفت ... بها المناظرُ كالأهدابِ للبصرِ

كانما هي والأبصارُ ترمقُها ... كواكبُ قد أداروها على القمرِ.”

وكانت بركة الفيل تُغذى بالماء في العصر المملوكي من موضعين، الأول من ناحية الجسر الأعظم (خزان ماء) تجاه الكيش قرب جامع ابن طولون عن طريق مجرى مائي مغطى بمجاديل حجرية، وقد ذكر المقريزي أنها كانت قديماً قطرة كبيرة تهدمت فُعمل لها مجاديل حجرية. أما الموضع الآخر لتغذيتها فكان عن طريق “سرب” يتصل بالخليج الكبير (قناة مائية كبيرة) وكان قد شُق لتغذية مناطق خارج القاهرة بالمياه للزراعة، وبفضله ظهرت عدة بساتين في مناطق باب اللوق والسيدة زينب وغيرها، وبسبب هذه التغذية الدائمة للبركة، فضلاً عن الرشح السنوي أثناء فيضان النيل، فإن عمق البركة كان يميل إلى الزيادة في أوقات كثيرة.

وفي الجوانب الشرقية من هذه البركة عُمرت البساتين، وأنشئ إصطبل لخيول الأمراء المماليك، فلما اعتلى السلطان العادل كتبغا عرش مصر سنة ٦٩٥هـ أخرج الخيول من هذا الإصطبل، وأنشأ مكانه ميداناً يُشرف على البركة، ولكي يلعب فيه بالكرة أو لعبة القبق، أو ما نسميه اليوم لعبة البولو، وهي لعبة مملوكية في الأصل، ثم بعدما خُلع كتبغا من السلطنة بعد ذلك بعامين، أهمل هذا الميدان، وأنشأ الأمراء المماليك على أنقاضه قصوراً وبيوتا فاخرة تُطل على بركة الفيل (397).

أما النهضة العمرانية الكبيرة حول البركة فكانت في فترة حُكم السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٨ - ١٣٤١م) وما تلاه، حيث عُمرت القاهرة والمناطق المحيطة بها خارج أسوارها القديمة، وامتد العمران إلى المناطق المحيطة ببركة الفيل، ونشأت فيها عدة أحياء كانت بمقاييس ذلك العصر مساكن الأثرياء وعلية القوم، إذ تميّزت مساكنها بالثراء الشديد والتأنق وعظمة وفخامة العمارة وجمال وروعة الزخرفة،

فصارت بركة الفيل متنزهًا عظيمًا يسكن حولها الطبقة المتميزة العليا في المجتمع المصري في العصر المملوكي، واستمر ذلك الوضع الطبقي في العصر العثماني (398).

بنى عدد من الأمراء المالكين بالقرب من البركة بعضًا من الأبنية السكنية والمؤسسات الدينية المهمة، لا سيما للفقراء والصوفية الذين كانوا يؤثرون العبادة في المناطق البعيدة عن الزحام والعمران، منهم الأمير المملوكي أيديكين البندقداري (ت ٦٨٤هـ) الذي بنى خانقاه وتربة لنفسه دُفن فيها، وهذه الخانقاه (خانكاه) هي الموضع الذي كان يُخصص للصوفية والدراويش للعبادة والسكنى، وكان يشرف على بنائها المحسنون من الأمراء والسلطين وغيرهم، وينفقون على هؤلاء الصوفية قربة لله.

وقد بنى الأمير أيديكين هذه الخانقاه على مقربة من بركة الفيل، وجعلها مسجدًا لله، وخانقاه للصوفية الفقراء، ثم دُفن بها، وما زالت هذه الخانقاه موجودة بشارع السيوفية بقسم الخليفة، وتُعرف باسم زاوية الآبار، وقد جددتها ديوان الأوقاف المصري سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، وقد جاءت د. سعاد ماهر في موسوعتها "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون" على ذكر هذه الخانقاه، ووصفتها وصفًا دقيقًا، وبَيَّنت معالمها وأبرز سماتها وشكلها الهندسي.

غير أن الرحالة العثماني أوليا جلبي الذي مرَّ بمصر وتناول أوضاعها الطبوغرافية والعمرانية بدقة شديدة في نهايات القرن السابع عشر الميلادي في عصر العثمانيين قد جاء على ذكر بركة الفيل آنذاك، وأمدنا بمعلومات على قدر عالٍ من الأهمية، فهو يقول عنها:

"هذه البركة أصغر من بركة الأزيكية قليلًا، بيد أنها تمتاز بعمران جوانبها الأربعة، فليس فيها ذراع من الأرض الفضاء، تُحيط بها أبنية ذات قاعات وأحواض وفسقيات في حدائق غناء طلقة الهواء، وهي بركة كبيرة مستطيلة من الجنوب إلى الشمال، وليس لها طريق لدخول الزوارق والقوارب وخروجها منها، ويأتي ماؤها من النيل رشحًا تحت الأرض، بيد أن بها زوارق وقوارب وفلائك لأصحاب المنازل المطلة عليها يتزاورون راكبين فيها، وهم من أظهر أهل القاهرة وأعفهم مع أن هذه البركة من أكثر أماكن القاهرة ازدحامًا" (399).

ومن خلال وصف أوليا جلبي نفهم أن جميع المساحات الخالية المحيطة ببركة الفيل كانت قد بُنيت كلها وأحاطت بالبركة إحاطة السوار بالمعصم في ذلك الزمن، وسكنها في عصر العثمانيين كما المالكين عليه القوم الذين يصفهم أوليا جلبي بأنهم "أظهر أهل القاهرة وأعفهم"، حتى إن ذلك الحي أصبح واحدًا من أكثر أحياء القاهرة ازدحامًا بسكانه الذين كانوا يتزاورون بالراكب والفلوكات، الأمر الذي يعني أن البركة كانت صالحة للملاحة الخفيفة آنذاك.

وبهذا تحوّلت بركة الفيل من متنزه إلى الحي الراقي الذي حُصرت البركة فيه على ساكنيه فقط، وظل الوضع على هذه الحال بعد رحلة أوليا جلبي بقرن من الزمان، حتى احتل نابليون بونابرت مصر في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وقد استطاع علماء ورسمو الحملة الفرنسية أن يضعوا خريطة مفصلة للقاهرة بعد احتلالها بين عامي ١٧٩٨ - ١٨٠١م في أوائل القرن التاسع عشر، وكانت بحيرة أو بركة الفيل ظاهرة في خرائطهم، لكن مع تقلص كبير في مساحتها في ذلك التاريخ.

ولم يمر على خروج الفرنسيين من مصر إلا ستون عامًا فقط، حتى قرّر الخديو عباس حلمي الأول (ت ١٨٦٣م) أن يتخذ قطعة من هذه البركة فأنشأ عليها سراي الحلمية وحديقتها الكبيرة التي اشتهرت طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي عام ١٨٩٤م قُسمت أراضي الحديقة، ثم هُدمت السراي سنة ١٩٠٢م، وقُسمت أراضيها أيضًا، وبيعت جميع القطع وأقيمت عليها عمارات حديثة، وبهذا نشأ حي الحلمية الجديدة اليوم على أنقاض بركة الفيل (400).

تلك كانت قصة بركة الفيل جنوب باب زويلة بين القاهرة الفاطمية ومدينة الفسطاط أو مصر القديمة، وقد ظلت هذه البركة أو البحيرة لألف سنة بالتقريب واحدًا من متنزهات مصر الجميلة، ثم صارت في نهايات عصر الممالك وطوال عصر العثمانيين في مصر حيًا راقيًا يسكنه عليه القوم فقط،

ليتبدّل حالها في يومنا هذا ويصبح واحدًا من أشهر وأكثر أحياء القاهرة الشعبية اكتظاظًا بساكنيه.

زقاق القناديل.. شارع الأشراف

كان زقاق القناديل في الدروب الشهيرة التي سكنها الأعيان وكبار القوم بمدينة الفسطاط في زمن عمارتها. زال بزوال الفسطاط القديمة. ومكانه اليوم من الشرق لجامع عمرو بن العاص بمصر القديمة. ذكر ذلك ابن دقماق في كتاب الانتصار^[401].

كان زقاق القناديل أعمر أخطاط مصر، وإنما قيل له زقاق القناديل من أجل أنه كان سكن الأشراف، وكانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل. قال القاضي: ويقال أنه كان به مئة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر. ويضيف: إنما وسم زقاق القناديل أو القنديل لأنه كان يرسم قنديل كان على باب عمرو بن العاص. وقد بدأ بقنديل بيت ابن العاص واحتذى به جيرانه من الصحابة فسُمي شارع القناديل وتحول إلى شارع عالمي يسكنه أشراف الناس حتى إن هذا الزقاق سُمي أيضاً زقاق الأشراف^[402]، وقد أثار هذا الزقاق إعجاب الجغرافيين والرحالة^[403].

مع ازدهار المدينة كرايع عاصمة إسلامية وأكبر ميناء تبادلي عالمي ببضائع من أقصى الشرق من الصين والهند والسند وفارس، امتلأ زقاق القناديل الذي يقع على طرف جامع عمرو بن العاص، بجنسيات العالم ولغاته ونقوده وعبيده في حوانيت ومحال صرافة وفنادق للغرباء ومطاعم وحمامات ومستشفيات وبيوت وصلت ٨ أدوار وورث ومحال مكتظة فلا يجد المشتري مكاناً لجلوسه. وكان مسقوفاً فلا يصله نور النهار فوضعوا قناديل لمحاله تتضاعف في المواسم والأعياد و٥٠ ألف جمل لنقل قرب مياه النيل للبيوت و٥٠ ألف حمار للتنقلات الداخلية. يتوسط كل ذلك أول مسجد في إفريقيا أُلقي فيه كبار الصحابة ما تشربوه من فقه الدين ونقلوه للمصريين في حلقات علم حول أعمدة المسجد فتكونت جامعة دينية وثقافية معروفة.

وفي زقاق القناديل كان هناك سوق شهير للكتب يُعرف بـ"سوق الكتبيين". وفي زقاق القناديل أنشئ أول بيمارستان -أي مستشفى- في مصر حين كانت مصر ولاية تابعة للخليفة الأموي بدمشق^[404].

كان هذا الزقاق المكان المفضل للإقامة لدى أهل الأندلس الذين كانوا ينزلون مصر في طريقهم إلى حج بيت الله الحرام، وفي عددٍ من دُور هذا الزقاق سيقطن بشكلٍ دائم ثلثٌ من نوابغ الأندلسيين الذين هاجروا إلى أرض الكنانة، مثل أبي بكر ابن العربي، وابن جُبَيْر البُلَنسِي، وابن عربي المَرَسِي، وغيرهم كثير.

أما عُقْبَةُ بن نافع الفهري، باني القيروان وفاتح المغرب، فقد هبط مع أهله إلى مصر وسكنوا زُقاق القناديل بالقاهرة، وتحديدًا شرقي جامع عمرو بن العاص. ويذكر ابن عبد الحكم أن دارهم في زقاق القناديل كانت تُعرف بـ"دار الفهريين"، ثم قال "بل كانت تلك الدار حِطَّة عُقْبَةُ بن نافع"^[405].

ويجوز لنا أن نقرر أن الأندلسيين كانوا يوصون أبناء بلدهم المسافرين إلى مصر الفسطاط بالنزول في زقاق القناديل الذين كانوا يشعرون بأن ثمة علاقة (قراية وبلدية) تجمعهم به وبأهله، وذلك عن طريق بيت بني عُقْبَةُ بن نافع الفهري القرشي^[406].

ومن أشهر من وُلِدَ في زقاق القناديل حامل لواء الشعر في زمانه محمد بن محمد بن الحسن المعروف بابن نباتة المولود سنة ٦٨٦هـ. يذكر ابن حجر في "الدرر الكامنة بأعيان المئة الثامنة": "نشأ بمصر وتعاوى الأدب، فمهر في النظم والنثر والكتابة حتى فاق أقرانه وكان متقللاً من دنياه لايزال يشكو حاله وقلة ما بيده وكثرة عياله". ويستكمل الصغدي في "الوافي بالوفيات": "ومما ناكده به الزمان أنه لم يعيش له ولد فدفن قريباً من ستة عشر ولداً كلهم إذا ترعرع الولد وبلغ خمساً أو ستاً أو سبعمائة يتوفاه الله تعالى، فيجد لذلك الآلام المبرحة ويرثيهم بالأشعار الرقيقة". وفي سنة ٦٥٤هـ أنشأ في زقاق القناديل صاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا وزير السلطان الظاهر بيبرس مدرسته المعروفة بـ"المدرسة صاحبية البهائية". يذكر المقرئ في "الخطط المقرئية" أنه "كانت المدرسة صاحبية بزقاق القناديل من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر

تتنافس الناس من طلبه العلم في النزول بها ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبه العلم
والثلاثة، ثم تلاشى أمرها حتى هدمت وسيجهل عن قريب موضعها، والله عاقبة الأمور".

ساعة الحظ فيه الأزبكية!

يفتح الكاتب والباحث البريطاني، الزائر في جامعة كولومبيا، رفايل كورماك كتابه "منتصف الليل في القاهرة: مطربات مصر في العشرينيات الصاخبة" (407)، باقتباس من الكاتب والناقد لويس عوض، حول سنوات شبابه الأولى وحياة الليل في حي الأزبكية القاهري بين الحربين: "فما كان عليك إلا أن تجلس في شارع ألفي بك على قهوة أو بار كالبازينيانا أو التافيرنا يطل على الشارع حتى يتردد عليك عشرات الباعة، هذا يبيع اليناصيب وهذا يبيع الجرائد وهذا يبيع السميط والبيض وهذا يبيع أمواس الحلاقة والأمشاط وهذا يمسح الجزم وهذا يبيع الفستق ويلعب (جوز ولأ فرد)، وهذا قرداتي أو بهلوان يلعب على البيانولا مع زوجته أو يأكل النار أو يمشي مشية تشارلي تشابلن. وبين هؤلاء جميعاً يندس دائماً ذلك الشخص الذي يحاول أن يقنعك ببلاغته أنه سيقودك إلى أجمل بنت في الدنيا وأنها "على بُعد خطوتين منك" ولن تكلفك إلا نصف جنيه أو ربع جنيه بحسب الحالة" (408).

ولعل أحد أكثر الجوانب تحرراً في منتصف الليل في القاهرة هو تصوير الإحساس بالفضاء وحرية العمل والحركة، المرتبطة بهذه المنطقة من القاهرة في فترة ما بين الحربين.

"مصر بلد يحكم فيه المصريون، ويحكم الإنجليز والجميع يفعل ما يحلو له"، هذا ما كتبه اثنان من سكان الأزبكية، هما عازفا الجاز الأميركيان من أصل إفريقي بيلي بروكس وجورج دنكان، في رسالة نشرت في صحيفة "شيكاغو ديفندر" الأمريكية في ديسمبر من عام ١٩٢٣. كان عمل بروكس ودنكان مزدهراً في الحياة الليلية في القاهرة في عشرينيات القرن الماضي. كانت المدينة تقترب من عصرها الذهبي الذي كان جزءاً من العشرينيات الصاخبة العالمية. فقد انتهى المطاف بعد الحرب العالمية الأولى بالكثير من الناس الذين فروا من أوروبا المدمرة بالبحث عن فرصة في القاهرة، ووجد كثير منهم طريقه إلى الأزبكية (409).

امتألت صالات الرقص بالنساء الهاربات من الانهيار الاقتصادي والقمع السياسي في أوروبا الشرقية. كانت الكثريرات ممن وجدن عملاً في الكباريهات مجربات، كُن كثيرات لدرجة أصبح معها كليشيه فتيات الكورس المجريات عنصراً أساسياً في قاهرة ما بين الحربين، حتى لو لم تكن الكثريرات منهن من المجر. كافحت كثيرات في حياتهن الجديدة، وكانت أكثرهن شهرة هي دينيا ليسكا Dinah Lyska، وهي راقصة ومغنية ممن أوروبا الشرقية حازت الشهرة من خلال الرقص والغناء في مسرحيات فرانكو-آراب الغنائية في أوائل العشرينيات. تركت المسرح في النهاية وافتتحت بار ليسكا في شارع عماد الدين.

بدا نحوم العشرينيات منشغلين بصنع نماذجهم الخاصة لمصر جديدة كغيرهم. كان شارع عماد الدين مزدهراً، وافتتحت الكباريهات الجديدة الضخمة ودور السينما والمسارح بأعداد لم يسبق لها مثيل. وبينما واصلت مسارح مثل مسرح الماجستيك Majestic ومسرح نيو برينتانيا New Printania تقديم مسارح فرانكو-آراب الغنائي، افتتحت أماكن أخرى مثل رمسيس وسميراميس لتقديم أمسيات أكثر تقليدية من الدراما وسلسلة من المسرحيات الميلودرامية.

لم يمض وقت طويل حتى افتتحت مجموعة من الكباريهات العربية أملاً في اجتذاب الجماهير المحلية. وعلى مسارحها بدأ أسلوب جديد من الأغاني عُرفت بـ"المونولوج" في الانتشار إلى جانب "الطقوقة" المشهورة أصلاً.

ويحكي كورماك في كتابه الذي ترجمه إلى العربية علاء الدين محمود ونشرته دار "الكتب خان" (٢٠٢٤)، كيف أنه في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، كان شارع عماد الدين محور الحياة الليلية في الأزبكية، ذلك الشارع الطويل والعريض الذي يمتد في وسطه خط ترام يصل شمالاً إلى ضاحيتي شبرا والعباسية.

في تلك الفترة، برزت نحمات من خلفيات متنوعة دينيًا وثقافيًا وقوميًا؛ إذ رأينا اليهوديات نظلة مزراحي والأختين ديان، والمثلة عابدة الحبشية، والراقصة الإنجليزبة دوللي سميث التي عملت مصممة رقصات لأكبر الفرق المسرحية في القاهرة، والفرنسية مارسيل لانغوا كازينو دي باري Casino de Paris، في حين كان الجرسونات اليونانيون يُقدّمون لزبائنهم من الفنانين القهوة والنبيد ومشروب الزبيب، وسط أجواء الغناء والرقص في أماكن السهر.

الشاهد أنه بالإضافة إلى مسرحيات خيال الظل التي شهدتها القاهرة بدءًا من القرن الثالث عشر، كان لاعبو الفَارَص Farce الجائلون (عادة ما يطلق عليهم "المحبطين" أو "المحبطاتية") سمة منتظمة في حفلات الزفاف والاحتفالات الدينية والحفلات الخاصة. تمكنت استكشافهم من السخرية من الأقوياء والضعفاء معًا. كتب الرحالة والمستشرق إدوارد وليام لين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر:

"كانت (تلك العروض) تُسلّي وتحظى بالإعجاب والتصفيق من خلال الدعابات المبتذلة والأفعال الشائنة بصفة خاصة" (410). لم تكن عروض كهذه مبنية على نص دقيق وكانت تحظى بمجال كبير للارتجال وتفاعل الجمهور. في معظم الحالات، تأتي التفاصيل حول العروض من روايات الرحالة الأوروبيين (التي لا يمكن الوثوق بها دائمًا).

وفي المقاهي، كان الرواة يرددون السير الشفاهية، تارة بمصاحبة الموسيقى وبلا موسيقى تارة أخرى. كانت أكثر السير الشعبية شهرة في أوائل القرن التاسع عشر هي السيرة الهلالية، وسيرة عنتر بن شداد، والسيرة الظاهرية، وهي سيرة عن حياة السلطان بيبرس.

ثم كان هناك المغنون والراقصون. وبحسب إدوارد وليام لين، كان المصريون مولعين للغاية بالموسيقى. قَسَمَ لين الفنانين الموسيقيين ثلاثة أنواع رئيسية. النوع الأول هو "الآلاتي"، وهو عازف على آلة موسيقية كالعود. نظر لين إلى هؤلاء أنهم "أناس ذوو عادات فاسدة للغاية" (411)، لكنه أشار إلى أنهم كانوا يُطلبون بأجر في معظم مناسبات الترفيه الكبيرة لتسلية الناس، ويتم تزويدهم عادةً في هذه المناسبات بالبراندي أو المشروبات الروحية الأخرى التي يحتسونها أحيانًا حتى لا يعودون قادرين على الغناء ولا الضرب على الأوتار.

أما النوع الثاني فكانت "العالة"، التي تُقدّم عروضها بشكل شبه حصري في منازل النخبة. ذكر لين إن هؤلاء النسوة كن في الغالب ماهرات للغاية؛ إذ كن ينظمن أشعارهن الخاصة ويتلقين مبالغ كبيرة مقابل أدائهن. أما النوع الثالث من الفنانين الموسيقيين حسب تصنيف لين في أوائل القرن التاسع عشر فكانت "الغوازي" أو "الغازية"، وهي فتاة راقصة تُقدّم عروضها إما في الشوارع العامة أو في الحفلات الخاصة للناس العاديين. وكان يُنظر إلى رقصهن على أنه يفتقر إلى التهذيب وأكثر إثارة للجنس من الرقصات التي رآها في البيوت الغنية، لكنه اعترف بأن النساء وكذلك الرجال كانوا يسعدون بمشاهدة رقصهن حتى لو كان "الكثير من الأشخاص من بين الطبقات العليا والأكثر تدينًا يرفضهن" (412).

تمتعت القاهرة بحياة ثقافية ثرية بالنسبة لسكان المدينة في بداية القرن التاسع عشر. إلا أن العقود التالية ستغيّر مصر—وحياتها الليلية—بما جعلها تختلف تمامًا عن عهدها السابق. في أثناء هذا الوقت، ستتطور مصر إلى دولة حديثة مزدهرة ومهمة سياسيًا. قوة اقتصادية صاعدة ما لبثت أن صارت محمية (شبه رسمية) للإمبراطورية البريطانية. ومع تشكل مصر الجديدة، ستسيطر المسارح ودور السينما والكباريهات والتياترات على القاهرة كما كان شأنًا في جميع أنحاء العالم. بحلول نهاية القرن، كانت الحياة الليلية في القاهرة تتركز في حي الأزبكية، الذي سُمّي على اسم قائد جيوش قايتباي الأتابك سيف الدين بن أزيك.

شهدت فترة الحملة الفرنسية على مصر تخصيص أبنية للبغاء لها طابع خاص، في غيط النوبي المجاور للأزبكية، وفرض تعريفة رسمية على دخولها فيما عدا من صرّحت لهم السلطات الفرنسية بحمل تصريح دخول بيوت الدعارة بغير أجر.

كانت المنطقة تفخر أنها تضم ما لا يقل عن ثلاثة عشر مكانًا ترفيهيًا كبيرًا وعددًا لا يحصى من البارات والمقاهي الأصغر. كان الكثير من هذه الأماكن يُقدّم عروضًا للمغنيات أو الراقصات في غرف مليئة بالدخان والخمر. كما كانت تضم صالات للقمار وأوكار للحشيش وغير ذلك.

إلى جانب أماكن الحياة الليلية، كان ثمة الكثير من الفنادق التي تلبي احتياجات المسافرين الأوروبيين. وكان من أبرزها فندق "شبرد" بشرفته المكشوفة الشهيرة، حيث كان أفراد النخبة من جميع أنحاء العالم يتجمعون فيه في موسم الشتاء. وفقاً لمقال نشر عام ١٨٨٤ في "هاربرز بازار" Harper's Bazaar، "في الأيام الخوالي، قبل أن تحوّل القناة مسار السفر بين الهند ومصر، كان فندق "شبرد" المكان الذي تلتقي فيه جداول الماء من الشرق والغرب" (413).

تلك الفنادق إلى جانب البنايات الجديدة المبنية على الطراز الفرنسي والتي ظهرت فجأة في هذا الجزء من القاهرة دفعت الناس إلى تسمية الأزبكية بالحي الأوروبي. ومع ذلك، كان ثمة المزيد من الأحداث التي كانت تجري في هذه المنطقة أكثر مما يشير إليه هذا الاسم. فإلى الشمال من الحدائق كانت تقع كاتدرائية مار مرقس، مقر البطريركية القبطية. ومن الشرق كان يقع الموسكي، وهي منطقة تاريخية ذات عمارة عربية وشوارع ضيقة، تؤدي إلى قلب المدينة الفاطمية القديمة والتي اعتبرها الأوروبيون شديدة الغربة. كانت الأزبكية، بعيدة عن كونها مجرد نقطة جذب للسائحين، "المكان" المناسب للخروج ليلاً بالنسبة للقاهريين الباحثين عن المتعة.

قصة الأزبكية هي قصة مصر الحديثة أيضاً. في معظم كتب التاريخ، يمثل عام ١٧٩٨ بداية مرحلة جديدة في تاريخ البلاد. في ذلك العام، قاد نابليون جيوشه عبر البحر الأبيض المتوسط وغزا مصر وهزم الجيوش العثمانية في معركة الأهرامات. اجتاحت نابليون ورفيق من ١٥١ عالماً كلّفوا بتحليل دقيق لتاريخ هذه "الأرض العتيقة" وثقافتها وجغرافيتها.

استقر الجيش الفرنسي في جميع أنحاء القاهرة بما فيها الأزبكية. والتي كانت آنذاك منطقة ذات أهمية متوسطة - حيث أقاموا مسرحاً مؤقتاً للترفيه عن الجنود بعروض مسرحية. من بينها موت قيصر Death of Caesar لفولتير وأوبرا جديدة بعنوان الطحانين The Two Millers كتبها اثنان من أعضاء الحملة. وقع كثير من الناس تحت إغراء اعتبار الغزو الفرنسي نقطة تحول حاسمة في تاريخ مصر. وبداية الحداثة في البلاد - لهذا السبب، يبدأ التاريخ المصري الحديث في كثيرٍ من الكتب في ١٧٩٨. لكن في الواقع، ربما كان لحملة نابليون القصيرة، لكن المصبوغة بصبغة رومانتكية في الشرق الأوسط (والتي استمرت إلى ١٨٠١) تأثير أكبر على الخيال الأوروبي أكثر من غيرها.

بعد هدوء الأنشطة المسرحية في سبعينيات القرن التاسع عشر ثمة الاضطرابات السياسية في ١٨٨٢، بدت الدراما العربية وكأنها تسير في منحنى هابط في مصر (بعد الغزو البريطاني في ١٨٨٢، لم يتم تسجيل أي مسرحيات بالعربية حتى ١٨٨٤). ولم ينقذ المشهد المسرحي إلا موجة من الفرق المسرحية الآتية من بلاد الشام. كانت الدراما العربية موجودة هناك منذ ١٨٤٨ على الأقل، عندما قامت فرقة في بيروت بتقديم مسرحية مستوحاة من "البخيل" L'Avare لموليير وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت مجموعة من الفرق المزدهرة تباشر عروضها في شرق المتوسط.

بحلول منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر، بدت القاهرة مرة أخرى مكاناً جذاباً للزيارة - مستقر سياسياً واقتصادياً على الأقل بالنسبة للحظة - وفي الوقت نفسه، دفع الفقر والجوع وأحياناً السياسات العثمانية القمعية الناس للنزوح عن الشام. بدأ اللاجئون من المنطقة في الارتحال في جميع أنحاء العالم، بعضهم انتهى به الحال للوصول لأماكن بعيدة كالأميركتين، لكن كثيرين منهم جاء إلى مصر، حيث توافد أصحاب الفكر المسرحي على الأزبكية وبدأوا في تقديم عروضهم الخاصة للجمهور المصري المتعطش للمسرحيات العربية. بدأت خطط إسماعيل الطموحة للمسرح تترنح.

اعتبرت حديقة الأزبكية في القاهرة بمنزلة قلب ومركز عاصمة الأسرة العلوية طوال القرن التاسع عشر، فبعد ردم البركة التي توسّطت الميدان أنشئت حديقة حديثة على يد المهندس الفرنسي جان بيير باريليه - ديشان بك، وأقام حولها الخديو إسماعيل المسرح الكوميدي الفرنسي ودار الأوبرا الخديوية.

في أزبكية إسماعيل، وُلدت حياة الليل والترفيه المصرية الحديثة واستمرت في الازدهار. استمر المهرجون ولاعبو الأكروبات وممثلو الفارص ومدرّبو الحيوانات في تقديم عروضهم كما كانوا يفعلون منذ قرن - ظلّ مسرح خيال الظل موجوداً في الأزبكية حتى ١٩٠٩ عندما أغلقتها السلطات لأنها

اعتبرته بذيئاً للغاية— لكن عوامل جذب جديدة أخذت في الظهور الآن.

وبعد عقدين من بدء الخديو أربعة مشروعات كبيرة بالأزبكية، وهي دار الأوبرا والمسرح الفرنسي والسيرك ومضمار سباق الخيل، لم يبق منها سوى دار الأوبرا. لكن هؤلاء الممثلين ذوي الخبرة والمتحدثين بالعربية الذين كانوا بالفعل يُقدّمون عروضهم في بيروت ودمشق، بدأوا ثورة جديدة في المسرح المقدم باللغة العربية في القاهرة.

سرعان ما وجدت الفرق الشامية دعمًا حماسيًا من المصريين. اجتمع "عدد من الوطنيين" معًا لبناء مسرح للمخرج الشامي سليمان القرداحي. كان هذا المسرح يقع شمال حدائق الأزبكية بالقرب من "غراند بار". انتقل اثنان من هؤلاء المهاجرين الجدد من جميع أنحاء المتوسط إلى المسارح التي كانت قائمة في الشارع كل منهما مقابل الآخر، في ميدان بالقرب من دار الأوبرا يُعرف بالعتبة الخضراء. وتعرّض أحد هذه المسارح للدمار إثر حريق عام ١٩٠٠، في حين ظل الآخر مزدهرًا لأعوام.

كان لهذه الفرق المسرحية أعمالٌ متنوعة. قدّموا في كثير من الأحيان نسخهم العربية الخاصة من كلاسيكيات المسرح الأوروبي؛ وكانت أعمال راسين Racine وكورني Corneille وشكسبير من بين أكثر الأعمال شهرة. كان كسب مبالغ لا بأس بها من الأموال من الترجمة ممكنًا، كما تشكلت صناعة منزلية من الكُتّاب متعددي اللغات تمكنت من تلبية الطلب على النصوص الجديدة.

غالبًا ما كيفت المسرحيات تكييفًا خفيفًا إرضاءً للأذواق المحلية؛ فكانوا تارة يُغيّرون الأسماء والأماكن أو يغيرون الحكمة نفسها تارة أخرى. وكانوا "دائمًا" يضيفون الأغاني والفواصل الموسيقية إلى الحدث (حينما حاولت إحدى الفرق عرض هاملت بدون أغاني، اشتكى الجمهور كثيرًا لدرجة أن الفرق لم تكرر الأمر أبدًا مرة أخرى). منحت العناوين إشارات للجمهور حول ما يمكنهم توقعه؛ لأن الكثير منهم لم يكن على دراية بعناوين الأعمال الأصلية؛ لذلك صار عنوان "روميو وجولييت" العربي "شهداء الغرام". وأطلق على "عطيل" Othello عنوان "القائد المغربي" أو "حيل النساء"، وعُرِفَت مسرحية كورني "السيد" Le Cid باسم "غرام وانتقام".

لكن الفرق لم تُعدّ صياغة الكلاسيكيات الأوروبية فحسب؛ بل كان المسرح العربي في أيامه الأولى هذه يستقي مؤثراته من أي مكان يمكن أن يجدها فيه. اعتمدت بعض العروض على قصص مأخوذة من التاريخ الإسلامي أو من قصص "ألف ليلة وليلة".

لم يمض وقت طويل حتى شرع بعض الكُتّاب المصريين في كتابة مسرحياتهم الخاصة وتقديمها للمسرح. ضمت هذه المجموعة المحامي الشاب إسماعيل عاصم الذي تخلّى عن مهنته المربحة لينضم إلى حركة الدراما الجديدة. ومن أشهر مسرحيات عاصم مسرحية "صدق الإخاء" التي ركزت على قصة شاب متحرر يُدعى نديم والذي أهدر حياته في البارات وأوكر القمار في الأزبكية، لكنه تاب في النهاية بعد وفاة والده - لقد تخلّى عن حياته الفاسدة وتحول إلى تاجر ناجح يعمل على ضمان معيشة الأسرة.

في البداية، كان عالم المسرح الآخذ في الاتساع عالمًا ذكريًا بشكل كبير. في تلك الأيام الأولى، غالبًا ما كان الصبية يلعبون دور الإناث في المسرحيات؛ لأنه لم يكن ممكنًا العثور على إناث لتمثيل تلك الأدوار. وكما هي الحال في كثير من الأحيان، كان يُنظر إلى مهنة "المثلة" في مصر أنها مرادف للفجور بل والبغاء، ولم تكن تعتبر مهنة محترمة بالنسبة للنساء. جاءت معظم النساء اللاتي كسرن هذا المحظور من بلاد الشام.

خرجت المزيد من الفرق إلى الحياة مع استمرار ازدهار المسرح في أواخر القرن التاسع عشر. كانت مريم جزءًا من جيل الممثلات الشابات من بينهن ليببة مانولي Labiba Manoli وشقيقتها مريم، وميليا ديان Milia Dayan، والأختين إستاتي Estati sisters، وإبريز وألظ، اللتين يُترجم اسمهما إلى "ذهب" و"أماس" على الترتيب. كن يتنقلن بين الفرق في تنافس على الأدوار الجيدة. ظلت هؤلاء الممثلات، لسوء الحظ بدرجة كبيرة وبسبب ندرة المعلومات حول حياة هؤلاء النساء ومجرد الإشارات القصيرة في الصحف حول هويتهم، استعراضًا للأسماء على هامش سجل التاريخ.

كانت حياة الممثلة العاملة في هذه الفترة، انطلاقاً من مذكرات الممثلة الشامية مريم سماط(414)، معقدة بشكل مستحيل تقريباً. هي نفسها انتقلت من فرقة لأخرى أكثر من مرة، بالإضافة إلى سرد النجاحات التي حققتها في القاهرة، تتذكر مريم جولاتها في ريف مصر وأسفارها إلى أماكن بعيدة كدمشق وبيروت. كان على الفرق المسرحية أن تفعل كل ما في وسعها كي تتميز. بالإضافة إلى المسرحية نفسها، كانت الإشعارات المسرحية وقتذاك أيضاً تعلن عن عروض هزلية قصيرة وعروض "بانتوميم"، إلى جانب الكثير من الغناء والرقص.

كان الغناء جزءاً ضرورياً مما كان يتوقعه الناس من العروض الترفيهية الحية التي تقدمها الفرق لدرجة حتمت عليهم إضافة أغانيهم الخاصة إلى أحداث المسرحيات التي لم يكن بها مقاطع غنائية. على مسارح القاهرة، أصبحت كل مسرحية ذات طابع موسيقي musical وكل ممثل مغنياً. ومع استمرار تسعينيات القرن التاسع عشر، اختُرعت المزيد والمزيد من الحيل لزيادة مبيعات التذاكر؛ حيث أعلنت بعض الفرق أنه سيكون ثمة يانصيب قبل العرض. ومع ظهور التكنولوجيا الجديدة كالسينماتوغراف، باتت الأفلام القصيرة أيضاً أحد عناصر الجذب الليلية.

مع ازدهار هذه الفرق المسرحية في أزيكية ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، غدت الكثير من أشكال الترفيه الأخرى متاحة. حتى قبل افتتاح دار أوبرا إسماعيل، وفرت البارات والمقاهي الصغيرة في المنطقة للناس أماكن للعب البلياردو والاستماع إلى الموسيقى. ظهر الآن عدد كبير من البارات، مستفيدة من الحياة الليلية المتأخرة في المنطقة. في تسعينيات القرن التاسع عشر، كانت أشهر الأماكن هي "سبلند بار" Splendid Bar و"نيو بار" New Bar وكانا لنفس المالك، كذلك بوديجا Bodega وبار المحروسة. لكن الكثير من أماكن الشرب الأصغر الأخرى كانت موجودة في الأزيكية وحولها. كان الزبائن (ومعظمهم من الذكور) يشملون مزيجاً من الطبقات والجنسيات، من التجار اليونانيين إلى العُمد المصريين. الذين سرعان ما تحولت أعمالهم الجامحة في بارات المدينة الكبيرة إلى كليشيات في القاهرة.

كان لعب القمار من أشهر الهوايات الجديدة لتمضية الوقت، وكانت الصحافة مليئة بالقصص والتحذيرات عن الأشخاص الذين فقدوا أموالاً طائلة بعد قضاء ليالٍ طويلة بالأزيكية.

كانت صالة إلدورادو القديمة Eldorado، وهي أول صالة رقص كبيرة أنشئت في الأزيكية واستمرت طويلاً، مشهورة منذ ستينيات القرن التاسع عشر. إلا أنه بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، كانت المنطقة تعج بآماكن مختلفة بما في ذلك "ألف ليلة وليلة" و"الكازار باريزيان" Alcazar Parisien، و"كافيه إيجيبيسيان" Café Égyptien الذي كان به فرقة موسيقية نسائية جُلِبَت من أوروبا. ولع اسم الراقصة شفيقة القبطية التي أدارت تياترو، وأقامت علاقات مع رجال ذوي نفوذ، منهم إليس مانسفيلد، المساعد البريطاني لقائد شرطة القاهرة، الذي تمت تربيته فيما بعد لمنصب القائد نفسه. كما كان محمد أباطة مفتش الشرطة في المنطقة زبوناً منتظماً لصاليتها، واستفادت جيداً من هذه العلاقة أيضاً.

سرعان ما أصبحت صالات الرقص هذه الأماكن المفضلة لنوع الرقصات التي شاهدها الرحالة إدوارد لين يرقصن في الأماكن العامة في أوائل القرن التاسع عشر؛ إذ كُنَ ينافسن مسارح المنطقة في الشهرة.

كانت هذه التياترات تظل مفتوحة في وقت متأخر من الليل أكثر من المسارح. كانت كل ليلة تشمل فقرات متتالية ومختلفة تُقدمها المغنيات والراقصات اللاتي كن يختلطن بالجمهور بعد تقديم عروضهن. كان يدفع للفنانات بحسب عدد المشروبات التي يمكنهن حث الزبائن على شراؤها. سواء كانت بيرة أو كونيكا أو شمبانيا؛ لذا كانت مستويات السكر في الملهي الليلية مرتفعة للغاية.

قدّم زوار القاهرة الأجانب أيضاً أوصافاً لكباريهات الأزيكية في تسعينيات القرن التاسع عشر، وكانوا مشمئزبين تماماً مثل الكاتب محمد الموليحي. وصف أحد الكتّاب البريطانيين صالة رقص زارها في القاهرة أنها "مكان حقيقي للتعذيب، آلات غريبة، تدفع لليأس بأيدي العارضين أو رتثيهم

التي لا تكلّ. تنبعث منها أصوات عالية ومزعجة، وبمصاحبة هذه الآلات فرقة من المغنين. تفصح عن نزعات كئيبة توحى بصورٍ لا توصف من المعاناة الداخلية".

لم يكن الجميع رغم ذلك معارضين بشدة للتياترات؛ إذ يبدو أن إحدى الليالي التي قضاها أحد مراسلي النسخة الإنكليزية للجريدة الرسمية للحزب الوطني المصري. وهي "ذي إيجبشان ستاندرد" The Egyptian Standard، في أحد التياترات بالقاهرة كانت أكثر متعة. وصف المراسل الرحلة التي كان قد قام بها في السنوات الأولى من القرن العشرين إلى مسرح إلياس Theatre Elias الشهير. وهو هذا النوع من الأماكن الذي يصفه الناس بأنه "مقهى الغناء" café chantant. المقهى مثير للبهجة، رغم بهرجة الزينة بالمصاييح المعلقة والثريات والزهور والكرات الأرضية العاكسة، وما إلى ذلك. الجدران مغطاة بمرايا كبيرة ومطبوعات ملونة - ونأسف لقول إن هذه الأخيرة لا تتمتع بجودة فنية عالية. وثمة نافورة رخامية في أحد طرفيه تعمل باستمرار وتنعش الجو. تتحرك الفتيات الجميلات الموجودات بكثرة - "الآرتيست" ولا شك- هنا وهناك".

ازدهرت الملذات غير الشرعية أيضاً، فقد أخفت الشوارع الجانبية بيوت القمار وبيوت الدعارة وأوكار الحشيش كما كان الحال في الأزيكية دائماً. اعتُبرت هذه الأماكن أحد أشكال الحياة الليلية إلى جانب البارات والمسارح والتياترات. كان مقهى "كاريون" Carillon في شارع عماد الدين معروفاً كمكان خروج للقوادين الفرنسيين الذين عُرفوا بأسماء مستعارة مثل مستعارة مثل "بول لو بيتيت"، و"لويس الأسترالي"، و"لويس الجزائري". وأنشأ الأطباء عيادات تُقدّم علاجات للأمراض التناسلية. كان تعاطي الكوكايين والهيروين منتشرًا حينذاك، لدرجة أن بعض الفنانين تحولوا إلى التهريب (415).

بشكل عام، كان أفراد الإدارة الاستعمارية البريطانية كلما وصلوا إلى أي مكان يسعون لفرض نظامهم الخاص. وعندما احتلوا مصر في ١٨٨٢، كانت تجارة الجنس أحد أهدافهم الإصلاحية. اعتمدت طريقة التعامل مع البغاء في مصر قبل ثمانينيات القرن التاسع عشر بوجه عام على التنظيم وليس الحظر، لكن البريطانيين نظموا قانونياً بشكل أكثر صرامة، تماماً كما فعلوا في الهند في وقت سابق من القرن التاسع عشر.

تحول شارعان في الأزيكية، وهما شارع كلوت بك ووش البركة، إلى منطقة الضوء الأحمر (أو حي الدعارة) المصرح بها رسمياً. كانت هذه محاولة جزئياً لضمان الصحة الجنسية للقوات العسكرية والإدارية البريطانية في البلاد. كان من المفترض من النساء اللاتي كن يعملن في بيوت الدعارة الحصول على تصريح والخضوع لفحوصات طبية منتظمة، حتى لو كان وجود مزيج من الثغرات الرسمية والتهرب غير الرسمي والمواخير غير القانونية تعني أن هذا لم يكن الحال دائماً.

بالنسبة لأولئك الذين كانوا قلقين فعلاً بشأن التراخي الأخلاقي في الأزيكية، لا بدّ أن بيوت الدعارة هذه أكدت أسوأ مخاوفهم. كانت بيوت الدعارة بالنسبة للأشخاص (خاصة النساء) الذين عملوا في مجال الترفيه وصمة عار على سمعتهم (أو سمعتهم) (416).

لم يوافق السياح الأوربيون والمسؤولون البريطانيون على أن الجنود الأجانب بسلوكياتهم في الحانات والكازينوهات كانوا يدمرون الأزيكية؛ بل اعتقدوا أن الأزيكية كانت تُفسد الجنود بنسائنها الساقطات وكحولها المشبوه، و"مشاهد أسوأ مما كنا نقرأ عنه في بابل القديمة" (417).

في غضون عقود قليلة فقط -من ستينيات القرن التاسع عشر إلى تسعينيات القرن التاسع عشر - تحولت الأزيكية تحولاً كاملاً. ومع افتتاح محطة الترام هناك في ١٨٩٦، يمكن للمنطقة الادعاء أنها كانت مركز القاهرة الحديثة. لكن في الليل، كان ثمة خليطٌ معقد من أماكن الترفيه المختلفة، وبدأ سُلم العار الهرمي في الظهور. تربع المسرح المحترم على قمة الهرم، تليه التياترات الأكثر فجوراً، ثم استقرت بيوت الدعارة في الدرك الأسفل. بذل هؤلاء الأعلى في نظام الترتيب هذا جهوداً متواصلة لفصل أنفسهم عن هم بالأسفل. أصر الممثلون والممثلات أنهم ليسوا مغنيات أو راقصات كباريات؛ وأصرن مغنيات الكباريات والراقصات أنهن لسن عاهرات. لكن الحواجز بين الثلاثة كانت أكثر مرونة مما أراد الكثيرون الاعتراف

به ؛ ففي نهاية الأمر، كان ترفيه شخصٍ ما فجورَ شخصٍ آخر. استغلت الفرق المسرحية المغنيات والراقصات لإغراء الجماهير. وفي صالات الرقص، ربما كانت ثمة ضغوط من الزبائن الأثرياء الذين كانوا يتوقعون أن الراقصات سيقابلن كرمهم بخدمات جنسية(418).

إلا أن الجهود المبذولة للتأكيد على احترام المنطقة لاقت آذاناً صماء. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، باتت الأزيكية معروفة بنسائها المشبوهات سيئات السمعة قدر شهرتها بدار الأوبرا أو المسارح. وأصبحت مرادفاً لصخب السكارى والعريضة وتسكع الشباب.

في أروقة الأندية الليلية والكباريهات والمسارح كانت المرأة تمخر عباب بحور عاتية لتمكين وجودها، فصارت مطربة مثل منيرة المهدية مالكة جمهور واسع النطاق فأدارت فرقته المسرحية الخاصة بها منذ عام ١٩١٥. واقتدت بها مجموعة مميزة من المطربات والممثلات والراقصات ممن تركن بصمات لا تُنسى في التاريخ الثقافي والفني لمصر خلال العقود الأولى من القرن العشرين.

ولمع اسم روزاليوسف، التي كانت في عام ١٩٢٥ ممثلة بارزة نقلت لبالي الكباريهات وصلات الموسيقى إلى مرحلة أعلى مسرحية وأدائية، بمعونة مباشرة من زوجها الثاني زكي طليمات، بلغت أوجها مع تأسيس مسرح رمسيس، ثم إطلاق المجلة الشهيرة التي تحمل اسمها. ولا ننسى دور الممثلة الفرنسية سارة برنار، من خلال مرورها الأول في مصر وأدائها عدداً من تمثيلياتها على مسرح الأوبرا شتاء ١٨٨٨ - ١٨٨٩ ومرورها الثاني في خريف ١٩٠٨ حيث عرضت بعض مسرحياتها رغم إصابة في قدمها وأشادت بمدى تطور ذائقة المصريين بالقياس إلى ٢٠ سنة خلت.

لكن فاطمة رشدي سوف تستحق لقب "سارة برنار الشرق"، منذ أن اكتشفها يوسف وهبي في عام ١٩٢٥ وصادفها سيد درويش وأختها إنصاف في أحد مقاهي الإسكندرية وضمهما إلى فرقته المستحدثة في القاهرة. وفي العاصمة القاهرة سطع نجم فاطمة، حتى من خلال سيرك نحيب الريحاني، فتخصصت في فنون المونولوج و"القطوقة"، وأنشأت قاعة رقص مونت كارلو في حي روض الفرج، الذي على صغره أخذ ينافس لبالي الأزيكية.

لم يطل الوقت حتى شرعت فاطمة رشدي في تجسيد طموحاتها نحو الانتقال من الأداء في العُلب الليلية إلى التمثيل على المسرح واقتراح الموضوعات للسينما، خاصة بعد لقائها مع عزيز عيد. لم تنل المطربة فاطمة سري حظها من الشهرة والانتشار رغم منجزاتها المميزة وما قدّمته من أعمال بالتعاون مع الملحن داود حسني.

كانت القاهرة في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته كوكباً آخر، ليس مثاليّاً بالضرورة، لكنه بالتأكيد مختلف وشديد الثراء.

أسرار "جمهورية شبرا"

أنت لا تعرف القاهرة إذا كنت لا تعرف شبرا، فهي أعرق ضواحي العاصمة، بل إنها أعرق من "قاهرة المعز لدين الله"؛ إذ إن أول غرسها يرجع إلى عهد الفسطاط، وكان الجبل يكتنف عاصمة ابن العاص من الشرق، والنيل يقف سياجاً دون امتداد العمران غرباً، وتلال مصر القديمة تحول دون التوسع جنوباً، فلم يكن ثمة مجال للبناء والتعمير سوى في الناحية الشمالية، حيث ترك النهر العظيم طبقات من الرواسب والطين. كان بعضها يعلو على الفيضان إذا ما اشتد، فيبدو كالجزيرة، مما دعا إلى تسميته باسم: جزيرة بدران(419).

الاسم الأصلي لـ"شبرا" هو "شبرو" أو "جبرو"، وهي كلمة قبطية تعني "الكوم" أو "التل".

وكأنما أشفق النيل أن يقف في وجه العمران، فانخرف بمجره بطريقة متدرجة نحو الغرب؛ ليفسح المجال للضاحية الجديدة. كانت شبرا جزيرة وسط النيل اسمها جزيرة الفيل، نسبة لغرق مركب باسم "الفيل" في تلك المنطقة، ثم بفعل إطماء النيل اتصلت الجزيرة بالأرض لتصبح هي أرض شبرا الحديثة وروض الفرج.

وتذكر كتب التاريخ أن جزءاً كبيراً من حي شبرا كان ضمن بستان "الجيش" الذي أنشأه الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، فقد كان الفاطميون مغرمين بالإقامة في الأماكن التي تتمتع بالمنظر الطبيعي. وكان يمتد شمالاً شرقي الخليج المصري حتى الوايلي وغرباً حتى منية السبرج "الجزء الشمالي الشرقي من حي شبرا الآن". كما أنشأ الأفضل منظره رائعة عُرفت بمنظره البعل وكان للفاطمييين شمال منظره "البعل" منظرتان الأولى عُرفت "بالتاج" والثانية بمنظره "الخمسة وجوه"، وهو ما يبرر تسمية بعض الشوارع والميادين بهذه الأسماء حتى الآن، فمن شارع التربة البولاقية أحد أهم شوارع شبرا تتفرع شوارع "المنظره" و"الوجود" و"الجيوشي"، وفي الشوارع الخلفية المتفرعة من الجانب الأيمن لشارع التربة يوجد ميدان صغير يسمى ميدان "الأفضل"(420). واستمر الأمر على هذا النحو حتى عصر المماليك، وسكن فيها السلطان المؤيد شيخ.

لم تكن شبرا في الأصل جزءاً من القاهرة كما هو حالها اليوم، حتى أنشأها محمد علي مؤسس مصر الحديثة في يناير ١٨٠٩ حين اختار موقعاً مساحته ٥٠ فداناً على شاطئ النيل ("شبرا الخيمة" حالياً) في متسع من الأرض، يمتد إلى بركة الحاج، واستولى فيه على عدة قرى وإقطاعات، وبدأ بناء قصره، الذي عُرف بـ"قصر الفسقية" نظراً لكونها أبرز ما يميزه، وأمر بغرس الأشجار وإقامة البساتين، مما مهد لإقامة تنمية عمرانية. سقط سقف قصر محمد علي بعد الانتهاء منه في مايو ١٨٠٩ فأعاد بناءه. وفي ١٨١٢ أنشأ محمد علي عدداً من السواقي لتوفير المياه للقصر والحدائق.

أراد محمد علي باشا أن يكون شارع شبرا طريقاً بين القاهرة وقصره الذي بناه في شبرا الخيمة، الواقعة بشمال فم ترعة الإسماعيلية، وأنشأ فيها مصنعاً لتبييض المنسوجات، التي كانت تصنع في معامل النسيج المصرية، وكان هذا المصنع ملاصقاً لسراي الأمير السابق طوسون باشا التي تشغلها الآن مدرسة شبرا الثانوية الأميرية وما زال مكانه يُعرف باسم المبيضة بقسم روض الفرج(421).

وفي عام ١٨٤٧م أمر محمد علي بشق شارع مستقيم يمتد من قصر عابدين إلى قصر شبرا، وكان يطلق عليه حينها "جسر شبرا" وكان محمد علي يهدف من هذا الشارع أن يكون مكاناً للنزهة والترفيه لذلك جعل هذا الشارع أكثر استقامة من أي شارع آخر في القاهرة، وأمر بزراعة أشجار الجميز والمانحو على جانبيه، وحفر ترعه لري أشجاره، فكانت التربة البولاقية، فكان الأمراء والأميرات يتنزهون على ظهور الخيل وعربات السوارس فيه، كما أوعز محمد علي إلى الأعيان والأمراء ببناء قصور لهم في ضاحية شبرا.

أقبل الأمراء على بناء القصور الفاخرة في شبرا، فكان الأمير حيدر دولتيان أول من بنى قصره هناك وهو الآن مدرسة الخلفاوي بنات، تلاه أمير الخزانة عبد الرحمن الخازن دار الذي بنى قصرًا ومسجدًا (القصر حالياً: كنيسة سانت تريزا)، واستمر الأعيان في بناء القصور وكان أشهرهم قائد جيوش السلطان سليم أحمد خمارويه.

وشيد سعيد باشا عام ١٨٥٨ قصر النزهة، وتحول هذا القصر فيما بعد إلى المدرسة التوفيقية الثانية (422). كما أنشأ سعيد باشا لزوجته (إنحه هانم) قصرًا آخر في مكان الشارع الذي يحمل الآن اسمه. وفي ١٨٦٩ شيد الأمير طوسون قصرًا ليُزف فيه ابنة الأمير عمر طوسون إلى الأميرة لطيفة هانم، فاحتلتها لاحقًا مدرسة شبرا الثانوية. وهناك قصر الأميرة فلك سو، وتشغله مدرسة الراهبات الأمريكان، وقصر الأمير محمد علي حليم في شبرا الخيمة.

وكان للأمير طوسون خادم أرمني اسمه برنار شيكولاني أنعم عليه الأمير بقصر بجواره، وهو الآن مدرسة الاستقلال.

أدى إقبال الولاة والأمراء على هذا الحي، إلى جذب عليه القوم وسراتهم، ليزحف البناء والعمران في شبرا حتى اقتحما صميم الريف، عند حدود القليوبية. وصارت شبرا همزة الوصل بين هذه المديرية (المحافظة لاحقًا) والقاهرة.

وكان تجار الجمال والمواشي يتوافدون من الدلتا للتجارة في هذه السوق. وكان عليهم عبور النيل للوصول إلى السوق. أما الطريقة الوحيدة لعبور النيل في هذه المنطقة فكانت معديات "جسر البحر" بالقرب من الشارع الذي يحمل هذا الاسم الآن.

سرعان ما تحولت شبرا من قرية صغيرة مهملة وعشوائية إلى رثة خضراء وحدائق ومنتجع لأمرء الأسرة المالكة. ومما ساعد على انتشار العمران في شبرا مد خط الترام في شارع شبرا عام ١٩٠٢ وفي شارع روض الفرج وساحل روض الفرج في عام ١٩٠٣، مما سهّل اتصالها بقلب القاهرة.

قد يجهل كثيرون أن خط الترام الذي ربط شبرا بقلب القاهرة، هو أبرز خط أنشئ في القاهرة، لا لشيء سوى أن الشركة اختارت شبرا موقعًا لمخازنها.

ومن طريف ما يُروى أن شبرا -حين أنشئت الشركة المخازن- كانت مزارع وحقولاً، فلما أبصر المزارعون قطارات الترام لأول مرة، تولاهم الذعر وهجروا المساكن المحيطة بالمخازن. وكان لزامًا على الشركة والسلطات الإدارية أن تجد حلًا يعيد الطمأنينة إلى الأهالي، فنظمت لهم نزعات مجانية في الترام.

وردت هذه الناحية في كتاب "أحسن التقاسيم" للمقدسي، وذكرها الإدريسي باسم "سيروا"، فقال: وبأسفل الفسطاط ضيعة سيروا وهي ضيعة جلييلة، ويعمل بها شراب العسل وهو مشهور في جميع الأرض، كما قال عنها "شبره" في نسخة أخرى.

ورد ذكر شبرا لأول مرة في "تقويم النيل" عندما أوفى النيل في أواخر شهر أبيب. ويقول أمين سامي في كتابه:

"وكسر السد أول يوم من مسري وفتحته "لاجين" أمير مجلس. وكان للناس مدة طويلة لم يروا قبلاً مثل هذا لأنه قطع الطرقات والجسور وغرقت أراضي المنية و"شبرا والروضة وطريق مصر وبولاق" أي كانت بولاق ضاحية لمصر ولم تكن جزءاً من القاهرة" وجزيرة الفيل وكوم الريش وظفت الآبار وكان كل هذا عام ٨٨٢ م" (423).

وشبرا ليست حيًا، وإن عُرفت بهذا اللقب في تخطيط القاهرة؛ إذ إن عدد سكانها تجاوز ٢٢٩,٦٩٦ نسمة -حسب إحصاء السكان عام ١٩٤٩- أي إنها كانت في التاريخ المذكور أربعة أمثال سكان محافظة دمياط، وضعف سكان محافظة السويس، بل كانت أكثر من مديرية إذا عرفت أن المنوفية لم تكن تضم -حينذاك- سوى ١١٦,٨٧٧ نسمة.

وإذا تذكرنا أن شبرا تضم أيضًا روض الفرج، وعلى هذا الأساس يقفز عدد سكانها في عام ١٩٤٩ إلى ٤٢٥,٥٨٦ نسمة، أي أكثر من سكان محافظات القنال والسويس ودمياط مجتمعة.

وحتى تاريخ كتابة هذه السطور (٢٠٢٤) تعد شبرا أكبر أحياء القاهرة مساحةً وسكاناً وهي تضم دوران شبرا، وطوسون، والجيوشي، والترعة البولاقية، وفيكتوريا، والساحل، وروض الفرج، وسانت تريزا، والخلفاوي، والمظلات، وأحمد حلمي، ومهمشة، وشبرا الخيمة.

وفي عام ١٩٤٩، ضمت شبرا ١٠,٠٠٠ بيت، تسكنها ٤٠,٠٠٠ أسرة، ثلاثة أحيائها من الطبقة المتوسطة، والخمس الرابع من الطبقة الفقيرة، والخمس الباقي من ذوي اليسار، وهو ما يعني أن التوزيع الاجتماعي فيها منسق ومنظم.

بل أن الأرقام تقول إنه في التاريخ المذكور ضمت شبرا، ٢٠٠ طبيب، و١٢٠ محامياً، و٥٧ مدرسة، و١٦٠ مقهى، وخمس دور سينما، وأربعة مستشفيات.

نضيف إلى هذه الأرقام: ٢٠٠ عبادة، و١٨ صيدلية، و١٢٠ مكتباً لمحامين، و١٦٠٠ محل تجاري منها ٥٠٠ للبقالة، و١١٠ لبيع الأقمشة و٢٠٥ للخضراوات والفواكه، و١٤٣ للجزارة، و١٠٢ للمطاعم، و٢٨ حلوانياً.

ولهذا يرى البعض أن شبرا تصلح لأن تكون محافظة كبيرة تُنافس القاهرة في العمران والنشاط.

ويبالغ آخرون في عصرنا الحالي فيطلق عليها اسم: "جمهورية شبرا".

ومن أشهر شوارع شبرا:

شارع البعثة: نظراً لتركز بعثة الرهبان الكاثوليك الفرنسيين به، حيث أقاموا كنيسة سان مارك. وقد ألحق الفرنسيون بالكنيسة مدرستين الأولى مدرسة نوتردام ديزابوتر، والثانية القديس بولس للبنين.

العتار: كان في الأصل عزة الحاج محمد هرمس كبير العطارين، ومن هنا جاء الاسم. وورث ابنه أيوب المهنة عن والده، وصارت المنطقة التي بنى فيها بيته أرض أيوب.

شارع السبتية: سكنه اليهود قديماً وكانوا يُغلِقون تجارتهم يوم السبت، فأطلقوا عليه اسم "السبتية".

منية السيرج: كانت قديماً قرية مشهورة بصناعة زيت السمسم المسمى بـ"زيت السيرج".

ويعد جامع الخازندارة أحد أهم معالم الشارع وأقدمها، وكذلك كنيسة "ماري مرقص" بمنية السيرج وتطل على شارع شبرا وهي أكبر كنائس شبرا وهي للأقباط الأرثوذكس، وكنيسة "سانت تريزا" للكاثوليك. وتعتبر أيضاً مدرسة "الراعي الصالح" من أقدم وأهم المدارس بشارع شبرا وأحد أهم المعالم بسورها الأثري ويرجع إنشاء المدرسة إلى أكثر من ١٠٠ عام وملحق بها كنيسة ومستشفى. وقد أقيم أخيراً سوق تجاري ضخم بجانبها أطلق عليه سوق "الراعي الصالح" ويشبه إلى حد كبير سوق "وكالة البلح" الشهير ويصل السوق إلى شارع شبرا من جهة وشارع الترعة البولاقية من الجهة الأخرى من خلال ممر تجاري ضيق يضم داخله مئات المحال الصغيرة.

وتعتبر مدرسة التوفيقية أحد أهم معالم شارع شبرا، وقد تخرّج في هذه المدرسة عدد كبير من الرواد. يُذكر أن مدرسة التوفيقية الثانوية للبنين في شبرا يرجع تاريخها إلى عام ١٨٨٥، وتخرّج في المدرسة ثلاثة رؤساء وزارات هم عبد الخالق ثروت وعبد الفتاح يحيى ومحمد محمود.

وفي عام ١٩١٦ أمر السلطان حسين كامل بتسميتها المدرسة التوفيقية تخليداً لذكرى أخيه، ومن أبرز خريجي المدرسة: الفريق يوسف صبري أبو طالب، والدكتور رفعت المحجوب، وطلعت حرب، والدكتور إبراهيم ناجي.. ومن الكُتّاب والباحثين، صلاح منتصر وأحمد بهجت ود. جمال حمدان.

بروج البعض أن مستشفى كتشنر (الذي افتُتح رسميًا عام ١٩١٣)، والذي لا يأبه أحد لاسمه الرسمي "مستشفى شبرا العام"، كان فيما سبق مقرًا لإقامة اللورد كتشنر وزير الحرب البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى، وهي مقولة تتعارض مع تاريخ المبنى الذي وضع أساسه في عام ١٨٨١ الأمير النمساوي رودلف، وصممه مورييس قطاوي وإدوارد ماتسك (الثنائي نفسه الذي اشترك في تصميم المعبد اليهودي المعروف في شارع عدلي بوسط البلد) ليكون منذ نشأته مستشفى في خدمة المجتمع والجالية النمساوية المجرية في مصر. تحوّل المبنى إلى الإدارة الإنحليزية، مع مبانٍ أخرى كفندق هليوبوليس بالاس، مع تطورات الحرب العالمية الأولى، حيث فرض الإنحليز هيمنتهم على عدد من المباني العامة في القاهرة من فنادق ومستشفيات لخدمة مجهودهم الحربي واستقبال الجرحى ومصابي الحرب.

وبحلول القرن العشرين أخذ وجه المنطقة في التشكل من جديد، بالتزامن مع دخول وسائل المواصلات الحديثة البلاد. ففي عام ١٩٠٢ تم مد خط الترام الجديد حتى شبرا، واستمرت على هذا الطابع الملكي إلى أن تخلت مرغمة عن طابعها.

وشهدت الفترة التالية للحرب العالمية الثانية زحفًا كبيرًا على هذا الحي فلم تترك فيه أرض فضاء إلا استغلت للمباني وازداد العمران فيه حتى اتصلت مدينة شبرا بقرية شبرا الخيمة التي كثر فيها إنشاء المصانع والمعامل والمخازن تمشيًا مع تقدّم الصناعة في مصر، واستتبع وجود هذا الحي الناشئ إقامة معاهد العلم والمساجد والكنائس والمستشفيات ومراكز رعاية الطفل، وانتشرت في شوارعها المحال التجارية العامرة بكل ما يحتاج إليه السكان، واحتل ساحل روض الفرج مكانة خاصة للترفيه حيث أنشئت به الملاهي والمسارح قبل أن تنتقل الحركة الفنية إلى شارع عماد الدين بوسط القاهرة.

وكان لحي شبرا حظ وافر بعد ثورة يوليو، حيث دخلت ضمن خطة كبرى لتطوير القاهرة على يد عبد اللطيف البغدادي وزير شؤون البلدية والقروية، وتمت توسعة شارع شبرا إلى ٤٠ مترًا ونُقِل الترام إلى وسط الشارع، كما مد شارع التربة البولاقية ليصل إلى عمق شبرا بعد ردم الجزء المتبقي من التربة، كما أنشئت محطة نهائية لوقوف أتوبيسات الوجه البحري القادمة إلى القاهرة. ومع التوسع الشديد في العمران بشبرا ظهرت الحاجة لتقسيمها إداريًا بحيث أصبح الجزء الواقع منها بداية من ميدان أحمد حلمي حتى ميدان المظلات تابعًا للقاهرة، أما الجزء المتبقي منها بداية من ميدان المؤسسة وهو المعروف بشبرا الخيمة فهو تابع لمحافظة القليوبية، وقد تم تقسيمه إلى قسمي أول وثاني شبرا الخيمة، أما الجزء التابع للقاهرة فيقع في نطاق أربعة أقسام للشرطة وهي أقسام أول وثاني شبرا وقسم الساحل وقسم روض الفرج.

ويعتبر شارع شبرا أحد أطول شوارع القاهرة وأهمها من الناحية التجارية، ويعد أقدم شوارع شبرا على الإطلاق؛ إذ يقترّب عمره الآن من ٢٠٠ عام. يتمتع شارع شبرا الذي يبدأ من ناحية القلي حتى ميدان المظلات بنشاط تجاري واسع المجال وخاصة في منطقة "الدوران" وقد ارتفعت أسعار المحال التجارية بعد افتتاح المرحلة الثانية من مترو الأنفاق لتصل إلى نصف مليون جنيه للمحل الصغير الذي لا تزيد مساحته على عشرة أمتار لتصل إلى خمسة ملايين في بعض الأحيان، وخاصة في المواقع القريبة من محطات "مسرة" و"روض الفرج" و"سانت تريزا".

في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، كان حي شبرا قد وصل إلى ذروة الزحام والتكدس لدرجة أن كلمة شبرا وحدها كانت كفيّة بأن تجعل أي سائق سيارة أجرة يخفتي من أمامك في لحظة، واستمرت معاناة سكان حي شبرا أحد أكبر أحياء القاهرة، أعوامًا، مع الزحام وصعوبة المواصلات حتى مد إليه في التسعينيات خط مترو الأنفاق تبعه إزالة خط الترام من شارع شبرا وإعادة التخطيط لخطوط سير العربات. ساعدت هذه الخطوات على تخفيف حدة الزحام وتزامن ذلك مع تحول حي شبرا إلى منطقة طرد سكاني جعلت الهدوء يعود إليه نسبيًا.

من الفنانين الذين عاشوا في شبرا: علي الكسار، وماري منيب، وماهر العطار، ومكرم فؤاد، وسعاد نصر، وسراج منير، وبلّغ حمدي، ورجاء عبده، ومحمد قنديل، ويوسف شعبان، وليلى طاهر، وبوسي، ووائل نور، والمخرج خيرى بشارة، وعقيلة راتب وزوجها المطرب حامد مرسى، وحسين رياض، وأمينة رزق، وفاخر فاخر، والمخرج هنري بركات، وسميحة أيوب، ونبيلة عبيد، وشيرين، وسيمون، والمطربة داليدا وغيرهم كثيرون، ومن الشعراء والأدباء سكن الشاعر الطبيب إبراهيم ناجي.

تغنى بعض المطربين بحي شبرا، ومنهم شعبان عبد الرحيم الذي عدَّ أسماء شوارع شبرا في أغنية شهيرة كانت سبباً في ذبوع صيته اسمها "أحمد حلمي"، قال فيها: "أحمد حلمي اتجوز عايده، كتب الكتاب الشيخ رمضان، وكان شاهد العسال وجابو الشمع من العطار". وكلها أسماء شوارع بحي شبرا باستثناء "مزلقان عايده" وهو الأشهر في حي شبرا. وإذا كان شعبان عبد الرحيم قد تغنى بحي شبرا بأسلوبه الشعبي، فإن محرم فؤاد تغنى بها من منطلق الدعوة للوحدة الوطنية بين أبناء حي شبرا تحت عنوان "بحبك يا شبرا" تقول بعض كلماتها: "بحبك يا شبرا بحبك صحيح، يا موال وأوبرا وعامي وفصيح، يا جامعة محمد وعبد المسيح".

عندما يحكم "العيال"!

خلال العصر المملوكي، حكم "العيال" مصر ما يزيد عن نصف قرن. حدث ذلك عندما كان السلطان يستخلف ابنه الطفل على عرشه، ويموت تاركاً له العرش، فيحكم عاماً أو عامين، يذيق فيها الشعب العذاب بتصرفاته الطائشة وسياسته الصبيانية. وعلى امتداد الحكم المملوكي، تولى سبعة عشر منهم، ستة تقل أعمارهم عن العاشرة، والبقية تحت ١٦ سنة (424).

ويشير الكاتب الصحفي صلاح عيسى في كتابه "هوامش المقريري: حكايات من مصر" إلى أن بعض هؤلاء الحكام كان صغيراً إلى درجة الضحك، ومنهم الملك المظفر أبو السعادات أحمد ابن السلطان الملك المؤيد أبي النصر شيخ الحمودي.

يقول عنه يوسف بن تغري بردي إنه "تسلطن يوم مات أبوه الملك المؤيد شيخ على مُضي خمس درج من نصف نهار الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمئة وعمره يوم بويج بالملك وجلس على سرير السلطنة سنة واحدة وثمانية أشهر وسبعة أيام. وهو السلطان التاسع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم والخامس من الجراكسة وأمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش الناصري أحد أمراء دمشق" (425).

حاكم عمره ٢٠ شهراً!

ونطالع في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" إنه "لما مات أبوه السلطان الملك المؤيد طلب الملك المظفر هذا من الحريم بالدور السلطانية فأخرج إليهم فبايعوه بالسلطنة بعهد من أبيه إليه بالملك قبل تاريخه وألبسوه خلعة السلطنة وركب فرس النوبة بأبهة السلطنة وشعار الملك من باب الستارة بقلعة الجبل ومشيت الأمراء بين يديه وهو يبكي من صغر سنه مما أذهله من عظم الغوغاء وقوة الحركة.

وصار من حوله من الأمراء وغيرهم يشغله بالكلام ويتلطف به ويسكن روعه ويناوله من التحف ما يشغله به عن البكاء، حتى وصل إلى القصر السلطاني من القلعة، فأنزل من على فرسه وحُبل حتى أجلس على سرير الملك وهو يبكي.

وقبل الأمراء الأرض بين يديه بسرعة ولقبوه بالملك المظفر بحضرة الخليفة المعتض بالله أبي الفتح داود والقضاة الأربعة ونودي في الحال بالقاهرة ومصر باسمه وسلطنته" (426).

ويروي عيسى في كتابه أن بعض هؤلاء السلاطين الأطفال كان ولداً شقيفاً، ومنهم الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٩ - ١٤٠٥)، وهو الناصر زين الدين أبو السعادات، الذي تسلطن وهو في الثانية عشرة من عمره بعد وفاة والده. هو السلطان السادس والعشرين، والجركسي الثالث، بين سلاطين المماليك، وكانت أمه رومية وتدعى شيرين.

يقول مؤرخون إنه "كَانَ سُلْطَانًا مَهِيْبًا فَارِسًا كَرِيْمًا فَتَاكًا ظَالِمًا جَبَّارًا مِنْهُمْكَ عَلَى الْخَمْرِ وَاللَّذَاتِ طَامِعًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ" (427).

وبالرغم من صغر سنه، فإنه كان فاحشاً في سلوكه، يشرب الخمر إلى نصف الليل، ثم يخرج إلى الحوش السلطاني بالقلعة وهو سكران، فيستعرض المماليك الذين في السجن ويطلب سكاكين حامية يذبحهم بها، ويدوس على وجوه بعضهم بأقدامه، ثم يبول عليهم أو يصب النبيذ على أجسادهم.

وينقل عيسى عن ابن إياس في تاريخه قائلاً إن "الناصر فرج ذبح من أولئك المساكين نحو ألفي مملوك، بمتوسط عشرين في الليلة الواحدة".

وفي عام ١٤٩٥هـ/١٨٨٠م، وبينما السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي يُنازع الموت، استغل قائد الجيش الأمير تمرار الشمسي هذه اللحظات المفصلية ليتمكن لنفسه بالسلطنة من بعد الأشرف قايتباي. لقد أشار على السلطان وهو في نزعه الأخير أن يوصي بالسلطنة من بعده لابنه الأمير

محمد بن قايتباي، غير أن قايتباي لم يكن يدري ما يحدث، فاستغل قائد الجيش هذه الحالة، وخرج على القضاة الأربعة زاعماً أن السلطان أوصى لابنه محمد من بعده. ويُعلّق المؤرخ الكبير ابن إياس على ذلك بقوله: "فهذا كله جرى والأشرف قايتباي في النزاع، ولم يشعر بما وقع من هذه الأمور، ولو كان واعياً لما مكّن الأمراء بأن يسلطوا ولده، ولا كان ذلك قصده" (428).

كان محمد بن قايتباي فتى في الرابعة عشرة من عمره، اعتبره كبار الماليك صيداً سهلاً، وصورة يمكن أن يتحكموا من خلفها بحبال اللعبة والسياسة، ويستأثروا على الثروات والمناصب، ويديروا البلاد كيفما أرادوا، لا سيما قائد الجيش (أتابك الجيش) الأمير تمتاز الشمسي، الذي أراد أن يجعل هذا الفتى تكتة يتكى عليها للوصول إلى منصب السلطنة ذاته، وكان في الوقت ذاته ابن خالة السلطان.

غير أن المنافسين على العرش كانوا كثيراً، يملكون من القوة المالية والعسكرية بمقدار ما يملكه تمتاز الشمسي، وعلى الرأس منهم قائد الإسطبلات العسكرية الأمير قنصوه خمسمئة الذي استطاع أن يدبر حيلة بمعاونة كبار الأمراء أوقع فيها الأمير تمتاز الشمسي وانقلب عليه، ثم أرسله إلى سجن الإسكندرية، ليترقي من خلفه إلى قيادة الجيش المملوكي، ويصبح المستأثر الجديد بخيوط الحكم من خلف السلطان الصبي محمد بن قايتباي (429).

كان السلطان محمد بن قايتباي لا يدري ما يحدث من خلفه، بل اشتهر عنه لعبه ولهوه، وقد حاول الأمير قنصوه خمسمئة -الذي سُمي بهذا لأن السلطان قايتباي اشتراه بخمسمئة دينار- أن يوقفه عن هذه الأفعال فلم يستطع، ويحكي لنا ابن إياس هذا المشهد الغريب الذي يدل على مدى الانخراط الذي وصل له الإدراك والعقل المملوكي آنذاك، بقوله إن الأمير أمر أربعة من الحرس السلطاني الخاص: "يمنعونه من اللعب مع أولاد العوام ومن كل تصرف سيئ... ومع ذلك فما ارعوى ولا حصل من هذا طائل، وزاد في الطيشان" (430).

بعد صراع دموي على السلطة والسلطان، أعيدت المبايعات من جديد للسلطان الصبي الناصر محمد بن قايتباي، وأصبح هذا الفتى محاطاً بعدد من أقاربه في كبار مناصب الدولة المملوكية، وهم الأمير تمتاز الشمسي ابن خالة السلطان في قيادة الجيش، والأمير قايت عم السلطان في منصب الزردكاشية الكبرى، وهي رئاسة مصانع الأسلحة والذخيرة، والأمير قنصوه خمسمئة خال السلطان في منصب المستشار والوزير والأستادار (المشرف على القصور السلطانية) فضلاً عن منصب مفتش خزائن الأشربة والطعام (شاد الشراب خاناه) (431).

بالرغم من هذه الأحداث، ومن سيطرة السلطان وأقربائه على مفاصل الدولة الأمنية والعسكرية وعلى قيادتها من قلعة الجبل، فإن سوء تربية الناصر محمد بن قايتباي الذي كان ينشغل باللعب مع العوام، ولا يتقيد بالأخلاق، ووصل به سوء التصرف إلى تقليد بائعي الأسواق، ثم إلى استحلال الدماء وسوء التصرف في منصب السلطنة، كل ذلك أدى إلى احتقار الماليك له، لا سيما طائفة الماليك "الجلبان" وهم العساكر والأمراء الماليك الذين جلبهم السلاطين السابقون، وصاروا منذ زمن أزمة تهدد سلامة وأمن دولة الماليك.

دأب الماليك الجلبان على تهديد الأمن العام، وعلى النهب والسلب كلما تأخرت رواتبهم، وصاروا بالتزامن مع طيش وسوء تدبير السلطان محمد بن قايتباي أكبر مصيبتين ابتلي بهما الناس في تلك الأوقات، ولم يجد هذا الفتى لسد نهم الماليك الجلبان إلا أسلوب المصادرة والبطش بعامه الناس، يقول ابن إياس: "فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسيم، وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك، فكثر الدعا على السلطان وخاله، وقد تزايد الظلم والجور في تلك الأيام إلى الغاية" (432).

أدت هذه الأحداث إلى استغلال بعض كبار الأمراء لمحاولة تحقيق أطماعهم ورغباتهم بالحصول عليها من طريق الابتزاز والضغط، مثل الأمير آقبردي الدوادار "سكرتير السلطان" بطلبه الحصول على ولاية دمشق ليكون أميراً عليها (نائب)، الأمر الذي رفضه السلطان الناصر وكبار المحيطين به خوفاً من انقلاب آقبردي عليهم واستغلاله بالشام، فلجأ الفريقان إلى الحل العسكري كالعادة، حيث أفضى إلى مقتل الأمير تمتاز الشمسي قائد

الجيش المملوكي، وهروب آقبردي إلى ولاية دغاادر في قلب الأناضول التي وقفت على الدوام ضد المماليك زمن السلطان قايتباي، وكانت خسارة فادحة حين لجأ آقبردي إليهم(433).

مع مرور الأيام كان السلطان الفتى أو السلطان المراهق محمد بن قايتباي يزداد طغياناً وإجراماً، فكان يتلذذ بالقتل وإهراق الدماء؛ إذ دأب على إخراج المسجونين من السجون، وتعلم من المشاعلي الذي كانت مهمته إعدام المجرمين (عشماوي ذلك العصر) كيف يكون القتل، وسرعان ما كان يقتلهم بنفسه وهم لا جريمة لهم سوى قضاء عقوبة السجن، بل بلغت ساديته حدّاً كان يقطع فيه ضحاياه إلى نصفين، ثم وصل إجرامه إلى حد قطع آذانهم وأيديهم وألسنتهم(434).

كان هذا السلطان مراهقاً شريراً، منع الناس من الخروج ليلاً في الشوارع، وعاقب النساء، بقطع أجزاء معينة من أجسادهن، ينظمها في خيط كالمسبحة لتكون دليلاً على فتوته الجنسية.

ووصل به الأمر أن هجم يوماً على جارية، فقيدّها ثم شرع يسلم جلدّها عنها كالجزارين، وهي حية تصرخ وتستغيث. وجاءت أمه على الضجة ومعها رجال القصر، وأخذوا يستشفعون ليرك الجارية، فلم يستجب لأحد، وظلّ منهمكاً في عمله. وعندما أتم سلخ الجارية حشاً جلدّها بثياب كثيرة، وخرج لمن كانوا بانتظاره فعرض عليهم فنه وفاخر أمامهم بأن الجزارين يعجزون عن إتقان عملية السلخ كما أتقنها(435).

لقد صدق ابن إياس حين قال عن الناصر محمد بن قايتباي بأسلوبه القريب من العامية: "قد بهدل حُرمة الملكة في أيامه، ولم يتبع طريقة الملوك السالفة في إقامة حرمة السلطنة، وصار على طريقة والي الشرطة" في الشطط في زجر الناس، وقتلهم دون وجه حق، والاستيلاء على أموالهم غصباً وقهراً، وعدم إلجام المماليك الجلبان عن مظالمهم.

قرر الجميع التخلص من هذا السلطان المراهق الذي بلغ السابعة عشرة من عمره، ونفّذ فيه حد القتل وهو يتنزه في متنزهات وبساتين الجيزة، بعد ثلاث سنوات من العذاب والإجرام الذي شهدته مصر في زمنه، وذلك في الخامس عشر من ربيع الأول من عام ٩٠٤هـ/أكتوبر ١٤٩٨م، ليدخل المماليك في مرحلة جديدة من الانقلابات العسكرية، وإهراق الدماء!

خمارويه.. ومن الترف ما قتل!

تولى خمارويه الحكم بعد وفاة والده أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ، وكانت لديه ثروة هائلة من الذهب والجواهر والفضة بالإضافة إلى أربعة وعشرين ألفاً من الممالك وسبعة آلاف من الموالي الذين اعتنقهم أبوه، بخلاف آلاف الخيل ومئات المراكب الحربية مع جيش قوي تمكن به والده ابن طولون من بسط نفوذه ما بين ليبيا إلى الجزيرة الفراتية.

إلا أن خمارويه انغمس في الممارسات الغريبة ومُتعت الحياة وملذاتها المفرطة (436).

يخبرنا المقرئ عن توسيع خمارويه قصر أبيه، وتحويل الميدان (أو ساحة العرض المفتوحة) الذي أقامه الأب، إلى بستان تُزرع فيه الأشجار الاستوائية والورد، والياسمين، والزنايق، والشجيرات. ولأنه لم يكن راضياً عن خطوط البصر المستقيمة للأشجار، أمر خمارويه بأن تُغطى جذوع الأشجار وأغصانها بألواح من النحاس المطلي بالذهب، والتي كانت بورها مبطنة بأنابيب ماء من الرصاص، بحيث لم تكن كل شجرة مجرد زنبق مذهب، بل نافورة جميلة تنثر ماءها عبر حداثق مظلة تضم أشجاراً وفواكه غريبة وبيتاً للحمام (437).

يقول ابن تغري بردي:

”ولما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أحمد بن طولون أقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة؛ وأخذ الميدان الذي كان لأبيه المجاور للجامع فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نخاساً مذهباً حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر؛ فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر إلى فسافيّ معمولة، ويفيض الماء منها إلى مجار تسقي سائر البستان؛ وغرس في أرض البستان من الرياح المزرع في زي نفوس معمولة وكتابات مكتوبة، يتعاهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئلا يشكّل ذلك على القارئ، وحمل إلى هذا البستان النخل من خراسان وغيرها؛ ثم بنى في البستان برجاً من الخشب الساج المنقوش بالنقر النافذ، وطعمه ليقوم هذا البرج مقام الأقفاص؛ وبلط أرضه وجعل فيه أنهاراً لطافاً يجري فيها الماء المدبر من السواقي؛ وسرح في البرج من أصناف الفماريّ والدبّاسيّ والنوبيات وما أشبهها من كل طائر يستحسن صوته، وأطلقها بالبرج المذكور، فكانت تشرب وتغتسل من تلك الأنهار؛ وجعل في البرج أوكاراً في قوادر لطيقة ممكّنة في جوف الحيطان ليفرخ الطيور فيها؛ وعارض لها فيه عيداً ممكّنة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجابوب بعضها بعضاً بالصياح؛ وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئاً كثيراً. وعمل في هذا البستان مجلساً له سمّاه دار الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش؛ وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظايا والمغنيات اللاتي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق؛ وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة، وفي أذانها الأخراص الثقّال؛ ولوّنت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا القصر من أعجب ما بُني في الدنيا“ (438).

ولأن خمارويه حوّل أرض العرض المفتوح التي أنشأها والده إلى بستان، فقد بنى ساحة عرضٍ أخرى أكبر مساحة (439). كما بنى جناحاً محلياً آخر في قصره أطلق عليه اسم الدكة، أثّره بأنواع مختلفة من الثاّب والستائر والسجاد، والتي يتم تغييرها حسب مواسم السنة. ويقع هذا الجناح داخل مجمع القصر، وربما بالقرب من مقر إقامة خمارويه الذي استخدم هذا الجناح كثيراً (440).

يقول ابن تغري بردي:

”ثم بنى خمارويه في القصر أيضاً قبةً تضاهي قبة الهواء سماها الدكة، وجعل لها السّتر الذي بقي الحسرّ والبرد فيسدل حيث شاء ويرفع متى أحبّ؛ وكان كثيراً ما يجلس في هذه القبة ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة“ (441).

وكان خمارويه يحب زوجته "بوران" كثيراً؛ ولذلك أقام لها جناحاً جميلاً أطلق عليه "بيت الذهب"، مُبطنًا بالكامل بالذهب (442). أما داخل الجناح، فغُضرت تماثيل خشبية له ولزوجاته؛ كانت أكبر قليلاً من الحجم الطبيعي، ومغطاةً بقماشٍ منسوج من خيوط ذهبية. وألبس تماثيل خمارويه نفسه، سروالاً ذهبياً وعمامة مرصعة بالمجوهرات. وكان خمارويه يجلس كل مساءً على شُرْفَة "بيت الذهب" أو في بستانه الكبير ليستمتع إلى الشعراء ينشدون أشعارهم أو لغناء الجواري المفضلات لديه (443).

ويحكى ابن تغري بردي عن سريرٍ عجيبٍ صنعه خمارويه لنفسه فوق بركة مملوءة بالزئبق (444)؛ إذ يقول:

"وجعل خمارويه بين يدي هذا القصر فسقيةً ملاًها زئبقاً. وسبب ذلك أنه اشتكى إلى طبيبه كثرة السهر وعدم النوم، فأشار عليه بالتكبيس، فأنفذ من ذلك وقال: لا أقدر على وضع يدٍ أحدٍ عليّ؛ فقال له الطبيب: تأمر بعمل بركة من زئبق، فعمل البركة المذكورة، وطولها خمسون ذراعاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملاًها من الزئبق، فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة؛ وجعل في أركان البركة سكةً من فضة، وجعل في السكة زنابير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة، وعمل فرشاً من آدم يُحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه، ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنابير الحرير التي في حلق القضة المقدّم ذكرها، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه. وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية؛ وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق" (445).

قال القاضي: ولقد أقام الناس مدةً طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة (446).

بلغ حُبّ خمارويه للأجواء الغربية نزوته في حديقة حيواناته، حيث كان له مكان يُعرف باسم "بيت الأسد"، وفيه أقفاص تؤوي الأسود واللبؤات مزودة بمياهٍ جارية (447). ويتحدّث المقرئ عن أسده الأليف المسمى "زريق" الذي كان ينام إلى جوار سيده كحارسٍ شخصي له. وقد ألبسه خمارويه طوقاً من الذهب، وأطعمه الدجاج والماعز. وشيّد خمارويه غرفاً في حديقة الحيوانات تلك في مدينة القطائع لحيواناتٍ أخرى أيضاً؛ مثل البغال والتمور والفهود والغيلة (448).

يضيف ابن تغري بردي الكثير من التفاصيل في هذا الشأن:

"وبنى أيضاً في داره المذكورة داراً للسباع وعمل فيها بيوتاً كل بيت لسبع لم يسع البيت غير السبع ولبيوته، وعمل لتلك البيوت أبواباً تفتح من أعلاها بحركات، ولكل بيت منها طاقة صغيرة يدخل منها الرجل المؤكل بخدمة ذلك البيت لفرشه بالرمل؛ وفي جانب كل بيت حوض من الرخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء، وبين يدي هذه البيوت رحبة فسيحة كالقاعة فيها رمل مفروش، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير، فإذا أراد سائس من سؤاس بعض السباع المذكورة [أن] ينظف بيت ذلك السبع أو يضع له غذاءه من اللحم، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح على السبع يخرج إلى الرحبة المذكورة؛ ثم يردّ الرجل الباب وينزل إلى البيت من الطاقة ويكنسه ويبدّل الرمل بغيره من الرمل النظيف، ويضع غذاءه من اللحم في مكانه بعد ما يقطع اللحم قطعاً ويغسل الحوض ويملؤه ماء، ثم يخرج الرجل ويرفع الباب من أعلاه كما فعل أولاً، وقد عرف السبع ذاك، فحالما يرفع الباب دخل السبع إلى بيته وأكل ما هبّئ له من اللحم؛ فكانت هذه الرحبة فيها عدة سباع ولهم أوقات يفتح فيها سائر بيوت السباع فتخرج إلى الرحبة المذكورة وتشمس فيها ويهاش بعضها بعضاً فتقيم، يوماً كاملاً إلى العشي وخمارويه وعساكره تنظر إليها؛ فإذا كان العشي يصيح عليها السؤاس فيدخل كل سبع إلى بيته لا يتعداه إلى غيره. وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له "زريق" قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً وراتبه على عادة السباع، فلا يلتفت إلى غذائه بل ينتظر سماء خمارويه، فإذا نصبت المائدة أقبل زريق معها وريض بين يدي خمارويه، فيبقى خمارويه يرمي إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة والقطعة الكبيرة من اللحم ونحو ذلك مما على المائدة؛ وكانت له لبؤة لم تأنس بالناس كما أنس هو، فكانت محبوسة في بيت وله وقتٌ معروف يجتمع بها [فيه]، وكان إذا نام خمارويه جاء زريق وقعد ليحرسه، فإن كان [قد] نام على سريره رريض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً، وإن نام خمارويه

على الأرض قعد قريباً منه وتفتن لمن يدخل أو يقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة؛ وكان في عنق زريق طوق من ذهب فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً للمراعاة زريق له وحراسته إياه" (449).

ويبدو أن حديقة حيوانات خمارويه قد بُنيت على نحوٍ جيد ومنظم إلى حدٍ بعيد، وتحتوي حيواناتٍ مدربة جيداً. وهو خلق بذلك عالماً لم تره مصر منذ زمن قدماء المصريين (450).

ويشير ابن تغري بردي إلى مزيدٍ من الاصطبلات التي كانت لخمارويه في الجيزة ومثلها في نهبيا ووسيم وسفط وطهرمس؛ وكانت هذه الضياع لا تزرع إلا القرط برسم الدواب؛ وكان للخليفة أيضاً إصطبلات بمصر سوى ذلك، فيها الخيل لحلبة السباق أو للقتال.

وبلغ رزق الجيش المصري في أيام خمارويه في السنة تسعمئة ألف دينار؛ وكان مصروف مطبخ خمارويه في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار، وهذا سوى مصروف حرمه وجواريه وما يتعلق بهنَّ.

كان خمارويه مولعاً بالتظاهر بالعظمة الزائفة؛ فقد كان يحاول أن يصطنع لنفسه مهابة كانت همته القاصرة لا توفرها له. فاتخذ لنفسه حرساً يسير في موكب من رجال اشتهروا بالشجاعة والبأس، وكان من ضمن حرسه ألف جندي أسود لهم درق من حديد محكم الصنعة، وعليهم أقبية سود وعمام سود؛ فيخالهم الناظر بحرّاً أسود يسير لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم؛ وبعدهم بمسافة يأتي على فرسه وحوله حرسه الشخصي.

هذا الترف ترك أثره على خمارويه من اليوم الأول لحُكمه، فرغم أن كنيته "أبو الجيش" فإنه لم يكن يثبت في الحروب فوق ناقه، فقد كان شر خلف لخير سلف في الحروب، فأبوه كان أسطورة الحروب في عصره، لم يُهزم قط في معركة، إلا أن خمارويه كان أجبن من نعمة، خرج أول ولايته في سبعين ألف ليقاتل جيشاً عباسياً يُقدَّر بأربعة آلاف فلم يثبت في القتال ساعة وانهزم منه سريعاً، وقرر بعدها أن يشتري سلامته بالمال والمصاهرة.

طلب خمارويه الصلح من الموفق العباسي وعمل على إرضائه بالأموال حتى اعترفت به الدولة العباسية والياً على مصر والشام ثلاثين عاماً، فانطلق خمارويه في حياة الترف، ثم مات الموفق والمعتمد العباسي وتولى المعتضد المعروف بقوة شكيمته، فخشي خمارويه أن ينغص عليه حياته المترفة، فأرسل إليه الهدايا والأموال، فجدد المعتضد لخمارويه عقده بالولاية ثلاثين عاماً من الفرات إلى برقة في مقابل أن يؤدي مائتي ألف دينار عن كل عام مضى وثلاثمئة ألف عن كل عام سيأتي.

وأراد خمارويه أن يطمئن على مستقبله أكثر حتى يستريح بالاً ويُقبل على ملذاته بنفسٍ لا تعرف الهموم فطلب أن يتزوج ابن المعتضد وولي عهده من ابنته "قطر الندى". رفض المعتضد أن يتزوج ابنه المكتفي من الفتاة حتى لا يسيطر خمارويه وابنته على ولي عهده ومستقبل الخلافة العباسية، وطلب أن يتزوج هو نفسه "قطر الندى"، فكان جهازها مضرب الأمثال عبر العصور على البذخ والسرف والترف غير المسبوق، وأضيفت جواهره ونفائسه إلى خزانة الخلافة العباسية. ووصلت قطر الندى إلى الخليفة المعتضد في شهر محرم سنة ٢٨٢.

قال الذهبي:

وفي سنة اثنتين وثمانين: قدمت "قطر الندى" بنت صاحب مصر مع عمها، وقيل: مع عمتها العباسية، فدخل بها المعتضد، فكان جهازها بأزيد من ألف ألف دينار، وكان صداقها خمسين ألف دينار، وقيل: كان في جهازها أربعة آلاف تكة مجوهرات، وكانت بديعة الحسن، جيدة العقل (451).

طابت نفس خمارويه بتلك المصاهرة وأعلن لنفسه وهو في دمشق أنه آن له الآوان لكي يتفرغ للهو واللعب دون مناقشات مع الدولة العباسية.

إلا أن نهايته كانت مأساوية؛ إذ "قتله مماليكه للفاحشة في ذي الحجة، سنة اثنتين وثمانين ومئتين بدير مران، ثم ضربت رقابهم" (452).

فقد دخل الحمّام يوماً وأراد الفاحشة بشاب من الخدم فامتنع الخادم، فأمر خمارويه بقتله بأبشع الصور، وظلوا يعذبونه به حتى مرقوا أحشاه ومات أمام أعين رفاقه من الخدم. قصد خمارويه بذلك أن يجعله عبرة لهم حتى لا يعارضوه في إتيان الفاحشة بأحد منهم مستقبلاً، وعندها صمم الخدم على قتل سيدهم خمارويه، فاستفتوا العلماء دون تعيين فأفتوا بالقتل. ولم يستطيعوا الاختلاء به في قصره بمصر حيث يحرسه الأسد زريق، فصبّروا إلى أن سافروا معه إلى دمشق، فاختلفوا به في قصره في دير مران خارج دمشق وذبّحوه في شهر ذي الحجة عام ٢٨٢، وكان في الثانية والثلاثين من عمره. وخُيّل الجثمان إلى مصر حيث دُفِن بها، ولم يحزن عليه أحد.

بمقتل خمارويه تصدّع بُنيان الدولة الطولونية وأخذت في الانهيار سريعاً؛ فأبناء خمارويه اقتتلوا على الملك من بعده حتى قتلوا بعضهم بعضاً، وما لبثت أن سقطت دولة كانت بدايتها قوية تنذر بطول مدة واتساع مساحة وهيمنة وسيادة.

بیمارستانات مصر

شهدت مصر منذ القرن الثامن الميلادي، إنشاء عددٍ كبير من المستشفيات، وهي التي كان يُعبّر عنها بكلمة البيمارستانات.

وهذه البيمارستانات هي إحدى المنشآت والعمائر كالمساجد والتكايا والقباب والمدارس، التي كان يشيدها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية وتخليدًا لذكراهم. ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في الوقت نفسه معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج فيها المتطببون والجراحون والكحالون كما يتخرجون اليوم في مدارس الطب وكلياتها.

ومن أبرز البيمارستانات في مصر بيمارستان زقاق القناديل؛ إذ قيل إنه كان في الدولة الأموية مارستان(453) في زقاق القناديل دار أبي زبيد. وزقاق القناديل –ويقال له زقاق القنديل من أزقة القسطنطينية. قال القاضي(454): إنما سمى زقاق القناديل أو القنديل لأنه كان برسم قنديل كان على باب عمرو بن العاص وفي هذا الزقاق ولد الإمام الحافظ ابن سيد الناس صاحب السيرة(455) المتوفى سنة ٧٣٤هـ.

أما بيمارستان المعافر فقد كان في خطة المعافر التي موضعها ما بين العامر من مدينة مصر القسطنطينية وبين مصلى خولان(456) التي بالقرافية، بناه الفتح بن خاقان(457) في أيام الخليفة المتوكل على الله وقد باد أثره.

ثمة أيضًا البيمارستان العتيق، ويُعرف بالبيمارستان الأعلى(458). أنشأه أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م وقيل ٢٦١هـ. وذكر البلوي والمقريزي وابن دقماق أن ابن طولون أمر ببناء بيمارستان للمرضى عام ٢٥٩هـ/٨٧٢م – ٨٧٣م وحبس عليه سوق الرقيق وغيره، ولم يكن قبل ذلك في مصر مارستان. وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وكان يشارفه بنفسه ويركب إليه يوميًا في كل أسبوع. وأفاد البلوي أنه شُيّد عام ٢٦١هـ/٨٧٤م – ٨٧٥م بكلفة ٦٠ ألف دينار، جناها بعد أن اكتشف كنزًا في الصحراء(459).

قال أبو العباس أحمد القلقشندي(460). أول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون بناء بالقسطنطينية وهو موجود إلى الآن (أي إلى عصر القلقشندي المتوفى عام ٨٢١هـ/١٤١٨م). وبلغت أجرة مقعد يكرى عند البيمارستان الطولوني بالقسطنطينية في كل يوم اثني عشر درهماً. وهذا المارستان(461) كان موضعه في أرض العسكر وهي الكيمان والصحراء التي تقع بين جامع ابن طولون وكوم الجراح (هو الكوم المتصل برحبة موقف الطحانيين، وكان هذا الخط من أعمر الأخطاط بالقسطنطينية) وفيما بين قطرة السد التي على الخليج ظاهر مدينة مصر وبين السور الذي يفصل بين القرافة وبين مصر. وفي موضع آخر، وصف المقريزي البيمارستان بأنه قريب من بحيرة "بركة" قارون(462).

وتوضح المصادر التاريخية أن البيمارستان كان مؤسسة جيدة التنظيم(463). ولكن لسوء الحظ، لا تُقدّم المصادر معلومات حول نسق تخطيط المستشفى وهندسته المعمارية(464).

وقد اندثر هذا المارستان في جملة ما اندثر من الآثار ولم يبق له الآن أثر. وقال أبو عمر محمد بن يوسف الكندي(465) في كتاب الأمراء: وأمر أحمد بن طولون ببنيان المارستان للمرضى فبُني لهم في سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م.

وقال محمد بن داود في ذم أحمد بن طولون وبيمارستانه:

ألا أيها الأغفال إيها تأملوا
وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة

تسير من سفلى إليكم ومن عل
ولولا جنابات الذنوب لما علت
عليكم يد العليج السخيف المجهل
يعالغ مرضاكم ويرمي جريحكم
حبيش ... القلب أدهم أعزل
فيا ليت مارستانه نيظ باسته
وما فيه من عليج عتلٍ مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره
تضج إلى قلب عن الله مغفل

وقال جامع السيرة الطولونية: وفي سنة ٢٦١هـ بنى أحمد بن طولون المارستان، ولم يكن قبل ذلك في مصر مارستان، ولما فرغ منه حبس عليه دار الديون ودوره في الأساكفة والقيصرية وسوق الرقيق، وشرط في المارستان ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك، وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال والآخر للنساء، حبسهما على المارستان وغيره. وشرط أنه إذا جيء بعليج تنزع عنه ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارستان، ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويتغذى ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ، فإذا أكل فروجاً ورغباً أمر بالانصراف وأعطى ماله وثيابه. وفي سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد في الجبل الذي يسمى تنور فرعون أعياناً كثيرة، وكان بلغ ما أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار، فكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين والمحبوسين من المجانين. دخل مرة حتى وقف عند المجانين فناده واحد منهم مغلول: "أيها الأمير اسمع كلامي ما أنا بمجنون، وإنما عملت على حيلة، وفي نفسي شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون" فأمر له بها من ساعته ففرح بها وهزها في يده ورازها ثم غافل أحمد بن طولون ورمى بها في صدره فنضحت على ثيابه، ولو تمكنت منه لأنت على صدره فأمرهم أن يحتفظوا به، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر في البيمارستان.

ودخل مصر في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ابن جبيل (466) الرحالة المغربي العظيم وشاهد البيمارستان الذي بالقاهرة وقال: إنه مفخرة من مفاخر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأظن في وصفه بما سيأتي ذكره بعد. ثم قال: "وفي مصر (القساط) مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه يريد مارستان أحمد بن طولون". وقال السخاوي (467) إن أحمد بن طولون بنى إلى جانب جامع البيمارستان، وكان في أحد مجالس البيمارستان العتيق أي بيمارستان أحمد بن طولون خزانة كتب كان فيها ما يزيد على مئة ألف مجلد في سائر العلوم بطول الأمر في عدتها (468).

ولما آلت الدولة الطولونية إلى الزوال بخروج شيبان بن أحمد بن طولون آخر ملوكها من مصر في ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول ٢٩٢هـ ودخلها محمد بن سليمان الكاتب من قبل المكتفي بالله، أخذ الشعراء في رثائهم والتحسر عليهم فنظموا القصائد الطوال في ذلك. ومن هؤلاء الشعراء سعيد القاضي قال يرثي الدولة الطولونية (وما تركت) من جلائل الآثار في قصيدة مطلعها:

جرى دمعها ما بين سحر إلى نحر
ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر

إلى أن قال يرثي المارستان (469):

ولا تنس مارستانه واتساعه
وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته
ورفقهم بالمعتفين ذوي الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه
وللحي رفق في علاج وفي جبر

وعمل أحمد بن طولون (470) في مؤخرة جامع ميسأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة.

ولعل من أبرز الأطباء الذين عُرفوا بخدمة البيمارستان العتيق الأسماء التالية:

محمد بن عبدون الجيلي العذري، رحل إلى المشرق ودخل البصرة وإلى مدينة فسطاط مصر، ودبر مارستانها ومهر في الطب، ورجع إلى الأندلس عام ٣٦٠ هـ، وخدم بالطب المستنصر بالله والمؤيد بالله، وكان قبل مؤدباً في الحساب والهندسة، قال القاضي صاعد الأندلسي (471): وأخبرني أبو عثمان بن البغونش الطليطلي أنه لم يلق في قرطبة أيام طلبه من يلحق بمحمد بن عبدون الجيلي في الطب.

سعيد بن نوفل (472)، وهو طبيب نصراني كان في خدمة أحمد بن طولون.

شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري مدرس الأطباء بجامع ابن طولون، كان فاضلاً له نظم. مات في شوال (١٧) عام ٧٧٢هـ (473).

أما البيمارستان الأسفل بالفسطاط أو بيمارستان كافور الإخشيد، فقد بناه الخازن الذي عمر المقياس بالأهراء، عمره وعمر الميضأتين المرسومة إحداهما لتغسيل الموتى والسقاية، والحمامين المعروفين بحمامي بوران ... وذلك في سنة ٣٤٦هـ قال القاضي: "إن الإخشيد أمير مصر حبس جميع ما بناه من قيسارية ودور وحوانيت على المارستان الأسفل والميضأتين والسقايتين وأكفان الموتى". وذكر شيوخ مصر المؤرخون أن هذا المارستان كان فيه من الأزيار الصيني الكبار والبراني والقذور النحاس والهواوين والطسوت وغير ذلك ما يساوي ثلاثة آلاف دينار. ونقل إليه من المارستان الأعلى الذي بناه أحمد بن طولون أضعاف ذلك وليس به الآن (هذا قول ابن دقماق) شراب ولا دواء يلتمسه فقير، وإنما يطبخ فيه في السنة ... (كلمة غير مفهومة) يسير أكثر الضعفاء لا يصلون إليه ثم بطل ذلك". وقال تقي الدين المقرئ: هذا المارستان بناه كافور الإخشيد، وهو قائم بتدبير دولة الأمير أبي القاسم أنوجور بن محمد الإخشيد بمدينة مصر في سنة ٣٤٦هـ ٩٥٧م.

نأتي إلى بيمارستان القشاشين، إذ قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (474): بلغني أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين يعني المكان المعروف الآن (أي في زمن ابن عبد الظاهر) بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، وهناك كانت دار الضرب بناها مأمون البطائحي وزير الأمر بأحكام الله قبالة البيمارستان.

قال تقي الدين المقرئ (475) في كلامه عن درب خربة صالح: "هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر، كان موضعه القديم مارستاناً ثم صار مساكن، وعرف بخربة صالح، وفيه سوق الصنادقيين. وقال عن سوق الصنادقيين إنه تجاه المدرسة السيوقية، كان موضعه القديم من جملة المارستان، فيستفاد من ذلك أن ذلك المارستان قد عفا أثره قبل محيي الدين بن عبد الظاهر (476).

أما بيمارستان السقطيين، فقد كان في سوق السقطيين خارج باب زويلة بجوار دار التفاح.

قال ابن أبي أصيبعة (477): كان أبو الحجاج يكحل في البيمارستان بالقاهرة غير الموضع الذي صار حينئذ بالقاهرة بيمارستاناً وهو من جملة القصر، يريد أنه غير بيمارستان صلاح الدين أو البيمارستان الناصري. قال: وكان البيمارستان في ذلك الوقت في السقطيين أسفل القاهرة.

هناك أيضاً البيمارستان الناصري أو الصلاحي أو بيمارستان صلاح الدين يوسف بن يوسف بن أيوب (478). الديار المصرية (سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م) واستولى على القصر قصر الفاطميين، كان في القصر قاعة بناها العزيز بالله في سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م فجعله السلطان صلاح الدين بيمارستاناً، وهو البيمارستان العتيق داخل القصر. وهو باقٍ على هيئته إلى الآن (أي زمن القلقشندي وكانت وفاته سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م ويقال: إن فيها أي القاعة طلسماً لا يدخلها نمل، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستاناً).

قال أبو الحسن محمد بن جبير (479) الرحالة الأندلسي عند زيارته لمدينة القاهرة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م وذلك في عهد السلطان صلاح الدين:

”وما شاهدناه في مفاخر هذا السلطان، المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائعة، حسناً واتساعاً. أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً، وعين قيماً من أهل المعرفة، وضع له خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء والمرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الغناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين. ولهن أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهن ويقابلها بما يصلح لها. ولهن أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهن ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلهم بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد“.

أما بيمارستان الإسكندرية، فيقول عنه تقي الدين المقريزي (480): في السابع عشر من شوال سنة ٥٧٧هـ سار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الإسكندرية، فدخلها في الخامس والعشرين من شهر شوال وشرع في قراءة الموطأ، وأنشأ بها مارستاناً وداراً للمغاربة ومدرسة على ضريح المعظم توران شاه.

أما البيمارستان الكبير المنصوري أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون، فقد قال ابن دقماق (481): في سنة ٦٤٩ أمر المعز بإخلاء قلعة الروضة ولم يترك بها أحداً. ثم إن الملك المنصور قلاوون لما أراد عمارة البيمارستان أخربها وأخذ حواصلها وعمر بها المارستان والمدرسة والترية. وقال جلال الدين السيوطي (482): فلما تسلطن الملك المنصور قلاوون وشرع في بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية، نقل من الروضة ما يحتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام التي كانت قبل عمارة القلعة بالبرابي وغير ذلك.

صعود الطب وانهيائه

عندما نتطرق للحديث عن نشأة مهنة الطب في مصر، فإننا نحد أنفسنا ملزمين بالحديث عن تجربة محمد علي باشا في تحديث الحياة في هذا البلد. وما يقال عن الطب يسري على باقي المهن الأخرى كالمهندسة والزراعة والصيدلة والمحاماة والمحاسبة، إلى آخر هذا الطابور الطويل من المهن والفنون والصنائع.”

برزت فكرة إنشاء مهنة الطب كأحدى الضرورات اللازمة لتلبية احتياجات الجيش النظامي الذي أنشأه محمد علي عام ١٨٢٠ وفق الأسس الحديثة. كان المجندون القادمون من القرى إلى القاهرة، يخضعون للفحص الطبي الذي يكشف عن وضعهم الصحي البالغ سوء، فإلى جانب الأوبئة المدمرة، كانت تتفشى بينهم أمراض فقر الدم والزهري والجذري والرمم.

يعد مستشفى أبي زعبل بضاحية القاهرة أول مستشفى أنشئ على النظام الحديث في مصر عام ١٨٢٥م ⁽⁴⁸³⁾.

وفي عام ١٨٢٥ عهد محمد علي إلى الطبيب أنطوان برتليني كلوت (كلوت بك) مهمة تنظيم الإدارة الصحية للجيش، وجعله رئيس الأطباء به. وبعد مضي عامين اقترح محمد علي إنشاء مستشفى ومدرسة للطب “الغرض منها تخريج الأطباء المصريين للجيش، ثم صار الغرض عاماً بأن صار الأطباء يؤدون الأعمال الصحية للجيش وللبلاد عامة” ⁽⁴⁸⁴⁾.

في عام ١٨٢٧ تم إنشاء مستشفى عسكري في القاهرة وآخر في الإسكندرية، وهما في مقدمة المؤسسات التي واجهت بحق الأمراض المتوطنة في مصر. فقد أنشئت أول كلية للطب في المستشفى العسكري في أبي زعبل حيث شيدت بين الخانكة وأبي زعبل، والتحق بها ١٤٠ طالباً يدرسون الطب، و٥٠ لدراسة فن الصيدلة، وكان بالمستشفى ٧٣٠ سريراً للمرضى من رجال الجيش، وتم إنشاء مجلس صحي للإشراف على الصحة العامة، واختيار الأطباء والصيدلة للجيش بعد امتحانهم، ثم انتقلت هذه المشروعات إلى قصر العيني في عام ١٨٣٧ ومن أهم الخريجين الأوائل لهذه المدرسة محمد علي باشا البقلي، الذي يوصف بأنه أبو الطب العسكري والصحة العامة في الجيش المصري، وعلي إبراهيم باشا الذي يوصف بأنه أبو الجراحة في مصر وأول عميد مصري لكلية طب قصر العيني.

كما اهتم محمد علي بالحالة الصحية لطلاب المدارس الابتدائية الحكومية الحديثة، وهي المدارس التي كان الهدف من إنشائها هو تخريج موظفين للعمل في الأجهزة الحكومية، وكان هؤلاء الطلاب يفتقدون إلى أي نوع من أنواع الرعاية الصحية. وفي عام ١٨٣٦ أصدر محمد علي مرسوماً تم بموجبه إرسال وحدة من ضباط الصحة العسكريين -كانت الأولى من نوعها- إلى كل مركز من مراكز الأقاليم، بغرض علاج أطفال المدارس الحكومية وتطعيم الأطفال، ثم عيّن اثنين من المفتشين، أحدهما للصعيد والآخر للدلتا، مهمتهما تفقد سير عمل الممارسين في الأقاليم ⁽⁴⁸⁵⁾. وقد أقيمت “إسبائية” عام ١٨٣٧ وكانت مستشفى للمدنيين. وإليها كان يتم إرسال معظم أطفال القاهرة للتطعيم ضد الجدري ⁽⁴⁸⁶⁾. انظر: ديوان تفتيش

وفي عامي ١٨٤٢ و١٨٤٧ أصدر فرمانين متتاليين، لتعزيز هذه الخدمة الصحية الوليدة في الأقاليم، وأدى تسريح جزء كبير من الجيش -نتيجة معاهدة لندن ١٨٤٠- إلى انتشار الأطباء المصريين على الساحة المدنية، وهم الأطباء الذين تشكلوا في مدرسة الطب في القاهرة.

من جهة أخرى، كان كلوت بك يرى ضرورة إدخال إجراءات صحية وقائية في الأرياف، الغرض منها قيام نظام علاجي فعال للأمراض، إلى جانب توسيع نطاق التطعيم ضد الجدري، ومن أجل ذلك تم تعيين رئيس أوروبي للأطباء في عاصمة كل محافظة، وكان يقيم إلى جانب هذا الرئيس طبيب أوروبي آخر كمندوب عن إدارة الحجر الصحي في الإسكندرية، علاوة على صيدلاني أوروبي أيضاً يكون مسؤولاً عن توزيع الأدوية مجاناً للسكان وإمداد أطباء المركز. وكان أطباء المركز موظفين، أغلبهم من المصريين الذين تعلموا في مدرسة الطب في القاهرة، ومنوط بهؤلاء الأطباء

السهر على حُسن تطبيق الإجراءات الصحية، وتسجيل المواليد والوفيات، وضمان الخدمة الطبية بالمجان على مستوى القرى، وفي حالة ظهور الأوبئة كان عليهم اتخاذ كافة التدابير الضرورية لمنزل القرى المرضى، وكان كل طبيب من هؤلاء الممارسين يشرف على عددٍ يتراوح بين خمس وعشرين وثلاثين قرية⁽⁴⁸⁷⁾.

وصل عدد العاملين في الخدمة القروية الصحية عام ١٨٤٩ إلى نحو ٤٢١ فرداً، منهم ٦٠ طبيباً و٤٤ صيدلاناً من الأوروبيين، و٢٥٥ طبيباً و٦٢ صيدلاناً من المصريين⁽⁴⁸⁸⁾، وكان كلوت بك يرى أن هذا العدد ضئيل. فوجود ٤٠٠ طبيب وصيدلاني فقط لسكان يصل تعدادهم إلى ٤ ملايين نسمة، أي طبيب أو صيدلاني لكل ١٠ آلاف نفس، هي نسبة شديدة الضآلة.

واكب الخدمة الصحية في الريف إنشاء عدد من المستشفيات التي تقدم خدماتها بالمجان في معظم المدن الرئيسية في مصر، على الأقل للفقراء.

فقد تم إنشاء مستويات للرمد في العاصمة، وأخرى مجانية في عددٍ من الأحياء الشعبية منذ عام ١٨٤٥، وكان العاملون في هذه المستوصفات يسهرون على حماية الصحة العامة، واتخاذ الاحتياطات اللازمة في حالة الأوبئة، وتطعيم الأطفال ضد الجدري، الذي كان يفتك بحياة ما بين ٥٠ ألفاً و٦٠ ألف إنسان سنوياً، معظمهم من الأطفال، وفق تقديرات كلوت بك⁽⁴⁸⁹⁾.

ويمكن القول إن تأسيس مهنة الطب في مصر -كمهنة رديف للجيش النظامي الحديث- كان جزءاً من المشروع العام لمحمد علي باشا، وأحد متطلبات تحقيق حلمه بالاستقلال عن الباب العالي، وإنشاء امبراطورية عربية⁽⁴⁹⁰⁾، تضم الولايات الناطقة بالعربية التابعة للباب العالي.

ويتوقف المشروع العام لمحمد علي وتراجع، "اضمحلت مدرسة الطب، وعاد كلوت بك إلى فرنسا، ثم أغلقت المدرسة في عهد سعيد باشا"⁽⁴⁹¹⁾، ثم توالى أزمت المهنة.

وحين أُريدُ للمهنة أن تلقى دفعة للأمام بعد قرن من الزمان على انتهاء تجربة محمد علي باشا، من خلال إضفاء بُعدٍ جديد على دور الدولة الناصرية في المجال الصحي ورعاية المرضى، كجزء من تلبية معظم احتياجات الشعب، أخذت الدولة على عاتقها مهمة توفير رعاية صحية شاملة وعادلة للجميع.

إلا أن هذا التوجه صادفه الكثير من العقبات؛ إذ "سرعان ما تنافر مع مصالح مهنة تهتم بوضعها الاجتماعي، وبالمميزات المادية المرتبطة بها، والقائمة على الحرفة الفردية والعلاقات مع العملاء من المرضى. وهكذا سرعان ما اصطدمت المهنة الطبية مع النظام السياسي الجديد"⁽⁴⁹²⁾. ومع "تزايد الضغط على النقابة في الستينيات من القرن العشرين، خاصة مع تحول النظام السياسي إلى النظام الاشتراكي وإنشاء الاتحاد الاشتراكي العربي، فأصبحت النقابة ملعباً للصراع بين الدولة ومهنة الطب"⁽⁴⁹³⁾.

وفي النهاية، كما تقول سيلفيا شيفولو، "ينجح الاتحاد الاشتراكي العربي في تطوير النقابات المهنية، فتغدو هياكل ضعيفة لتدخل منعطف السبعينيات وهي على هذه الحالة".

وهكذا بدلاً من أن يلجأ النظام الناصري إلى إشراك أصحاب المهنة -المعنيين بتطبيق سياستها العادلة من أجل تلبية الاحتياجات الصحية المشروعة للشعب- في وضع السياسات الصحية، ورسم الخطط الموكلة إليهم تنفيذها، تلجأ على العكس من ذلك إلى السيطرة على مؤسساتهم (المهنية) النقابة، وإجبارهم على تنفيذ سياسات وتوجهات لم يشاركوا في وضعها، ولم تنح لهم الفرصة للاقتناع بأهميتها وضرورتها.

ومن ثم كانت النتائج التي لمسها كل من عاش هذه الفترة (الستينيات وبداية السبعينيات من القرن العشرين) من تدني الإدارة، وضعف الخدمات المقدمة وقصورها في مشروعات الدولة الصحية كالتأمين الصحي والوحدات الصحية بالقرى والأحياء.

بوفاة عبد الناصر وتولي السادات الحكم، تراجع المشروع العام، وانطلقت سياسة الانفتاح، لتطال مهنة الطب، فيطلق العنان "للقطاع الخاص في المجال الصحي، بعدما كان مسيطراً عليه من قبل مؤسسات القطاع العام"، وتنتشر المستشفيات الاستثمارية، حيث "قيمة غرفة فردية في مستشفى مصر الدولي تتراوح بين ٥٥ و٦٥ جنيهًا، في حين أن الغرفة بمستشفى المقاولين العرب تصل إلى ٥٣٠ جنيهًا" ... و"يواجه التأمين الصحي صعوبات حقيقية للوصول إلى الفئات الأقل حظوة، وهم الذين يعانون من معوقات الدولة فيما يتعلق بتقديم خدمة مجانية ذات مستوى طبي رفيع، والذين قد يجدون أنفسهم قريباً بلا حماية في مواجهة المرض" (494).

كان القاسم المشترك بين التجريبتين هو الاستبعاد الكامل للناس (العوام ومسائير الناس عند محمد علي.. والقاعدة الشعبية العريضة عند عبد الناصر).

أصاب مهنة الطب ما أصاب المشروع العام في التجريبتين، ففي الحالتين كان التراجع إلى الوراء خطوات واسعة من نصيب هذه المهنة، سواء بالنسبة لممارسيها أو المستفيدين منها.

في عام ١٩٤٨، أعلن وزير الشؤون الاجتماعية أن عدد الأطباء في مدينة القاهرة بلغ ألفي جنيه، وأن عدد الأطباء في بقية الجهات بلغ مثل هذا العدد أي نحو ألفين، وقال إن نسبة الأسرة في مستشفيات المدن ٨٠٪ والباقي في الريف.

وفي تصريح لوزير الصحة، قال:

"يبلغ عدد الأطباء في مصر نحو ٤٥٠٠ منهم نحو ١٤٠٠ تابعون لوزارة الصحة، ولكي يكون لكل ٥٠٠٠ شخص من السكان طبيب، يجب أن يكون لدينا أيضاً ١٢٠٠ زيادة على العدد الحالي، ولدينا ٢١٠٠٠ سرير في المستشفيات، أي أن لكل ٨٠٠ مريض سرير، وهذا في حين أن في انجلترا لكل عشرة من السكان فقط سرير" (495).

ونضيف إلى هذه البيانات الرسمية أن من بين الـ ١٤٠٠ طبيب، وهم أطباء وزارة الصحة نحو ٦٠٠ طبيب فقط هم المخصصون لعلاج ٤٠٠٠ قرية في مصر، وهؤلاء الأطباء يتقاضون مرتبات ضئيلة، ويقومون في مساكن غير مريحة.

نقابة الأطباء، كشفت في آخر تحديث لقاعدة البيانات الخاصة بها (٢٠١٩)، عن أن معدل وجود الأطباء بالنسبة لعدد السكان هو ١.٨٨ طبيب لكل ألف مواطن، حيث أن إجمالي عدد الأطباء الذين ما زالوا على رأس العمل، في القطاع الحكومي ١٨٨٥٣٥ طبيباً، بجانب أن إجمالي عدد الأطباء "الحر" يبلغ نحو ٢٤٣٠٠ طبيب.

وأشارت النقابة كذلك إلى أن عدد الأطباء بالقطاع الحكومي والخاص ٢١٢٨٣٥ طبيباً، وأن عدد الأطباء بالمعاشات ٥٤٠١٢ طبيباً، منهم على الأقل ٢٠.٠٠٠ طبيب ما زالوا يمارسون العمل في القطاع الخاص، وبذلك يصبح الأطباء المؤهلون للعمل في مصر ٢٣٢٨٣٥ طبيباً.

ما أعلنته النقابة، يأتي على الرغم من أن الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، في تقرير صادر عنه في أبريل ٢٠١٨، رصد أن عدد الأطباء العاملين بالقطاع الحكومي على مستوى الجمهورية، حتى نهاية عام ٢٠١٦، يبلغ نحو ٣٥٥.٣ ألف طبيب. (496)

في المقابل، سعت المؤسسة العسكرية لإيجاد حلول فعالة لسد احتياجاتها من الأطباء.

ففي ١٨ أبريل ٢٠١٣ أمر وزير الدفاع والإنتاج الحربي القائد العام للقوات المسلحة بإعداد مشروع قانون لإنشاء كلية الطب بالقوات المسلحة ويكون لها الحق في منح درجات "البكالوريوس، الدبلوم، الماجستير، الدكتوراه" في العلوم الطبية.

وتم عرض القانون على مجلس الشورى الذي وافق في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٧ يونيو ٢٠١٣ ثم أصدر رئيس الجمهورية المستشار عدلي منصور القانون رقم ٧٤ لسنة ٢٠١٣ الذي ينص على إنشاء الكلية. وفي أكتوبر ٢٠١٩، جرى الاحتفال بتخريج أول دفعة من طلبة الكلية.

والغرض من إنشاء الكلية هو إمداد القوات المسلحة باحتياجاتها من الضباط الأطباء بأعداد كافية للعمل ضمن منظومة الرعاية الصحية التي تقدمها القوات المسلحة للعسكري أو المدنيين في الداخل والخارج، وتخريج ضباط أطباء متميزين فنيًا وعسكريًا قادرين على المساهمة الفعالة في مجال البحث العلمي للنهوض بمنظومة الرعاية الصحية في مصر.

لم يصبه العرش!

يزخر تاريخ الأسرة العلوية في مصر بالنهايات التراجيدية لأمرء الأسرة، ممن كادوا أن يصبحوا حكامًا لمصر، ومن أبرز هذه الأسماء أحمد طوسون، الابن الثاني لمحمد علي باشا، والذي كان محبوبًا من العامة في مصر، وتوقع له الكثير اعتلاء العرش بعد أبيه، ولكنه توفي في العشرين من عمره تاركًا في قلب الباشا الكبير غصة.

وفي هذا يقول الباحث محمد غنيمه:

”كرسي الولاية، يا له من حكاية لا تنتهي، ولن تنتهي أبد الدهر، والأسرة العلوية طالما اشتعل التنافس والصراع والخلاف فيما بينها لاعتلاء هذا الكرسي“ (497). لهذا يُقدّم هذا الكتاب ”صورة الصراعات والنهايات لأمرء الأسرة العلوية ممن كادوا يعتلون العرش، ولم يصلوا إليه بسبب الدسائس أو الموت أو التنازل عن عروشهم أو خوفًا من لعنة ذاك الكرسي، ليكون مثوهم في النهاية مقابر الأسرة العلوية بمسجد الرفاعي أو تحت قبة الباشا أو حتى في جبل المقطم“ (498).

ويظل السؤال مطروحًا: ماذا لو وصل هؤلاء الأمرء لسدة الحكم؟ هل كان وصولهم للعرش سيغيّر شيئًا من مجريات الأحداث الجسام التي مرت بتاريخنا الحديث أو واقعنا الآن؟.

يتحدّث محمد غنيمه في كتابه ”لم يصبه العرش“ عن أحمد طوسون، المشهور اختصارًا بـ(طوسون باشا)، وهو الابن الثاني لمحمد علي باشا من أمينة هانم. جاء طوسون باشا (١٧٩٣ - ١٨١٦) من نصرتلي بصحبة إبراهيم باشا لمصر عام ١٨٠٥، بعد جلوس أبيه على كرسي الولاية، وكان عمرها وقتها ١٢ عامًا.

نصّب محمد علي باشا قائدًا على الجيوش المتحركة من مصر للحرب الوهابية عام ١٨١١، ومُنح رتبة الباشوية. كما تحرّك بالحملة إلى الحجاز بعد أن أقام محمد علي باشا حفلًا في القلعة. وعندما وقعت مذبحة المماليك في القلعة في اليوم الذي كان محددًا لخروج موكب طوسون باشا، أُرجئت الحملة إلى يوم ٣٠ مارس.

صادف طوسون بعض المشكلات العسكرية في حملته للحجاز، وتعرّض لبعض الهزائم، وعاد لمصر عام ١٨١٥.

تزوج طوسون من يمينا قادن، وأنحبت له عباس الأول، والي مصر خلال الفترة من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٤.

أقام في برنبال الواقعة في البر الشرقي تجاه رشيد، والتمس بها الراحة من عناء المعارك التي خاضها في الحجاز، وليكون قرب الإسكندرية ليرى ابنه المولود، عباس الأول. إلا أنه لم يعيش طويلًا بعد عودته، واختلقت الروايات في أسباب موته وكيفية موته، فمنهم من قال إنه عاثر جارية يونانية نقلت له الطاعون، ومنهم من قال إنه أصيب بالطاعون قبل عودته لمصر، ولكن المؤرخين اتفقوا على أن موته كان شديد الوطأة على والده. نُقلت جثة طوسون باشا إلى القاهرة، ودُفنت قرب مسجد الإمام الشافعي وراء جبل المقطم، حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم (499).

ويُدرّج الجبرتي عن خبر وفاته الآتي:

”أقام أيامًا برشيد ومعه من مصر المغنون وأرباب الآلات المطربة بالعود والقانون والناي والكمنجات، وهم: إبراهيم الوراق والحبابي وقشوة ومن يصحبه من باقي رفقاتهم؛ فذهب ببعض خواصه إلى رشيد ومعه الجماعة المذكورون فأقام أيامًا، وحضر إليه من جهة الروم جوارٍ وغللمان أيضًا رقاصون، فانتقل بهم إلى قصر برنبال، ففي ليلة حلوله بها نزل به ما نزل من المقدور، فتمرّض بالطاعون وتملأ نحو عشر ساعات وانقضى نخبه، وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة.

وحضره خليل أفندي قوللي حاكم رشيد، وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه إلى الزرقاء، فغسلوه وكفّنوه ووضعوه في صندوق من الخشب، ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربع عشرة.

وكان والده بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره، فذهب إليه أحمد أغا أخو كتحدا بك، فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره في ذلك الوقت، فأخبره عنه أنه ورد إلى شبرا متوعكاً، فركب في الحين القنجة، وانحدر إلى شبرا، وطلع إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول: أين هو؟ فلم يتجاسر أحد أن يصرح بموته، وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلى بولاق ورسوا به عند الترسانة، وأقبل كتحدا بك على الباشا فرآه يبكي، فانزعج انزعاجاً شديداً وكاد أن يقع على الأرض، ونزل السفينة فأتى بولاق آخر الليل.

وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان فركبوا بأجمعهم إلى بولاق، وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي، ثم نصبوا تظلّك ساتراً على السفينة، وأخرجوا الناووس والدم والصديد يقطر منه، وطلبوا القلافة لسد خروقه ومنافسه، ونصبوا عوداً عند رأسه ووضعوا عليه تاج الوزارة المسمى بالطلخان، وانحروا بالجنائز من غير ترتيب، والجميع مشاة أمامه وخلفه، وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد الكتاتيب والأحزاب شيء من ساحل بولاق على طريق المدايع وباب الخرق على الدرب الأحمر على التبانة إلى الرميّة، فصلوا عليه بمصل المؤمنين، وذهبوا به إلى المدفن الذي أعده الباشا لنفسه ولموته.

كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي، ومع الجنائز أربعة من الحمير تحمل القروش وربيعات الذهب، ودرهم أنصاف عددية ينثرون منها على الأرض وعلى الكيمان، وعن يمين الكتحدا ويساره شخصان يتناول منهما قراطيس القضة يفرق على من يتعرض له من الفقراء والصبيان، فإذا تكاثروا عليه نثر ما بقي في يده عليهم، فيشتغلون عنه بالتقاطها من الأرض، فكان جملة ما فرّق وُدّر من الأنصاف العددية فقط خمسة وعشرين كيساً عنها خمسمائة ألف فضة، وذلك خلاف القروش أيضاً والربيعات الذهب.

وساقوا أمام الجنائز ستة روس من الجواميس الكبار، أخذ منها خدمة التربة ومنّ حولهم وخدمة ضريح الإمام الشافعي، ولم ينل الفقراء إلا ما فضل عنهم.

وأخرجوا لإسقاط صلاة التُؤَفّي خمسة وأربعين كيساً تناولوها فقراء الأزهر.

وفُرّقت بجامع الفاكهاني بحسب الأغراض للغني منهم أضعاف قسم الفقير، وأكثر الفقراء من الفقهاء لم ينالوا إلا القليل.

ولما وصلوا إلى المدفن هدموا التربة وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجته منه بسبب انتفاخه وتهريّه، حتى إنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخورات في المجامر الذهب، والريحة غالبية على ذلك، وليس ثمّ من يتعظّ أو يعتبر.

ولما مات لم يخبروا والدته بموته إلا بعد دفنه، فجزعت عليه جزعاً شديداً، ولبست السواد وكذلك جميع نساها وأتباعها، وصبغوا براقعهم بالسواد والزرقاء وكذلك من ينافقهم من الناس، حتى لطحوا أبواب البيوت ببولاق وغيرها بالوحل.

وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل الأفراح ودق الطبول مطلقاً، ونوبة الباشا وإسماعيل باشا وظاهر باشا حتى ما يفعله دراويش المولوية في تكاياهم عند المقابلة من الناي والطبل أربعين يوماً.

وأقاموا عليه العزاء عند القبر وعدد من الفقهاء والمقرئين يتناوبون قراءة القرآن مدة الأربعين يوماً، ورتبوا لهم ذبايح ومآكل وكل ما يحتاجونه ثم تردفت عليهم العطايا من والدته وإخواته والواردين من أقاربه وغيرهم، على حد قول القايل: "مصايب قوم عند قوم فوايد" (500).

من الحكايات العجيبة في تاريخ الأسرة العلوية، تفاصيل حياة إسماعيل كامل باشا ابن محمد علي باشا الثالث من أمينة هانم، والمسمى بقتيل شندي والمعروف بتهوره ونهايته الدرامية المفعمة في بلاد السودان. فقد أرسله والده محمد علي على رأس حملة إلى السودان عام ١٨٢٠، لكنه طلب الإذن من والده أكثر من مرة للعودة إلى مصر؛ نتيجة للمتاعب التي تكبدتها في السودان.

من العجيب أن إسماعيل كامل أرسل إلى أبيه ٢٢٠٠ أذن من آذان فرسان الشايقية الأقوياء في السودان، فنصح محمد علي في رسالة بالرفق وإقامة العدل، وكتب له:

”إن جميع الحكام يعرفون أنهم بإقامة العدل -فقط- يستطيعون استمالة قلوب الأهالي إليهم، لكي يغزوا بلدًا ما، يجب عليهم استخدام الكياسة والفطنة والعقلية السياسية، فلا يوجد حاكم ناجح في إتمام عملية الغزو دون أن يلجأ للعدل؛ فالعدل شرط أساسي لخدمة أي قضية عظيمة.

لقد كان من الأفضل لك أن تحاول كسب ود الشايقية باستخدام المجاملة والرفقة معهم بدلًا من التشدد؛ لكي يسلموا خيولهم وأسلحتهم لك، فتثير بذلك كراهيتهم ونوازع التمرد ضدك..“ (501).

من المؤسف أن إسماعيل كامل لم يستمع إلى نصائح أبيه بمعاملة السودانيين معاملة حسنة؛ فدبر له الملك نمر مؤامرة وأحرقه في شندي، مما أحنزن محمد علي على قتل ابنته بهذه الطريقة؛ فدبر انتقامًا قاده صهره محمد بك الدفتردار.

ومن جيل الأبناء للأحفاد يمكن رصد صعود نجم شخصيات أخرى برزت في شجرة العائلة العلوية وعلى رأسها إبراهيم إلهامي باشا (١٨٣٦ - ١٨٦٠) حفيد الأمير أحمد طوسون. يعد إبراهيم إلهامي الابن الأكبر لعباس حلمي الأول من زوجته ماهوش قادين. في عام ١٢٦٩ توجه إلى الآستانة، وقابل السلطان عبد المجيد، وأحبّه وزوّجه ابنته الأميرة منيرة سلطان، وأعطاه لقب الداماد؛ أي نسيبه (502).

رُزق من الأميرة منيرة بابنته أمينة هانم إلهامي، التي تزوجها الخديو توفيق فيما بعد، ووالدة عباس حلمي الثاني.

كان والده يطمح إلى أن يصبح خليفة له في ولاية مصر، وكادت الحيلة أن تنجح لولا أن قُتل والده في حادثة مأساوية في قصر بنها.

كان إبراهيم إلهامي في أوروبا وقت مقتل أبيه، فراسله أتباع والده للعودة سريعًا لمصر؛ حتى يجلس على كرسي الولاية، لكن سعيد باشا أبطل المؤامرة (503).

باع جزءًا كبيرًا من ثروة والده من الخيول العربية الأصيلة، وأهدى منها قسمًا كبيرًا لأمرء أوروبا وتركيا. المفارقة أنه توفي في ٩ سبتمبر ١٨٦٠ غرقًا في أوسكودار، ونُقل جثمانه إلى مصر.

أما الأمير محمد عبد الحليم بن محمد علي باشا، المعروف اختصارًا بالبرنس حليم، فقد وُلد عام ١٨٢٦، ويقال عام ١٨٣٠. البرنس حليم هو ابن محمد علي من إحدى مستولداته، وهي نام شاز قادين.

سافر في بعثة لفرنسا عام ١٨٤٤، ثم عاد لمصر في آخر عهد حكومة أخيه إبراهيم باشا. لما تولى عباس حلمي الأول ولاية مصر، أصدر أمرًا بحرمانه وأفراد أسرة محمد علي من ميراث محمد علي باشا؛ فرفع دعوى للسلطان العثماني التمس فيها إنصافه في عودة حقوق الوراثة له ولأسرته. عندما أصبح محمد سعيد باشا والي مصر، أعاد للبرنس حليم اعتباره، وعيّنه ناظرًا للجهادة، ثم حكمدارًا عامًا للسودان.

يُذكر أن البرنس حليم كان ترتيبه للجلوس على كرسي الولاية بعد ابن أخيه مصطفى خليل فاضل؛ وفق تسوية ١٨٤١. لم تدم الأمور على حالها، فبعد أن تولى ابن أخيه إسماعيل ولاية مصر؛ وجّه جهوده لتغيير نظام وراثة العرش الذي فرضته تسوية ١٨٤١، ففسي للباب العالي لجعل حكم

مصر ينحصر في ذريته، وليس أكبر الأمراء سنًا (504). وكان ابنه توفيق من جاء على رأس هذا النظام الجديد؛ مما أضع حق البرنس حليم في العرش.

لما قامت الثورة العربية تجددت آمال البرنس حليم للجلوس على عرش مصر، لكن انكسار عرابي واحتلال الإنجليز لمصر أضع عليه الفرصة، فابتعد وعاش في الآستانة؛ حيث تم تعيينه -عضوًا في مجلس الشورى هناك.

ابتعد حليم عن الشؤون المصرية، وظل مقيمًا في الآستانة حتى أدركته المنية في يونيو ١٨٩٤، نُقِلَ جثمانه إلى القاهرة ودُفِنَ في مقابر العائلة الخديوية.

لا بدَّ من التوقف عند حكاية الأمير كمال الدين حسين (١٨٧٤ - ١٩٣٢).

أما هي الأميرة عين الحياة بنت الأمير أحمد رفعت باشا. تزوج كمال الدين حسين من الأميرة نعمة الله بنت الخديوتوفيق، ولم يُرزق منها بأطفال، علمًا بأنها كانت متزوجة قبله من النبيل عماد طوسون، ورُزقت منه بابتن أسمته جميل طوسون.

كمال الدين حسين هو الرجل الذي كسر القاعدة.

فقد جاءه حُكم مصر على طبق من ذهب وأجمع عليه الشعب وسلطات الاحتلال البريطاني، غير أنه يبدو أن اتفاق الجميع على رجل واحد كان مفارقة تتجاوز المنطق، بل تتأكد طرافتها برفض الرجل نفسه عرش مصر رغم شرعية توريثه باتفاق الشعب والاحتلال والباب العالي أيضًا.

هذه الواقعة الاستثنائية والنادرة في تاريخ مصر سقطت تقريبًا من ذاكرة المصريين.

يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، إنه "في أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩١٧ اشتد المرض بالسلطان حسين كامل (٢١ نوفمبر ١٨٥٣ - ٩ أكتوبر ١٩١٧) ولزم الفراش، ويئس الأطباء من شفائه، وأخذت العلة تلح عليه، حتى وافاه الأجل المحتوم يوم ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ (٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٥) وشيعت جنازته في احتفال مهيب، حيث نقل جثمانه من قصر عابدين إلى مدافن الأسرة المالكة في مسجد الرفاعي" (505).

كان حسين باشا رشدي رئيس الحكومة أول من نعى السلطان حسين إلى الأمة في عبارات مؤثرة صادقة، ومما جاء فيها: "داهمت مصر مصيبة عظمى؛ إذ فقدت وليكها المحبوب، فقد اختار ذو العرش والجلال إلى جواره في دار النعيم المقيم صاحب العظمة السلطانية المغفور له حسين الأول، فلا غرو أن يكته مصر بكاء من يندب كارثة وطنية".

لم يبخل الإنجليز من الناحية الرسمية سواء في مصر أو إنحلترا نفسها. ففي اليوم الذي مات فيه السلطان، أصدرت دار الحماية البلاغ الرسمي التالي: "بأمر جلالة الملك يلبس القوميسر العالي البريطاني وجميع موظفي دار الحماية الحداد أسبوعًا كاملاً من اليوم ٩ أكتوبر وذلك بمناسبة وفاة السلطان حسين". وفي لندن، أُنْثِنت وأشادت به الصحف الإنجليزية ومنها جريدة "تايمز" و"ديلي تليغراف".

كان للسلطان حسين ابنٌ واحد يعزه كل الإعزاز ويحبُّه، حتى أن السلطان حسين إذا لم يُقسَم بالقرآن فقد كان يُقسَم إياه بحياة أبيه إسماعيل باشا أو بحياة ابنه كمال الدين حسين، وقد أراد أن يخلفه ابنه على العرش واتفق مع الإنجليز على ذلك. ففي ٨ أكتوبر، أي قبل يوم واحد من وفاة السلطان حسين، جاء المندوب السامي البريطاني ريجنالد ونغت يسأله سؤالاً محدداً: من ترشحه ليخلفك؟

قال: ابني الوحيد الأمير كمال الدين حسين.

يقول الرافعي:

”وكان السلطان حسين كامل قد عرض قبل وفاته على نجله الوحيد الأمير كمال الدين حسين عرش مصر، ليخلفه عليه من بعده، ولم يكن قد تقرر نظام لوراثة العرش تحت الحماية (البريطانية)، ولكن الأمير تنحى عن القبول، وأرسل إلى والده كتاباً في ٨ أكتوبر سنة ١٩١٧ قبل وفاته بيوم واحد يعتذر فيه عن عدم قبول وراثة العرش“ (506).

ما لم يكن معروفاً في ذلك الوقت أن هذا الأمير لم يحلم بهذا المنصب، وكان لقب السلطان لا يشغله من بعيدٍ أو قريب، حتى أنه كان يقول لمن حوله وقتها: ”إنني متزوج من أحسن زوجة في الدنيا، وعندي أحسن حصان في العالم، فماذا أريد من الدنيا أكثر من ذلك؟“ (507).

كانت المفاجأة الدوية أن اعتذر كمال الدين حسين عن عدم قبول العرش، بل وسجل ذلك في وثيقة رسمية تعتبر إحدى عجائب تاريخ مصر الحديث فما سمعنا في مصر عن إنسان يرفض عرشاً، وهذه الوثيقة لم تكن سوى رسالة أرسلها الأمير كمال لوالده في ٨ أكتوبر ١٩١٧، أي قبل يوم واحد من وفاة السلطان حسين، ومما جاء فيها: ”يا صاحب العظمة السلطانية، ذكرتوني عظمتكم بما اتفقت عليه مع الحكومة البريطانية الحامية وقت ارتقاء عظمتكم عرش السلطنة المصرية من تأجيل وضع نظام وراثة العرش السلطاني إلى ما بعد بحثه. وقد تفضلتم فأعربت لي عن رغبتكم في أن تكون وراثة عرش السلطنة المصرية منحصرة في الأكبر من الأبناء ثم من بعده لأكبر أبنائه وهكذا على هذا الترتيب.

”واني لأذكر عظمتكم هذه المنة الكبرى لما في هذه الرغبة من التشريف لي. على أنني -مع إخلاصي التام لشخصكم الكريم وحكمكم الجليل- مقتنع كل الاقتناع بأن بقائي على حالتي الآن يُمكنني من خدمة بلادي بأكثر مما يمكن أن أخدمها به في حالة أخرى، لذلك أرجو من حسن تعاطفكم أن تأذنوا لي أن أتنازل عن كل حق أو صفة أو دعوة كان من الممكن لي أن أتمسك به في إرث عرش السلطنة المصرية بصفتي ابنكم الوحيد، واني لا أزال لعظمتكم السلطانية النجل المخلص والعبد الكثير الاحترام“ (508).

هكذا ذهب السكرتير الشرقي بدار المندوب السامي البريطاني، برونالد ستورز، إلى السلطان الذي كان في صراع مع الموت، ليسأله عن البديل، فقال: أرشح أخي الأصغر الأمير أحمد فؤاد.

في اليوم التالي، مات السلطان حسين كامل. وعندما نشرت الصحف خطاب الأمير كمال الدين حسين، كان لهذا الخطاب -كما يقول سعد زغلول- أجمل وقع عند الناس، فقد أكبروا شأنه وقالوا: ”لو لم يترك السلطان حسين أثراً في البلاد سوى هذا الولد الصالح لكفا فخراً ومجداً“ (509).

وكتب مصطفى أمين يقول بعد ذلك:

”وذهب سعد زغلول لزيارة الأمير ليسأله عن سر رفضه قبول العرض، فلم يفهم شيئاً من الأمير الشاب، ولم يشعر بأنه أمام بطل وطني كما صورته الإشاعات. ولم يعرف سعد يومها أن الأمير رفض العرش لأنه كان يحب فتاة فرنسية تقيم في باريس، وكان يخشى لو تولى العرش أن يُحرم من التردد على باريس والإقامة بين ذراعيها، وكتب لها الأمير يقول إن قبلة من شفتيها أهم من عرش مصر كله“ (510).

يقول الراجعي:

”بعد أن اعتذر الأمير كمال الدين حسين، ارتقى السلطان (أصبح ملكاً فيما بعد) أحمد فؤاد عرش مصر يوم ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧، وأرسل إليه السير ريجنالد ونغت، المندوب السامي البريطاني خطاب تهنئة بهذه المناسبة، جاء فيها ”إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تريد أن تجدد لعظمتكم بهذه المناسبة التأكيدات التي أعطتها لسلف عظمتكم عند ارتقائه العرش، وهي مقتنعة أن في استطاعتها أن تعتمد في العمل مع عظمتكم على تلك الصداقة التي كانت شعاراً لحكم السلطان المرحوم، وعادت ثمراتها على البلاد بازدياد الرفاهية والتقدم“ (511).

في أيامه الأخيرة، بُترت إحدى قدمي صاحب السمو السلطاني حسين كامل، وتوفي في ١٦ أغسطس ١٩٣٢، ودُفن في مقبرة بجبل المقطم بجانب مقبرة (ابن الفارض) الملقب بـ”سلطان العاشقين“.

بعد وفاته، أرسلت سيدة فرنسية تدعى فيال ديمينييه، تلغرافاً إلى الملك فؤاد تخبره أنها زوجة كمال الدين حسين وأنحبت منه ابناً، وأكدت أنها تبحث عن ميراثها هي وابنها. وكان الملك فؤاد قد ورث مليون جنيه عن الأمير كمال الدين حسين، حيث لم ينجب الأخير من زوجته الأولى (نعمة الله). كما جاء المحامي الفرنسي موكلاً عن الزوجة الفرنسية فيال ديمينييه، وطلب مقابلة السلطان فؤاد وأخبره بزواج الأمير كمال الدين حسين من حبيبته الفرنسية فيال ديمينييه في ٥ مايو ١٩٢٤، وأنها تعتبر الوريثة الوحيدة له بعد أن أنحبت منه ابناً.

رفض الملك فؤاد الاعتراف بالزواج، وأخبر المحامي الفرنسي أنه لا يعترف إلا بالزواج الذي يقره مجلس البلاط الملكي وأن أي زواج سري لا قيمة له، ولكن المحامي الفرنسي لم يستسلم لما قاله السلطان فؤاد، وقرر اللجوء للمحاكم المختلطة بالإسكندرية ليطالب بميراث زوجة كمال الدين حسين التي تزوجها في فرنسا.

كانت المفاجأة حين تقدّم المحامي بالخطابات الغرامية التي أرسلها ولي العهد المصري حينذاك إلى حبيبته الفرنسية، والتي يؤكد فيها أنه تنازل عن العرش من أجل أن يعيش عبداً لها.

كان الخطاب الأول في ٣ أبريل عام ١٩١٥ وكتب لها:

”أيتها الحلم ما أتعسني بعيداً عنك .. القصر الذي أعيش فيه أشد وحشة من كوخ صغير .. المجد الذي حولي هو ذل وهوان بدونك.. إنني أكره كل شيء حولي لأنني لا أحب سواك، إن والدي السلطان حسين كامل عرض عليّ اليوم أن أكون ولي عهده.. أي سخافة هذه، إن معنى ذلك أن أفقدك ولا أستطيع أن ألقاك كما أشاء وأبن أشاء..، وحين قلت له (لا)، دُهل ولم يفهم؛ لأنه لا أحد في الدنيا يمكن أن يتخيل أن حُبكِ عندي هو حلمي الوحيد في الحياة، حتى إنني بين ذراعيك أنسى أنني أمير وأشعر أنني عبد. أريد أن تنتهي الأزمة بيني وبين أبي لأحضر إليك، إن قيام الحرب لا يمنعني أن أترك مصر وأحضر إليك خصيصاً لأعانقك“ (512).

ويضيف د. أشرف صبري الباحث في الفترة التاريخية الخاصة بالحرب العالمية الأولى، أن ما سبق كان ترجمة لنص الخطاب الأول الذي أرسله الأمير كمال الدين حسين وكتبه باللغة الفرنسية إلى حبيبته، وتوالت خطاباته الغرامية لها بعد ذلك والتي فسرت سر تنازله عن العرش وتهديده لوالده بالانتحار وإطلاق الرصاص على نفسه، وسر سفره المفاجئ إلى فرنسا عقب الحرب العالمية الأولى.

نأتي إلى الأمير محمد علي توفيق (١٨٧٥ - ١٩٥٥)، وكان ابن الخديو توفيق ابن الخديو إسماعيل ابن إبراهيم باشا. والدته هي الأميرة أمينة هانم إلهامي بنت إبراهيم إلهامي باشا ابن الوالي عباس الأول.

أصبح محمد علي توفيق ولياً للعهد لمدة سبعة أعوام، في عهد شقيقه عباس حلمي الثاني، حتى وُلد الأمير محمد عبد المنعم، فأزاحه من ولاية العهد، ثم تجددت أحلامه حينما اختير رئيساً لمجلس الوصاية على عرش الملك فاروق، الذي لم يكن بلغ السن القانونية بعد وفاة والده فؤاد الأول.

فعل الأمير محمد علي توفيق كل شيء حتى يُبعد فاروق عن العرش، وراح يتقرب للبريطانيين تارةً، ويعمل على إقناعهم بعودة فاروق للدراسة في إنجلترا تارةً أخرى، وأراد أن يُعدّل قانون العرش لتصبح السن القانونية خمسة وعشرين عاماً (513)؛ ليظل طويلاً على العرش؛ لكنه لم يفلح.

سارعت الأسرة المالكة بسحق آماله، واستصدرت فتوى من الأزهر يتم بمقتضاها حساب عمر فاروق بالأعوام الهجرية، حتى يسارعوا في وضعه على سدة الحكم، وتفويت الفرصة على الأمير الوصي محمد علي توفيق. مكث ولياً للعهد في الأعوام الأولى من حكم فاروق، حتى جاءه أحمد فؤاد الثاني، فأزاحه أيضاً عن ولاية العهد.

"القاهرة ١٩٢١ .. جَمَل تشرشل وكبرياؤه!"

في ١٢ مارس من عام ١٩٢١ انطلق مؤتمر القاهرة، الذي دعا إليه وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل، لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية. لم يكن لمؤتمر آخر مثل هذا التأثير الحاسم على المنطقة؛ إذ انتهى المؤتمر إلى إنشاء دولتي العراق والأردن، والتأكيد على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين.

في كتابه المعنون "القاهرة ١٩٢١: قصة الأيام العشرة التي شكّلت الشرق الأوسط" (مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠٢٤) يُبيّن سي. براد فوت، أستاذ التاريخ العالمي بجامعة تنديد الكندية، كيف أن هذا المؤتمر، على الرغم من سيطرة البريطانيين عليه، ومحدودية ما حظي به أهل البلاد محل التقسيم من مشاركة في مداولاته، كان محاولة طموحة، وإن لم تغلح في نهاية المطاف، لنقل الشرق الأوسط إلى عالم القومية الحديثة، في إطار الحفاظ على السمة الإمبراطورية للنظام العالمي. ويكشف الكتاب -الذي نقله إلى العربية أحمد العبد- أن الكثير من المسؤولين، وفيهم توماس إدوارد لورنس -الذي يتحدث عنه المؤلف بإعجاب مطولاً- وغير تروود بيل، كانوا مدفوعين بالإصرار على إنجاح تجربة بناء الدولة في المنطقة. وكان من شأن تحيزاتهم، وما استطاعوا تحقيقه، أن يغيّر الشرق الأوسط تغييراً عميقاً لعقود تالية.

نال لورنس العرب شهادة جامعية في التاريخ الحديث من كلية أكسفورد، واهتم في أطروحته الجامعية بتاريخ الحروب الصليبية في العصور الوسطى، وأدى تعلُّقه الدؤوب بالمجال - كما يحكي الكاتب براد فوت - إلى القيام برحلتين، واحدة منهما إلى سوريا، زار فيها القلاع التي شُيّدت أيام الحروب الصليبية، وكان لورنس يقطع بمفرده نحو ألف ميل سيراً على قدميه من شمال سوريا إلى جنوبها، وكان منذ يقاعته قارئاً نهماً.

وقد شهدت الأعوام المتعاقبة على هذه الأحداث تطور لورنس بوصفه عالم آثار بارعاً في المحل الأول، وعميلاً استخباراتياً بريطانياً مقتدرًا، وتعلّم لورنس العربية، وتعرّف في ذلك الوقت على الرحالة غير تروود بيل، البالغ من العمر ٤٣ عامًا، وكانت حينئذ رحالة صحراوية معروفة، وكانت بيل -مثل لورنس- قد تخرجت في جامعة أكسفورد؛ إذ درست التاريخ الحديث، وكتبت بيل بعد لقاء لها مع لورنس عام ١٩١١: "فتى مثير للاهتمام وسيصبح مغامراً"، وقد ارتبط اسمها ارتباطاً دائماً بوصفهما جزءاً من الطليعة السياسية والعسكرية البريطانية في تلك المنطقة زمن الحرب.

كان لورنس يؤمن بسقوط الأتراك والتحالف مع العرب، وينبهن كتاب "مؤتمر القاهرة" إلى أن وزارة الحرب البريطانية، ابتداءً من عام ١٩١٤، استفادت من خبرة لورنس المتزايدة في المنطقة ومن مهاراته اللغوية، فمن ذلك مثلاً قيامه في هذا العام برحلة خاصة لرسم الخرائط تحت رعاية "صندوق اكتشاف فلسطين"، وهو جمعية بريطانية لعبت دوراً في تزويد العسكريين البريطانيين بمعلومات جغرافية وتاريخية.

اجتاز لورنس ورفاقه شبه جزيرة سيناء الوعرة تحت ذريعة كونهم علماء آثار متجولين، وإن كانوا في حقيقة الأمر جواسيس بريطانيين، يجتهدون في معرفة جغرافيا المنطقة على نحو مفصّل، ولا سيما صحراء النقب المربعة، وقد جرى مسحها تنفيذياً لطلب وزير الحرب اللورد كيتشنر، وتحسباً لأي حروب قادمة، ثم انتهت أيام التنقيب التي وصفها لورنس بأنها أجمل أيام حياته، وانخرط في عمل المخابرات في القاهرة، وأصدر نشرة عربية، مهمتها تقديم ملخصات للاستخبارات لشخصيات محدودة في الإدارة البريطانية.. زار لورنس الجزيرة العربية وتعرّف على عبد الله بن الحسين وتحدّث معه باللغة العربية، وقيل إن الأمير الهاشمي في اجتماعه مع لورنس صاح غير مصدق: "هل هذا الرجل إله يعرف كل شيء؟".

ورغم هذا الثناء فإن لورنس انصرف في جدة غير راضٍ، وأعجب لورنس بفيصل، وكتب لورنس لاحقاً في "أعمدة الحكمة السبعة": "كان هذا هو الرجل الذي أتيت إلى الجزيرة العربية باحثاً عنه"، وبدأ لورنس يخطط في الثورة العربية بجانب فيصل بن الحسين.

قدّرات لورنس على التحمل كانت كبيرة، وقد وصفها جون فيلبي، الذي قطع الجزيرة العربية، بقوله: "لورنس شخص غريب الأطوار، متحمّل للجوع والعطش كالجمال، ومتحمّل للصعاب والمشاقي كالبعل، فكان يلتذ عندما ينام مقترشاً الأرض متوسداً الصخر ملتحفاً بعباءته محتضناً عصاه؛

فلا يكثر بحراً أو برد أو جوع أو عطش، وكنت لا أتمكن من مجاراته في هذه الحالات، عندما كنا نخرج معاً إلى البادية".

يتتبع الكتاب نحاح النبي في الحصول على القدس، التي تلقى الجنرال طلباً من رئيس الوزراء لويد جورج أن تكون هي هدية عيد الميلاد للشعب البريطاني المتعطش للنصر، وقال النبي: "أنشطة لورنس بين العرب تبشر بأمر عظيم".

وحدث التحول في عام ١٩١٧ عبر وعد بلفور، فقد كان نقطة تحول في التزام بريطانيا العلني مع الصهيونية العالمية، وهكذا صدر وعد بلفور، الذي عدّه لورنس "خيانة" للعرب، بالإضافة إلى اتفاقية سايكس-بيكو، التي لم تحسب حساباً للعرب، خصوصاً أن الإمبراطورية العثمانية سقطت وحلّت محلها فجوة دبلوماسية كبيرة وعصية، ومن المحقق أن لورنس بوجه خاص كان يدرك هذه الفجوة، وخرجت روسيا من اتفاقية سايكس-بيكو مع الثورة الروسية، فقد جرى كشف الاتفاقية في عهد لينين وتعرضت للنقد، ورفض الاتحاد السوفيتي التزام أحكامها.

هكذا كان الانتصار الذي أحرزه النبي على العثمانيين وحلفائهم الألمان في فلسطين وسوريا ساحقاً، ومخالفاً للتوقعات، فقد اجتثت الإمبراطورية العثمانية من مكانها بعد عدة قرون، وقد كتب النبي إلى والدته بارتياح كبير: "هكذا انتهت الحرب، اللهم إلا المشكلات الحتمية التي ستنشأ في أثناء ترتيب الدول والحدود".

يُمثل مؤتمر القاهرة لحظة فاصلة في التاريخ السياسي الحديث، فقد دعا إليه وزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل، في أعقاب مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩، ونظيره الذي عُقد في عام ١٩٢٠ في سان ريمو بإيطاليا، ومع إتاحة الأوراق الخاصة بالشاركين في المؤتمر، خصوصاً أوراق تشرشل وأوراق غيرتروود بيل للدراسة، رأى المؤرخ سي. براد فوت وجود فرصة للتغلغل عميقاً في مجريات المؤتمر ونتائجه، وهكذا سبر المؤلف المؤتمر سبراً شاملاً حتى يفهم جزءاً من التاريخ الدبلوماسي لحقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

عُقد المؤتمر للنظر في المستقبل السياسي للبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى، خصوصاً العراق والأردن وفلسطين، ولمتابعة التوفيق بين تناقضات كانت تمر بها الإدارة البريطانية في سيطرتها على المشرق العربي، وهي التزام وعد بلفور، ومعاهدة سايكس-بيكو، والوفاء بوعددها للعرب عندما تحالفوا مع بريطانيا في الثورة العربية ضد الدولة العثمانية.

لعل من النقاط التي تحسب لمؤلف الكتاب هو مسألة الاستفادة من الرسائل الشخصية لأبطال تلك المرحلة في فهم دوافعهم، وسرد انطباعات الأفراد عن الأحداث والسياسة في رسائلهم العائلية، ما يُضفي جواً من الذاتية، ويجعلك تقترب من فهم هؤلاء الأشخاص لأدوارهم، وحُكمهم على تلك المراحل.

في الطريق إلى المؤتمر، غادر ونستون تشرشل لندن، ووصلت السفينة إلى الإسكندرية، وطلب تشرشل أن يذهب إلى خليج أبي قير، حيث يتذكر الهزيمة التي أوقعها الأدميرال نيلسون بأسطول نابليون في عام ١٧٩٨، وهو الانتصار الذي أفضى إلى تغيير مساء النظام الثوري الفرنسي، وساعد على ترسيخ سيطرة بريطانيا على البحار. لم يكن حضور تشرشل إلى القاهرة محبوباً حيث صاح متظاهرون مصريون غاضبون "يسقط تشرشل"، ورشقوا قطاره بالحجارة.

وصل تشرشل إلى فندق "سميراميس" الفخم على ضفاف النيل، وهو أحد الفنادق الفاخرة في القاهرة، وكان أقرب جيرانه دار المفوض السامي البريطاني وتكنة "قصر النيل" التابعة للجيش البريطاني.

وفي عام ١٩٢١ كان عدد سكان القاهرة نحو مليون نسمة، فكانت بذلك أكبر مدينة في إفريقيا، وكانت مصر قد حدثت فيها ثورة كبيرة قبل ذلك بعامين، عام ١٩١٩، ووصل إلى القاهرة لورنس العرب و"غيرتروود بيل" و"بيرسي كوكس"، وكان الجمع الموجود من الموظفين البريطانيين يصل إلى

٣٩ مشاركًا، وكتب لورنس رسالة إلى والدته يفخر فيها قائلاً: "كل من له علاقة بالشرق الأوسط موجود هنا"، وصفهم أحدهم بالـ"أربعين حرامياً"، ما أثار ضحك تشرشل على الفور.

وصل العميل البريطاني في أرض الصومال، السير جفري آرثر، وقد خطف الأضواء لدى وصوله ومعه شِبْلان، وفي الكتاب قصة ملاحقة الشبليين طيوراً في منزل المندوب السامي النوبي.

في ١٢ مارس ١٩٢١، انعقد المؤتمر في فندق "سميراميس" في القاهرة وحضره جميع كبار الشخصيات العسكرية والمدنية من فلسطين وبلاد ما بين النهرين. كان العربيان الحاضرون من أعضاء إدارة الانتداب لبلاد الرافدين.

افتتح تشرشل المؤتمر قائلاً: "أعتقد أننا سنستنتج بالإجماع أن فيصل يمنحنا الأمل في التوصل إلى أفضل حل وأرخص حل"، سيعقد المؤتمر في مدة تزيد قليلاً على أسبوع ويعقد الخبراء ما يقرب من خمسين اجتماعاً. ويضعنا كتاب براد فوت في كواليس الاجتماعات والحضور والنقاشات الاستعمارية، وقد حضر إلى المؤتمر من العرب جعفر العسكري، وكان وزير الدفاع في العراق، ووزير المالية يوسف حسيقل، وهو أحد يهود العراق، وقد سعدت بهما بيل، لأنهما مثلاً عناصر وطنية عراقية في مؤتمر يناقش مستقبل العراق.

كان ما يشغل بال تشرشل خفض نفقات وجود بريطانيا في الشرق الأوسط والعراق، وتحقيق درجة من الوطنية المحلية تُسهم في توحيد العراق، وتعمل على التوازن حتى تدور عجلة الإمبراطورية.

تألف جدول أعمال المؤتمر من ثلاثة أقسام: العراق وفلسطين (بما في ذلك شرق الأردن) وعدن والخليج العربي. كانت السلطة القضائية والمالية وحجم حامية الجيش البريطاني والمجلس التشريعي المقترح كلها على جدول الأعمال. التقى وفد عربي من فلسطين تشرشل في القاهرة لفترة وجيزة في ٢٢ مارس؛ حيث رفض مناقشة أي شيء سياسي، لكنه وافق على مقابلتهما في القدس. تعقدت قضية شرق الأردن بوصول جيش الأمير عبد الله بن الحسين إلى عمان، مع تدفق المتمردين واللاجئين من سوريا وحقيقة أن الصهاينة شرق الأردن جزءاً من الوطن اليهودي الموعود. عقد تشرشل سلسلة لقاءات مع الأمير عبد الله في القدس في طريق عودته إلى لندن.

يُبين كتاب "القاهرة ١٩٢١" أن فلسطين التاريخية قُسمت مرتين؛ المرة الثانية المعروفة في عام ١٩٤٧، أما المرة الأولى فكانت في مؤتمر القاهرة ١٩٢١، وقد نشأت إمارة شرق الأردن عن هذا التقسيم. وكان الهدف من هذا التقسيم الأول هو منح عرب فلسطين دولة في إطار محاولة تشرشل الموازنة بين وعد بريطانيا لحلفائها العرب (الشيخ حسين وأسرته) بدولة عربية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، ووعداً للصهاينة بدولة يهودية على أرض فلسطين (لا تمس مصالح بقية السكان)، ومساعداً التاريخي لتشكيل قاعدة غربية أمامية في الشرق. وقد رفض السير هربرت صموئيل، الصهيوني الجَلَد، وأول مفوض بريطاني سامٍ على فلسطين، هذا المقترح أول الأمر (كان يريد فلسطين التاريخية كلها بما فيها شرق الأردن لليهود)، ولكنه كان سياسياً عقلانياً يعي أن تأييد بريطانيا لوطن يهودي على أرض فلسطين رهين تأييدها لشرق أردن عربي، فاستطاع تشرشل إقناعه بهذا المقترح في نهاية المطاف عن طريق تدخل حاسم من أحد مساعديه في وزارة المستعمرات، وهو توماس لورنس الشهير.

يروى الكتاب أنه لما احتدم الخلاف بين "أنصار العرب" وأنصار الصهاينة من مندوبي المؤتمر، وجُلِّه موظفون بريطانيون استعماريون "عرض لورنس وجهة نظره في أن دولة عربية بقبادة [الأمير] عبد الله [ابن الشريف حسين] قد تكون صَمام أمان في المنطقة؛ إذ يمكن الضغط على حاكم يعتمد مركزه على التأييد البريطاني لحمله على كبح جماح معاداة الصهيونية في شرق الأردن. وردَّ صموئيل بأنه يخشى استمرار الغارات العربية عبر الحدود إلى داخل فلسطين. ولكن لورنس عَقَّب قائلاً: إن مسألة هذه الغارات يمكن حلها على أفضل وجه من خلال نظام حُكم جيد في شرق الأردن. وأضاف أن إدارة الوضع قد تتم على نحو فعال لمصلحة الطرفين إذا أظهر عبد الله حسن التصرف".

كانت غيرتروود ببيل المرأة الوحيدة التي حضرت مؤتمر القاهرة ١٩٢١ الذي نظمه ونستون تشرشل لترتيب أمور الشرق الأوسط، ودعا إليه أهم الموظفين عن الملف في الإدارة البريطانية، كانت ببيل ملمة بتعقيدات الشرق الأوسط، وفي ذلك الوقت كتبت تقريراً مكوناً من ١٤٩ صفحة عن الإدارة المدنية في بلاد الرافدين. كان ونستون تشرشل يقول إنها الرجل الوحيد في مؤتمر القاهرة.

ببساطة، اجتمع تشرشل لمدة أسبوعين مع مساعديه ومندوبي الإمبراطورية البريطانية في القاهرة. ناقشوا، وقرروا، وقسموا المنطقة، ورسموا خريطة جديدة لها، ونصبوا الملوك والأمراء، وشكلوا الجيوش، كل ذلك بما يخدم مصالحهم، قبل أن تتغير صورة المنطقة إلى الأبد.

إجمالاً، بحلول عطلة نهاية الأسبوع الثانية في القاهرة، كان من الواضح للمشاركين الرئيسيين في المؤتمر أن لديهم سبباً وجيهاً للرضا عما حُقق، والرضا أيضاً عن مآلات الأمور التي حُطَّت لها لمستقبل الشرق الأوسط. وكان تشرشل على وجه الخصوص في طليعة هذه المجموعة الراضية مع انتهاء المؤتمر، كحال لورنس وببيل.

وحين اقترب المؤتمر من نهايته، غادرت قافلة سيارات، تقلُّ تشرشل وعدد قليل من المندوبين، الفندق صباح يوم الأحد الموافق ٢٠ مارس متجهةً إلى الجزيرة المجاورة، فقد كان عازماً على أن يتضمن برنامجهم في مصر ارتياد بعض المعالم السياحية التي لا تُنسى. وكانت محطتهم الأولى فندق "ميناهوس" القديم، وهو أحد الفنادق الأولى التي بُنيت على الطراز الأوروبي في البلاد. كان في استقبالهم شيخ المنطقة مرتدياً زياً ذهبياً اللون وممتطيًا صهوة جواده، ثم تحولوا في فناءات الفندق وحداثته المشدبة الخضراء (514). ثم سيق لهم قطع من الجِمال أحضر لهذه المناسبة، فركبوا في رحلة قصيرة لمشاهدة الأهرام وأبي الهول. وبعد ذلك، قاموا برحلة أطول على الجِمال إلى أنقاز مدينة منف القديمة، الواقعة في سقارة، على بُعد ١٢ ميلاً جنوب الجزيرة؛ حيث استمتعوا بوجبة غداء، وجال بصرهم في المواقع المحيطة.

وبعد استمتاعهم برؤية الأهرامات وأبي الهول، امتطت المجموعة ظهور بعيرها من جديد وبمّنت جنوباً إلى سقارة. استغرقت الرحلة بضع ساعات، وعانى تشرشل في طريقه من لحظة عصبية عندما تراخى سرج جملة، فانزلق لذلك من على ظهره وسقط على الرمال، فعلقت كليمنتين ساخرة: "هكذا يسقط الجبابرة" (515). لم يُصب تشرشل بأذى، إلا أن يكون كبرياهه وبعض الخدوش التي أصابت يده، بيد أنه لم يلبث أن استعاد توازنه الجسدي وكذلك كرامته الوزارية في بضع دقائق (516).

استكملت المجموعة رحلتها، فبلغت سقارة عند الظهيرة، وتناولوا غداءهم، ثم استراحوا مدة قبل الانطلاق لمشاهدة آثارها القديمة. تجوّل بعض أعضاء المجموعة في المقبرة القديمة التي يميّزها هرم زوسر المدرج الشهير. لم يرافقهم تشرشل؛ ولعله كان مُتعباً بسبب صباحه الحافل بالأحداث على ظهر الجمال، واستعاض عن هذه الجولة بممارسة هوايته المفضلة وتناول الحامل والفُرش والألوان. انطلق معظم أفراد المجموعة عائدين إلى "ميناهوس" في وقت متأخر من ظهر ذلك اليوم، في حين تأخر لورنس وتشرشل بعض الوقت قبل أن يمتطيا جملة معاً ويعودا إلى الجزيرة مُسرّعين. وفي وقت لاحق من نوفمبر من عام ١٩٢٢، بعد انتهاء أيام عمله الاستشاري الحكومي سيذكر لورنس تشرشل بهذه التجربة المشتركة المثيرة في الصحراء قائلاً: "هل تذكر هرولة الجِمال في الجزيرة، عندما أجهدت كل مرافقك اللهم إلا أنا، ولم أكن أنا بالمنافس النزيه!".

في اليوم التالي، ٢١ مارس، استضاف تشرشل في الختام حفل عشاء فاخر في "سميراميس". وقد أהלّ الصباح بصورة جماعية رسمية للمؤتمر التّقطت أمام الفندق، اكتسبت الشهرة نفسها التي أصبحت لأختها الملتقطة في اليوم السابق في الجزيرة. وفيها يجلس تشرشل في منتصف الصف الأمامي وسط المشاركين المجتمعين الذين يقفون خلفه في عدة صفوف متسلسلة.

جاء حفل عشاء تشرشل في وقت لاحق من ذلك المساء. وكان فندق "سميراميس" مشهوراً بجودة المأكولات الفرنسية، فقدّم للمشاركين أطيب ما لديه. وامتألت هذه الليلة بجميع المشاركين مع عدد من أزواجهم وغيرهم من الضيوف.

في صباح اليوم التالي، رافق النبي تشرشل إلى قصر عابدين للقاء السلطان (الملك لاحقًا) فؤاد، الذي رحب ترحيبًا حارًا بكلٍّ من تشرشل والنبي في القصر في زيارةٍ امتدت ساعة ونصف الساعة. وكتب النبي إلى أهله: "يسعدني أن أقول: إن حديثهما كان من القلب إلى القلب، ونال كلُّ منهما إعجاب الآخر، ووافقتني تشرشل في أن السلطان رجلٌ جديرٌ بالاحترام، يستحقُّ ثقتنا ودعمنا" (ص ١٤٦).

على أن هذه النظرة الإيجابية إلى فؤاد، والتي عبّر عنها النبي في تلك اللحظة، لم تلبث أن تبدّلت. في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم عاد إلى القصر مع تشرشل ورافقه أكثر من ١٠٠ آخرين من مندوبي مؤتمر القاهرة، ومسؤولي الحكومة المصرية أيضًا، تلبيةً لدعوة السلطان لهم إلى "مأدبة كبيرة". وسجّل النبي أنها كانت كبيرة حقًا "ورائعة، كسائر وسائل ترفيهه المصاحبة". وكان العشاء الفخم لدى السلطان فؤاد ذلك المساء آخر حدثٍ كبيرٍ في المؤتمر. وإذا كان عشاء الأسمية السابقة في "سميراميس" قد أعلن نهاية المؤتمر رسميًا، فإن مأدبة السلطان في قصر عابدين كانت إضافة رائعة إلى مداولات المؤتمر التي استمرت عشرة أيام. ولم يبق بعد ذلك إلا حفل عشاء حميم في دار المندوب السامي البريطاني في مساء ٢٣ مارس لإنهاء مؤتمر القاهرة تمامًا.

انتهى مؤتمر القاهرة وسط جوٍ مفعم بالتفاؤل والثقة، مع شيءٍ من الارتياب أيضًا فيما يخبئه المستقبل للجغرافيا السياسية المعقدة في الشرق الأوسط. انقضت أيام مؤتمر القاهرة العشرة، لكن العمل على تنفيذ خطته الواسعة النطاق للحكم وبناء دول ما بعد الحرب في الشرق الأوسط قد بدأ في تلك اللحظة.

كومباوندات وعشوائيات.. تحديات المستقبل

شهدت القاهرة خلال القرن العشرين تغيرات متلاحقة، وكانت أهم وسائل غزو القاهرة القديمة رأس الحربة التي شقَّت القاهرة القديمة شطرين؛ إنشاء شارع الأزهر بعد عام ١٩٢٠ بعرض ٢٠ مترًا. أثار إنشاء هذا الشارع وشارع الجيش الحالي اعتراضات كثيرة آنذاك؛ لكثرة التعويضات التي بلغت ٣٠٠ ألف جنيه.

وبدخول المواصلات الحديثة إلى شارع الأزهر أصبح هو المحور الأول بعد أن كان شارع الموسكي وامتداده في شارع السكة الجديدة -التي أنشأها محمد علي بعد عام ١٨١٥ بعرض أربعة أمتار- هو المحور الأساسي لنحو قرن من الزمان للدخول من العتبة إلى منطقة الأزهر-الجمالية. وأصبح شارع الأزهر مركزًا لتجارة الجملة، وتنافست المحال الكبيرة للحصول على واجهة تطل على هذا العالم الجديد، ولكن الحاجة المكانية الملحة أبقت على الموسكي والسكة الجديدة كشوارع أعمال من الدرجة الثانية لفترة، والآن هو من أغل شوارع القاهرة قيمة عقارية أو إيجارية؛ لأنه سوق لا يُشق له غبار للسلع المتوسطة القيمة التي لا غنى عنها لغالبية سكان القاهرة من الفقراء ومتوسطي الحال.

كذلك كان لإنشاء شارع الجيش الحالي -سابقًا الأمير فاروق من العتبة إلى الحسينية- أثر كبير في تقطيع أوصال القاهرة القديمة في قسمها الشمالي؛ فصل باب البحر والفجالة والظاهر والرويعي عن الموسكي ودرب البرابرة وباب الشعرية والبيومي والحسينية. كما أدى إلى تدهور شارع الخليج -ردم عام ١٨٩٩- الذي كان يلتوي داخل المدينة القديمة، ولم تعد له أهميته في شبكة شرايين القاهرة الحديثة إلا بعد أن استقام هو الآخر والتحم بعدد من الشوارع الضيقة الموازية: درب الجماميز، شوارع الحبانبة، وجامع البنات، وبين الصورين، وباب الشعرية، وشارع الشعراوي البراني ... إلخ، تحت مسمى شارع الخليج الذي أعيد تسميته شارع بورسعيد، وأصبح محورًا مهمًا يربط غمرة والسيدة زينب (517).

وكان شق شارع القلعة؛ "محمد علي" قد سبق ذلك بكثير -بدايات الطريق منذ عهد محمد علي، وتم في عهد إسماعيل- وقد أدى إلى تقطيع المدينة القديمة في الجنوب، فاصلاً بين السيدة وطولون والحلمية وعابدين وأرض شريف في جانب، وباب الوزير وسوق السلاح والخيامية وتحت الربع وسكة المناصرة في جانب آخر. لكن شارع محمد علي لم يؤد إلى النتيجة التي انتهى إليها شارع الجيش؛ ذلك أن شارع القلعة -بعد أن نزل الحُكم من القلعة إلى قصور القاهرة الجديدة في عابدين والقبّة- أصبح شارعًا لا يقود إلى مكان ذي أهمية في الحياة السياسية اليومية، وفضلاً عن ذلك فهو يقود إلى طريق مسدود بواسطة بروز جبل المقطم في هذا الهامش الجنوبي من القاهرة، وإلى المقابر الشاسعة في الإمام الشافعي، وإلى محاجر وتلال عين الصيرة ومصر القديمة. أما طريق الجيش؛ فقد كان يقود القاهرة إلى جبهة توسع عمراني هائلة شمالاً بشرق العباسية وحدائق القبة ومصر الجديدة، وهذا هو اتجاه التوسع العمراني الذي تحاييه مجموعة الظروف الطبيعية والبشرية في إقليم القاهرة.

في كتاب نادر، يعطينا المهندس محمد حسنين مكاوي (518)، صورة واضحة المعالم لتقسيم العاصمة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين؛ إذ قسمت القاهرة إلى أحياء مخصصة، هي: حي الأعمال، الذي يقع في قسم الأزيكية وجزء من حي عابدين. والحي الحكومي، الذي يقع في قسم السيدة زينب وقسم عابدين. وحي الجامعة والمدارس، الذي يقع جزء منه في الحي الحكومي والآخر في حي السكن المجاور في الجهة اليسرى للنيل، في حين يقع سكن الطلبة في حي عابدين والسيدة زينب وباقي أحياء السكن. أما الحي التجاري فيقع في وسط المدينة تقريباً ويشغل أقسام الموسكي وعابدين والأزيكية.

ثم يتابع مكاوي -الذي يُقدّم نفسه على أنه محمد حسنين مكاوي، مؤلف "باشمهندس بلدية ميت غمر"- تقسيمه لأحياء المدينة، بالحديث عن الحي الصناعي، الذي يرى غير مركز في منطقة واحدة، وإن كان بعضه يقع في حي بولاق، وجزء آخر في العباسية، والباقي مبعثر في أحياء مختلفة. ثم يتحدث عن أرض الألعاب والحدائق والمعرض الزراعي الصناعي، وهي تكون حي النزهة والرياضة على وصفه. وهو يقصد بذلك جزيرة الزمالك بقسميها السكني والجنوبي، الذي تتمركز فيه النوادي وأرض المعارض (مقر الأوبرا المصرية حالياً). ويشير إلى أحياء للسكن على حدود

المدنية، والتي ستتطور مع الوقت لتصبح الأحياء الشعبية. أما الأحياء الجنوبية فيصفها بأنها "أحياء قديمة فقيرة تحوي مساكن أغلب صغار الموظفين والعمال والطلبة وصغار التجار، وهي السيدة زينب ومصر القديمة والخليفة".

يشدد مكاوي على ضرورة توسيع شوارع القاهرة لتناسب حجم الحركة فيها، ويأخذ على القائمين على أعمال المدينة عدم اهتمامهم بعرض الشوارع التي يمر بها الترام، ويضرب المثل بشارع عماد الدين، الذي "يشوّه المترو، ويقضي على جماله، خصوصاً وأنه واقع في حي السينما والملاهي. ولا يخفي أمر الازدحام الذي ينجم عن خروج جميع المشاهدين من هذه الدور في وقت واحد".

كما يشير إلى وضع شارع الخليج المصري، قائلاً: "فيه أجزاء يكاد لا يكون بين المنازل والترام من المسافة ما يكفي لمرور شخص واحد. حتى إنه لو مد أحد ركاب الترام يده لاصطدمت بالحائط مباشرة، وكذلك الحال في بعض مواقع أخرى مثل الطاهر والسكاكيني". وينتقد خلو أحياء القاهرة من التخطيط الصحيح، لكنه يستثني من حكمه ضاحية هليوبوليس (مصر الجديدة). التي "وضع مسقطها بواسطة شركة بلجيكية، ودرست درساً وافياً، وهي أهم ضاحية في المدينة". كذلك أشاد بحي جاردن سيتي، إلا أنه أشار إلى عيب رئيس فيه و"هو أنه من السهل أن يضل به الإنسان".

وكذلك أشاد بتخطيط شركة أراضي الدقي، في المقابل شن هجوماً لاذعاً على ميادين وسط المدينة. يقول: "فها هو ذا ميدان العتبة الخضراء كأنه أنشئ لتستفيد منه شركة الترام فقط. وميدان السيدة زينب وميدان المحطة كأنها البحر المتلاطم يغر المار منه كأنما يغر من الموت. كل هذه الميادين لا يطلق عليه اسم ميدان إلا من باب المجاز. لأنها غير منظمة وليس لها أي شكل هندسي أو أي غرض فني".

في عهد ثورة يوليو ١٩٥٢، أنشئ كورنيش النيل على مسافة ٤٠ كيلومتراً بحذاء النيل، من القناطر حتى حلوان، وقد تم تنفيذه على مرحلتين: الأولى من روض الفرج إلى أثر النبي بمصر القديمة، والثانية من أثر النبي حتى حلوان. وأعيد أيضاً تخطيط ميادين باب الحديد، والتحرير، والأوبرا، والعتبة، والسيدة زينب، وأحمد ماهر، وصالح الدين بالقلة، والأزهار، والجيزة، وأبي العلا، والعباسية، والنزهة، وأبي بكر الصديق بمصر الجديدة.

وشهدت شوارع القاهرة إصلاحات كبيرة، ومن ذلك شارع الخليج المصري (شارع بورسعيد الحالي)، كما أنشئت أحياء جديدة، منها حي الفوالة الذي كان وضعه مزرياً، فأعيد تخطيطه وهدم مبانيه المتداعية وعششه، وجرى تحسين طرق المواصلات وتحويل خطط الترام إلى أطراف المدينة (519).

ويُقدّم د. جلال أمين (١٩٣٥ - ٢٠١٨) بعض اللحاحات في كتبه المختلفة عن تحوّل مراكز الثقل في مدينة القاهرة. فيقول عن تحولات وسط البلد في كتابه "ماذا حدث للمصريين؟": "كان الشارعان الأكثر رخاءً في القاهرة في طفولتي وصباي، هما شارعاً فؤاد وعماد الدين. أما في الخمسينيات والستينيات فقد أصابهما الهرم والتدهور الواضح. ولم تعد محلات "شيكوريل" و"شمالا" و"أوركوز" هي ملتقى الطبقات الراقية. بل حلت محلها محلات أخرى أكثر بكثير في شارع قصر النيل وسليمان باشا. كذلك تدهورت أحوال دور السينما مثل سينما "ستوديو مصر" و"كوزمو" بشارع عماد الدين. وحلت محلها سينما حديثة أضخم وأفخم مثل "ريفولي" و"راديو" (520).

يتحدّث جلال أمين عن تحولات القاهرة من خلال انتقال أسرته من مصر الجديدة في القاهرة، إلى سكنى حي الدقي بالجيزة. فهو هنا يكشف عن سبب انتقال أسرته عام ١٩٤٧. إذ يعزوه لرغبة الوالد في السكنى بأسرته بجوار جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة لاحقاً)، حيث يدرس معظم أفراد الأسرة، فالجامعة تحوّلت إلى نقطة جذب للسكنى حولها. وهو أمر سيزيد مع الوقت، وإن كانت عملية التعمير مضت ببطء. فبحسب صاحب "رحيق العمر": "بقيت الدقي والعجوزة وذلك الجزء من الجيزة المحيط بالجامعة، تتكون أساساً من الحقول والحدائق والمشاتل. بما في ذلك حديقة الحيوان البديعة، وحديقة الأورمان الملاصقة لها والتي لم تكن تقل عنها جمالاً. وحديقة المتحف الزراعي بأشجاره ونباتاته النادرة. كان حي الدقي

في ذلك الوقت يتكون أساسًا من فيلات أنيقة، وبعض المستشفيات الأنيقة أيضًا. وكانينوهات قليلة أنشئت في الأصل للترفيه عن الجنود الإنجليز (ككازينو بديعة مصابني على ضفاف النيل) (521).

لكن دوام الحال من المحال، في مدينة تنمو بسرعة مثل القاهرة. فبعد ١٩٥٢ شهدت المدينة نموًا عمرانيًا كبيرًا، وهو ما يسرده أمين في تبدل مصير حي الدقي: "فلما تركت هذا البيت بعد عشرة أعوام مسافرًا في بعثتي إلى إنجلترا. كان حي الدقي قد زحفت عليه حشود جديدة من الطبقة الوسطى التي خلقتها ثورة ١٩٥٢. فاخفتت الحقول والمشاغل وبدأت تحل محلها العمارات. وبدأت الحقائق الجميلة في التدهور مع زيادة عدد مرتاديها... عندما عدت من البعثة بعد ست سنوات (في ١٩٦٤) لم يكن من السهل علي أن أتبين معالم الحي الجميل القديم. وكان علي أن أبحث عن مكان آخر أسكن فيه" (522).

انتقل جلال أمين بأسرته إلى حي المعادي في عام ١٩٦٤، والذي كان بعيدًا عن القاهرة يفصله عنها الحقول الزراعية؛ إذ سكن في ثكنات المعادي والذي يقع بين ذلك الحي الأرستقراطي البديع المسمى بسرديات المعادي، وذلك الحي الشعبي الفقير؛ طرة". وهو يمدح وضع حي المعادي وقتذاك؛ إذ رأى فيه استمرارًا لروح حي الدقي والعجوزة في عام ١٩٤٧. فهو لم يكن أكثر من "مجموعة من الفيلات التي تحيط بكل منها حديقة وتسكنها عائلة صغيرة. ولضآلة حجم سكان المعادي وانخفاض كثافتهم ظلت المحلات التجارية قليلة بدورها. وتكاد أن تكون محصورة في شارع واحد... بل اقتصرت المحلات في ذلك الشارع التجاري الوحيد (شارع ٩)".

يرصد جلال أمين بعض مظاهر الحياة في الحي الهادي في فترة الستينيات من استخدام الدراجات في التنقل دخل الحي، وقلة السيارات المارة. وعدم استخدام مكبرات الصوت في المساجد. واستخدام القطار الذي يصل حلوان والمعادي بقلب القاهرة. ورغم أنه أشار إلى هذا القطار الذي تحول إلى الخط الأول لمترو القاهرة في ما بعد، في كتابه "رحيق العمر"، فإنه أفرد له مقالة ذات حس كوميدي نقدي، نشرها في كتابه "وصف مصر في نهاية القرن العشرين". وفيه يُقدّم لمحات عن أزمة النقل والمواصلات في مصر. وهو يحكي عن حالة الازدحام الشديد الذي يلحق بالقطار عند محطة دار السلام "الشهيرة لدى الركاب المنتظمين باسم الصين الشعبية" (523).

يؤكد صاحب "ماذا حدث للمصريين؟"، أن حي المعادي لم يتغير كثيرًا خلال الفترة الناصرية وامتدادها في السنوات الأولى من السبعينيات. ويكشف في "رحيق العمر" أنه "حدث الانقلاب الكبير مع بداية عصر الانفتاح في ١٩٧٤" (524). كما يشير بوضوح إلى حالة الركود الاقتصادي التي ضربت مصر في الفترة من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٤، بسبب حرب اليمن ثم هزيمة يونيو، وانقطاع المعونات الخارجية ونضوب موارد الدولة الداخلية؛ لذا عندما تدفقت الأموال على شرائح واسعة من المصريين، وبالتأكيد أثرت هذه الحالة سلبًا على تمدد القاهرة العمراني.

في عقود وعهود لاحقة، شهدنا إنشاء القاهرة الجديدة وامتد العمران إلى ٦ أكتوبر، وانتقل الأثرياء إلى السكن الفاخر الموسر في أحياء وكومباوندات أسماؤها ذات رنين، مثل: "ماي فير" و"بيفري هيلز"، و"القمامية هايتس".

في المقابل، عانت القاهرة من ظاهرتي العشوائيات ووضع اليد على الأراضي.

يؤرخ الكثير من الباحثين لبدء نشأة مناطق وضع اليد في مصر بظهور منطقة "عزبة الصعيدة" (525) في حي إمبابية عام ١٩٢٤ -تسمى بذلك نسبة إلى سكانها الأوائل من صعيد مصر- حيث بدأت تلك المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من خلال هجرة أحد الأفراد من محافظة قنا إلى القاهرة، ويدعى عبد النعيم محمد، حيث أقام هو وبعض المهاجرين من أهله مجموعة من العشش في منطقة الزمالك. كانت جغرافيا المدينة لم تستقر بعد على وضعها الحالي، فالزمالك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تكن سوى جزيرة مهجورة مليئة بالأحراش والثعالب والذئاب، حتى إنها اتخذت تسميتها من كلمة "زملك" التركية، وهي العشش التي يستخدمها الجند على ضفاف النيل.

وبنظرة فاحصة منه على أرض الزمالك، أدرك عبد النعيم أن لديه كنزًا لا يعوض إذا ما قام باستغلال هذه الأراضي لحسابه، وهو ما تحقق بعد أن بدأ في شراء الأراضي بثمن بخس لم يزد سعره على القرشين ونصف القرش للمتر الواحد.

واتسع نفوذه في هذه الناحية بعد أن استدعى أقاربه وبني جلدته من الجنوب كي يشاركوه تعمير المكان وأصبحوا بالآلاف، وولّوه عمدة عليهم، ومن بعده ابنه عسران. ومع تزايد الاهتمام بالممالك وانتقال الأمراء والوجهاء إليها لوجود قصر الخديو إسماعيل، جاء القرار بتوطين هؤلاء المهاجرين في موضع آخر، حيث عزبة الصعايدة الحالية في منطقة إمبابية التي عُرفت سابقًا باسم عزبة عبد النعيم.

ظلت عزبة الصعايدة على وفائها لعبد النعيم محمد بن الذي يخترق العزبة شارع باسمه، وشارع آخر باسم نخله عسران. الشوارع ضيقة والبيوت القديمة ما زال بعضها يحمل الطابع الريفي الذي اتخذته المهاجرون الأوائل.

بعد انتقاله وعشيرته إلى إمبابية، أرسل عبد النعيم في استدعاء الكثير من أقاربه، ومعارفه الباحثين عن عمل في القاهرة ليؤجر لهم العيش التي أنشأها، ثم بدأ في تشغيل الوافدين لحسابه، فزادت أعداد المهاجرين، ونما عدد السكان بصورة مضطردة حيث بلغ عدد السكان عام ١٩٤٧ (١٧٣١) نسمة حتى وصل تعداد هذه المنطقة إلى ٧٧ ألف نسمة في عام ١٩٩٦، وارتفع الرقم إلى مليون و١٠٠ ألف نسمة في عام ٢٠٠٨.

أما "أرض اللواء" وهي منطقة شعبية مكتظة بالسكان، تسودها العشوائية، وتتبع محافظة الجيزة، فإن ما لا يعرفه كثيرون أنها كانت في الأصل منطقة زراعية، ولكن قرارًا إداريًا اتخذ منذ عقود بتقسيم أراضيها وضمها إلى كوردون المدينة. وحدث أن كان أول من اشترى أرضًا يحمل رتبة لواء، حيث قام بتسوير الأرض التي اشتراها بالطوب الأحمر، وكتب عليها بالطلاء الأبيض "هذه الأرض ملك اللواء...". بعد ذلك بدأ ملاك الأراضي المجاورة في الإعلان عن المساحات التي يريدون بيعها، ولتحديد موقعها تسهيلًا على المشترين، كانوا يكتبون في الإعلانات أنها تقع بجوار "أرض اللواء"، وكان السماسرة أيضًا يستخدمون هذه العبارة لإغراء المشترين من خلال التأكيد أنها بجوار أرض اللواء، لبث الطمأنينة في نفوسهم أن كل شيء قانوني لدليل أن لواءً قد اشترى أرضًا في المنطقة. بمرور الأيام، ومن باب التعميم والاستسهال، أصبح يُطلق على المنطقة كلها "أرض اللواء".

تكونت الكثير من المناطق العشوائية في ظل ظروف مشابهة، ومنها "عزبة الهجانة" بمدينة نصر، التي أسسها حسن النوبي أحد جنود سلاح الهجانة. حيث استقر في المنطقة بعد تصفية سلاح الهجانة، وأرسل في طلب أسرته، وبعض أقاربه، للعيش معه. ومن هنا نشأ تجمع سكني صغير، حتى زاد تعداد المنطقة وتخطى المليون نسمة في عام ٢٠٠٦ (526).

تجدر الإشارة إلى أن معظم مناطق وضع اليد نشأت في البداية بشكل محدود، ثم تدخلت بعد ذلك شركات تقسيم الأراضي والاستثمار العقاري، لبيع هذه المناطق إلى الباحثين عن مسكن، أو قطعة أرض للبناء عليها، سواء من أراضي الدولة أو على الأراضي الزراعية، بعيدًا عن نظر السلطة المركزية، حتى نشأت أحياء سكنية كاملة يقدر سكانها بمئات الألوف أو حتى بالملايين، أنشأوا مساكنهم وخططوها برويتهم الذاتية حتى تتكون تجمعات سكنية عشوائية على هامش مناطق ومدن مخططة.

ويمكن القول إن المناطق العشوائية في مصر لم تقتصر على مناطق وضع اليد فقط وإنما امتدت لتشمل المناطق السكنية الجديدة على الأراضي الزراعية، أو المناطق السكنية المتدهورة، التي كانت في البداية مخططة ومقبولة كنمط إسكان ملائم لحياة البشر، إلا أنه نتيجة للضغط السكاني وزيادة الكثافة السكانية بها، وإهمال جهود التطوير، لها تحولت تدريجيًا إلى مناطق عشوائية.

ومن ذلك "دار السلام" جنوب القاهرة، حيث يطلق السكان على هذا الحي اسم "الصين الشعبية"، تندرًا، ودلالة على الزحام الشديد الذي يعيشونه.

دار السلام منطقة مذهشة، رغم ازدهارها، ليس فيها سوى شارع مروري واحد. تتلاصق على جانبيه آلاف العمارات المكدسة بالسكان. يصلها ذاك الشارع بمنطقة مصر القديمة، وجزيرة الروضة شمالاً، وبحي المعادي جنوباً.

لم تُخلق دار السلام لتكون سجنًا خرسانيًا بين الجبل شرقًا وكورنيش النيل غربًا، بل كانت واحدة من أجمل مناطق القاهرة قبل قرن من الزمن، وكانت لجمالها تقارن في أطلس وصف مصر للحملة الفرنسية بجزيرة الروضة باعتبارها واحدة من رياض الجنة.

أصل اسم دار السلام الحقيقي "دير الطين". غير أن السكان المهاجرين من فقر الصعيد (في النصف الثاني من القرن العشرين) أعادوا تسمية المكان في الدوائر الحكومية، وتم توثيق ذلك على الخرائط الحديثة ليصبح "دار السلام"، هروبًا من وصمة "الطين". (527)

منذ منتصف القرن العشرين، أخذت "دار السلام" تنكر أي صلة لها بالماضي البيئي، وألصقت نفسها بالازدحام والتكدس السكاني والانفجار السكاني، واختفى الطين من وجودها، فلم تعد بها زراعة ولا محاصيل ولا قمح ولا شعير ولا خضراوات ولا بساطين.

المهاجرون المعدمون الذي جاءوا من الصعيد الأوسط هربًا من بقايا الإقطاع والعوز - لم يكونوا هم المسؤولون عن تحويل "دير الطين" إلى "دار السلام"، فحين وفدوا أثناء عهد عبد الناصر، سكنوا أطراف المنطقة الهضبية، ولم تمتد أيديهم إلى الأرض الزراعية، بل استحوذوا على المنطقة سكان أكثر قدرة على شراء الشقق والعمارات استغلالًا للموقع الملاصق للمعادي وكورنيش النيل.

"دار السلام" اليوم قطعة مكدسة بالبشر تعكس بدقة الانفجار السكاني بكل مشكلاته وأمراضه، بعد اختفاء الأرض الزراعية، وردم ترعة الخشاب قبل أكثر من أربعة عقود. ويعلوها الآن طريق وحيد غارق في عوادم السيارات يصلها بالمعادي جنوبًا ومصر العتيقة شمالاً.

يحدد علماء الجغرافيا والبيئة مرحلة من التغيرات البيئية يسمونها "غير قابل للاسترداد"، أي أن محو السكان وهدم العمارات واستعادة "دير الطين" لتصبح أرضًا خصبة منتجة للغذاء صار أمرًا مستحيلًا اليوم.

كانت البداية الحقيقية لانتشار هذه العشوائيات الكثيفة السكان حينما واجهت مصر أزمت متلاحقة إسكانيًا مع عزوف أصحاب رؤوس الأموال عن بناء المساكن بسبب القوانين الحكومية بتحديد سقف إيجارية، ثم انتشار ما يُعرف بظاهرة تملك المساكن في أعقاب ذلك، كما أن بناء السد العالي أدى إلى تزايد الجزر النائية فيما يعرف بطرح النيل.

لم تعرف مصر نظام تملك الشقق إلا في بداية السبعينيات عندما توقف أصحاب العقارات عن البناء بغرض التأجير نظرًا لتخفيض الإيجارات بقرارات حكومية في الستينيات. وأصبح التأجير نشاطًا عقاريًا خاسرًا واضطرت الدولة فيما بعد إلى التفاوض عن نظام تملك الشقق حتى يستمر القطاع الخاص في البناء. كانت فكرة امتلاك عقار غير سائدة لدى المصريين إلا في حالة امتلاك بيت أو قفلا أو عمارة أو أجزاء منها. وحكى الكاتب محمود عوض أنه كان من أوائل الذين اشتروا شقة تملك في مصر عام ١٩٧١، وكانت شقة على النيل بجوار كوبري الجامعة بسعر إجمالي يقرب من خمسة آلاف جنيه وكان وقتها مبلغًا كبيرًا. ويقول عوض إنه حكى الأمر لأهله ومعارفه في بلدته في الريف، لكنهم لم يستوعبوا ما حدث من غرابة ما سمعوه، وقالوا له إنهم باعوا له الهواء.

اجتذب هذا الوضع المأزوم تجمعات بشرية للهجرة من أطراف المدن إلى هذه الجزر، ليقيموا عليها بيوتًا وأكوأًا بدائية، خاصة في محافظة القاهرة وحولها في أحياء: الفسطاط وحلوان وإمبابة وعين الصيرة، بل داخل المقابر بمجرى العيون والبساتين أيضًا. امتد ذلك إلى الإسمايلية وبورسعيد والإسكندرية وأسيوط وغيرها من المدن الجاذبة بالمحافظات المختلفة. وتدهورت أوضاع هذه التجمعات التي كانت في تخطيطها تقوم على معيشة جماعية مشتركة وذات طبيعة متدنية.

تتباين التقديرات في أعداد العشوائيات ما بين مصدر وآخر، ويرجع هذا التفاوت إلى عدم وجود طريقة سليمة للحصر، والاختلاف في تعريف الظاهرة، حيث لا يوجد تعريف موحد متفق عليه بين جميع الجهات التي تعمل في مجال دعم وتطوير العشوائيات. بعض الجهات في مجال دعم العشوائيات وتطويرها تقوم بحصر العشوائيات انطلاقاً من أنها المناطق التي يتم فيها البناء بدون ترخيص، إلا أن هناك عشوائيات تتوطن في المناطق غير المعدة أصلاً للسكن مثل: المقابر، وأحواش المساجد والأماكن الأثرية.

وفي الوقت الذي تعلن فيه بيانات وزارة الإسكان أن عدد سكان العشوائيات بلغ نحو ٨ ملايين مواطن موزعين على ٤٩٧ منطقة على مستوى الجمهورية، يؤكد تقرير آخر لمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار أن عدد العشوائيات في مصر بلغ نحو ١٠٣٤ منطقة عشوائية. من جانب آخر، تقول وزارة التنمية المحلية إن عدد هذه المناطق يصل إلى ١١٥٠ منطقة، ويقدرها الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء بنحو ١٢٢١ منطقة تتوزع على ٢٤ محافظة (528).

ويشير التقرير السنوي لصندوق الأمم المتحدة للسكان لعام ٢٠٠٨ إلى أن أكثر من ١٥.٥ مليون مواطن يسكنون المناطق العشوائية، أي ما يقرب من ٢٠٪ من إجمالي سكان الجمهورية.

في محافظة القاهرة وحدها توجد ١١٢ منطقة عشوائية يقطنها ٤ ملايين مواطن على مساحة ٥٠٨٣ فداناً بأحياء العاصمة البالغ عددها ٣٨ حيّاً، منها ٢٤ منطقة تمثل خطورة درجة أولى مهددة للحياة يعيش بها ٢٦ ألفاً ٥٠٠ أسرة، بالإضافة إلى ٢٨ منطقة تمثل خطورة من الدرجة الثانية "سكن غير ملائم"، و١١ منطقة مهددة للصحة كوجودهم تحت تيار الضغط العالي أو في أماكن بها نسبة تلوث عالية، أو مياه شرب غير نقية، فضلاً عن ٤٩ منطقة عشوائية غير مخططة (529).

وتتمثل أبرز المناطق غير الآمنة في محافظة القاهرة في: الدويقة، وعزبة الهجانة، وحكر السكاكيني، وتل العقارب، وعزبة خير الله، وبطن البقرة، وعزبة وهبة، وحكر قشوقش، ومحمد علي، وعزبة أبو حشيش، وعزبة بخيت، ومنشأة ناصر، وقايتباي، وبرقوق، والسيدة زينب، والموادي، وعزبة أبو قرن (530).

يعد سكن المقابر من الظواهر التي تنفرد بها مدينة القاهرة، ووفقاً لتقديرات الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء لعام ٢٠٠٨، يقطن نحو ١.٥ مليون نسمة (531) في مقابر الإمام الشافعي، والإمام الليثي، والتونسي، والقادرية، والسادات، والأباجية، والسيدة نفيسة، وباب النصر، وباب الوزير، والمجاورين، وبرقوق، والغفير، والقرافة الشرعية.

وتؤوي المقابر ثلاثة أنماط من السكان (532): أصحاب المهن المرتبطة بالمقابر مثل "الترابية" والخبزاء، ومن يستأجرون هذه الأحواش والأفنية بمقابل، وأخيراً الهاربين من العدالة أو المنحرفين كتجار المخدرات ومتعاطيها.

ولأنها العاصمة، فإن القاهرة كانت عنوان التغيير وعلامته الواضحة أو الفاضحة؛ إذ أخذت تنمو بأسرع مما ينمو أهلها، ثم اكتهلت قبل أن يكتهلوا، قبل أن تظهر عليها الغضون والتجاعيد. أصبحت القاهرة قرية كبيرة بامتياز. تغير وجه المدينة التي شهد لها ابن خلدون بأن عمرانها وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين والتي قال فيها ابن موكل إنها "كانت ذات أسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنزهات خضرة". زحف التغيير على القاهرة لتواجه انفجاراً سكانياً يلقي بمئات الآلاف من أبنائها إلى مقابرهم وهم أحياء، ويلقي بمئات آلاف آخرين إلى مساكن لا يكاد يدخلها ماء ولا هواء، ولا يحكمها ضابط ولا قانون ولا نظام (533).

شهدت القاهرة، شأنها شأن مصر، زيادة كبيرة في عدد سكانها. فقد زاد هؤلاء من نحو ٢٠٠ ألف في عام ١٨٠٠ إلى ٦٠٠ ألف في عام ١٩٠٠، إلى ٢.٤ مليون في عام ١٩٥٠، إلى ٥.٧ مليون في عام ١٩٧٠، إلى ٨.٨ مليون في عام ١٩٨٠. معنى هذا أن سكان المدينة تضاعفوا ١٥ مرة في القرن العشرين مقارنة بتضاعف سكان الريف مرتين وسكان الحضر أربع مرات (534).

أخذ المجتمع المصري يغذي القاهرة بموجات من القادمين الجدد، حتى أصبح عدد سكانها يمثل نحو رُبع إجمالي سكان مصر، ومع تزايد سكان القاهرة زادت الأعباء على المرافق والخدمات العامة، ووقعت أزمات مختلفة من نقص في السلع الغذائية والمياه، وواجه كثيرون مشكلة إيجاد مسكن مناسب، خاصة في ظل تركيز أنشطة البناء على خدمة احتياجات القادرين والأغنياء بالدرجة الأولى، وهو ما جعل المزيد من الفقراء ومحدودي الدخل باتجاه سكنى المدافن والمباني المتهالكة والمناطق العشوائية (535).

لم يأت زحف الريف مفاجئاً، بل ربما من تفاجأ به هو المسؤول عما حدث للريف من تجريف نتيجة الإهمال والتهميش وعدم الاهتمام وسياسات التركيز على المدن وخاصة الكبيرة منها أو العواصم.

كانت أحزمة البؤس هي أول الزحف الريفي ولم يكثر لها أحد، فراح الجميع للتركيز على عمق أو قلب المدينة الذي هو حكرٌ على الأثرياء والمرفهين وبعض آخر ممن تبقى من أبناء الطبقات الوسطى، والطبقتان لا ثالث لهما، إما الثراء الفاحش أو الفقر المدقع.

هكذا خيّر كثيرون ممن كانوا من سكان قلب المدينة أيضاً وأجبروا على الزحف للأطراف الفقيرة أو الأحياء المهملة بحثاً عن مسكن لم تطله سياسات الانفتاح أو بعض من سياسات تلك المؤسسات الكبرى التي ما إن تدخل بلداً حتى تنتسج ديونه الخارجية ويفقر شعبه فيما تزداد شريحة بسيطة من السكان ثراء فثراء فثراء.

ما يبدو من سيرورة عمران القاهرة يؤكد أن قادة ثورة يوليو لم يكن لديهم تصوّر عن الحراك الديموغرافي الذي ستقوده حركة تصنيع كبرى تركزت في القاهرة، فنشأت العشوائيات، بل قادت الدولة نفسها هذه العشوائية في شبرا الخيمة عندما وسّعت المصانع الصغيرة بعد تأميمها وأنشأت غيرها، فأفسدت منطقة زراعية ضخمة، صارت مع الوقت إفساداً لمحافظة القليوبية الزراعية كلها. الدمار ذاته لحق بمنتجع حلوان الصحي بإنشاء مصنع الحديد والصلب والصناعات الأخرى في المنطقة ونشأت حولها مساكن العمال المخططة منها والعشوائية (536).

مع الزيادة السكانية والتوسع في البناء، نشأت عشوائيات تفتقر إلى المرافق والخدمات الأساسية، كما تنقصه خدمات اجتماعية وثقافية تخلق لُحمة بين سكان هذه المناطق، التي ظلت بالنسبة لأهلها مجرد ثكنات للمبيت.

في عام ١٩٦٤ كان عدد سكان مدينة القاهرة نحو ثلاثة ملايين نسمة. وتوقعت الدولة أن يصل عدد سكان العاصمة عام ٢٠٠٠ إلى عشرين مليون نسمة. وبدلاً من بذل الجهود لتنمية الريف لوقف الهجرة إلى العاصمة مع ضبط معدلات المواليد، تعاملت الدولة مع هذه الزيادة المتوقعة كقدرٍ لا يُغني عنه حذر. ولجأ الرئيس أنور السادات إلى بيوت خبرة فرنسية لحل هذه المشكلة فاقترحت إنشاء طريق دائري خارج القاهرة تحيط به تجمعات سكنية ينقل إليها سكان العشوائيات. وتم تقسيم العشوائيات إلى مجموعات، على أن تنشأ تجمعات على الطريق الدائري، ويسكن كل تجمع حوالي ٢٥٠ ألف نسمة. وأسندت عمليات إنشاء التجمعات فعلاً إلى شركات القطاعين العام والخاص.

ولكن كما يحدث دائماً، تغيّر الوزير، وجاء وزير جديد فأوقف المشروع التنموي الطموح بحجة عدم وجود موارد مالية. وبدأ في بيع أراضي التجمعات للأقارب والمحاسيب والشركات التي استغلت نزوع الوزير للفساد أسوأ استغلال. استجوب البرلمان الوزير وصدرت بإدائته أحكام القضاء.

وشهد العقد الأخير من حكم الرئيس حسني مبارك حدة كبيرة في حالة الانشطار في نسيج مدينة القاهرة، تمثل بوضوح في الدعم الذي تمتعت به شركات الإنشاءات المحلية والأجنبية لبناء مجتمعات "مُسورة" في ضواحي القاهرة، إذ سمحت الحكومة بنقل ملكية الأراضي الصحراوية إلى الملكية الخاصة بأسعار منخفضة، وشجعت الرأسماليين على بناء مشروعات مربحة على هذه الأراضي، ودعمتهم عبر إنشاء الكباري والطرق وباقي أشكال البنية التحتية في وقتٍ قياسي على نفقة الدولة. وأسهمت أنظمة الأمن والحراسة الخاصة في هذه المجتمعات المعزولة في إغراء قطاع من الأسر على الالتحاق بهذا النمط السكني.

وهكذا تحولت تجمعات الطريق الدائري التي عُرفت فيما بعد باسم "القاهرة الجديدة" من وسيلة ناجحة لحل تشوهات العاصمة وتوفير سكن ملائم لفقائها إلى منتجعات للأثرياء، يبنون بيوتهم على الطرازات الأوروبية والعالمية. اكتشف الأثرياء أن موقع التجمعات متميز يرتفع عن سطح البحر بحوالي ١٨٠ متراً، ويتمتع بطقس نقي معتدل بعيداً عن تلوث القاهرة. فكيف يتركونه للفقراء الذين لا تناسبهم إلا حياة الضنك. ودخلت بعض شركات الاستثمار العقاري الكبرى في مجال المنافسة والإفساد لتحقيق الكسب السريع. وتكونت رأسمالية المحاسيب، كما أشار إلى ذلك محمود عبد الفضيل(537).

وفي الوقت الذي كان فيه الأغنياء يجتهدون للحد من قدرة الفقراء على النفاد لمناطقهم، كانوا يُدفعون دفعاً، بفعل السياسات النيوليبرالية التي تبنتها الحكومة المصرية، إلى تلك المجتمعات المسوّرة حديثة البناء، الأمر الذي قاد هذه الطبقة الثرية إلى التناهي في حالة العزلة "الجسدية"(538).

تلقت الأحياء الحديثة في القاهرة الجديدة دعماً كبيراً من الرئيس مبارك وحكوماته المتعاقبة، وصفوة رجال الأعمال، وقيادات الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم في عهده. فعلى سبيل المثال، زار مبارك في عام ٢٠٠٣ مدينة الرحاب "كأول تجمع إسكاني متكامل ينشئه القطاع الخاص"(539). ويشير مستوى تشكيل وحجم الوفد الذي رافق مبارك وقتئذ إلى مدى الأهمية التي شكّلها المشروع وما يرمز له بالنسبة للدولة؛ إذ ضم عاطف عبيد رئيس مجلس الوزراء، والمشير حسين طنطاوي وزير الدفاع والإنتاج الحربي، وصفوت الشريف وزير الإعلام، وحسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم، وحبيب العادلي وزير الداخلية، وحسن خضر وزير التموين والتجارة الداخلية، وعوض تاج الدين وزير الصحة وعبد الرحيم شحاتة محافظ القاهرة.

والحقيقة أنه في أواخر الستينيات بدأت فترة التوسع الحضري السريع التي حوّلت القاهرة تحويلاً تاماً، بظهور طبقة وسطى جديدة تضم عدداً كبيراً من الميسورين، انصب اهتمامهم على التملك في المناطق الحضرية. ومع أن بعض هؤلاء كان من الشباب المثقف والمتعلم فإن معظمهم كان من المهنيين والموظفين والعاملين في دول النفط العربية.

مع مطلع سبعينيات القرن العشرين، لم تعد المدينة مدينة ولم تتقدم القرية خطوة واحدة إلى الأمام.. فقد صارت القرية طاردة لأبنائها. وضاعت المدينة بساكنيها -القدامى والوافدين- فصاروا عبئاً عليها.. وكان لا بدّ من حل أو منفذ.. فهناك سكانٌ يتزايدون، وأفواه مفتوحة يتعين سد جوعها.

المفارقة أن مصر شهدت منذ عقد السبعينيات انتشار ظاهرة (السكان بدون مساكن- المساكن بدون سكان)(540)، فقد أدرك الأثرياء والميسورون أن الأزمة مرشحة للاستمرار فلجأوا إلى شراء عدة شقق تحسباً للمستقبل لزواج الأبناء (وربما الأحفاد). وهكذا انتشرت ظاهرة حياة شقق كثيرة إيجاراً وتمليكاً للأسرة الواحدة. مع استمرار هذه الأوضاع الغريبة، أدرك بعض المستثمرين وأصحاب الأموال في غياب القانون أن تشييد عمارة من دون إتمامها، أفضل من إيداع ثمنها في البنوك، نظراً لارتفاع المستمر في أسعار مواد البناء وغيرها(541).

وإذا كانت هناك الكثير من المساكن المعروضة التي تبحث لفترة طويلة عن ساكن لديه القدرة المالية على شرائها أو استئجارها، فإن ظاهرة "خلو الرجل" والتركيز على التملك والشقق المفروشة والإيجارات المرتفعة، تسببت في التضييق على أصحاب الدخول المتوسطة والمحدودة، لتنتشر ظاهرة سكني القبور، فضلاً عن سكان الخيام والمساكن الخسبية المؤقتة والحافلات المهجورة والمساجد ومتشردى الأرصفة وسكان مدن الصفيح.

أسهمت السياسات الإسكانية الخاطئة منذ خمسينيات القرن العشرين في تفاقم الأزمة، فقد أنشأت الحكومة مساكن شعبية بكلفة مرتفعة تفوق قدرة محدودي الدخل، في حين أدى قانون تحديد إيجارات المساكن إلى تحول الأفراد عن الاستثمار في بناء المساكن للتأجير، وانتقل نشاط القطاع

الخاص إلى بناء شقق للتملك بأسعار مرتفعة و"خلو رجل". ونتيجة لخلق سوق العقارات وركوده، انتشر قطاع المساكن العشوائية انتشاراً كبيراً (542)، ليشكل ما يقارب ٧٥٪ - ٨٠٪ من مجموع الوحدات السكنية في القاهرة بعد عام ١٩٧٦ وحتى منتصف الثمانينيات (543).

"السكن المؤقت" كان هو الحل. وسرعان ما تحولت "مساحات السكن المؤقت": الخالية من المرافق والخدمات، إلى مناطق سكن دائمة عُرفت بـ"العشوائيات". تمت سرقة الكهرباء من هنا أو هناك، ونقل المياه بطرق عدة. ورويداً ورويداً أخذت المدن تتحول إلى امتدادات لهذه العشوائيات، وضاعت الحدود بين القرية والمدينة، وذابت الملامح المميزة لكل منهما.

والحال أن جوهر مشكلة القاهرة لا يكمن فقط في ازدهارها وقبحها وعشوائيتها التي صارت أخطر من العشوائيات المتكاثرة داخلها وحولها، بل يعود قبل ذلك إلى أنها باتت تفتقد أهم مقومات المدينة في العالم الذي نعيش فيه الآن، بخلاف ما كانت عليه عند إعادة تخطيطها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

فقد استقبلت في العقود الأخيرة موجات هجرة متوالية ومتزايدة من الأرياف ضاعفت عدد سكانها عدة مرات، وجعلتها إحدى أكثر مدن العالم ازدهاراً وعشوائية. ولكن هذا لم يكن إلا نتيجة اختلالات هيكلية في السياسات الاقتصادية والاجتماعية، سواء من حيث مركزيتها المفرطة، أو من زاوية تهديم الزراعة والاستهانة بالقطاعات الإنتاجية عمومًا، فضلاً عن الآثار المترتبة على انخياز هذه السياسات منذ سبعينيات القرن العشرين للفئات الاجتماعية الأكثر ثراءً (544).

وكان إفقار الريف أحد أخطر ما ترتب على هذه السياسات، خاصة في غياب المرافق والخدمات الأساسية -أو تدني مستواها في أحسن الأحوال- في المناطق الريفية. على سبيل المثال، يسجل تعداد السكان لعام ١٩٧٦ أنه من بين ٣.٧ مليون أسرة ريفية، لا توجد سوى نسبة ١٤٪ فقط تملك توصيلات مياه في منازلهم، وليس لدى ٣٦٪ أي فرصة للحصول على المياه النقية للشرب. أما نسبة الـ ٥٠٪ الباقية فتعتمد في الحصول على المياه على مصدر جماعي في القرية. وكما يوضح التعداد المذكور فإن ١٨.٦٪ فقط هم الذين لديهم إضاءة كهربائية في منازلهم (545).

وبالتالي لم يعد أمام عدد متزايد من شباب الريف سوى النزوح إلى القاهرة كل عام بحثاً عن أي عمل. أسهم ذلك في زيادة العشوائيات بشكل أو بآخر، وزاد من قبح العاصمة في المحصلة النهائية. وحين نستقري تعداد سكان مصر عام ١٩٩٦، فإن التقديرات تذهب إلى أن مجموع سكان العشوائيات في القاهرة الكبرى بلغ نحو أربعة ملايين إنسان، أي أنهم شكلوا نحو ربع سكان القاهرة الكبرى (546).

ضاقَت القاهرة رغم اتساعها، ليس لأنها تحولت إلى جراج كبير ولا لأنها فقدت هندستها القديمة، وعاشت هندسة انتقالية باتجاه مجهول يتجول في أحشاء مكتظة وعشوائيات سرطانية.

جنون القاهرة اللذيذ والحياة في فوضاها باستمتاع، تحوُّلاً إلى مواجهة مع محاولات الفوضى القبيحة وانفلات الرغبات المتوحشة متوازياً مع "تكريس" القائم بعد تنظيفه أو تجميله.

شهدت الأعوام بين ١٩٩٣ و ٢٠١٥ برنامجين قوميين لتطوير ما يسمى بـ"العشوائيات"، وأكثر من ثلاثة برامج للإسكان المدعم، وقيام الحكومة بتأسيس أكثر من خمسة أجهزة مختلفة معنية بالإسكان والتنمية العمرانية، بخلاف المليارات من الإنفاق العام الذي تم توجيهه لبرامج هذه الأجهزة. رغم هذا، تحتج مجتمعات كاملة على حالة المرافق وارتفاع أسعار السكن، وتشتكي الأجهزة الحكومية من تعديات البناء على الأراضي الزراعية، وانتشار العقارات المخالفة، ويهول الإعلام من خطورة سكان القبور والعشوائيات.

استحوذت القاهرة على أكبر قدر من الهجرة الداخلية (547)، وقد نقل المهاجرون عدداً من الأشكال الحضارية إلى أحياء تكاد أن تقتصر على مهاجرين من إقليم معين أو محافظة معينة، وبذلك أخذت مناطق كثيرة من القاهرة "تتريّف"، أي تُظهر في مساكنها ومحلاتها التجارية وملابس

وتصرفات سكانها اليومية سمات حياة القرية الريفية داخل المدينة(548).

تغيّر وجه القاهرة الكبرى مجدداً، مع ظهور تحديات مختلفة مع هذا الامتداد الكبير من جهة، والتكدس في مناطق وأحياء بعينها، من جهة أخرى.

القاهرة السينمائية: تجايد مدينة

تبدو العلاقة بين المدينة والسينما قوية. ربما تكون صور المدينة وأصواتها الموجودة في الأفلام هي التجربة الوحيدة التي سيحظى بها الكثير من الناس حول مدن قد لا يزورونها أبداً. تؤثر الأفلام على الطريقة التي نبنى بها صور العالم.

السينما وليدة الحداثة والمدينة، شقيقة الكهرباء والقطار والسيارة والهاتف وقاعات الترفيه والشوارع المنسقة والجسور الخرسانية والمباني السكنية متعددة الطوابق والسكان.

والمدينة هي موضوع السينما الرئيس والمفضل. قد تكون مظاهر الحياة اليومية، وقد تكون مدينة خيالية مستقبلية. قد تكون نشأة المدينة، كما في نوع أفلام "الويسترن"، أو فساد وانحلال المدينة، كما في نوع أفلام "الفيلم نوار" البوليسية.

حتى في فن "الكوميكس" لا يمكن تخيل أبطالها الخارقين دون مدنهم ذات الطبيعة الخاصة: "متروبوليس" سوبرمان النهارية، و"جوثام" باتمان الليلية مثلاً.

مهما كان الفيلم "خيالياً"، يظل فضاء المدينة التي تدور فيها الأحداث هي شاغله الرئيس، ومهما كان الفيلم "واقعيًا" تظل المدينة هي صورة خيالية في أذهان صناع الفيلم، تختلف عن الواقع بدرجة أو أخرى.

تنشغل الدراسات السينمائية الحديثة بصور المدينة في السينما لأسباب عدة، قد يكون منها الطابع التوثيقي الكامن في أي فيلم أو صورة يلتقطان الواقع، خاصة إذا كان الفيلم مصوراً بالفعل في شوارع المدينة ومعالمها ومبانيها. ولكن الغرض الغالب في هذه الدراسات هو معرفة تصور صناع العمل بشكل خاص، والمجتمع الذي صدر فيه العمل بشكل عام، عن المدينة خلال زمن صنع الفيلم وصدوره للعرض. المدينة، في الأول والآخر، ليست سوى صورة ذهنية عنها، تتحدد وفقاً لموقف الرائي منها، وظروفه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية داخل هذه المدينة.

كانت مدينة القاهرة وما زالت هي الموقع الأساسي الذي تدور فيه معظم أفلام السينما المصرية، ليس فقط لأنها العاصمة والمدينة ذات العدد الأكبر من السكان، ولكن أيضاً لمركزيتها الشديدة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، حتى أن المصريين خارج القاهرة يطلقون عليها اسم "مصر"، كأنها هي الدولة وهم خارجها.

ثمة أفلام وثقت ملامح القاهرة عبر الزمن.

مع ذلك، ومقارنة بعدد الأفلام التي تدور في القاهرة، والذي يصل لبضعة آلاف، فإن شوارع ومعالم ومباني القاهرة لم تظهر في هذه الأفلام بدرجة تتناسب مع وجودها الدرامي؛ نظراً لأن معظم الأفلام كانت تصور داخل الاستديوهات والشقق أو القصور المغلقة، ويعود ذلك غالباً لأسباب تقنية منها صعوبة التصوير الخارجي خاصة في الأماكن العامة، والضجيج والزحام اللذان تنسم بهما المدينة، وأحياناً لأسباب رقابية أو أمنية. وفي معظم الأوقات كان صناع الأفلام يعتمدون على بعض اللقطات العامة العابرة لتصوير بعض اللقطات في الشارع لإعطاء الشعور بالمكان والواقع.

إن القاهرة السينمائية تمثل الحداثة الحضرية المصرية من أشرطة السينما إلى الواقع، مما يُقدّم تاريخاً للحداثة الحضرية في العاصمة المصرية باستخدام الفيلم كمصدر أساسي للاستكشاف، والفضاء السينمائي كأداة تحليلية ووسيلة للنقد.

قدّمت القاهرة مادة غنية لصناعة السينما في مصر منذ بداية هذا النوع من الفن في نهاية القرن التاسع عشر. توفر المدينة المتخيلة والمدرّكة والمختبرة-المجال المكاني الذي يعكس التغيير ويسمح باستجواب المدينة "الحقيقية" أثناء مواجهتها للحداثة على مدار قرن من الزمان.

لقد ظهرت أفلام وثائقية وقصيرة وطويلة في مصر منذ مطلع القرن العشرين، ولكن من الملحوظ أنه لم يتم تصوير أي من هذه الأفلام فعلياً في ساحات القاهرة وأحيائها حتى الثلاثينيات من القرن العشرين(549).

من أبرز الأفلام في تلك الفترة، التي من المفترض أنها صوّرت في أحد أحياء القاهرة، فيلما "ياقوت" (١٩٣٣) و"الوردة البيضاء" (١٩٣٤). تناول كلا الفيلمين موضوع رجال من الطبقة الوسطى يجدون أنفسهم في علاقات مع نساء من الطبقات العليا؛ مما يضطرهم إلى التكيف مع وضعهم الجديد بانضمامهم إلى الطبقة البرجوازية الجديدة، وتُظهر الأفلام التناقض بين حداثة الجزء الغربي الجديد من المدينة وبين الأحياء الشعبية الأكثر تقليدية في شرق القاهرة.

ففي فيلم "الوردة البيضاء" نرى كيف تحتوي الأحياء القديمة على شوارع ضيقة وشقق صغيرة في حين يحتوي الجزء الغربي على فيلات بها غرف واسعة وحدائق تحوي منحوتات وجداريات ومساحات مخصصة للموسيقى والترفيه على النمط الأوروبي. تم تصوير معظم فيلم "ياقوت" بشكل أساسي في الاستوديو، ومع ذلك، فإن مشاهد القاهرة في الفيلم ركزت على الأحياء القديمة حيث يعيش بطل الرواية فظهرت الشوارع ضيقة ومكتظة بالناس والباعة الجائلين، إلى جانب الكثير من الأنشطة التي تُعبر عن الاختلاط الاجتماعي في الحي، وكان الفيلم يحاول انتقاد الحداثة ويحتفي باستمرار التقاليد(550).

يوضح الفيلمان كيف أسهمت الحداثة في تغيير شخصية الطبقة الوسطى ومكانتها الاجتماعية وكشف الصراع بين من يطمح إلى التحديث ومن يرفضه، كما يبين كيف خلقت الحداثة فرصاً للحراك الاجتماعي لبعض أبناء الطبقة الوسطى، مما صنع طبقة برجوازية جديدة، ولكن الفيلمين يؤكدان أن هذا يتحقق عادةً من خلال الشراكة مع صفوة الطبقة العليا(551).

في عام ١٩٣٩، عُرضَ فيلم "العزيمة" للمخرج كمال سليم، بعدما رفضت شركة ستديو مصر اسمه الأول "في الحارة"، والذي كان أول عمل تقريباً يخرج عن النطاق المألوف للأعمال السينمائية وقتها المشغولة في الغالب بتصوير حياة القصور وقصص الأثرياء والأمرء، فيما لم يظهر المهمشين إلا بصورة محدودة حال تطلّبت الصورة الدرامية ذلك، لكن ليس كموضوع حقيقي للتناول أو جزء أساسي من الحكاية(552).

بعد فيلم "حياة أو موت" (إخراج كمال الشيخ، ١٩٥٤) وثيقة تاريخية لقاهرة الخمسينيات. ولعل في إمكاننا القول إن صورة مدينة القاهرة تكاد في الفيلم أن تكون شخصيته الرئيسية.

إنه رحلة في القاهرة، خصوصاً في منطقة مصر القديمة وشارع قصر العيني والعتبة وميدان التحرير وكورنيش جاردن سيتي، بشوارعها وناسها وحكاياتها التي لا تنتهي.

يبدأ الفيلم من شارع دير النحاس (دار النحاس) في مصر القديمة، وتتابع رحلة الطفلة التي تبحث عن دواء لأبيها في شوارع القاهرة وعمارها في تلك الفترة، وتزرع كاميرا كمال الشيخ الشوارع ومناطق كثيرة من القاهرة، وتتابع عبر خط الترام (٣٠) مغامرة الطفلة مع الدواء، في قصيدة حُب بصرية لتلك المدينة.

أظهر الفيلم عدداً من الشوارع المصرية التي لم تظهر في السينما أو التلفزيون سوى في هذا الفيلم.

ويسلط فيلما "لو كنت غني" (١٩٤٢) و"العزيمة" (١٩٥٦) الضوء على تحول المجتمع القاهري إلى الحداثة في وقت تغير سياسي وطني كبير في فترة الأربعينيات والخمسينيات. يُظهر الفيلمان العلاقة بين الزمالة، حي الأثرياء وبولاقي، حي العمال والفقراء، ويُبين الفرق بين حداثة الحقبة الملكية وحداثة الثورة التي أدت إلى إعلان مصر جمهورية في عام ١٩٥٤. يصوّر الفيلمان كوبري أبو العلا على أنه رابط مادي وفاصل اجتماعي يسمح للعائلات الفقيرة العبور إلى الحي الثري عندما ينصب من المال أو العلاقات.

ولربما يكون فيلم "ثُرثرة فوق النيل" (١٩٧١) أحسن ما يُعبّر عن حالة القاهرة في ستينيات القرن العشرين عندما كانت مصر تسمى الجمهورية العربية المتحدة. يُعبّر الفيلم عن حالة المدينة كما صوّرها نحيب محفوظ في الرواية التي أخرجها للسينما حسين كمال، و يلتقط الفيلم حالة مزاجية حزينة في المدينة بعد هزيمة مصر في حرب عام ١٩٦٧، ويصوّر المشاعر والتفاعلات بين مجموعة من الأشخاص من مختلف الطبقات والأحياء الذين يلتقون في عوامة للتسلية لتعاطي المخدرات في ظل العصر الاشتراكي. ويقدم الفيلم بعض أشكال الحداثة القاهرية في تلك الفترة من العلاقات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، واختلاط الجنسين وحالة عدم المبالاة كما يراها ويرويها "أنيس" (عماد حمدي) الموظف الساخط المخدّر فاقد الأمل، الذي يقطع شوارع المدينة وهو يحدث نفسه ويفلسف حالتها بوصف الأفعال التي أدت إلى تدهورها. يتركنا الفيلم منزعجين من حالة القاهرة الحديثة وقيم مجتمعتها في نهاية الستينيات (553)، وسط تساؤلات عن المصير والمآلات.

يمثل المهمشون فئات مختلفة تتنوّع وتتدرّج بعيداً عن الوجود الاجتماعي الفاعل استفادةً وتأثيراً. إنهم سواقات الطبقات بتعبير سمير فريد، في ١٩٩٢، ممن يعيشون خارج الطبقات والمهن والمؤسسات، بما يضعهم في قاع السلم الاجتماعي وفقاً لمعايير التفاوت الرأسي، أو على أقصى درجات الطيف وفقاً لمعايير التمايز الأفقي، وقد تتقاطع المواقع بين نوعي المعايير في بعض الحالات لتنتج أقصى حالات التهميش، كأمني صعيدي مُعاق أو أرملة مسيحية فقيرة وما شابه.

لكن يظل جوهر التهميش هو الوجود خارج العملية الإنتاجية للمجتمع، كونها تمثل الأساس النهائي لوجوده، ثم تعمّق معايير التفاوت الأخرى درجة التهميش وأبرز أشكال التهميش الأخرى في مصر هو أولاً التهميش الجغرافي، ما بين القاهرة وبقية الأقاليم بدرجة أولى، ثم ما بين شمال القاهرة والصعيد بدرجة ثانية، وثانياً التهميش السوسيوثقافي للريف مقابل الحضر بشكل عام، لكن يظل التهميش السوسيو اقتصادي هو قلب كل أشكال التهميش، أما المفارقة، المنطقية مع ذلك، فهي أن أبرز تجسّدات ذلك التهميش في مصر توجد في القاهرة نفسها (554).

فنفس منطق التهميش الاقتصادي والجغرافي والسوسيوثقافي يدفع بحافل المهشين من الأطراف إلى المركز أملاً في فرص حياة أفضل، فعندما لم تجد تلك الجحافل فرصاً كافية بالقطاعات الإنتاجية في الحضر؛ لتتكدّس على أطرافه في عشوائيات وصلت بها لحوالي ٣٨.٦٪ من إجمالي الكتلة العمرانية بالجمهورية وينسب ١٢.٥٪ منها بالإسكندرية و١٢٪ منها بالقاهرة عام ٢٠١٦، فيما اختصّت القاهرة وحدها بحوالي ٣٣٪ من سكان العشوائيات على مستوى الجمهورية (555).

بطبيعة الحال تطوّرت صورة المهشين في السينما بالتزامن مع تطوّرات الواقع الاجتماعي، فبعد مرحلة التحييد العمدي التي تزامنت جزئياً مع محدودية نسبة العشوائيات نفسها -بمعايير ومعايير الزمن بالطبع- أوائل القرن العشرين قبل مرحلة التحضر الرثّ اللاحقة، بدأ المهمشون بالظهور المتدرج في الدراما السينمائية وإن بنسبة محدودة كمياً وهامشية كميّاً من جهة عدم حضورهم كأبطال أو شخصيات رئيسية مؤثرة في الحكاية والأحداث، بل وعدم وجود أي تمايز واضح بينهم وبين الفقراء بصفة عامة (556).

ومع تفاقم الأوضاع الاجتماعية أواخر عهد الملكية، بدأ يظهر خطاب تخديري تعويضي مُوجه للفقراء عموماً عن شرور الثروة ومتاعب حياة الأغنياء بهومها ومؤامراتها، مقابل "جشمة الفقر" وبساطة وراحة بال حياة الفقراء وتوادهم وتراحمهم فيما بينهم، تزاوج معه خطاب خلاص فردي يقوم أساساً على إمكانية تحقيق الأحلام بصدف الحظ والكرم الإلهي، فضلاً عن مداعبة سموهم الأخلاقي وفحولتهم الجنسية ليحقّقوا بالوهم ويستعوضوا بلحظات التخيل الدرامي عما يعجزون عنه في الواقع الحياتي.

ثم جاءت ثورة يوليو ومرحلة الاشتراكية، لتظهر موجة تمجيد الفقراء وقيم الإنتاج التي تجاهلت المهشين إلى حد ما؛ كونهم ليسوا من كتلة الشعب العامل، والأهم لما تضمّنه خطاب خلاصها من مطامح ووعود انفتاح آفاق الاندماج الاقتصادي المنتج والصعود الاجتماعي لجميع فئات الشعب؛ ومن ثم عدم وجود مهشين من أساسه.

وقد تبدو صورة القاهرة في تلك المرحلة مثالية وحالة، كما نرى في فيلم "الوسادة الخالية" (١٩٥٧) الذي تظهر فيه مصر الجديدة أو هليوبوليس في خمسينيات القرن العشرين كواحة في الصحراء وضاحية منعزلة قليلة الكثافة السكانية ذات مساكن جميلة وفراغات خضراء كبيرة. ويمكن مقارنة الصورة بعد ٥٠ عامًا؛ إذ تظهر الضاحية نفسها في عدة أفلام مثل "أرض الأحلام" (١٩٩٥)، و"في شقة مصر الجديدة" (٢٠٠٧)، و"هليوبوليس" (٢٠١٠) بوصفها مجرد حي قاهري عادي متدهور عمرانيًا مع بداية القرن الحادي والعشرين.

فقط مع صدمات الانفتاح والإصلاح الاقتصادي؛ وما نتج عنها من تدهور اقتصادي واجتماعي لأغلب طبقات الشَّعْبة، بدأ ظهور المهمشين بوضوح كبير كمًّا وكيفًا في السينما المصرية، أولًا من خلال اتجاه الواقعية الجديدة اليساري المتعاطف معهم، ثم لاحقًا من خلال السينما التقليدية والتجارية المستمرة معنا إلى اليوم بمجموعة من القوالب السلبية في الغالب.

ويُلاحظ في هذه المرحلة خفوت صوت وظهور الطبقة الوسطى والبورجوازية الصغيرة نسبيًا، لصالح بروز استقطاب درامي موازٍ لاستقطاب الواقع الاجتماعي ما بين طبقة الأثرياء المُمثلة دومًا تقريبًا بأكبر من نسبتها في المجتمع، وطبقات وشرائح الفقراء والمهمشين، المُقدمة عادةً في سياق التقاطع مع نقيضها المذكور آنفًا، والمُختزلة والمُشوَّهة عادةً في ثنائية العُزَّ والجريمة.

ومن التحولات الاجتماعية والديموغرافية الأخرى التي نراها في القاهرة السينمائية، حالة الحراك الاجتماعي المتغير في تاريخ مصر الذي يكشف عن الفجوة بين الطبقات الاجتماعية في القاهرة الحديثة ويغيّر شكل المسكن التقليدي من الحارة إلى العمارة. يتضح هذا عندما نقارن بين فيلمين يختلفان تمامًا عن بعضهما بعضًا ويفصل بينهما أربعة عقود، وهما "شارع الحب" و"عمارة يعقوبيان"، حيث توضح المقارنة حالة التغير والاستمرارية في المعاني والقيم الثقافية وتبرز التناقض بين التطلع اليوتوبي للحارة التي ما زالت مقيدة ببعض التقاليد التي تحافظ على النسيج الاجتماعي من ناحية، والواقع البائس للعمارة التي فقدت هويتها من الناحية الأخرى. إن العمارة هنا صورة مصغرة لما حدث للقاهرة بأكملها من ظهور الأنشطة التجارية غير الرسمية وغير القانونية والمساكن العشوائية، ولكن داخل الهيكل الرسمي القديم للعلاقات الاجتماعية في مصر وحتى في شكل عمرانها كما ظهرت على سطح العمارة القديمة التي تجسّد هيئة القاهرة المادية (557).

وخلافًا لليأس الرومانسي الذي غلب على أفلام الواقعية الجديدة منذ السبعينيات إلى التسعينيات، بإنكاره الغالب لإمكان الخلاص الفردي ورفضه لمنطق السوق الذي استحضره الانفتاح وعمّقه (الحريف ١٩٨٤)، أحلام هند وكاميليا ١٩٨٨، مستر كاراتيه ١٩٩٣، يوم مرّ ويوم حلو ١٩٨٨، الكيت كات ١٩٩١، سارق الفرح ١٩٩٤ وغيرها)، مالت أفلام السينما التقليدية والتجارية منذ الثمانينيات لتقديم خطاب خلاص يستبطن السردية الرأسمالية بتأكيده دومًا على الفردانية والموهبة كروافع صعود اجتماعي أو ينتهي باقتناع الأبطال بلا جدوى النجاح وزيفه بمنطلقات رومانسية ما قبل رأسمالية (كابوريا ١٩٩٠، آيس كريم في جليم ١٩٩٢، أمريكا شيكا بيكا ١٩٩٣، حرب الفراولة ١٩٩٤، قشر البندق ١٩٩٥ وغيرها) (558).

في "آيس كريم في جليم" صوّر لنا المخرج خيري بشارة ومدير التصوير طارق التلمساني ملامح الحياة في القاهرة التسعينيات، بالكافتريات والأطعمة، مع بداية انتشار مطاعم الوجبات السريعة، ونوادي الفيديو والفنادق، وحتى موديلات السيارات والأتوبيسات وإشارات المرور والإعلانات.

أما "عفاريت الأسفلت" (١٩٩٦) فهو يدور حول سائقي الميكروباصات التي تجوب القاهرة بحلول منتصف التسعينيات وتهيمن على وسائل النقل نتيجة انهيار منظومة النقل العام الحكومي. يقودنا الفيلم إلى أحياء نائية في جو ضبابي غير واضح المعالم؛ مما يعطي الانطباع أن سائقي الميكروباصات يسبرون عبر عالم غير واقعي، يعكس انفصالهم عن القاهرة؛ إذ يعيشون في واقع موازٍ خيالي مستلهم من القاهرة العشوائية (559)، بكل ما يعنيه هذا النموذج من عنف وزحام.

يبدأ فيلم "خرج ولم يعد" بالعبارة التالية مكتوبة على الشاشة: "ربما كانت الشخصيات من الخيال، ولكن ثِق أن الأماكن من الواقع". عبارة تصلح لوصف كثير من أفلام موجة "الواقعية الجديدة" في الثمانينيات التي أعادت تحديد مفهوم المكان في السينما المصرية، وتلخص علاقة معظم مخرجي

هذه الموجة بالمكان، وتحديدًا علاقتهم بمدينة القاهرة في تحولاتها السريعة والمخيفة بداية من الستينيات وصولاً إلى الألفية الجديدة مروراً بعنق زجاجة الثمانينيات.

شهدت الثمانينيات أكبر انقلاب في علاقة السينما المصرية بالمدينة على يد جيل جديد من المخرجين أطلق على أعمالهم "الواقعية الجديدة"، وهو مصطلح أطلق في نهاية الأربعينيات على جيل من صناع الأفلام الإيطاليين الذين خرجوا بكاميراتهم إلى شوارع المدن التي هدمتها الحرب العالمية الثانية. ومثل "الواقعية الجديدة الإيطالية" كان أبرز ما في موجة الواقعية الجديدة في مصر هو شجاعة صناعتها في الخروج إلى الشوارع وسط الناس لتصوير أبطالهم داخل الأماكن العامة التي يعرفها ويعيش فيها المشاهد، وكان من أبرز هؤلاء محمد خان وعاطف الطيب وخيري بشارة، بجانب أعمال متناثرة لآخرين، وكان لهذا الخروج إلى قلب المدينة أثر بالغ في تغيير مصير وشكل السينما المصرية حتى الآن (560).

ولكن على عكس ما توحي به عبارة "خرج ولم يعد" الافتتاحية، يصعب أن نتعامل مع المكان في السينما، مهما بلغت درجة واقعيته، باعتباره "واقعاً"، فهو مثل أي عنصر فني آخر يمثل هذا الواقع وفقاً لرؤية صانع، أو صناع العمل، وبالتالي يمكن أن نلاحظ أن أعمال هؤلاء المخرجين ترسم صوراً مختلفة للقاهرة، وإن كانت تكمل بعضها بعضاً بشكل ما، كما أن صورتهم عن المدينة تختلف بالتأكيد عن صورتها في عيون أجيال أسبق أو أحدث من السينمائيين (561).

كانت البداية مع محمد خان وفيلم "ضربة شمس" (١٩٨٠) الذي افتتح موجة "الواقعية الجديدة" وعقد الثمانينيات، وهو العمل الأول لمخرجه العائد من إنحلترا بعد رحلة دراسة وتنقيف طويلة فكر فيها أن يهاجر ولكنه عاد مدفوعاً بارتباطه الشديد بذكراته القاهرية، وبعد عدة مشروعات لم تتم تحمس النجم نور الشريف للعب بطولة وإنتاج "ضربة شمس" (المقتبس بتصرف من فيلم "تكبير الصورة" لأنطونيوني، أحد أعلام موجة "الواقعية الجديدة" في إيطاليا).

من اللقطة الأولى، التي تتبدى فيها معالم القاهرة الثمانينيات بعدسة المصور الفوتوغرافي شمس (نور الشريف) غير واضحة المعالم، تدور أغلب مشاهد "ضربة شمس" في شوارع القاهرة، ويستطيع خان مع مدير التصوير سعيد الشيمي، أن يطوِّع تضاريسها، سواء كانت جسراً للسيارات أو المشاة، أو مترو، أو تلافيف شوارع وسط البلد، ليصنع صورة حية وغير مسبقة للقاهرة.

وثقت كاميرا محمد خان الحياة اليومية للمصريين، وبحرفية شديدة رأينا لقطات بزوايا مختلفة لوسط البلد وشوارعها، بالإضافة لتوثيق نمط الحياة نفسه مثل التصوير في النقابات والكافيتريات، وغيرها من الأماكن التي زارها المصور (شمس) الذي أدى دوره نور الشريف على ظهر الموتوسيكل الذي يقوده.

يواصل محمد خان في أفلامه التالية، خاصة "موعد على العشاء"، "طائر على الطريق"، "الحريف"، "عودة مواطن"، "أحلام هند وكاميليا"، "سوبرماركت"، "يوم حار جداً"، "فارس المدينة"، "كليفتي"، "بنات وسط البلد"، "في شقة مصر الجديدة" و"فتاة المصنع"، مشروعه الفني الكبير في رصد معالم القاهرة وتحولاتها المدهشة منذ بداية الثمانينيات وحتى منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، مثلما لم يفعل أي مخرج آخر في تاريخ السينما المصرية (562).

المدينة في أعمال محمد خان ليست مجرد خلفية للأحداث أو تحديد للمكان والزمان الذي تعيش فيه الشخصيات، ولكنها من الأهمية بحيث يمكن تصوُّر أنها البطل الفعلي للقصة، كما يصعب تصور أن تدور القصة في مكان آخر، وكاميرا محمد خان تهتم برصد ملامح المكان وتحولاته ككائن حي، ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في الأعمال سابقة الذكر. لا يمكن تخيُّل "الحريف" مثلاً دون الساحات الشعبية ولا لقطات عادل إمام خارج حصار المباني القديمة وسطح المبنى المطل على ميدان التحرير الذي يسكنه والجسور التي تعلوه كأنما هي مسوخ عملاقة تحيط به. كذلك يصعب أن

تتخيل "أحلام هند وكاميليا" دون هذه البيوت الشعبية والمناطق ووسائل المواصلات المزدحمة التي يعيشون فيها. ويذكر مدير التصوير سعيد شيمي في مناسبات وكتب عدة حكايات عن التصوير في هذه الأماكن وكيف كان يصر محمد خان عليها رغم أي معوقات(563).

ويروي شيمي أن محمد خان كان يحرص قبل تصوير كل فيلم من أفلامه على النزول للشارع لمعايشة الدراما والحالة التي يعبر عنها في الفيلم. ومن الأمثلة على ذلك حين أخرج فيلم "الحريف" عام ١٩٨٣، صوّره في حي بولاق، ليجسّد عن قرب وواقعية مشاهد حياة سكان الحي وحياتهم اليومية.

ويروي محمد خان في كتابه "مخرج على الطريق" عن إصراره على تصوير مشهد كامل ومعقد في مطعم قريب من سينما "مترو" خلال تصوير فيلم "ضربة شمس"، بالرغم من إبداء منتج الفيلم (نور الشريف) استعداده لبناء نفس المقهى في الاستوديو: "قلت لا. سأصور هناك، حيث كنت أذهب وأتناول العشاء مع والدي ونذهب إلى السينما، لقد عني ذلك شيئاً مهم بالنسبة لي (...) أنا أحب المدينة، لقد وُلدت ونشأت في وسط المدينة، وأحب أن أصور في الأماكن التي أتذكرها، أو التي كنت قد زرتها!".

في "شقة مصر الجديدة" (٢٠٠٧) يحكي محمد خان عن معاناة مدرسة موسيقى من المنيا في أول زيارة لها في القاهرة. نتابع رحلة بطلة الفيلم (غادة عادل) لدى وصولها إلى محطة مصر قادمة من المنيا، وانتقالها إلى مصر الجديدة، يصحبنا محمد خان في رحلة ممتعة وسط شوارع القاهرة، ترصد التغيير الذي حدث، في الناس والعمران، وسلوكيات البشر وطريقة نظرتهم لأنفسهم وللحياة.

عقب ظهور فيلم "ضربة شمس"، أخرج عاطف الطيب فيلمه الأول "سواق الأتوبيس" (١٩٨٢)، مستعيناً بمدير التصوير سعيد شيمي عن سيناريو لبشير الديك ومحمد خان، وإذا كان "ضربة شمس" قد دشّن معالجة جيل مخرجي الثمانينيات المختلفة للمدينة باعتبارها شريكاً وبتلاً للعمل، وليس زائدة تجميلية أو إخبارية، فإن "سواق الأتوبيس" دشّن الارتباط بين الخروج للشارع والتصوير في الأماكن الطبيعية للأحداث وبين المعالجة "الواقعية" للدراما. وأبرز معالم هذه "الواقعية" تتمثل في حكي قصص بسيطة تخلو من الميلودراما والمبالغات العاطفية، عن "أبطال" ليسوا أبطالاً من خارجي القوة المنتصرين دوماً، بل أقرب للمواطنين العاديين، المهزومين والمهمشين.

يبدأ "ضربة شمس" ببطله على ظهر دراجة بخارية تخترق شوارع القاهرة، ويرصد رحلة ليلية يخوض فيها البطل صراعات شرسة ضد مجرمين محترفين في فيلم ينتمي لنوع "الأكشن". أما "سواق الأتوبيس" فيبدأ ببطله (نور الشريف أيضاً) سائقاً لحافلة مواصلات عامة نهراً، وسائقاً لسيارة أجرة خاصة ليلاً، يقضي نهاراته ولياليه المملة خائضاً وسط زحام المدينة ومشكلات مواطنيها الكادحين المحبطين. ويربط الفيلم بين مشكلة بطله حسن الذي تطالبه أسرته عقب مرض والده وهو صاحب ورشة أن يبيع الورشة، وبين مشكلات ملايين المصريين الذين يعانون من وطأة الانفتاح الاقتصادي وارتفاع الأسعار وصعود طبقة التجار والعائدين من الخليج.

ويروي سعيد شيمي كيف أصر الطيب على التصوير في حي بولاق الدكرور، مقتنعاً بأن ذلك سيجعل الممثلين أكثر إحساساً بالمكان وصدقاً في التعبير. وهو ما تكرر في أفلام لاحقة تدور بعض مشاهدنا في قلب وقاع القاهرة.

بعد محمد خان، لا يوجد مخرج مصري انشغل بتصوير شوارع القاهرة مثل عاطف الطيب، ومن أبرز أفلامه التي تمثل فيها معالم القاهرة دوراً أساسياً "التخشيب"، "ملف في الآداب"، "الحُب فوق هضبة الهرم"، "ليلة ساخنة"، ويمكن ملاحظة بعض أوجه الشبه في أفلامهما مثل إصرارهما على التصوير في الأماكن الشعبية ومثل استخدام بطل يعمل سائقاً على الطريق، ولكن يمكن أيضاً ملاحظة فارق كبير بين القاهرة كما يراها محمد خان والقاهرة كما يراها عاطف الطيب.

محمد خان ابن المدينة، تسري في دمه، ويعيشها. حتى عندما حاول أن يخرج من أسرها في فيلم "خرج ولم يعد" (١٩٨٤) الذي يدور حول رجل (يحيى الفخراني) يسافر إلى الريف لبيع قطعة أرض ورثها فيقع في حُب الريف ويقرر البقاء فيه، إلا أن الفيلم رغم جماله، يحمل قدراً من

الرومانسية لا يتفق مع الواقعية الخشنة التي تتسم بها أعمال مخرجي "الواقعية الجديدة" عادة، ويبدو بين أعمال محمد خان كما لو كان محطة استراحة وهروب مؤقتة من أسر المدينة.

أبطال محمد خان قاهريون، أولاد بلد، يعافرون مع المدينة ويعرفون، غالبًا، كيف يتحايلون عليها وسرقة سعادتهم.

في أعمال عاطف الطيب، النازح من الصعيد، يمكن ملاحظة الشعور بالقلق وعدم الراحة تجاه القاهرة، ونوعًا من الموقف القيمي الأخلاقي الذي يتخذه القادمون من الريف غالبًا تجاه المدينة المتحررة، القاسية إنسانيًا. وأبطال عاطف الطيب يبدون محاصرين داخل المدينة ومحكوم عليهم بالسقوط، كما لو كانوا يعيشون في إحدى مدن كافكا.

في "سواق الأنوبيس" تبوء كل محاولات حسن لمواجهة المدينة الخائفة بالفشل، فينقلب في المشهد الأخير إلى العنف مفرغًا كل إحباطه وغضبه ضد "نشال" أتوبيسات صغير.

في "الحُب فوق هضبة الهرم"، ١٩٨٦، المقتبس عن رواية نحيب محفوظ، لا يستطيع شابان متحابان متزوجان حديثًا أن يختليا خلوة شرعية داخل مدينة مكتظة بالملايين يبدو أنها لم يعد يشغلها سوى ملاحقة وعقاب الشابين على ذنب لم يرتكباه.

في "الهروب"، ١٩٩١، يتجلى موقف عاطف الطيب من ثنائية المدينة/الريف، فيبطله "منتصر" (أحمد زكي) الشاب القادم من الريف، يتعرض، مثل بطل "اللس والكلاب" لنحيب محفوظ، لسلسلة من الخيانات والمؤامرات تؤدي به إلى السجن وفقدان زوجته، ورغم كل براعته فإنه يبدو مثل فأر محاصر داخل مصيدة. حتى عندما يهرب يحدث ذلك تحت عين الشرطة التي ترغب في صناعة حدث يهتم به الناس للتشويش على أحداث سياسية. ولا يشعر "منتصر" بالحرية أو الدعة والراحة إلا عندما يعود إلى بلدته في الصعيد، مستلقيًا تحت فروع الأشجار، مراقبًا الصقر المحلق في السماء، قبل أن تصل المدينة إليه لتطبق عليه الخناق مرة أخرى.

في "ليلة ساخنة" (١٩٩٥)، يحكي عاطف الطيب عن ليلة الكريسماس، من منظور سائق تاكسي -نور الشريف- الذي يحاول جمع كلفة دخول حماته للمستشفى حتى تخضع لجراحة خطيرة، وتتقاطع المصائر مع لبلبة في أفضل أدوارها السينمائية.

يوثق الفيلم لشوارع القاهرة ليلاً، من المستشفيات إلى أقسام الشرطة، مرورًا بالمقاهي والبيوت والشوارع.

المخرج الثالث، من مخرجي "الواقعية الجديدة" في الثمانينيات، الذي اهتم بالمكان والمدينة كشخصية رئيسية في أعماله هو خيرى بشار.

ومثل محمد خان والطيب بدأ بشار مسيرته السينمائية بصنع قصيدة في وصف القاهرة تتمثل في فيلمه "العوامة ٧٠"، ١٩٨٢، الذي تتجسد فيه بعض من ملامح "الواقعية الجديدة" مثل البطل المقهور والتصوير في الأماكن الطبيعية للأحداث والاهتمام بوضع الشخصيات داخل الحيز المكاني الذي يعبر عنها داخل المدينة، سواء كانت أماكن فقيرة قبيحة أو فاخرة جميلة. ولكن "واقعية" خان تتمثل في عنصر آخر لم يهتم به أقرانه، وهو الرصد الوثائقي للشوارع والمواطنين العاديين، في ولع ملحوظ يبدو أنه استقاه من عمله بمجال السينما الوثائقية لأعوام طويلة قبل أن ينتقل إلى الأفلام الروائية.

ولا يكاد يخلو فيلم من أفلام بشار من بعض هذه اللقطات الوثائقية التي تتداخل مع السرد الروائي، دون حتى أن يكون لها وظيفة درامية مباشرة. وليس من الغريب في أعمال خيرى بشار أن تنتقل الكاميرا فجأة من ملاحقة الشخصيات الرئيسية في الشارع لتلتقط مجموعة من الصبية فوق عربة يجرها حمار، أو لنسوة عجائز يبعن الخضراوات، أو لمجموعة من الفتيات يختلن مرحًا أمام مدرستهن. وهذه اللقطات التي قد تبدو مقحمة إنما تعبّر عن روح الدراما وتكملها، مثلما تفعل الموسيقى التصويرية على شريط الصوت. وعلى عكس محمد خان الذي يهتم بمعمار المدينة يبدو خيرى لا مبالياً بالمعمار ولكن اهتمامه ينصبُّ على برصد سكان المدينة أنفسهم في حركتهم اليومية داخل الشوارع.

يمكن ملاحظة هذا التوظيف البارز للقطات الوثائقية في أعمال مثل "يوم مر يوم حلو"، ١٩٨٨، (الذي تخرج فيه "فاتن حمامة" إلى شوارع وأسواق شبرا المزدحمة وسط الناس العاديين ربما للمرة الأولى والأخيرة في حياتها)، ثم في "كابوريا" و"آيس كريم في جليم"، "أمريكا شيكا بيكا"، "قشر البندق" و"إشارة مرور"، التي قدّمتها خلال النصف الأول من التسعينيات، وبدا فيها متمردًا حتى على مفهوم "الواقعية الجديدة" نفسه، حيث راح يمزج بين الفانتازيا والوثائقية بلعب ما بعد حداثي مميز.

يستمتع خيرى بشارة بتصوير الأماكن الثرية الأنيقة في القاهرة مثلما يستمتع بتصوير أزقتها المتربة البائسة، ويبدو عاشقًا متيمًا بالمدينة في الحالتين. وفي المرة الوحيدة التي خرج فيها إلى الريف الجنوبي لجسد رواية يحبى الطاهر عبد الله في "الطوق والأسورة" لا يبدو رومانسيًا تجاه الريف كما فعل محمد خان، ولا مستريحًا ومسترخيًا كما فعل عاطف الطيب، ولكنه يبدو مختنقًا محاصرًا بتقاليد الريف وبؤسه الشديدين وراغبًا في تحطيمه والعودة إلى حرية ورفاهة المدينة.

بعد ذبول وابتذال تيمة الصعود الاجتماعي عبر مجالات الشهرة من فن ورياضة التي سادت كثيرًا في التسعينيات، أصبحت الجريمة المسار الأكثر بروزًا في الإنتاج السينمائي اللاحق؛ ربما في اعتراف ضمني بكونه الأكثر واقعية وسرعة في مجتمع راكد ضاقت قنوات جراكه الاجتماعي.

وبالطبع، لم تكن الدولة بعيدة يومًا عن التأثير في السينما، سواءً من خلال الإنتاج العام والرقابة المباشرة أو عبر سيطرتها غير المباشرة على قنوات وشركات ومنافذ التوزيع؛ لهذا نحد صدًى واضحًا لحاجات الاستقرار والهيمنة المعنية بها، مُجسّدة في الخطاب التخديري التعويضي الحاضر دومًا بدرجات مختلفة، ومعه الاستثمار الدائم في حيكات الجريمة والبلطجة لإرهاب الطبقة الوسطى حال ضعفت القبضة الأمنية للدولة بأي شكل، والذي يتكامل معه الاستثمار الإعلاني، خصوصًا في إعلانات العقارات، بالوعد بتقديم درجات أعلى من الأمان والخصوصية وراء أسوار مغلقة في كومباوندات بعيدة عن العشوائيات والأحياء الشعبية.

لا عجب أن أصبح البلطجي هامشي سينما الألفية المُفضّل، كما ظهر في "إبراهيم الأبيض" ٢٠٠٩ وسلسلة أفلام محمد رمضان "عبد موتة" (٢٠١٢)، و"الألماني" (٢٠١٢)، و"قلب الأسد" (٢٠١٣) وغيرها؛ فبعيدًا عن كونه جزء أصيل وشكل مصري خالص من توليفة الإثارة والأكشن الجاذبة لجمهور زادت نسبة المراهقين به، هو يمثل استثمارًا فنيًا مفيدًا للدولة ورأس المال معًا.

كانت إحدى نتائج الأعمال التجارية ما يمكن وصفه دون أية مبالغة بأنها سينما قاهرية أكثر منها مصرية، وإذا حضرت الأقاليم الأخرى في الصورة، حتى أكبرها وأكثرها حضرية، فإنها تحضر -مرة أخرى- بأنماط مُعلبة كثيرًا ما لا تكون لها أية صلة بواقعها الحاضر، الأمر الذي يعكس استسهال المؤلف والمخرج القاهريين إعادة إنتاج أنماط فولكلورية محفوظة.

بل يصل الأمر أحيانًا لمستوى أقرب للاستشراق، حيث يؤدي احتكار إنتاج الأعمال -الناتج عن نزعتي المركزية والإقليمية سالفتي الذكر- داخل دوائر ضيقة من المؤلفين والمخرجين، لا تشمل معارفهم وتجاربهم الخاصة بطبيعة الحال كافة قطاعات وجغرافيات البلد؛ إلى التعامل معها بنوع من التعليب الاختزالي؛ باستسهال اللجوء لصور مُنتجة عن أعمال سابقة، كثيرًا ما تكون هي نفسها منفصلة عن الواقع، وكثيرٌ منها ليس سوى صورًا نمطية أقرب للاستشراق.

ولعله من الضروري الإشارة إلى القاهرة السينمائية التي تظهر في مجموعة من الأفلام المستوحاة من مجموعة روايات نحيب محفوظ وتُعبّر عن فترة الثلاثينيات والأربعينيات كما صوّرها نحيب محفوظ في الثلاثية، التي تضمنت "بين القصرين" (١٩٦٤)، و"قصر الشوق" (١٩٦٧)، و"السكرية" (١٩٦٩). تُظهر الأفلام المذكورة التي أخرجها حسن الإمام تحولات القاهرة عمرانيًا واجتماعيًا في النصف الأول من القرن العشرين، كما أنها تصف حياة عائلة تاجر من الطبقة المتوسطة وتُصوّر بعض تفاصيل حياة المدينة القديمة، بما في ذلك التجارة والترفيه في ظل الحكم الاستعماري وبدايات النضال من أجل نيل الاستقلال.

تُزودنا هذه الأفلام بوثيقة تاريخية للمدينة السينمائية كما تصوّرها صانعو العمل، خصوصاً وأن الكثير من معالم المدينة التاريخية القديمة تظهر جلياً في الأفلام الثلاثة(564). تلتقط هذه الأفلام لحظة تغيير في المدينة القديمة في أوائل القرن العشرين، خصوصاً في بيوت عائلات التجار الكبار -مثل منزل السيد أحمد عبد الجواد (يحيى شاهين)، البطل الرئيسي في الفيلم الأول، حيث تظهر أفكار الاستقلال وسطوة التقاليد والدكتاتورية الذكورية كأهم مظاهر النصف الأول من القرن العشرين. يمكن أيضاً رصد الوضع المتغير للمرأة في المجتمع القاهري عند مقارنة المرأة في الفيلم الأول "بين القصرين" بوضعها في الفيلم الثالث "السكرية" وتغيير بعض التقاليد التي تحكم وجودها في فراغات المدينة(565).

في "زقاق المدق" و"القاهرة ٣٠" تظهر القاهرة السينمائية في عهد الملكية كمدينة مؤسسات وإن كانت مدينة فاسدة، يسكنها الكُتّاب والمثقفون ويحكمها الباشوات والأثرياء وذوو السلطة، وفي الفيلم الأول بيع "حميدة" (شادية) جسدها بعد أن جرفها التطلع إلى حياة أفضل مادياً، في حين تقبل "إحسان" (سعاد حسني) في "القاهرة ٣٠" أن تبيع نفسها للبasha الوزير تحت ضغط الفقر والعوز. يتكامل الفيلمان مع "ثرثرة فوق النيل"، الذي يعرض لنا القاهرة بوصفها مدينة بائسة ومهزومة في أواخر الستينيات، يبيع فيها الكل نفسه من أجل بعض المتع والملاذات العابرة.

وقد يُجسّد تصوير القاهرة في الأفلام الثلاثة الأخيرة انزعاج نحيب محفوظ من عدم قدرة المدينة على التكيف مع الحداثة بسبب عناد بعض سكانها في محاولتهم الحفاظ على عادات تقاليد راسخة، ورغبة جزء منهم في التمرد على هذه التقاليد.

وتحت عنوان "وسط مدينة القاهرة في مملكة الظلال ١٩٥٢ - ٢٠١٦"، تحدّث د. مجيب الرحمن عامر الأستاذ بمدرسة العمارة العليا في غرونوبل بفرنسا في سيمينار نظمته شبكة "آمون" للباحثين في السينما والأدب. تناولت المحاضرة التي تعد جزءاً من رسالة الدكتوراه لمجيب الرحمن، تاريخ منطقة وسط البلد بالقاهرة في الفترة من عام ١٨٦٩ حتى عام ١٩٧٣، من خلال ظهورها في الأفلام السينمائية.

ويبرهن صاحب كتاب "تجليات مدرج ٣٠٠٢"، على أهمية استخدام العمل الخيالي ومنه السينمائي، في محاولة إثبات فهم طابع المدينة، من خلال أداة جديدة مختلفة عن الكتب والخرائط والوثائق المعتادة في الأبحاث وهي "خيال المدينة".

السمات الأساسية لتحليل الأفلام في الدراسة هي (الإحباط - الحيرة - الانفجار السكاني - النوستالجيا أو الحنين للماضي). وقدمها من خلال خمسة أفلام، "باب الحديد" عن الإحباط، و"أرض الأحلام" و"حمام الملاطيلي" عن الحيرة، و"الحريف" عن الإحباط، و"عمارة يعقوبيان" عن الانفجار السكاني، وأخيراً "آخر أيام المدينة" إنتاج عام ٢٠١٦ للحنين إلى الماضي(566).

استعان د. مجيب الرحمن خلال الدراسة بهذه الأعمال في تحليل الأفلام الروائية الخمسة، باستخدام أدوات وهي (سنة الإنتاج - المحتوى - أحداث الفيلم - السيناريو - اللهجات - التقنيات المستخدمة - حركة الكاميرا - تصنيف الفيلم - طرز العمارة - وسائل المواصلات - التماثيل - تصرفات الناس - الفراغ العمراني - الإنتاج العام والخاص).

ويقول عن الفيلم الأول للدراسة إنتاج عام ١٩٥٨: "نرى في فيلم "باب الحديد" عالم الباعة والنشالين من خلال البطل "قناوي" المصاب بمشكلة عقلية. وأوضاع أحلامه في سبيل الحب الأفلاطوني لـ"هنومة" التي تحب شخصاً آخر. وكسر الفيلم حركات غير تقليدية للعمال والحركة النسوية. كذلك الحركة السريعة لفتح وسط المدينة لعدد كبير من المسافرين. ويتضح أيضاً أصوات المسافرين وأصوات القطارات والناس والفراغ الهائل لمحطة مصر واللهجات مثل لهجة قناوي الصعيدية".

أما السمة الثانية وهي الحيرة والإحباط تناولها من خلال فيلم "حمام الملاطيلي". ويقول عنها: "تظهر المدينة كأنها كائن ضخم. ويتضح ذلك في بعض الكادرات مثل تصوير كادر من بعيد لمحمد العربي وهو يعبر ميدان طلعت حرب مع حالة من الحركة العشوائية. ويتضح بالفيلم شرور المدينة والسرقة والتسول ومخالفة كل القواعد؛ إذ تبدو المدينة هنا خرج السيطرة. وهي الفترة بين حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣".

وبضيف: "تظهر المدينة متشحة بالسواد والفوضى، والكاميرا تتسلق المباني التي شهدت عصر عبدالناصر. ويظهر في مشهد ميدان التحرير البشر كأنهم نمل على حد وصف ألبير قيصري في إحدى أعماله".

وعن الفيلم الثالث وهو "الحريف" تتسم المدينة بالانفتاح والانفجار. ويبدأ الفيلم بمقطع شعري بالعامية المصرية، وهي بداية غير تقليدية تجسد سلوكيات وحالة جديدة للمدينة. ويقول: "يبدو من البداية أن للناس الحرية في أن يفعل كل شخص ما يشاء". ويشير الباحث إلى أن السينما والعمارة تعد لغة مشتركة. والسينما المصرية استطاعت بالفعل تقديم أعمال يرى فيها المشاهد منطقة "وسط البلد" بعين أخرى تحدد الحياة القاهرة في كل وقت.

يبقى القول إن أفلام القاهرة السينمائية حاولت التطرق إلى حال المرأة وقضاياها، ففي أفلام مثل "القلب له أحكام" (١٩٥٦) و"أنا حرة" (١٩٥٩) و"مراتي مدير عام" (١٩٦٦) ثمة تركيز على الثورة على التقاليد وتحليل لتأثيرات الحداثة على العلاقات الاجتماعية. أما فيلما "خلطة فوزية" (٢٠٠٩) و"يوم للستات" (٢٠١٦) فإنهما يُلقيان الضوء على الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمرأة العاملة في الأحياء الشعبية المهمشة والمناطق العشوائية، في حين يوضح فيلما "٦٧٨" (٢٠١٠) و"نورة" (٢٠١٦) كيف أن نساء القاهرة ما زلن يكافحن الذكورية والتحرش في الشوارع والمواصلات وأماكن العمل في كل من المدينة الحقيقية والمدينة السينمائية بعد نصف قرن من الحداثة.

التسول.. تاريخ الاستجداء في مصر

في إحدى ليالي القاهرة عام ١٦٩٥ سجَّ الفقراء والشحاذون، حول مقر حُكم الوالي إسماعيل باشا يصيحون "مُتنا من الجوع"، لكنَّ الباشا لم يُجب، فرجموا القصر بالحجارة، ثم خرجوا إلى الأسواق فنهبوا، لتبدأ مرحلة غلاء أشد وطأة، هجر على إثرها أهل القرى أراضيهم ولاذوا بالقاهرة، حتى ضاقت بهم الأزقة.

لم تكن الواقعة التي ذكرها الجبرتي في حوادث منتصف المحرم ١١٠٧ هجري (١٦٩٥ م)، جديدة، فالمشهد يتكرر مع كل أزمة مرَّ بها المصريون، خاصة في العصرين المملوكي والعثماني، لكن الجديد هذه المرة أنها رسمت تطور مقاومة الفقراء لتلك الأزمات، بدءاً من طرق أبواب الحاكم، إلى السلب والنهب، ثم العودة للحاكم مرة أخرى، الذي يختار الحل الأسهل ويأمر بتوزيع أموال بعض الأغنياء على الفقراء.

على مر العصور، ظهرت في مصر تعبيرات متنوعة للإشارة إلى من هم في قاع المجتمع. ومن هذه التعبيرات في العصر الفاطمي: (الفقراء، العياق(567)، النهابة)، وفي عصر المماليك: (قطاع الطرق، الذعارة(568)، المناسر(569)، الغوغاء، الحثالة، الأوباش، الحرافيش(570)، جراد الجعيدية(571))، وفي العصر العثماني: (أراذل الطوائف، أهل الحارات والعصب، فرق الأحياء الشعبية، الشطار(572)، الذعار، الأوباش، العيارون(573)، الشحاتون)، وفي عصر الحملة الفرنسية: (حشرات الحسينية(574)، السفلة، الأشرار)، وفي ثلاثينيات القرن العشرين، أطلق عليهم: (حثة المدن، فضلات المدن)، وفي خمسينيات القرن العشرين (الرعاغ، عيال حافيين)، وفي الستينيات من القرن الماضي: (الواغش، النمل المتوحش، وصمة).

تتعدد التعبيرات إلى الدرجة التي تدفع البعض إلى الاعتقاد أنها تشير إلى فئات مختلفة تماماً، في حين أنها تشير إلى جماعات متشابهة إلى حدٍ بعيد. هذه التعبيرات التي يكتنفها بعض الغموض، ضمت أحياناً جماعات المتسولين وغيرهم من الفقراء المعدمين والخارجين على القانون، بحيث كان التعامل معهم على أنهم وحدة واحدة. وتشكَّلت النظرة السائدة إليهم -والمرتبطة بالسلطة إلى حدٍ كبير- على أنها جماعات منبوذة وهامشية. وعلى رغم تمايز جماعة المتسولين عن غيرهم -خاصة الخارجين عن القانون- فإنهم في بعض الفترات كانوا يشاركونهم أفعالهم، أو يجنون بجوارهم بعض ثمار أفعالهم من السلب والنهب(575).

وترصد كُتُب المؤرخين حال هذه الجماعات والفئات التي دفعتها عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية متشابكة إلى امتهان التسول، واستعملتها الدولة -عبر العصور المتعاقبة- حيناً وقمعتها أحياناً، لكنها لم تستطع حل الأسباب التي تدفع إلى الشحاذة.

يبدو من الصعب الوصول للأزمة الأولى التي أفرزت الشحاذة، لكن يمكن القول إنه عادة ما ارتبط التسول والشحاذة بالأزمات الاقتصادية، ولازمت تلك الظاهرة كتابات مؤرخي العصور الوسطى عند الحديث عن الأزمات الطاحنة التي كانت تعصف بالعامية بين فترة وأخرى؛ إذ كان غياب تدخل الدولة في تخفيف حدة الفقر يعني أن عدداً من الذين لا يجدون قوت يومهم سيتجهون إلى التسول وطلب الصدقات شفاهة أو بتأدية أعمال هامشية(576).

وتضع ورقة بحثية نشرتها مجلة "الخدمة الاجتماعية" عام ٢٠١٧، تعريفاً للتسول بأنه طريقة للحصول على المال بغير عمل يستحق، واستجداء عطف الآخرين، لنيل المال بطريقة مباشرة عن طريق طلب الصدقات، أو غير مباشرة عن طريق تأدية الأعمال الهامشية، مثل مسح زجاج السيارات- بيع السلع التافهة- توزيع السور القرآنية.

بين عامي ٧٠٥ - ٧٠٦ م (٨٧ هجري)، ضرب أول غلاء مصر منذ اعتبارها جزءاً من الخلافة الإسلامية، في عصر الوالي عبد الله بن عبد الملك بن مروان، هجر الفلاحون على إثر تلك الأزمة أراضيهم إلى المدن، حسبما يذكر المقرئ في "إغاثة الأمة بكشف الغمة".

يذكر المقرئ أن الوالي أمر بوشم الفلاحين الفارين من فقر القرى، على أيديهم وجباههم، وإعادة إرسالهم إلى أماكن مختلفة، في محاولة لتدارك انتشار طالبي الصدقات في شوارع المدن، وانتهى الأمر بثورة شعبية ضد غلاء الأسعار، وهجم العامة على قصر الوالي الذي فر منهم، فهاجمه قطاع الطرق واستولوا على ما معه.

خلال العصر الأيوبي (١١٧٤-١٢٥٠م)، ظهر لأول مرة مصطلح "حرافيش"، وأُطلق على جماعة من المتطوعين لخدمة الجيش النظامي، دون أن يكونوا جزءاً أساسياً منه، وأطلق عليهم حيناً آخر "حرافيش الإسلام"، حسبما يرى محمد النجار في كتابه "حكايات الشطار والعيارين" (577).

وعندما خفت نجم الأيوبيون، خفت معه الدور القتالي للحرافيش، فانضموا إلى جموع العاطلين، واحترف جزء منهم التسول جنباً إلى جنب مع طالبي الصدقات من الدراويش.

وخلال العصر المملوكي (١٢٥٠-١٥٧١م)، تحوّل معنى "الحرافيش" ليشير إلى سفلة الناس وأراذلهم، كما يذكر رينهارت بيتر آن دوزي في "تكملة المعاجم العربية" (578)، واصفاً إياهم بالغلظة والغلظة، ويذكر محمد أحمد دهمان في "معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي" (579)، أن حرفوش هو الذي ليس له صنعة أو حرفة وهو فقير، وجمعها حرافيش وحرافشة وهم "أحط طبقات الشعب".

وبحسب بحث نشرته "الجمعية العربية لعلوم الاجتماع" عام ١٩٨٩ يرى أن لفظة الحرافيش تشير إلى عدد من السمات الثقافية منها: سرعة البديهة، وسعة الحيلة، خفة الظل، الفهولة والنفاق والشطارة، وكان مما يهباه الأجانب القادمون إلى مصر.

يعطينا المؤرخ والمحدث المشهور ابن كثير في تاريخه "البداية والنهاية" بعض الأوصاف والعادات التي اتسم بها الحرافيش حين يُورَخُ لوفاة الشيخ "العالم الماجن" (كما يصفه) علم الدين بن شكر، سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، بعد أن تحوّل من العلم إلى مجالسة الحرافيش "والتشبه بهم في اللباس والطريقة، وأكل الحشيش واستعماله" (580).

يبدو من الوصف السابق أن الحرافيش -بخلاف الزعران- ارتبطوا بالطرق الصوفية التي وجدت آنذاك، حيث سيطر التصوف على الحياة العامة في العصرين الأيوبي والمملوكي، وباتت كل طريقة تمتلك زاوية خاصة بها، وامتلكت تلك الطرق موارد مالية جيدة من الأوقاف والتبرعات والصدقات والمساعدات (581)، ويبدو أن الحرافيش كانوا الذراع العسكرية لهذه الطوائف -إن صح التوصيف- في أوقات القلاقل والفتن.

اعتماداً على وصف المؤرخين لهذه الطوائف التي انتشرت في حواضر الممالك الكبرى، وعلى رأسها القاهرة ودمشق، فقد اتسمت بما يُمكن وصفه بالخروج على القانون، وعدم التقيد بالأخلاق وآداب الدين، وترويع الأمن حين ضعفت قبضة الأمن، وجمعهم بين الفقر المدقع وانعدام المعرفة.

من اللافت أن ظاهرة الحرافيش لفتت نظر الرحالة الأشهر ابن بطوطة حين حطّ رحاله في القاهرة عام ٧٢٦هـ/١٣٢٦م، فوصفهم بأنهم "طائفة كبيرة أهل صلابة وزعارة" (582)، بما يشي بوجود الحرافيش منذ فترة الدولة المملوكية الأولى في عصر سيادة الأتراك، وفي زمن السلاطين الأقوياء مثل الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ/١٣٤١م) الذي زار ابن بطوطة مصر في زمن ولايته.

يؤكد ذلك تملُّق الحرافيش للسلطان المنصور حسام الدين لاجين (٦٩٨هـ/١٢٩٩م) حين وقع من فوق حصانه أثناء لعبه الكرة -القبق أو البولو- أسفل قلعة القاهرة، فدعوا له بالشفاء العاجل، وقد سمع المنصور لاجين أحد الحرافيش ينادي عليه بعد سقوطه قائلاً: "يا قضيب الذهب، بالله أرني يدك" (583)، ورفع السلطان يده وهو ممسك المقرعة، وحين أتم المنصور شفاؤه من تلك الكسور قرر تفريق الأموال على هؤلاء الحرافيش.

يصف تاج الدين السبكي عمل الحرافيش بأنهم اتخذوا مهنة التسول وسيلة للتكسب، كما كان السلب وسيلة أخرى من وسائلهم للعيش.

في سياق آخر، يصف تاج الدين السبكي (٧٧١هـ/١٣٧٠م) عمل الحرافيش في التسول والتسكع في الشوارع قائلاً إن "منهم من يكشف عورته ويمشي عرياناً بين الناس ويوهم أنه لا يجد ما يستر عورته" (584). أي أنهم اتخذوا مهنة التسول وسيلة للتكسب، كما كان السلب وسيلة أخرى من وسائلهم للعيش، ففي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م نُهبَت الأثقال المملوكية من قبل المغول في إحدى المعارك بين الجانبين، وكان قسم آخر قد نهبه الحرافيش والكشابة. وفي الوباء الذي وقع سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م حمل الحرافيش الجثث ودفنوها لقاء نصف درهم على أحسن الأحوال (585)، وبهذا تنوعت مصادر رزقهم ما بين تملُّق السلاطين والأمرء والتسول والأعمال اليومية التي لم تسد رمقهم واحتياجاتهم الأساسية، كما اشتهروا بالملبس البالي المرقع، وليس الخرقعة على عادة صوفية عصرهم (586).

يلفت النظر تشابه مواطن إقامة طوائف الزعران والحرافيش في مصر والشام (القاهرة ودمشق)، ويُخبرنا عدد من المؤرخين أنهم فضّلوا الإقامة بالأحياء الفقيرة التي تقع على حدود وأطراف هذه المدن. ففي القاهرة أثر الزعران والحرافيش الإقامة في ثلاثة أحياء كانت تقع على مشارف القاهرة الشمالية والجنوبية، وهي أحياء الحسينية والصليبة والجعيدية (587).

أمّا في دمشق، تركز نشاط الزعران عند منطقة "باب الصغير"، وهي منطقة عُدت آنذاك من أطراف دمشق وأحيائها النائية المرتبطة بـ"الغوطة"، وكان نشاطهم متمركزاً في منطقة "ميدان الحصى" أيضاً، وهي امتداد لمنطقة باب الصغير نحو الجنوب، كما وُجدوا في "الشاغور"، وارتبطت هذه المنطقة بباب الصغير من الجهة المقابلة لميدان الحصى. ويكشف لنا ذلك أنهم آثروا الاستقرار في المناطق النائية (588)، وهي المناطق الأشد صلة بالريف، فضلاً عن كونها مناطق بعيدة عن يد السلطات.

في الشام أصبح لكل حارة زُعُرها، وتزعم هؤلاء الزعران زعيم واحد أو أكثر في الحي ذاته، ويصفه بعض المؤرخين باسم "أزعر".

أدت تفاعلات الفقر والتهميش إلى تزايد نشاط الجريمة، وتحولت هذه المجموعات مع الزمن إلى طوائف أدركت ذاتها وفقرها، فقر الزعران حمل السلاح وتقلد الخناجر، وقد عبّروا عن ذلك الشعور بالظلمية عبر الهجوم على الأبرياء قتلاً وسلباً ونهباً (589)، أو الدخول في صراعات سياسية مع الممالك، لمصلحة فريق على حساب آخر، مقابل امتيازات مالية أو اجتماعية قُدمت إليهم. وقد صار لهم مع الوقت شيخ أو زعيم يدافع عن مصالحهم في دوامة العنف الأهلي التي لم تهدأ في زمن الممالك، لا سيما في أوقات القحط والطواعين والصراع السياسي الداخلي. وهذا يوضح لنا أن الزعران كانوا أشد عنفاً وإجراماً من الحرافيش.

ففي الشام أصبح لكل حارة زُعُرها، وتزعم هؤلاء الزعران زعيم واحد أو أكثر في الحي ذاته، ويصفه بعض المؤرخين باسم "أزعر"، وقد حصل الزعران على بعض الإتاوات مقابل خدماتهم، وغالباً ما لجأوا إلى تحصين الحارات وتحدي السلطة والتحكّم بسكان الأحياء وإرهاب الخصوم، كما امتد نهبهم إلى عمق المدينة في أسواقها حين غاب الأمن وضعفت قبضة السلطة (590).

لم تهدأ دوامة العنف الزعران والحرافيش لفترة طويلة؛ إذ دأب زعران دمشق على مهاجمة الأبرياء وسرقة أموالهم، وكثرت الشكاوى من عامة الناس والتجار إلى القضاة من هذا الخطر المستفحل الذي هدد أمن وسلامة الجميع. ففي سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥م انطلق القضاء إلى نائب السلطان في دمشق الأمير "تنكز" (ت ٧٤١هـ/١٣٤١م) مطالبين إياه بردع الزعران ومواجهتهم بالبطش وعقوبات مغلظة تصل إلى حد التعذيب (591).

ولكن رغم المحاولات المستميتة من السلطة المملوكية ونوابها لمواجهة الزعران، امتد نشاطهم الإجرامي على مساحة واسعة وبين عموم الناس وطبقاتهم، فقد وردت في بعض المصادر إشارات لتكرار حوادث سلب ونهب الحوانيت والقيساريات في دمشق سنة ٧٦٤هـ/١٣٤٥م، ما أثر سلباً على الأمن في المدينة، كما سرقوا سوق "جقق" داخل "باب الجابية"، وهاجموا حوانيت النصارى، حيث سرقوا سبعة حوانيت قماش، ثم أغاروا على سوق آخر سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م (592).

يأتي المؤرخ شمس الدين بن طولون الصالحي -الذي عاصر نهايات عصر المماليك بالشام- في تاريخه "مفاكهة الخلّان في حوادث الزمان" بوقائع كارثية، مسلطاً الضوء على جرائم هذه الفئة؛ إذ تقاتل الزعران تارة فيما بينهم على النفوذ والأسلاب كما حدث سنة ١٤٨٨هـ/١٤٨٨م حين تقتاتلوا في حارات المزابل بمنطقة الشاغور، وتارة أخرى ألحقوا الأضرار برجلات دمشق وأعيانها، مثل الشيخ "خضر بن علاء الدين المعري" الشاهد بسوقية المصلاة وزميله الشيخ "شهاب الدين بن المحجوب" اللذين تعرضا لهجوم الزعران؛ إذ روى شهاب الدين: "إنّا كنّا ذهبنا إلى الغيضة قُرب الربوة، فبينما أنا وهو إذ ولج علينا مغربيان ورجل أزعر، يقال له ابن النيات من الشاغور، فأرادوا يجرّخونني فهربتُ منهم، ولم أعلم ما فعلوا مع رفيقي خضر المذكور. فذهب أبو خضر، وجماعة أخر معه إلى الغيضة المذكورة، فوجدوه مقتولاً مذبوحاً ومضروباً" (593).

حاولت السلطات المملوكية مواجهة هذه "البطلجة" المتنامية بالردع حين أنزلت عقوبة الإعدام بأحد كبار الزعران، ويحكي ابن طولون أنه في ذي القعدة سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م "أمر النائب بضرب عنق رجل أزعر، يُعرف بابن سويدان، ضبطت عليه أمور منكرة من القتل وغيره" (594).

في مصر، يبدو أن قبضة الحكومة المملوكية كانت أشد منها في الشام، صحيح أن الحرافيش وُجدوا بكثرة، وشاركوا في الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصرهم، لكن ظهورهم وعنفهم كان غالباً في أوقات الفراغ الأمني والأوضاع الاقتصادية المتردية، مثل قلة وجود الحبوب والقمح نتيجة انخفاض النيل أو تأخر الحصاد، مثلاً حدث عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م (595) حين نهب الحرافيش الدقيق والخبز من بعض مخازن القاهرة بسبب أزمة طارئة، ووقفت السلطات أمام هذا الانفلات دون ردة فعل تُذكر.

بيد أنه في أوقات أخرى وقفت الحكومة المملوكية من هؤلاء الحرافيش موقف حزم وقوة، فكانت المناشير الصادرة تحذّر الحرافيش من استغلال الأزمة وإلا أنزلت بهم عقوبات الصلب أو التسمير على أبواب القاهرة، كما حدث في أزمة سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م؛ إذ "نودي في القاهرة ومصر بألا يتصدّق أحد على حرفوش، وأي حرفوش شحذ صُلب" (596).

رغم الانتفاضات ومظاهر القتل والسلب التي اشتهر بها الزعران والخرافيش في الشام ومصر، وما يبدو للوهلة الأولى من أنهم مجرد "عصابات" خارجة عن القانون عاشت في الأحياء المهمشة واستغلت ابتعادها عن سلطة المركز وتسَلّحت بالخناجر ومارست التسول والسرقة لسد رمقها، فإن تلك الفئات لم تكن -قط- منفصلة عن الواقع السياسي والعلاقات الداخلية بين المماليك والعامّة أو بين المماليك وطبقة العلماء.

لقد أبدى الحرافيش والزعران على الدوام رأيهم فيما يجري على الساحة إما بالقول وإما بالمشاركة العملية الخشنة، ويبدو أن المماليك اعترفوا بوجودهم على أنهم أمر واقع لا فكاك منه ما دام أنهم تقيّدوا بالقانون وحافظوا على الأمن العام، لا سيما حرافيش مصر الذين صار لهم "شيخ" أو "سلطان" لم تتواصل السلطة المملوكية الممثلة في سلطانتها وأمرائها معهم إلا من خلاله.

أتى العلامة ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) في "إنباء الغمر بأبناء العمر" على ترجمة واحد من سلاطين الحرافيش هؤلاء، وهو علي بن أبي علي الجعبيدي، المتوفى في ١٦ جمادى الأولى ٧٩٢هـ/١٣٩٠م، وقد أشاد به ابن حجر حين قال: "ولم يأت بعده في فنّه مثله" (597).

حين قرر السلطان القوي الناصر محمد بن قلاوون سجن "الأمير طشتّم"، اشتهر إحسانه بين العامة ومنهم الحرافيش، فلما عرفوا اجتمعوا أسفل قلعة الجبل في مشهد احتجاجي عارم إلى أن أخرجه.

وكذلك أعطى لنا المؤرخ جمال الدين بن تغري بردي (٨٧٤هـ/١٤٧٠م) في تاريخه الشهير "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة" لمحة عن أزمة وقعت في شوال ٨٤١هـ/١٤٣٨م حين نزل السلطان "الأشرف برسبائي" (٨٤١هـ/١٤٣٨م) من القلعة إلى بعض متنزهات القاهرة، وأمر أثناء ذلك بتفريق الصدقات على الفقراء والمعوزين، فشاركهم في ذلك دون وجه حق الحرافيش والجعبيدية (طائفة قريبة منهم كان عملها الشحاذة والتسول)، وأخذوا منهم الأموال بالغضب والتقاتل، ما أدى إلى سقوط الموظف المسؤول عن تفريق الصدقات عن فرسه، وقد روى ابن تغري بردي: "فغضب

السلطان من ذلك، وطلب سلطان الحرافيش وشيخ الطوائف وألزمهما بمنع الجعيدية من السؤال في الطرقات وألزمهم بالتكسب، وأن من يشحد منهم قُبض عليه" (598).

يبدو الاعتراف بـ"سلطان الحرافيش" دليلاً واضحاً على استيعاب حكومة الممالك لهذه المجموعات ضمن فئات "الطوائف" التي أشرف عليها محتسب أو والي القاهرة آنذاك (599)، لكن ذلك لم يمنع أن يبدي الحرافيش رأيهم في سلاطين الممالك وأمرائهم دون خوف أو وجل، وجعلوا أوقات خلافات الممالك فيما بينهم مواسم لعرض قوتهم لمن يستميلهم بالمال والجاه ويحسن من أوضاعهم البائسة، وفي بعض الأحيان كان للجانب الأخلاقي دوره في اعتزازهم بمآثر بعض الأمراء والسلاطين ورجال الحكم في عصرهم.

يبدو هذا واضحاً حين قرر السلطان القوي الناصر محمد بن قلاوون (١٣٤١هـ/١٣٤١م) سجن "الأمير طشتمر"، وكان من أكثر أمراء الممالك عطفاً على الفقراء والأيتام، واشتهر إحسانه بين العامة ومنهم الحرافيش، فلما عرفوا ما وقع من السلطان الناصر في حق هذا الأمير اجتمعوا أسفل قلعة الجبل في مشهد احتجاجي عارم. وقد شهد ابن بطوطة هذه الحادثة بنفسه حين زار القاهرة قائلاً: "وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد: يا أخرج النحس (يعنون الملك الناصر)، أخرجه؛ فأخرجه من محبسه" (600).

حين خرج السلطان "قنصوه الغوري" على رأس جيشه من القاهرة لمواجهة العثمانيين في "مرج دابق"، ضم إليه هؤلاء الحرافيش و"سلطانهم".

لم يخش هؤلاء الحرافيش من سلطان يُعد من أعظم سلاطين الممالك وأكثرهم سطوة وقوة حينذاك، وقرروا أن يُهينوه في قلعتهم وحصنه الأكبر بالسياب والشتائم، مُذكِّرين إياه بعرجته التي اشتُهر بها، ولا شك أن هذا الفعل الاحتجاجي الذي أجبر الناصر على إطلاق سراح الأمير طشتمر دليل صريح على انخراط مجموعات الهامش -مثل الحرافيش- في الحياة السياسية في ذلك العصر دفاعاً عن حقوقهم التي رأوها على الدوام مسلوقة أو منسية من قبل السلطان وحاشيته.

بل تطور وجود الحرافيش وسلطانهم في معادلة السياسة في زمن الفتنة أو المرحلة الانتقالية بين دولة الممالك البحرية والممالك البرجية، خاصة إبان صراع الأميرين "منطاش الظاهري" حاكم "ملطية" و"يلبغا الناصري" حاكم "حلب"، مع السلطان "الظاهر برقوق". فقد حلف "سلطان الحرافيش" بيمين الولاء للظاهر برقوق قبل السفر إلى الشام لمواجهة كلي من منطاش ولبغا (601). وبهذا تطور دور "سلطان الحرافيش" من مجرد شيخ لطائفة هامشية صوفية قوامها فقراء العامة ممن استغلوا الفتن والأزمات للنهب والسلب والتسول، إلى أحد الأعيان الكبار الذين أوكلت إليهم مهمات جوهرية في تلك الفترة.

ثم تطوّر منصب "سلطان الحرافيش" إلى المشاركة في الحملات العسكرية المملوكية التي انطلقت من القاهرة في ذروة الصراع المملوكي العثماني، وكان لطائفة الحرافيش حينئذ علمها الخاص وتنظيمها شبه العسكري. وحين خرج السلطان "قنصوه الغوري" على رأس جيشه من القاهرة في ربيع الآخر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م لمواجهة العثمانيين في "مرج دابق"، ضم إليه هؤلاء الحرافيش و"سلطانهم" (602).

الشاهد أن التسول لم يقتصر على مصر أو الشام، فقد ظهر في كثير من المدن والعواصم في المنطقة. ففي إسطنبول التي كانت عاصمة الدولة العثمانية، كان المتسولون في الشوارع ينقسمون إلى مجموعتين، الأولى تضم الأشخاص الذين لديهم الحق في التسول بصورة دائمة، وهؤلاء تم ضبطهم بعدد معين لا يزيد أكثر من المقرر ولا يسببون إزعاجاً للسكان، لدرجة أنهم أسسوا نقابة غير رسمية لأنفسهم وبدأوا يتسولون وفق القواعد وقانون نقابتهم، فإذا تسول أحد الأشخاص من دون الحصول على الأذونات اللازمة فيستعرض لمضايقات من المتسولين المستقرين الذين حرصوا على حماية مناطقهم مما يسمونها "الانتهاكات".

أما المجموعة الثانية فيمكن أن نطلق عليها "متسولي المواسم" غير المقيمين في المدينة، وكان شهراً محرم ورمضان من أكثر الأشهر وفرة بالنسبة إلى المتسولين في إسطنبول، وبخاصة شهر رمضان؛ إذ اعتاد "وكلاء" المتسولين على إجراء تقسيمات إقليمية من أجل "توفير العدالة"، بحيث يمنعون

المتسول نفسه من الحصول على أكثر من حصة واحدة، أو التسول في أكثر من منطقة، وكان هؤلاء الوكلاء، أي ممثلي المتسولين، من الذين قضاوا أعوامًا طويلة في التسول ولديهم خبرة في المجال، وكانوا يتلقون احترام المتسولين الآخرين.

هؤلاء الوكلاء كانت لهم مهمة أخرى، وهي السيطرة على المتسولين من خارج إسطنبول الذين يسمح لهم بالدخول إلى المدينة خلال شهر رمضان فقط وضمن خروجهم بعد عيد الفطر، وكل هذه الأمور لم تكن رسمية أو قانونية وإنما كانت عرفًا وتقليدًا راسخًا يلقي احترام المؤسسات الرسمية.

ومن بين الفئات التي كانت تأتي للتسول في إسطنبول خلال رمضان جزء من العجبر، وكان هؤلاء مُرحبًا بهم لأنهم يغادرون المدينة بعد العيد مباشرة، وبالعموم كانت وفرة إسطنبول في شهر رمضان مركز جذب بالنسبة إلى المتسولين، حيث قدمت إليها مجموعة واسعة من المتسولين المنحدرين من الأناضول وروميليا وغيرها.

الصدر الأعظم علي رضا بك كان غاضبًا للغاية من وضع التسول في إسطنبول، وخصوصًا في رمضان وانتقد هذه الظاهرة أكثر من مرة، ومما قاله في ذلك "كان هناك عدد من الأشخاص الذين تجمعوا في إسطنبول للاستفادة من وفرة الأعمال الخيرية خلال شهر رمضان المبارك، ومعظم هؤلاء الأشخاص لم يكونوا وافدين من المقاطعات بل كانوا رجالًا يتسكعون على القوارب في أوسكدار أو يبيعون الحمص المزوج بالزبيب في الشوارع والأرقة، على رغم أنهم يظهرون الآن في رمضان حاملين بأيديهم صواني يضعون على ظهورهم حقيبة سرج مصنوعة من الشعر الأسود، واعتاد هؤلاء على شراء الشالات والألبسة القديمة من سوق السلع المستعملة في إسطنبول، وكانوا يتعمدون ارتداء العمامة والخروج بمظهر فوضوي، وكان بعضهم متملقين ومنهم من حفظ بعض القصائد لذكرها أمام الناس" (603).

في مصر، شهد العصر المملوكي أزمة أو مجاعة أو كارثة كل ٤ إلى ٥ سنوات، على مدار ٢٨٨ عامًا، وكان ذلك كافيًا لانتشار وترسيخ التسول كحرفة.

أنتجت الأزمات المتكررة، التي سارت بوتيرة أسرع وأشد وطأة خلال العصر المملوكي، مستويات اجتماعية جديدة، ومنذ أول غلاء عرفته مصر، حتى عصر الماليك، وثق المؤرخون نحو ٧٠ أزمة اقتصادية، ذكر منها تقي الدين المقرئ ١٣ بين عامي ٧٠٥ ومنتصف القرن الرابع عشر.

وفقًا لما ذكره المقرئ (٧٦٤ - ٨٤٥ هـ / ١٣٦٤ - ١٤٤٢م) في تحليله لأسباب المجاعات في المحروسة خصوصًا عقب الشدة المستنصرية، فإن الفقر والجوع والغلاء "ظواهر اجتماعية مادية، لم تلازم البشر دائمًا، ولكنها تقع آناً وتنتقع آناً آخر، تقع عندما تجتمع أسبابها ودواعيها، وتنتقع عندما تنتهي تلك المسببات والدواعي"، أما أهم أسباب هذه المحن برأيه فهي "سوء تدبير الحكام والزعماء وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد".

في المقابل، ينقل د. قاسم عبده قاسم في كتابه "النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين الماليك" ٦٢ أزمة اقتصادية، وقعت بين عامي ١٢٢٥ حتى ١٥١٣م (604)، بمعدل أزمة أو مجاعة أو كارثة كل ٤ إلى ٥ سنوات، على مدار ٢٨٨ عامًا، وكان ذلك كافيًا لانتشار وترسيخ التسول كحرفة.

ويرى الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م - ١١١١م) أن التسول فعل مكروه من حيث المبدأ، وإذا لم يكن المرء مضطرًا فلا ينبغي له أن يذل نفسه أمام عباد الله، فإذا كان مضطرًا (للعطام أو دواء أو ركوبة) فعليه أن يحدد بصدق سبب سؤاله.

ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي كانت الاستجابة لأفكار الصوفية تتضاعف بشكل مذهل، خاصة في مصر. معظم المتصوفة قُبِحوا الشحاذة، واعتبروها سلوكًا لا يليق بمؤمن، واعتبر المتسولون من المتصوفة مجازيب أودرايش، وكانوا أشبه بتيار احتجاجي وسط تيار التصوف العام، وبالذات أتباع الطريقة القلندرية التي أسسها جمال الدين ساقي في العراق، والطريقة الحيدرية التي أسسها قطب الدين حيدر، فقد اعتبر هؤلاء أن الفقراء هم الأقرب إلى الله، وأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمئة عام، وأن طريقهم إلى الجنة هو في الاستغناء عن متاع الدنيا كله، وقد نقضت هذه الرؤية حركات صوفية أخرى أهمها الطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي في القرن الثالث عشر، والذي جاء إلى

الإسكندرية من المغرب، وكان تلميذه أبو العباس المرسى يجمع حبات القمح الساقطة من السفن بعد تحميلها في الميناء ليقتات عليها، حتى لا يلجأ للشحادة، ولم ينقطع أتباع الشاذلية عن العمل وبقي كل منهم يعمل في مهنته التي كان يمارسها قبل انخراطه في الطريقة.

وعلى فترات متباعدة، اعتقد الصوفيون، أن الفقر والشحادة من طرق تأديب المريدين، حسبما يذكر عبد الوهاب الشعراني، أحد أكابر المتصوفين في القرن الرابع عشر الميلادي، الذي ينقل في كتابه "تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا" (605)، عن علي الخواص قوله: "إذا أدب الله تعالى عبداً بالفقر والحاجة وضيق العيش، فلا تحسنوا إليه إلا بالرغيف وستر العورة، وإياكم أن تجعلوا له مالاً أو تغنوه...".

ويورد أبو نصر السراج في كتابه "اللمع" (606)، حكاية عن أحد المتصوفين الذي اختار العيش على التسول والشحادة، ليؤدب نفسه التي تكره سؤال الناس.

ويذكر علي باشا مبارك في "الخطط التوفيقية" (607)، عند حديثه عن جامع يُنسب للشيخ محمد الشربيني، أن الأخير أحد أرباب الأحوال والمكاشفات، ويطلق عليه شيخ طائفة الفقراء بالشرقية، وكان من طريقته أن يأمر مريديه بالشحادة على الأبواب وأن يتعمموا بـ"شرايط" البرد السود والحر والحبال (الشرايط بلهجة سكان دلتا مصر، يقصد بها قطع القماش البالية).

ويبدو أن تلك الفكرة الصوفية، تسلمت إلى ثقافات القرى في صعيد مصر، ففي بعض قرى محافظة سوهاج مثلاً، إذا رُزق الرجل ابناً ذكراً بعد طول صبر، يمر على البيوت يطلب الصدقات كطريقة لحمد الله وتذليل النفس، إلى جانب أن بعضهم يطلق على أبنائه أسماء تحمل معنى الشحادة، دفعاً للحسد، ورجاء أن يعيشوا مدة أطول، ومن هذه الأسماء: شحاتة- شحات- شحتة.

زيادة أعداد المتسولين، أجبر الدولة على الاعتراف بهم في أوقات، وغض الطرف عنهم في أوقات أخرى، في حين أن طرق التخلص منهم لم تكن مجدية.

ويقول أندريه ريمون "أن بعض المجتمعات في العصور الوسطى، قد أباحت التسول كحرفة ونظام اجتماعي معترف به. وكان يتم تسجيل الأفراد رسمياً على أنهم يمارسون هذه المهنة، ويتم منحهم بيتاً ومعاشاً وتميزهم شارات للتعرف عليهم" (608).

ويذكر ابن إياس في "بدائع الزهور"، في حوادث ٨٤١ هـ (١٤٣٧م)، أن الأشرف برسباي، عندما عاد من إحدى رحلاته، قرر توزيع الأموال على فقراء القاهرة، الذين تجمعوا حوله، حتى سقط عن فرسه، ما جعله حائقاً عليهم، وبناء على تلك الواقعة طلب لقاء سلطان الحرافيش، وشيخ الطوائف، وألزمهم بمنع الشحادة في الطرقات، إلا للعميان وذوي العاهات.

لكن المحاولة الأولى للاعتراف بالأمر الواقع وتقنينه كما تقول دراسة حول "ظاهرة التسول في القاهرة"، حدثت لأول مرة في العصر العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨)، بعد ظهور طائفة الشحاذين، التي تمتعت بالتسول الصريح، وظهروا كقوة عددية يمكنهم أن يلعبوا دوراً في إحداث القلاقل والشغب، ما جعل الحكام يهابونهم ويحرصون على إرضائهم، وهو ما ينقله - أيضاً - صلاح عيسى في كتابه "هوامش الميرزي" (609).

بحسب الدراسة، فإن المؤرخين أطلقوا على فئة المعدمين اسم "الحرافيش"، وهي نفسها الفئة التي خرج من عباءتها الشحاذون، بل إن الكتابات التاريخية أحياناً لا تكاد تفرق بين الفئتين، جنباً إلى جنب مع فئات أخرى كانت تحت عباءة الحرافيش أيضاً، منها: العياق - النهابة - أهل الحارات - الجعيدية - حشرات الحسينية، وغيرها (610).

أول حاكم تصدى لظاهرة الشحادة هو الظاهر بيبرس عام ١٢٦٥ عندما أمر بجمع العجزة الذين يتسولون عند خان السبيل وترحيلهم إلى الفيوم، وهناك خصصت لهم الدولة قرية، ورتب لهم بأمر السلطان رواتب تكفي حاجاته.

بشكل عام، حظيت طائفة الشحاتين بمكانة لم تحلم بها خلال العصر العثماني، بداية من الاعتراف الرسمي للدولة، إلى الوزن الكمي، حتى أن السلطان أحمد خان (١٦٩٣ - ١٦٩٥) عندما طلب ألفي عسكري مصري يتوجهون إلى كريت معهم إبراهيم بك أبو شنب، الذي استقبله شيخ الشحاتين مع طائفته يودعونه "الله يردك لينا سالم يا بيك لأنك أبو الفقراء" وعندما عاد جمع الشحاذون من بعضهم مبلغًا ضخمًا، اشتروا به حصانًا مزركشًا وسرجًا مفرقًا ورشمة، وقدموه هدية فقبله إبراهيم بك، حسب رواية الجبرتي.

وبحسب د. آدم صبرة في كتابه "الفقر والإحسان في مصر: عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠-١٥١٧م" (611)، فإن أول حاكم تصدى لظاهرة الشحاذة، هو الظاهر بيبرس، عام ١٢٦٥ عندما أمر بجمع العجزة الذين يتسولون عند خان السبيل وترحيلهم إلى الفيوم، وهناك خصصت لهم الدولة قرية، ورتب لهم بأمر السلطان رواتب تكفي حاجاتهم، ورغم ذلك سرعان ما عاد أكثرهم إلى القاهرة مرة أخرى.

المحاولة الثانية كانت في أغسطس ١٣٣٠م عندما أمر السلطان الناصر محمد، كل المجذوبين والبرصاء- الذين يعملون في الشحاذة- بمغادرة القاهرة والإقامة في الفيوم، لكن لا يوجد دليل على أن هذا الإجراء طبق بالفعل، ويبدو أن الأمر كان رد فعل على هجرات الفلاحين إلى القاهرة.

وأجبر السلطان برقوق المتسولين على مغادرة القاهرة وضواحيها وأعدم من خالفوا أوامره، وذهب السلطان برسباي إلى مدى أبعد فأرسلهم في عام ١٤٣٨ إلى الأناضول.

إلا أن هذه المحاولات جميعها لم تقض على الظاهرة لسببين على الأقل: أولهما أنها لم تكن إنسانية، وثانيهما أنها تغافلت عن الأسباب الحقيقية لها: سوء تدبير الحكام والزعماء وغفلتهم عن مصالح العباد، كما قال المقرئ.

وفي زمن المماليك أنشئت أول مؤسسة تهتم بشؤون الفقراء وهي مؤسسة "مودع الحكم" غير أن الأمراء نهبوا.

وكانت الزكاة إحدى وسائل محاربة التسول، وحسب المقرئ، فإن صلاح الدين الأيوبي كان أول حاكم يرتب لجمع الزكاة في مصر، وأمر بتوزيعها في مصارفها الشرعية، وكان العاملون في ديوان الزكاة على درجة عالية من الأمانة والحرص، وانتهى إشراف الدولة على جمع الزكاة في عصر السلطان قلاوون، وصار دفعها خيارًا فرديًا، حتى اليوم.

ظل الأمر كما هو عليه، حتى حكم محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨)؛ إذ بدأ نظام الطوائف يتفكك، ليتبعه ذوبان التنظيم، وقد أمر الباشا بتجهيز كساوي ولوازم الشحاذين وإرسالهم إلى المارستان، وأن يُجازى صحاح الجسم منهم بالعمل في الأبنية الأميرية.

ويذكر كلوت بك في كتابه "لمحة عامة إلى مصر" (612)، أن محمد علي جمع أكثر من ٤٠٠ شحاذ أسكنهم في مستودعات خصصت لهم، بغية القضاء على الظاهرة وهو ما لم يحدث؛ إذ أسهمت قرارات محمد علي الاقتصادية الحازمة في زيادة معاناة الفقراء والمعدمين، وتبع ذلك المزيد من الشحاذين وطالبي الصدقات، الأمر الذي اضطر الباشا أن يصدر أمرًا بمنع تحصيل الـ"فردة" على طوائف الشحاذين، والحاثوتية، والنساء اللواتي يُستأجرن للنواح خلف الجنائزات تصنعًا "لندابات أو المعدادات".

عندما زار المستكشف التركي أوليا جلبي مصر في الفترة بين ١٦٧٦-١٦٨٢ ذكر في كتابه "الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش" (613)، عدة مشاهد عن المجاذيب والشحاذين الذين يتسولون لنيل الصدقات، حتى أن المقابر في أيام الجمع لا يمكن السير فيها من كثرة الشحاذين.

يروى جلبي "بعضهم حسن المظهر يقترب منك يلقي السلام ويتحدث بأدب وظرف ثم يطلب صدقته، إلى جانب آلاف المجاذيب الطلقاء بعضهم يأخذ النقود وبعضهم يمشون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، ولا قانون يوجب مواجهتهم لأنهم اختاروا الفقر والفاقة".

ويتفق ما نقله علماء الحملة الفرنسية في موسوعة وصف مصر التي نشرت لأول مرة عام ١٨٠٩ ، مع إدوارد ولیم لین في "عادات المصريين المحدثين" (614). عن أنشطة مستترة للتسول في تلك الفترة، تتنوع بين الرواة، وعازفي الربابة، والندابات اللواتي يستأجرن للبكاء خلف الجنائز، والمهرجين، والحواة، وبائعي العرقسوس، والرفاعية، والمشعوذين، وغيرهم، بل إن الطبقات الدنيا نفسها كانت لا تجد حرجاً من استجداء طبقات الأغنياء.

لكن إدوارد ولیم لین يُقدّم في كتابه الصادر لأول مرة عام ١٨٣٦ ، وصفاً دقيقاً لفئة أخرى تمارس التسول، هم دراويش الصوفية من المصريين والأجانب، الذين يحيون في تجوال وتسكع، يحملون عصا تجمعت في رأسها رقع ثياب من ألوان مختلفة، ويرتدي بعضهم ثياباً غريبة عجيبة تتلون أوصافها، حسب وصفه.

يتابع: يكثر في القاهرة الدراويش الأتراك والفرس، الذين تنطبق عليهم صفة الوقاحة أكثر من الدراويش المصريين؛ إذ يوزعون بين المصلين ورقاً مكتوب فيها استجداء، ويرتدي معظمهم أثواباً خاصة.

عندما انتقد عباس العقاد في كتابه "الديوان: في الأدب والنقد" (615)، الذي طبع للمرة الأولى عام ١٩٢١، قصيدة رثاء كتبها أحمد شوقي، قال العقاد "إنها مما يسمع من أفواه المكدّين" كلها حكم يؤثر مثلها حملة الكيزان والعكاكيز إذ ينادون: دنيا غرور كله فاني- ياما داست جبابرة تحت التراب...".

تحول التسول إلى حرفة مارسها الحرافيش، سواء كانوا محتاجين فعلاً أم لا، وهو أمر أشار إليه كثير من الرحالة والمستشرقين، الذين كتبوا عن إلحاح الشحاذين وسماجتهم، كما سجل الأدب العربي حيل الشحاذين في إبداعات عدة صارت تعرف بأدب "الكدية"، وفيه استخدم بعض المتسولين مواهبهم في النظم والنثر لاستجداء عطف الناس، وحفظت لنا كتب التراث بعضاً من هذا الفن الظريف، ومنه هذه الوصفة السحرية أو "المانيفستو" الذي تركه أحدهم لأبناء مهنته من المتسولين، يقول غريب الساساني لرفقائه: سيروا في البلاد وانصبوا الشباك على العباد، واعلموا أن الفلّس يجمع الدينار (...). اركبوا قوارب الإلحاح والبسوا دروع الوقاح، وتعاموا مبصرين وتطارشوا سامعين، وتعارجوا فالسبق لذي العرج، ركبوا جلوداً مسلوخة واشربوا ثقبع التبن لتصبح وجوهكم مصفرة وبطونكم منقوخة، واخترقوا الصوف في الجوامع، وحثوا على الإحسان بالطلب في الشوارع، ولتكن أفخر ملابسكم الأسمال، وأكثر همكم جمع المال، وسيروا بهاتين تأمنوا من الإفلاس والدين.

أطلقت لفظة "الكدية" على نوع من الشحاذة والتسول، الذي يستخدم فيه الحيل الأدبية، وانتعشت في مصر إبان العصر المملوكي، وأطلق على أصحابها "الأدبائية"، ولا يستبعد أحمد رشدي صالح في كتابه "الأدب الشعبي" (616)، أن يكون فريق من أولئك "الكدية" امتحن حفلات الزار منذ أمد، فصارت رئيسة الزار تسمى "كودية".

ويورد النديم في مجلة "الأستاذ" في عددها الصادر ٦ يونيو ١٨٩٣، ما وقع له في مولد السيد البدوي مع الأدبائية، وفن الزجل الذي يناظرون به بعضهم بعضاً، طلباً للصدقة في مهارة وخفة.

يتشابه هذا الفن مع فئة كانت تمر على البيوت في قرى صعيد مصر أوقات الحصاد والأعياد، والمناسبات الدينية، مرددين مناداة، تلقى بطريقة تلفت الانتباه، منها "وحلّ جبر الخواطر"، "كله على الله"، "يا رب يا هادي.. العاطي هو الله"، "بيت الكريم عمره ما ينضام"، وغيرها.

ويذكر أحمد أمين في "قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية" (617)، أن الأدبائية جزء من الجعبيدية، الذين يعملون غالباً في الشحاذة، لكن الأدبائية يستخدمون أغاني وأسجاعاً وأزجالاً خاصة في التسول، ويقع ضمنهم النّدابات اللواتي يشبهن فصاحة الأدبائية، حسبما يذكر أمين.

وخلال فترة الاحتلال الإنجليزي وحتى ١٩٥٢ كان المداخون ينتقلون في القرى والأحياء الشعبية ينشدون قصص الأنبياء والأولياء ويتلقون "النقود" من المستمعين، وهما نوعان: المداخ السوامري الذي يقيم سامراً في السوق والمولد، والثاني المداخ السريح الذي يمر على المنازل منشداً، ليطلبوا الصدقة بشكل ضمني غير صريح، هذا إلى جانب الأدبانية الذين كانوا يرددون الشعر ويرتجلونه أحياناً لنيل الصدقات.

في عدد ١٢ سبتمبر ١٨٩٧، نشرت مجلة "الزراعة" قرار نظارة الداخلية منع التكفف في دندرة جنوبي مصر، وشمل القرار مسافات بعيدة جداً من المساكن، لم يذكر القرار سبباً لاستهداف هذه المنطقة بالذات، لكنه عاد في ديسمبر ليشمل مناطق أخرى في الإسكندرية، وعلى إثره أصدرت مديرية جرجا بصعيد مصر، قراراً مماثلاً بمنع التكفف في البلينا وشارع البحر الأعظم، بحسب ما نشرته مجلة "الزراعة" الصادرة في تلك الفترة.

تكررت مواجهة التسول والشحاذة على فترات كثيرة، إلا أن تلك المرة شملت مناطق بعيدة عن العاصمة، والواضح أن الأمر كان له علاقة بالزائرين الأوروبيين الذين كانوا يتعرضون لمضايقات جراء تلك الظاهرة.

وتذكر ورقة بحثية نُشرت ١٩٩٩، خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كانت مهنة الشحاذة، تشير إلى حضور عام للقراء المتجولين من الجنسين في القاهرة، ما جعل الكثير من الكتاب الأوروبيين يحذرون من تلك الظاهرة المنتشرة في شوارع مصر، خاصة ما نقلته صحيفة "إيجبشيان جازيت".

كانت التحذيرات تتوقع تعرُّض أي من المسافرين إلى مصر، لمضايقات من قبل المتسولين وأطفال الشوارع، فشملت كتيبات السفر نصائح لطرق التعامل معهم، حسبما يذكر البحث.

أمر الفرنسيون بجمع الشحاذين، لتنفق عليهم نظارة الأوقاف، ويبدو أن قرار الحملة لم يكن عبثاً، خاصة بعد انضمام جماعة من الحرافيش للمقاومة الشعبية تحت قيادة بعض مشايخ الأزهر.

ويذكر رفاعه الطهطاوي في كتابه "مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية" (618)، أن الحملة الفرنسية عندما دخلت مصر أصدرت قانوناً، للقبض على الشحاذين والمتسولين، ليرسلوا إلى سجن القلعة ما لم يكونوا من ذوي العاهات، وهو ما يؤكد الجبرتي أيضاً في أحداث نوفمبر ١٨٠٠؛ إذ أمر الفرنسيون بجمع الشحاذين، لتنفق عليهم نظارة الأوقاف، ويبدو أن قرار الحملة لم يكن عبثاً، خاصة بعد انضمام جماعة من الحرافيش للمقاومة الشعبية تحت قيادة بعض مشايخ الأزهر.

في مطلع القرن العشرين، كانت القاهرة تعج بالشحاذين، كان طالبو الصدقات يقدون إليها من البلدان المجاورة في أوقات الحج، في وقت كانت مصر تمثل معبراً جيداً إلى مكة، حتى إن كتاب "خبايا القاهرة" (619)، لمؤلفه أحمد محفوظ يصف الشحاذين في القاهرة بقوله "لولا الحواجز المستحدثة والجوازات لضاقت القاهرة بهم".

يذكر محفوظ أن بعض العابرين إلى مكة، كان يضيق به الحال، ومع الوقت بدأ موسم الحج يتحول إلى فترة خضبة للشحاذة، فأصبح هذا العمل فناً، يتعامى بعضهم لأجله أو يتعارج أو يستأجر أطفالاً صغاراً يعرضهم في أسماهم المزقة، وهو ما تناولته عدة صحف ومجلات آنذاك.

وشهد عام ١٩٠٧ أزمة اقتصادية عانتها مصر بصفة عامة، وتزامن مع ذلك خروج تظاهرات العمال الفقراء تحت شعار "جعانين يا أفندينا"، وشهد العام نفسه ظهور عدد من الأحزاب السياسية التي كان تحسين أوضاع الفقراء جزءاً من برامجها.

خَلَفَت الحربان العالميتان الأولى والثانية، ظروفًا اقتصادية واجتماعية استثنائية، وعندما ضربت الأزمة الاقتصادية العالم عام ١٩٢٩ فيما يُعرف بـ"الانهيار الكبير"، لم يستغرق الأمر كثيراً لتظهر بوادر الأزمة في مصر عام ١٩٣٠، خاصة بعد تعذرُ تصريف الحاصلات الزراعية، ما أدى إلى انخفاض مستويات المعيشة.

بروي د.علي شلبي في كتابه "أزمة الكساد العالمي الكبير" (620)، أن تلك الأزمة الاقتصادية تبعها زيادة مفزعة في أعداد الشحاذين بلغت في بعض التقديرات نحو ٣٠ ألفاً في القاهرة وحدها، حتى أفردت الصحف كتاباتها عن المتسولين في القاهرة.

وفي عام ١٩٣١ ألفت الحكومة لجنة لإعداد مشروع لائحة لمنع الشحاذة والتسول في البلاد، ولم يكن الأمر سهلاً كما كان يظن بعض أعضاء مجلس الشيوخ المصري آنذاك، فقد كان الأمر يفرض التزامات مالية تضغط على ميزانية الدولة، واستمر الحال على ما هو عليه حتى ١٩٣٣.

ويذكر شلبي أن وزير الداخلية في ٩ أغسطس ١٩٣٣ وقّع قراراً بتطبيق أحكام قانون التسول، واتخذت الداخلية الإجراءات اللازمة لإيواء العجزة والضعفاء في ملاجئ أنشئت لهذا الغرض، أما المتسولون القادرون فقد كُلفوا بالعمل المنتج لكسب رزقهم، ومن يستمر في التسول يُسجن بعد محاكمته.

وتلاحظ الباحثة د.نسمة سيف الإسلام سعد (621) أنه حين تضاعف عدد سكان مصر عام ١٩٤٧ مقارنة ببداية القرن العشرين لم تحقق الزيادة في المساحة المزروعة أكثر من ١٦ ٪، مما شكل ضغطاً على الأحوال المعيشية لفقراء القاهرة. وإلى جانب تقصير الحكومات المتتالية في مواجهة الأزمات المتفاقمة في أوساط الفقراء اقتصادياً واجتماعياً، لم يكن البرلمان على قدر المسؤولية في هذا الصدد؛ لأن أعضائه كانوا من كبار الملاك والرأسماليين فوقفوا حجر عثرة أمام أية اقتراحات لمواجهة الأزمة ببعديها الاجتماعي والاقتصادي، خصوصاً في القاهرة التي تعد أكثر المدن المصرية سكاناً. ومن جانبها تجاهلت غالبية صحف تلك الفترة تناول مشكلات الفقراء في أحياء العاصمة الشعبية.

منذ أواخر القرن العشرين، أصبح الفقر ظاهرة مزمنة؛ إذ استمر نحو خمس السكان تقريباً يعيشون في فقر، كما أن نسبة كبيرة من السكان في مصر تعيش في ظروف قريبة من الفقر، وبالتالي فهذه الفئة معرضة لخطر الإفقار مع أي أزمة.

وبين عامي ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٥ ارتفعت نسبة الفقر من ١٦.٧ لتصل إلى ٢٧.٨ ٪ بحسب بيانات البنك الدولي، الموضحة في الرسم البياني الذي أعده موقع متخصص في البيانات، في الوقت ذاته ارتفعت نسبة البطالة من ١٠ ٪ إلى ١٢.٢ ٪، وتذكر دراسة نشرت عام ١٩٩٨، أن الفقر لم يسهم في تفشي ظاهرة التسول وحسب، بل وفر بيئة خصبة لإنتاج مزيد من أطفال الشوارع، ما يعني إعداد نسبة لا بأس بها من المتسولين الجدد، ومزيد من المهن الهامشية.

في عام ٢٠١٧، احتلت مدينة القاهرة المركز الأول في أعداد المتسولين بين محافظات مصر، بنحو ٤٣٣٣، تلتها الإسكندرية بنحو ١٥٧٢، في حين يُقدّر عدد المتسولين في مصر بنحو ١١٠٥٩، يحتل الأطفال العدد الأكبر منهم، حسب ورقة بحثية نشرتها مجلة "العلوم الاقتصادية والإدارية والقانونية" في عدد مارس ٢٠١٧.

كان عدد الشحاذين على مدار تاريخهم انعكاساً لأداء الدولة، بل إن الدراسات التي تناولت الظاهرة- رغم قلتها- رأتهم مرآة لمجموعة من الاختلالات الاجتماعية ومقياساً للوضع الاقتصادي للدولة.

الشارع.. لمن؟!

"للأمم عبقريات خاصة، وخصائص شعورية وفكرية وألوان من العيش والمزاج وشخصيات تفكر بطرق خاصة وتسير على منهج يحدوها إليه الطبع والفكر والشعور". (622).

يكشف كتاب "خطاب الشارع.. تحولات الحياة والموت في مصر" (623)، لأستاذ الإعلام وخبير إدارة الأزمات د. محمد شومان، الكثير مما نعرفه ونرفض أن نناقشه.

يُقدّم الكتاب قراءة شاملة لخطاب الشارع والناس في القاهرة تحديداً، وفي عموم مصر، معتمداً على مناهج تحليل الخطاب النقدي، والتحليل السيميولوجي، وتحليل المحادثة "الإنثويميثودولوجيا".

يتكوّن الكتاب الذي يقع في نحو ١٣٥ صفحة، من القطع المتوسط، من ٦ فصول، تبدأ بالفصل الأول الذي يتناول مشكلة الزحام من خلال "صراع السلطة وتناقضات الشارع المروري"، فيما يتناول الفصل الثاني "الرصف القاهري" بكل مشكلاته وصراعاته، ويلفت الفصل الثالث النظر إلى "الفوضى والتشوه المعماري" الذي تعاني منه مدن مصر حالياً.

ويناقش الفصل الرابع الخطابات التي تحملها "أزياء المصريين" التي أصبحت بلا هوية، بعد اختفاء الزي الوطني، ويأتي الفصل الخامس تحت عنوان "توتر الكلام والصمت" ليتناول بالتحليل كلام ولغة الناس في المحروسة ودلالاتها الطبقية والثقافية والاجتماعية، ويختتم المؤلف الكتاب بفصل عن "خطاب الموت"، الذي يرى أن له شأنًا آخر ووجوداً متميزاً يختلف عن خطاب الموت في أي بقعة أو مدينة في العالم.

في الفصل الأول، وعنوانه "صراع السلطة وتناقضات الشارع المروري"، يرسم المؤلف صورة مختلفة لحركة الناس وكرنفال السيارات -بأنواعها المختلفة والمتناقضة- في شوارع القاهرة، مؤكداً أنها تجسد خطاباً بالغ التنوع والتفرد والتعقيد، يعكس حال المجتمع والناس في مصر والعلاقات التي تربط بينهم من ناحية، وتربطهم بالسلطة من ناحية أخرى. فما بين الضجيج والفوضى، والتحايل على سلطة القانون والدولة، هناك خطابٌ متناقض ومتصارع إلى أقصى حد، يشارك فيه الجميع.

يرى د. شومان أن "فوضى الشارع وغياب سلطة الدولة وأنظمة المرور يفتح المجال أمام صراع إرادات بين السيارات المختلفة والمارة وأحياناً بعض مجندي الشرطة. كل هذه الصراعات يُفترض أن تؤدي إلى أزمة بل كوارث مرورية، وحوادث كثيرة وكبيرة، ومع ذلك لا يحدث شيء من ذلك، ويتكيف الجميع على الضجيج والتلوث والبطء في التحرك بين أحياء المدينة بل وفي داخل الحي الواحد" (ص ١٣).

المغارقة أن الجميع يشتكون، لكنهم لا يحتجون بقوة أو يترجموا شكواهم إلى فعل، أي فعل، بل يتكيفون ويتعايشون ويتعاونون في حل بعض الاختناقات المرورية أو فض المشاجرات التي تقع في وسط الطريق. الكل يسهم في إنتاج خطاب العجائب والتناقضات في الشارع المصري ويشتهي، ولا يبادر لاتخاذ أي فعل، "ربما عملاً بحكمة" الصبر مفتاح الفرج"، التي تشكل مكوناً رئيسياً من مكونات الثقافة المصرية والشخصية المصرية، أو ربما لسطوة الأنا والمصلحة الذاتية على العمل الجماعي والمصلحة العامة" (ص ١٤).

ويشير الباحث إلى ميل أغلب قائدي المركبات في مصر على اختلاف أنواعها -بدءاً من "التوك توك" والدراجات النارية إلى حافلات النقل العام- إلى استخدام آلة التنبيه باعتبارها "لغة تخاطب" مع الآخرين، مثل طلب إفساح الطريق أو توجيه التحية لشخص والاحتفال بفوز فريق كرة قدم أو الإعلان عن الفرج بزفاف أو خطبة.

والى جانب آلة التنبيه، هناك من يسيء استخدام الراديو أو الكاسيت بطريقة تضيق مزيداً من الضجيج إلى الشارع. يبدو الصوت المرتفع هنا كما لو أنه عادة لدى البعض، أو محاولة لإعلاء شأن صاحب الصوت الذي يستمع إليه كل سائق ويُفضله عن غيره، سواء كان مطرباً أو مقرئاً أو رجل دين، لكنه في الوقت نفسه "يعتبر نوعاً من ممارسة السلطة وإعلان الوجود، وفرض الذوق الخاص على الآخرين، خاصة عندما يتعلق الصوت المنبعث من هذه المركبة أو تلك بأغانٍ أو شعائر دينية" (ص ١٧).

كما يمكن النظر إلى رفعه صوت الراديو أو جهاز التسجيل باعتباره نوعاً من التنفيس عن مكبوت أو إخفاق ما، أو الهروب من ضجيج أكبر إلى ضجيج خاص.

ويحلل د.شومان ظاهرة الكتابة والرموز على هياكل السيارات؛ إذ لا تكاد تخلو مركبة في شوارع المحروسة من كتابات أو رموز ذات طابع اجتماعي أو ثقافي أو سياسي أو ديني أو مهني، وكلٌ منها يحمل فيضاً عجيبيّاً من المعاني والدلالات متعددة الطبقات، فبعضها يحمل دلالات طبقية ومهنية في آنٍ معاً، وكلها تصنع هويات مشتركة أو تتلمس وجودها في مدينة مليونية مثل القاهرة.

الأطباء يضعون علامات تُميزهم، وكذلك الصحفيون ورجال القضاء وأعضاء البرلمان. والعاملون في الشركات والمؤسسات المرموقة. الكل يضع علامته أو شارته التي تميزه عبر ملصقات صغيرة على زجاج السيارة الأمامي بشكل واضح وفي نوعٍ من التباهي الاجتماعي.

ولأننا صرنا "بلد ملصقات"، فإن النقابات وبعض الشركات والأندية والجامعات ترحب بذلك وتدعمه، فهو إعلانٌ مجاني متحرك عن وجودها ونشاطها من جهة، وتشديد على هوية فئوية أو مهنية من جهة أخرى.

هكذا تنشط في مصر صناعة الملصقات والرموز وتوزيعها، وخصوصاً في مواسم الانتخابات، ويتجاوز ملصق المهنة أو الطبقة مع الأيقونة الدينية، لنصبح هياكل السيارات -إلى جانب نوعها وسنة صنعها- طبقية ودينية بامتياز (ص ٢٠).

ويستكمل د.شومان ما بدأه د.سيد عويس، أستاذ علم الاجتماع، من رصد وتحليل لظاهرة الكتابة على هياكل المركبات في المجتمع المصري المعاصر في كتابه الفذ "هتاف الصامتين" (624)، لكنه يشير إلى ظهور مفردات وتراكيب لغوية وشعارات جديدة، بعضها غريب وعدواني تجاه الآخرين، في مدينة تتوحش كأخطبوط كبير من الأسمنت يتحرك بلا عقل أو ضمير، ومن ثم تتضاعف تخوفات هؤلاء المهمشين ومشاعرهم بالضيق والعجز.

الخطر في الأمر هو ذلك الحضور المراوغ للدولة والقانون، إذ إن كثيراً من الشوارع بلا إشارات مرور، ومعظم تلك الإشارات لا تعمل في أغلب التقاطعات، وحتى إن عملت فإنها بلا معنى أو دلالة أو حضور. هكذا تُدار حركة المركبات والمشاة في التقاطعات والإشارات المهمة في القاهرة بشكل يدوي وباستخدام إشارة اليد لشرطي المرور أو الصافرة أو الاثنين معاً. وبطبيعة الحال، تزداد الأمور مأساوية وصراعاً، مع نفي المشاة وتجاهل كلا الطرفين (المشاة وقائدي المركبات) لقواعد عبور الشارع، خاصة مع احتلال الأرصفة وعدم صلاحيتها للسير فوقها وغياب الكباري والأنفاق المخصصة للعبور.

أكثر من ذلك أن تطبيق قوانين المرور يختلف حسب الأهمية الأمنية أو السياسية لكل شارع أو حي، بل إن الأمر يتفاوت حسب شهور السنة وبعض المناسبات، كما يحدث في شهر رمضان أو شهر ديسمبر.

خلاصة القول أن شوارع المحروسة تفتقر إلى المعنى والمعايير، "ويسودها خطابٌ سلطة مراوغ ومختل، لا تسيطر عليه أو تمارسه الدولة، بل تشاركها فيه سلطات عديدة متنافسة" (ص ٢٧)، فهناك أولاً السلطة الأصلية، وهي سلطة الدولة كما تتجسّد في ضباط وجنود المرور، وهناك ثانياً سلطة قادة المركبات، خاصة عندما تكون المركبة تابعة إلى جهة سيادية، وهناك ثالثاً سلطة سائقي الميكروباص والميني باص وحافلات النقل العام

التي يمارس بعضها أساليب التهريب ضد باقي السيارات وركابها، وهناك رابعاً سلطة سائق سيارة الأجرة "التاكسي" التي تبدأ باختيار من تقوم بتوصيله حسب مظهره والوجهة التي يردّها، وبالتالي المردود المتوقع من "الزبون" (وإن تكن هذه السلطة الأخيرة قد نراجعت نسبياً مع ظهور أنواع جديدة من خدمات سيارات الأجرة التي تعتمد على شركات متخصصة).

وهناك خامساً سلطة السائس الذي يفرض نفسه على رصيف أو شارع أو موقع مجاور لمطعم أو مركز تسوق تجاري أو متجر، وهذا السائس يعمل وفق أعراف ونظم غير مدونة، بعيداً عن قبضة الدولة والقانون. وهناك سادساً سلطة أصحاب المحال وبعض مُلاك العمارات وساكنيها، ممن تخلصوا من سلطة الدولة على الطريق العام الذي يمر بموازة ملكيتهم الخاصة وقرروا ممارسة سلطة الاستحواذ على أماكن من الطريق العام والتعامل معها على أنها ملكية خاصة.

لك أن تتساءل بعد هذا كله، على طريقة يوسف شاهين: "الشارع.. لمن؟!".

وتحت عنوان (خطاب الهامش "الرصيف القاهري")، يتناول الكاتب مشكلة الاعتداء على الرصيف أو المجال العام، الذي أصبح سلوكاً يمارسه معظم سكان المحروسة في كافة الأحياء والشوارع، وبغض النظر عن مستوى سكانها الاجتماعي والاقتصادي. فالأرصفة في كثير من الشوارع لا وجود لها، وإن وُجدت فهي غير متاحة للمشاة، حيث احتلها البائعون وأصحاب المحال التجارية، وأصبح السير على الرصيف يتطلب منك الحرص والتدقيق لموضع قدميك، وأن تسير كبهلولان حتى لا تقع في حفرة، أو تصطدم بشجرة أو عمود إنارة أو محطة حافلات أو إعلان قبيح عن شيء، تافه لا معنى له.

المضحك المحزن "أن الدولة الضعيفة ذات الوجه المرواغ قررت فجأة أن يلتزم المارة بالسير فوق الأرصفة، رغم عدم قدرتها على توفير أرصفة صالحة للسير الآمن، فالأرصفة غير ممهدة، والباعة الجائلون يحتلون ببضاعتهم أرصفة الميادين والشوارع التجارية" (ص ٤١).

كما يتطرق الكتاب إلى الفوضى والتشوه المعماري، فيؤكد أن العشوائية المعمارية أصبحت منتشرة وضاربة بجذورها في كل أحياء المحروسة، بل صارت جزءاً من ثقافة وخطاب الناس، وبنظرة خاطفة منك لأي عمارة من عمارات المحروسة، وفي أي حي من أحيائها، ستجد العشوائية تسكنها، فلا انتظام في شكلها الخارجي، أو مدخلها، أو سطحها.

لا يخفى على أحد ما أصاب الشكل المعماري للمباني في أنحاء مصر من فوضى وتشوهات.

إن أي نظرة سريعة على عماراتنا ومبانينا القائمة حالياً، تثبت أن معظمها يتسم بالعشوائية ويفتقد معايير التصميم العالمية، إلى جانب تباين ألوان الواجهات والشرفات حتى في المبنى الواحد، وغياب الذوق العام. بل إن الكثير من المنازل التاريخية الجميلة -وخصوصاً في الإسكندرية- تخرج من قوائم المباني المتميزة ويتم إصدار تراخيص هدم لها رغم قيمتها التاريخية والمعمارية.

المشكلة الحقيقية ليست في العمران القديم الذي نال منه الزمن وتجارت عليه الأيدي لتزيل عنه أي جمال متبق. بل ليس حتى في بُرّ العشوائيات التي تمكنت واستحكمت واستعصت على الإزالة أو التطوير. العشوائية أصبحت ثقافة تنتج لنا يومياً المزيد من القبح العمراني الذي لم يسع أحد إلى وقفه. ولعل تلك المكعبات السكنية من الطوب الأحمر المطوق للطريق الدائري، والتي تتكاثر بشكلٍ مربع، مثال حي ودال.

ولو أننا تابعنا أفلام الأبيض والأسود، للاحتظنا كم كان الشارع المصري نظيفاً ومنضبطاً، ومبانيه تجمع بين الأناقة والنسق العمراني المهيّب، الذي يعود في بعض أصوله إلى العهد الخديوي.

إن العمارة هي مكونٌ مصنوع للناس، لذلك فإن مفهوم الذوق العام لهو واحدٌ من أهم المفاهيم التي تحتاجها العمارة، لأن العمارة تخاطب الناس وعيونهم ووجدانهم، كما تعكس ثقافتهم وتحضرهم.

لدينا كيانٌ يُسمى "الجهاز القومي للتنسيق الحضاري"، يتبع وزارة الثقافة، والمفترض أنه منوط بالحفاظ على تراثنا الحضاري من الضياع والانحدار. غير أن هذا الجهاز دوره غائبٌ عن الشارع وتأثيره محدود إن لم يكن معدوماً.

منذ خمسينيات القرن العشرين، ظهر أيضاً نمط عمراني أسهم لاحقاً في زيادة قبح الشكل المعماري في مصر، ونعني بذلك نمط العمارة الوحشية، وتمثل في المباني الحكومية والمساكن الشعبية وحتى المباني التعليمية. وقد سُمي ذلك النمط بالوحشية لأنها مشتقة من الكلمة الفرنسية "الخرسانة الخام"، ومن أهم ما يميز تلك العمارة كما يمكن بسهولة ملاحظته من مباني تلك الفترة -التي لازالت مستمرة إلى يومنا هذا مع الأسف في مصر- قيامها على تكرار الجزء في كل المبنى.

ربما كان هذا التشوه المعماري نوعاً من ممارسة السلطة، والعجز عن الحوار والاتفاق وبالتالى التعاون من أجل إضفاء طابع معماري وشكل متناغم على المباني. تبدو هذه السلطة أو الحرية الجامحة "وكأنها عملية تعويض عن القيود المفروضة على حرية المصريين في المجال العام، أو رد فعل لمنع والقيود المفروض من المجتمع والدولة على حريات كثيرة ومتعددة" (ص ٤٩).

الثابت أن معظم المصريين يحرصون على وحدة وجمال معمار شققهم، وراحة المقيمين فيها، وربما مدخلها فقط، أما شكل العمارة الخارجي وسلم العمارة أو مدخلها، فهو شأن لا يهمهم، فالخراب والقبح الناجم عن تسرب المياه مشهد مألوفٌ للغاية، وصيانة المبنى من الخارج فريضة غائبة، وبالطبع لا داعي للحديث عن إهمال الرصيف والشارع ومحاولة مصادرتة على يد هذا الساكن أو المستأجر، مما يؤكد ولع المصريين المعاصرين بالشأن الخاص، وعدم اكتراثهم بالفضاء الذي يتجاوز شققهم أو بيوتهم، أي الفضاء العام، ومن ثم المجال العام سواء كان سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، فالانامالية هي الموجه القيمي والسلوكي لأغلبية المصريين (ص ٥١).

أما أسطح العمارات والبيوت في المحروسة، فهي بكل المقاييس والدلالات مجالٌ فريد وغريب لممارسة السلطة والصراع والتنافس، ولكن في مشهد يعج بالفوضى ومختلف أشكال التلوث البصري. فوق أسطح البيوت المصري حالة من الفوضى وقلة النظافة وحطام الأثاث القديم والقطع المهملة من الخشب والحديد الصدئ والأسلاك، في مشهد يلخص معنى القبح.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى حالة الصراع وغياب التعاون بين أصحاب المحال التجارية، فضلاً عن مخالفة القوانين باحتلال الرصيف أو بروز الواجهات واللافتات، أو وضع السلاسل والبراميل وأسياف الحديد لمنع أي سيارة من الوقوف أمام المحل. وقد يعمد البعض إلى عدم مراعاة اشتراطات السلامة، أو إحداث ضجيج صوتي عبر أجهزة التسجيل والميكروفونات وخلافه. يجسد هذا صراعات وممارسات عدوانية تجاه الآخرين من سلطة وأفراد، وتحديداً سافراً للقانون والمنظومة القيمية والأخلاقية في المجتمع.

ولا تغيب عن الأنظار عشوائيات العقارات من بيوت ومحال تجارية؛ إذ تسبب فساد بعض الأجهزة المحلية وغيرها في تساهل كثير من القائمين على الرقابة ومتابعة الالتزام بقوانين ونظم ورسوم هذه العقارات وأصحابها، مقابل رشاوى و"إكراميات"، تجعل المشكلات تستفحل والخطر يزداد والكارثة تنتظر الوقوع، في ظل عدم وجود تدخل حقيقي وحاسم بموجب القانون لوقف التجاوزات من فوضى بصرية أو اشتراطات أمن وسلامة أو قواعد نظافة، وغير ذلك من أمور.

المشهد تسوده هذه الفوضى الناتجة عن غياب الذوق العام وعدم وضوح المراد بـ"الهوية المصرية المعمارية"؛ لذا فإن استعادة التنسيق المعماري واسترجاع الهوية هو أمرٌ بالغ الأهمية، وهو ما يتطلب فهماً عميقاً وشاملاً للمشكلة والحلول المطروحة ومحاولة تطبيق الطرق المتبعة لمواجهة المستجدات الطارئة على الساحة، وإلا فإن كل محاولة قد تنتهي إلى تقليد سطحي كما نرى في الكثير من الأمثلة الموجودة في شوارعنا.

إن ما نراه الآن هو حالة من الفوضى المعمارية ودليل واضح على فقدان ملامح ومحددات الشخصية الثقافية الوطنية، فقد أصبحت المدينة خلفية لصورة هوية لم تحدد بعد، وأصبحت العمارة صماء فاقدة لكل وسائل تفاعلها مع المستخدم.

يجب أن نبدأ في تحديد الملامح الثقافية للشخصية المصرية من هي الآن وما الذي يعبر عنها، ما هي نسبة الموروث داخلها وما هو قدر المدخل من الثقافات الغربية، ما هي رسالة الدولة التي يجب أن تنعكس في مبادئها الحكومية.

ربما يتعين تحديد الإجابات على كل تلك الأسئلة قبل البدء في أية مشروعات عمرانية جديدة حتى لا تصاب الشخصية المصرية بمزيد من التشوه وفقدان الملامح، الذي حتمًا سينعكس على الحياة الاجتماعية من سلوك فوضوي ويؤثر على الحالة الشعورية فيفرز شكلاً عبثياً مشوهاً فاقداً للرؤية والهدف والرسالة.

ويتناول د. شومان أزياء الناس كخطاب مشبع بالدلالات والمعاني الطبقية والثقافية والنفسية، مشيراً إلى أن بعضها أصبح بلا هوية وبلا معنى حقيقي، ويتطرق في هذا الإطار إلى أسلمة الملابس، وما يطلق عليه الزي الإسلامي، سواء للمرأة أو الرجل، واختفاء الزي التقليدي أو الشعبي للمصريين سواء "الجلباب" المصري أو "الملاية الف" ، كما يلفت النظر إلى استخدام الزي للتماهي مع أصحاب السلطة.

وينظر الفصل الخامس في كلام الناس وأحاديثهم العادية في المحروسة، باعتبارها خطاباً عفويًا، غير رسمي، وكاشف للكثير من جوانب الثقافة والحياة في المجتمع المصري. ويرصد الكاتب ٧ سمات لكلام الناس في المحروسة ما بين التدين المصطنع، والميل للمزاح والتنكيت، والاهتمام بالأحاديث الجنسية سواء بأسلوب التباهي أو التندر أو تبادل الخبرات، وتعظيم الذات، ورفع الصوت أثناء الحديث، وتعدد لهجات الحديث بين الأحياء والطبقات المختلفة، وشبابية وحيوية الكلام وتحولاته السريعة.

أما الفصل الأخير، الذي جاء تحت عنوان "خطاب الموت"، فيتناول كل ممارسات الموت مثل مظاهر الحزن، وطقوس الدفن والعزاء، ونعي المتوفى في صفحات الوفيات، ومعمار المدافن وزخرفتها والكتابة عليها، والحياة في المقابر، وزيارة الموتى وتوزيع الصدقات. ويؤكد المؤلف أن ثقافة وخطاب الموت هي من أكثر عناصر الثقافة والشخصية المصرية استمراراً وديمومة، فرغم تغير العصور والأجيال، فإن معنى الموت وطقوسه، بل وعلاقته بالإيمان ويوم الحساب، تظل أموراً شبه ثابتة مع وجود تحويرات وتبديلات يمكن فهمها وردها إلى أصلها الأول الفرعوني.

سيرة موجزة

ياسر ثابت، صحفي مصري، من مواليد ألمانيا عام ١٩٦٤.

حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام ٢٠٠٠.

عمل مديرًا للأخبار في قناة "سكاي نيوز عربية"، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة (٢٠١١)، ومنتجًا أول للأخبار في قناة "الجزيرة" في قطر (٢٠٠٢)، ورئيسًا لتحرير غرفة الأخبار في قناة "الحرّة" في الولايات المتحدة (٢٠٠٧)، ورئيسًا للتحرير في قناة "العربية" في دبي، الإمارات العربية المتحدة (٢٠٠٧).

تتضمن قائمة مؤلفاته:

أولاً: إصدارات باللغة العربية:

"حياة جميلة مرت بجانبنا" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٤)

"سينما النهايات الخالدة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٤)

"برتقال وأشواك: أدب برائحة البارود" (دار المحرر، القاهرة ٢٠٢٤)

"سينما القلوب الوحيدة" (دار المحرر، القاهرة ٢٠٢٤)

"سلاطين النغم: من الموشحات إلى الموسيقى التصويرية" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٤)

"عصر المدرجات" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٤)

"دليل مصور للملائكة" (دار المحرر، القاهرة ٢٠٢٤)

"كشوف الخالدين" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٤)

"أفضل شركائي في الجريمة" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٤)

"صندوق العجائب: من الدراما إلى المقالب والفوازير" (دار المحرر، القاهرة ٢٠٢٣)

"تاريخ الغناء الشعبي: من الموال إلى الرباب" (دار دُون، القاهرة ٢٠٢٣)

"تاريخ اليهود في مصر والعالم العربي: سنوات الظل والغموض" (دار دُون، القاهرة ٢٠٢٣)

"مصر المدهشة" (منشورات إبيدي، القاهرة ٢٠٢٣)

"سيرة الغبار" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٣)

١٠ "قبيلات منسيّة" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٣)

"مشوار الخلود: سيرة محمد صلاح" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٣)

"جنرالات كرة القدم: من مارادونا إلى هالاند" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٣)

"جامع الشهوات" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٢)

"سقف العالم" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٢)

"كلّ يوم شوق" (دار ميريت، القاهرة ٢٠٢١)

"الموسيقى العارية: أساطير في مملكة الغناء" (دار زين، القاهرة ٢٠٢١)

"طقوس الجنون" (منشورات إبيدي، القاهرة ٢٠٢١)

"مقامات الروح: دليل إلى الأغنية العربية" (دار خطوط وظلال، عمان ٢٠٢١)

"حكمة السيقان" (منشورات إبيدي، القاهرة ٢٠٢٠)

"الرومانسيون" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٠)

"عادات الحب السيئة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٠)

"صراع تحت القبة" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٠)

"خدوش إضافية" (دار زين، القاهرة ٢٠٢٠)

"إثم قديم" (دار الأدهم، القاهرة ٢٠١٩)

"سعال وطني" (دار الأدهم، القاهرة ٢٠١٩)

"ولع" (دار الأدهم، القاهرة ٢٠١٩)

"الحرب في منزل طه حسين" (دار زين، القاهرة ٢٠١٩)

"عشاق وشياطين: التاريخ الممنوع للسينما" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٩)

"أبناء البكاء" (دار زين، القاهرة ٢٠١٩)

"الأهداف لا تعتذر" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٩)

"مراعي الذئب" (دار زين، القاهرة ٢٠١٨)

- "يطل الخجل من حقيبتها" (دار زين، القاهرة ٢٠١٨)
- "موسوعة كأس العالم: من أوروغواي ١٩٣٠ إلى روسيا ٢٠١٨" (دار كنوز، القاهرة ٢٠١٨) (طبعة ثانية، دار دُون، القاهرة ٢٠٢٢)
- "الملك والفرسان الثلاثة: عرب روسيا ٢٠١٨" (دار كنوز، القاهرة ٢٠١٨)
- "قبل الذروة بقليل" (دار زين، القاهرة ٢٠١٨)
- "قانون رأس السمكة: أمة في خطر" (دار دلتا، القاهرة ٢٠١٨)
- "لصوص وأوطان" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٨)
- "فاسدون والله أعلم" (دار دلتا، القاهرة ٢٠١٧)
- "الوزير في التلاجة: كواليس صناعة وانهيار الحكومات في مصر" (دار دلتا، القاهرة ٢٠١٧)
- "أهل الضحك والعذاب" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٧)
- "سيرة اللذة والجنس في مصر" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٧)
- "موسوعة حصاد الأولمبياد: الدورات الأولمبية في ١٢٠ سنة" (دار كنوز، القاهرة ٢٠١٦)
- "باشوات وأوباش: التاريخ السري للفساد" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٦)
- "خنجر في المرأة: نصوص ووجوه منسية" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٦)
- "جمرتان: تمارين على النسيان" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٦)
- "الموت على الطريقة المصرية" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٦)
- "حرائق التفكير والتكفير: شخصيات وصدمات" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٦)
- "العصا والمطرقة: صراع السلطة والقضاء" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٥)
- "صديق الرئيس: حكام مصر السريون" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٥)
- "دين مصر: أمراء الدم والفيديو" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٥)
- "وطن محلّك سر" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٥)
- "المتلاعبون بالعقول: سقطات الإعلام في مصر" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٥)
- "حروب الهوانم" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٥)

- "مصر قبل المونتاج" (دار دلتا، القاهرة ٢٠١٥)
- "حكام مصر من الملكية إلى السيسي" (دار الحياة، القاهرة ٢٠١٤)
- "غرفة خلع الملابس: وجوه وقياسات" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "أجمل القتل" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "ذنب" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "الصراع على مصر: ذئاب مبارك والعهد الجديد" (دار كنوز، القاهرة ٢٠١٤)
- "أيامنا المنسية" (منشورات صفاف، بيروت/منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٤)
- "تحت معطف الغرام" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "مراودة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "زمن العائلة: صفقات المال والإخوان والسلطة" (دار ميريت، القاهرة ٢٠١٤)
- "صناعة الطاغية: سقوط النخب وبذور الاستبداد" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "رئيس الفرص الضائعة: مرسي بين مصر والجماعة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "حروب العشيرة: مرسي في شهور الريبة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "دولة الألتراس: أسفار الثورة والمذبحة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "محاكمة الرئيس: البحث عن القانون الغائب" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "شهقة اليائسين: الانتحار في العالم العربي" (دار التنوير، القاهرة ٢٠١٣)؛ (طبعة ثانية، دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٠)
- "قصة الثروة في مصر" (دار ميريت، القاهرة ٢٠١٢)؛ (مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٣)؛ (دار اكتب، القاهرة ٢٠٢٣)
- "هيا بنا نلعب: عن الأوطان والأوثان" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٢)
- "فضة الدهشة: تغريد على غصن تويتر" (دار العين، القاهرة ٢٠١٢)
- "لحظات تويتر: ألف تغريدة وتغريدة" (دار العين، القاهرة ٢٠١١)
- "جرائم بالحبر السري" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٠)
- "حروب كرة القدم" (دار العين، القاهرة ٢٠١٠)؛ (طبعة ثانية، دار اكتب، القاهرة ٢٠١٩)

"فتوات وأفندية" (دار صفصافة، القاهرة ٢٠١٠)

"فيلم مصري طويل" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٠)

"كتاب الرغبة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠١٠)

"جرائم العاطفة في مصر النازفة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠٠٩)

"يوميات ساحر متقاعد" (دار العين، القاهرة ٢٠٠٩)

"قبل الطوفان: التاريخ الضائع للمحروسة في مدونة مصرية" (كتاب "ميزان"، القاهرة ٢٠٠٨)؛ (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة ٢٠١٣)

"جمهورية الفوضى: قصة انخسار الوطن، وانكسار المواطن" (كتاب "ميزان"، القاهرة ٢٠٠٨)؛ (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة ٢٠١٣)

"ذاكرة القرن العشرين" (مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١)؛ (طبعة ثانية، دار اكتب، القاهرة ٢٠١٩)

"موسوعة كأس العالم" (مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٤).

ثانيًا: إصدارات ومشاركات باللغة الإنجليزية:

Peter Furtado (editor), *Revolutions: How they changed history and what they mean today*, London: Thames & Hudson Ltd, 2020.

Furtive Glimpses: Flash Fiction from The Arab World - A Small Anthology, (Compiled and translated by) Essam M. Al-Jassim, Chandigarh, India: White Falcon Publishing, 2022.

- 1 د.نزار الصياد (إعداد وتحرير وتقديم)، القاهرة مؤرخة: فقرات من تاريخ وعمران المدينة عبر الزمن، ج ١، دار العين، القاهرة، ٢٠٢٤، ص ٩.
- 2 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحرير: أيمن فؤاد سيد، ج ٢، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢، ص ٨٩.
- 3 هي قناطر بناها الظاهر بيبرس، ووضع فوقها سباعًا تمثل رنكه، كما فعل في قناطر أبي المنجا.
- 4 محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٨.
- 5 المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ١٩٨.
- 6 شحاته عيسى إبراهيم، القاهرة تاريخها ونشأتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢١، ص ٢٠ - ٢١.
- 7 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧١.
- 8 علي بهجت وألبير جبريل، حفرات الفسطاط، ترجمة: علي بهجت ومحمود عكوش، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨، ص ٧٦ و ١٣١.
- 9 ناصر خسرو علوي، سفرنامه، ترجمة: د.يحيى الخشاب، معهد اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٥٨.
- 10 نقرأ في كتب التاريخ عن خليج أو "ترعة تراجان"، التي بدأ العمل فيها عام (٦٤١م) تقريبًا، أي فور استقرار وضع العرب في مصر، وربما قبل ذلك بقليل، والمفترض أنه تم الانتهاء منه نحو (٦٤٤م)، وهو الحدث الذي سرعان ما أطلق عليه العرب "خليج أمير المؤمنين"، ووردت قصته في مصادر عربية عدة وعلى رأسها "فتوح مصر والمغرب" لابن عبد الحكم، تحت عنوان "ذكر حفر خليج أمير المؤمنين"، وهو الخليج الذي يصل النيل بالبحر الأحمر لحمل المؤن والزاد إلى الحجاز بصفة دائمة. وقيل إنها ترعة حفرها قدماء المصريين، ثم ردمت في أواخر حكم الرومان لمصر، قبل أن يجدد عمرو بن العاص حفرها سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ - ٦٤٤م) بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
- 11 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ٣، تحقيق: جمال الدين الشبال ومحمد حلمي أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٩١.
- 12 المرجع نفسه، ص ٢٩٣.
- 13 عز الدين ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم)، الكامل في التاريخ، ج ٩، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣٣٨.
- 14 المقرئ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، مرجع سابق، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
- 15 المرجع نفسه، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.
- 16 ابن الأثير، مرجع سابق.
- 17 سوق للبخال والحمير والجمال بجوار القلعة.
- 18 جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩ - ١٩٥٦، ص ١٤.
- 19 محمد رمزي، الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة، مجلة العلوم السياسية، السنة التاسعة، المجلد الخامس، ١٩٨٩.
- 20 أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، سيرة أحمد بن طولون، تحرير: محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٣٩، ص ٥٣.
- 21 المرجع نفسه، ص ٥٦، ٧٦، ١٨٠.
- 22 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٤، ص ٨٩٣ و ٨٩٧.
- انظر أيضًا: أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، مرجع سابق، ص ١٨٢.
- 23 أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، مرجع سابق، ص ٥٦ و ٧٦.
- 24 Tarek Swelim, Ibn Tulun: His Lost City and Great Mosque, Cairo: AUC Press, 2015, p. 44.
- 25 أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، مرجع سابق، ص ٥٥.
- 26 جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤١.
- 27 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٤.
- 28 المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٠٥.
- 29 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١٢ - ٢١٤.
- 30 حسن حافظ، مدينة الظاهر والباطن: قراءة جديدة لتاريخ القاهرة الفاطمية؛ في: د.نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٢.
- 31 أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١٠، دار الكتب المصرية الخديوية، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٢-١٩٣٨، ص ٣٤١ - ٣٤٢.
- 32 نزار الصياد، القاهرة: تواريخ مدينة، ترجمة: يعقوب عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٧، ص ١١٥.
- 33 حسن حافظ، مرجع سابق، ص ٨٣ - ٨٤.
- 34 شحاته عيسى إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٠٤.
- 35 د.محمد رياض، القاهرة: نسج الناس في المكان والزمان ومشكلاتها في الحاضر والمستقبل، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١.
- 36 وائل زكي، تاريخ الأثرية في عمران المحروسة، جريدة "الشروق"، القاهرة، ٧ يوليو ٢٠٢٠.
- 37 معاذ لافي، القاهرة العثمانية بين منزلين، في: د.نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

- 38 نللي حنا، بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر: دراسة اجتماعية، ترجمة: حليم طوسون، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ٨٢.
- 39 المرجع نفسه، ص ٨٦.
- 40 إدوارد وليم لين، عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٣٨.
- 41 المرجع نفسه.
- 42 معاذ لافي، مرجع سابق، ص ٢٣٢.
- 43 علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج ١، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٨٨٨، ص ٨٣ - ٨٤.
- 44 د. محمد رياض، مرجع سابق.
- 45 أغلب الإشارات المكتوبة تذكر أن تخطيط حي الإسماعيلية قد تم بعد زيارة إسماعيل لباريس، وإعجابه بمخططات المهندس الفرنسي الشهير هوسمان في منطقة واسعة من باريس، وقام علي باشا مبارك بتخطيط حي الإسماعيلية في ١٨٦٩، وصمم مهندس فرنسي حدائق عامة على رأسها حديقة الأزبكية.
- 46 أمنية عبد البر، بناء القاهرة الممالك: عاصمة السلطنة؛ في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٠.
- 47 ناصر الرباط، الانحياز العمراني للعمارة المملوكية في القاهرة؛ في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٥.
- 48 المرجع نفسه، ص ١٥٥ - ١٥٦.
- 49 تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ج ١، ص ٣١٣.
- 50 أمنية عبد البر، بناء القاهرة الممالك: عاصمة السلطنة؛ في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٠.
- 51 تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤١؛ ج ٣، ص ٤٣٩، ٤٨٤، ٤٨٥، ٥٨٥، ٥٨٦.
- 52 المرجع نفسه، ص ١٢٤ - ١٢٥.
- 53 Janet Abu-Lughod, Cairo: 1001 Years of The City Victorious, Princeton: Princeton University Press, 1971, p. 30.
- 54 أحمد بن جبير الكناشي الأندلسي، اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك [رحلة ابن جبير]، تحقيق وتقديم: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٤٠.
- 55 ناصر الرباط، الانحياز العمراني للعمارة المملوكية في القاهرة؛ في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٨.
- 56 شحاتة عيسى إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٢٩ - ١٣٠.
- 57 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٢٠ - ٣٢٦.
- 58 تقي الدين المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- 59 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال ومحمد حلمي أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.
- 60 جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق.
- 61 أبو العلا عفيفي، الملائكة والصوفية وأهل الفتوة، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ٢٠١٥.
- 62 المرجع نفسه.
- 63 المرجع نفسه.
- 64 ابن عبد الظاهر، أبو الفضل عبد الله، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤٦ - ٤٨.
- 65 دنهله أنيس محمد مصطفى، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين الممالك: أولاد الناس في الحياة السياسية، دورية "كان" التاريخية، العدد الخامس، سبتمبر ٢٠٠٩، ص ٩٣ - ١٠٣.
- 66 د. السيد الباز العريني، الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين الممالك، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٩ - ١٠.
- 67 السيد صلاح الديبكي، أولاد الناس في عصر سلاطين الممالك، دار عين للدراسات، القاهرة، ٢٠١٦، ص ١٠ - ١١.
- 68 تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٦٥٨.
- 69 د. السيد الباز العريني، مرجع سابق، ص ٢٨٧.
- 70 جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٨٣.
- 71 جامكية: مرتب موظفي الدولة.
- 72 محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٤.
- 73 د. محمد رياض، مرجع سابق.
- 74 السيد مارسيل، دراسة حول مقياس الروضة والنقوش التي يحويها، وصف مصر، ترجمة: منى زهير الشايب، ج ١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٠.
- انظر أيضًا: محمد عوض محمد، نهر النيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٥٣.

- [75](#) أمين سامي، مرجع سابق ج ١، ص ٦٨.
- [76](#) السيد مارسيل، مرجع سابق، ص ٩٥.
- [77](#) أمين سامي، مرجع سابق، ص ٩٥.
- [78](#) المرجع نفسه، ص ٧.
- [79](#) الديوان العالي، م ٢، ١٤٦، ١٥ ربيع الأول ١١٨١ هـ/ ١١ أغسطس ١٧٦٧م، ص ١٠٨.
- انظر أيضاً: إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن السادس عشر والسابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٠٨.
- [80](#) البيورلدي: أمر أو مرسوم من الباشا.
- انظر: محمد علي الأنسي، قاموس الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، بيروت، ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠م، ص ١٣٦.
- [81](#) رضا أسعد شريف، وفاء النيل في ثقافة وإدارة ومجتمع مصر العثمانية (١٥١٧ - ١٧٩٨)، بحث مقدم للنشر في مركز دراسات الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، بدون تاريخ، ص ٣.
- [82](#) السيد مارسيل، مرجع سابق، ص ١١٠.
- [83](#) المرجع نفسه، ص ١١٦ - ١١٧.
- [84](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٥، ص ٣١٦.
- [85](#) شحاته عيسى هارون، مرجع سابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١.
- [86](#) محمد حسان الدين إسماعيل، من القاهرة إبراهيم إلى القاهرة إسماعيل، في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣٩.
- [87](#) أمين سامي، تقويم النيل، ج ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢، ص ٣٦١ - ٣٦٢.
- [88](#) أنطوان بارتليمي كلوت، لمحة عامة إلى مصر، ترجمة: محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١، ص ١٤٩ - ١٦٠.
- [89](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣١٩، ٣٤٣.
- [90](#) المرجع نفسه، ج ٧، ص ٤٢٥ - ٤٦٠.
- [91](#) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٣ - ٨٤.
- [92](#) أندريه ريمون، القاهرة: تاريخ حاضرة، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٠٢.
- [93](#) أمين سامي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٨١٣ - ٨١٤.
- [94](#) د. سيد كريم، القاهرة إسماعيل في ميزان التاريخ المعماري، مجلة "العمارة"، القاهرة، ١٩٤٥، العددان الخامس والسادس، ص ١٦.
- [95](#) علي مبارك، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٩٠.
- [96](#) بدير كراييتس، إسماعيل المفترى عليه، ترجمة: فؤاد صروف، دار النشر الحديث، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٣٨.
- [97](#) شحاته عيسى هارون، مرجع سابق، ص ٢٤٠ - ٢٤٣.
- [98](#) علي مبارك، مرجع سابق، ج ٩، ص ٥٣.
- [99](#) المرجع نفسه.
- [100](#) المرجع نفسه، ج ١، ص ٨٥.
- [101](#) د. ناصر الأنصاري، تاريخ أنظمة الشرطة في مصر، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٨.
- [102](#) د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ج ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٤٧١.
- [103](#) محمد بن يوسف الكندي، ولادة مصر، تحقيق: د. حسين نصار، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٣٣.
- [104](#) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: علي عبد الواحد وإفي، ط ٣، دار نهضة مصر، القاهرة، ج ٢، بدون تاريخ، ص ٦٣٢ - ٦٣٣.
- [105](#) جمال الدين الرمادي، سلطة البوليس في العصور الإسلامية، مجلة "الأمن العام"، القاهرة، العدد ٤، ص ٤٣.
- [106](#) أحمد عبد السلام ناصف، الشرطة في مصر الإسلامية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٥١.
- [107](#) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، ج ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٢٢، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.
- [108](#) ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١١٩.
- [109](#) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين، ج ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤، ص ٤٧٤.
- [110](#) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، ج ١، مرجع سابق.
- [111](#) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢١٧.
- [112](#) ابن جرير الطبري، مرجع سابق، ج ٩، ص ٣٢٣.
- [113](#) د. ناصر الأنصاري، مرجع سابق، ص ٦٦ - ٦٧.
- [114](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٢٣.
- [115](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، اتعاط الحنف بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، تحقيق: جمال الدين الشيال ومحمد

- حلمي أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٨٣.
- [116](#) محمد بن يوسف الكندي، مرجع سابق، ص ٢٠٨.
- [117](#) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٠١.
- [118](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، مرجع سابق، ص ١٩٦.
- [119](#) المرجع نفسه.
- [120](#) إبراهيم الفحام، تاريخ الشرطة من الدولة الطولونية إلى الدولة الأيوبية، مجلة "الأمن العام"، القاهرة، العدد ١٤، ص ٥١.
- [121](#) المرجع نفسه.
- [122](#) د. عطية مصطفى مشرفة، نظم الحكم في مصر في عصر الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٨ - ١٢٧١ م)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٣٩.
- [123](#) د. ناصر الأنصاري، مرجع سابق، ص ٥٨.
- [124](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٩٧.
- [125](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، مرجع سابق، ص ٢٧١.
- [126](#) د. عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج ١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٤٠.
- [127](#) أحمد عبد السلام ناصف، الشرطة في مصر الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٧٦.
- [128](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ٣٠٦.
- [129](#) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب السلطانية - المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٧، ج ٤، ص ٢٢.
- [130](#) علي بن داود الصيرفي، إنباء الهصر بأبناء العصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٣٠٤.
- [131](#) ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٣ - ٣٤.
- [132](#) إبراهيم الفحام، الشرطة من الدولة الطولونية إلى الدولة الأيوبية، مصدر سابق، ص ٤٥.
- [133](#) أبو العباس أحمد القلقشندي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٨٣.
- [134](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، مرجع سابق، ص ٤٧٤.
- [135](#) شحاتة عيسى هارون، مرجع سابق، ص ١٥٣.
- [136](#) عبد الرحمن الرفاعي، تاريخ الحركة القومية وتطور الحكم في مصر، ج ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٩.
- [137](#) Charles H. Pouthas, Histoire de l'Egypte Depuis la Conquete Ottoman, Paris, Hachette, 1948, p. 9.
- [138](#) د. عراقي يوسف أحمد، الوجود العثماني المملوكي في مصر في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٢٤٩.
- [139](#) محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، كتاب الشعب، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٩٥.
- [140](#) منير شريف وأحمد عمر، مرجع سابق، ص ٦٩ - ٧٠.
- [141](#) د. أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٣.
- [142](#) أيمن فؤاد سيد، القاهرة: خططها وتطورها العمراني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.
- [143](#) خالد فهمي، تأمين القاهرة في القرن التاسع عشر، في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٣.
- [144](#) أندريه رمون، القاهرة: تاريخ حاضرة، مرجع سابق، ص ٢٠٤.
- [145](#) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.
- [146](#) المرجع نفسه، ص ٢٠٧.
- [147](#) المرجع نفسه، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.
- [148](#) المرجع نفسه.
- [149](#) نبيل السيد الطوخي، طوائف الحرف في مدينة القاهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩.
- [150](#) أندريه رمون، القاهرة: تاريخ حاضرة، مرجع سابق، ص ٢١٤.
- [151](#) أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص ٣٧٧.
- [152](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٢.
- [153](#) Janet Abu-Lughod, Op. Cit., p. 88.
- [154](#) خالد فهمي، تأمين القاهرة في القرن التاسع عشر، في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧١ - ٢٧٢.
- [155](#) علي مبارك، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٦.
- [156](#) د. عبد الوهاب بكر، البوليس المصري (١٨٠٥ - ١٩٢٢)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس - كلية الآداب، ١٩٧٧، ص ٤٩ - ١٠٥.
- [157](#) د. زين العابدين شمس الدين نجم، مصر في عهدي عباس وسعيد، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٤٩.
- [158](#) المرجع نفسه، ص ٥٢.
- [159](#) إبراهيم الفحام، الشرطة في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين، مجلة "الأمن العام"، القاهرة، العدد ١١، ص ٥٥.
- [160](#) د. ناصر الأنصاري، مرجع سابق، ص ٦.

- 161 محمد توفيق رمزي، إدارة البوليس في الدولة الحديثة، مجلة "الأمن العام"، القاهرة، العدد الأول، ١٩٥٨.
- 162 د.عبد الوهاب بكر، البوليس المصري (١٩٢٢ - ١٩٥٢)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١١.
- 163 محمد بن أبي السرور البكري، التحفة البهية في تلك آل عثمان للديار المصرية، تحقيق ودراسة: د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٩ - ٢٠.
- 164 محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، مرجع سابق، ص ١٦٨.
- 165 أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة (٩٦٩ - ١٩٦٩)، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٢٢.
- 166 د.إيمان محمد عبد المنعم، العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تاريخ المصريين، العدد ٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٩.
- 167 د.هدى جابر، البشر والحجر: القاهرة في القرن السادس عشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٤٤.
- 168 الباب العالي، سجل رقم ٥٠، محفظة رقم ٢٠٩، أرشيف دار الوثائق القومية، القاهرة، ص ٣٩.
- 169 جاستون فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة: د.مصطفى العبادي، كتاب اليوم، العدد ٣٠٨، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٩٠.
- 170 أوليا جلبي، سياحتنامة مصر، ترجمة: محمد علي عوني، ج ١، مطبعة دار الوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٤٨٥.
- 171 محافظ الدشت، محفظة رقم ٣٩، أرشيف دار الوثائق القومية، القاهرة، ص ٤٤٧.
- 172 Pierre Jouguet, La Vie municipale dans l'Egypte romaine, Paris, Fontemoing et cie, 1911, p. 265.
- 173 158. Germaine Rouillard, L'administration civile de l'Égypte byzantine, Paris, Geuthner, 1928, p.
- 174 لائحة زراعة الفلاح وتدريب أحكام السياسة بقصد النجاح، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة، ٢٥ يناير ١٨٣٠.
- 175 فيليب جلا، ج ٣، مرجع سابق، ص ٣٦٨.
- 176 د.عبد الوهاب بكر، البوليس المصري (١٨٠٥ - ١٩٢٢)، مرجع سابق، ص ١١٩.
- 177 د.زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سابق، ص ٧٨.
- 178 عماد هلال، الفلاح والسلطة والقانون.. مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تاريخ مصر المعاصر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٧٦ - ٧٧.
- 179 د.زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سابق، ص ٧٧.
- 180 المرجع نفسه، ص ٧٧ - ٧٨.
- 181 د.عبد الوهاب بكر، البوليس المصري (١٨٠٥ - ١٩٢٢)، مرجع سابق، ص ٣٦٥ - ٣٦٨.
- 182 ديونان لبيب رزق، خفير الدرك، جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٢٠ أبريل ١٩٩٥.
- 183 إبراهيم الفحام، تاريخ الشرطة في بداية عصر الاحتلال البريطاني، مجلة "الأمن العام"، القاهرة، العدد ٢٢، ص ٣٥.
- 184 فيليب جلا، قاموس الإدارة والقضاء، ج ١، المطبعة البخارية، الإسكندرية، ١٨٩١، ص ٣٨٨.
- 185 د.عبد الوهاب بكر، البوليس المصري (١٩٢٢ - ١٩٥٢)، مرجع سابق، ص ١٣ - ١٤.
- 186 د.عبد الوهاب بكر، البوليس المصري (١٨٠٥ - ١٩٢٢)، مرجع سابق، ص ٤٦٣.
- 187 أحمد كمال وعمر إبراهيم، البوليس والشرطة في مئة عام (١٩٠٠ - ٢٠٠٢)، وزارة الداخلية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٤٢.
- 188 وزارة الداخلية، نظام البوليس والإدارة، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٩٣٦، ص ٥٢٦ - ٥٣٢.
- 189 موقع وزارة الداخلية المصرية الإلكتروني.
- 190 د.زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سابق، ص ٥٤.
- 191 المرجع نفسه، ص ٥٤.
- 192 أحمد كمال وعمر إبراهيم، مرجع سابق، ص ٥٩.
- 193 شحاته عيسى هارون، مرجع سابق، ص ١٨٥.
- 194 عبد الوهاب بكر، الضبط الاجتماعي في القاهرة العثمانية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ٥٧، ١٩٩٣، ص ٣٦.
- 195 أحمد خميس فرج، الفساد الإداري والمالي في مصر العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مركز التاريخ العربي للنشر، اسطنبول، ٢٠٠٤، ص ٥٧.
- 196 فؤاد كامل، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية والتنظيمية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، ع ٣٨، ٢٠٠٦، ص ٨٦.
- 197 Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Volume I: Empire of the Gazis: The rise and decline of the Ottoman Empire, 1280-1808, Cambridge University Press, 1976, p. 89.
- 198 مصطفى الصفوي القلعاوي، صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسليمان، تحقيق: محمد عمر عبد العزيز، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١٠، ص ١٠٥.
- 199 محمد بن أبي السرور البكري، مرجع سابق، ص ١٠٨.
- 200 أحمد شلبي عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزارات والباشات، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٦٠.

- 201 المرجع نفسه، ص ٦٢.
- 202 محمد بن أبي السور البكري، مرجع سابق، ص ١٠٩.
- 203 محمد بن أبي السور البكري، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية، تحقيق: ليلى الصباغ، دار البشائر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٧٧.
- 204 السير وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، تحقيق: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٨.
- 205 عزتو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٥٩.
- 206 روبير سوليه، ولع فرنسي، ترجمة: لطيف فرج، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٦.
- 207 محمد بن أبي السور البكري الصديقي، كشف الكربة في رفع الطلبة، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المجلة التاريخية، القاهرة، م ٢٣، ١٩٧٦، ص ٢٩٢.
- 208 أحمد خميس فرج، مرجع سابق، ص ٥٨.
- 209 عفاف مسعد السيد، دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٥٥ - ١٨٢.
- 210 مايكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٩٨.
- 211 محمد البرلسي السعدي، بلوغ الأرب برفع الطلب، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، المجلة التاريخية، القاهرة، م ٢٤، ١٩٧٧، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.
- 212 Carl F. Petry, "Quis Custodiet Custodes?" Revisited: The Prosecution of Crime in the Late Mamluk Sultanate, Mamlūk Studies Review, Vol. 3, 1999, p. 16.
- 213 روبير مانتزان، تاريخ الدولة العثمانية، ج ١، ترجمة: بشر السباعي، دار الفكر- القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢١١.
- 214 عادل عبد الحافظ حمزة، دور خاير بك المملوكي في موقعة مرج دابق، المجلة التاريخية المصرية، م ٣٦، ١٩٨٩، ص ٢٥٣.
- 215 ابن إياس، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٩٨.
- 216 أحمد خميس محمود فرج، مرجع سابق، ص ٧٨.
- 217 ابن إياس، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
- 218 نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ١٣.
- 219 المرجع نفسه، ص ١٣ - ١٤.
- 220 جابريل باير، طوائف الحرف في مصر العثمانية، ترجمة: مبرا كمال يوسف جرجس، مراجعة وتحقيق: د. ماجد عزت إسرائيل، مركز التاريخ العربي للنشر، اسطنبول، ٢٠٢١، ص ٢٨.
- 221 نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ١٤.
- 222 عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف (١٨٠٥ - ١٩١٤م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٤ - ٥٥.
- 223 نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ١٦.
- 224 جابريل باير، مرجع سابق، ص ٥٦ - ٦٢.
- 225 على الأغلب العاهرون والمتشردون من كل الأنواع، وكانت باب اللوق وضواحيها أماكن سيئة السمعة.
- 226 جلابون: لم يكن تجار العبيد البيض (سركان) ضمن هذه المجموعة المتدنية؛ فقد كانوا مسجلين مع الطوائف المحترمة لتجار خان الخليلي. انظر: أوليا جلبي، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٣٧٦.
- عن الفرق بين الجلابين واليسارجية انظر: أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢١٤.
- 227 السريح: جلاب إنتاج الطوشي كان خاصًا بالمصريين.
- 228 لم يكن ركوب الحمير، كما كان يفعل كل النبلاء المصريين شيئًا مخزياً. انظر: أوليا جلبي، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٣٨٣.
- 229 محاسن الوقاد، الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٤٧ - ١٤٨.
- 230 د. عبد الوهاب بكر، مجتمع القاهرة السري (١٩٠٠ - ١٩٥٠)، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١، ص ١٢ - ١٣.
- 231 جوان كول، الكولونيالية والثورة: الأصول الاجتماعية والثقافية لثورة عرابي، ترجمة: عنان الشهاوي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، يناير ٢٠١٦، ص ٤٠٧.
- 232 فؤاد مرسي، أهل الصنائع طوائف الحرف.. رابطات العمال قبل النقابات، موقع "المرايا" الإلكتروني، ١ يناير ٢٠٢١.
- 233 عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧.
- 234 أوليا جلبي، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٣٦٢ - ٣٦٤.
- 235 د. محمد فهمي لهيطة، تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٢٩.
- 236 أندريه رمون، قائمة بالشركات التجارية في القاهرة في ١٨٠١م، عربي، أرابيكا، المجلد الرابع، عربي Fasc ٢، ص ١٥٤ - ١٦٢.
- 237 عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٨ - ١٩٩.
- 238 الدول الأجنبية: الشركات الصناعية المصرية في مصر في الخارج، شتوتغارت - توبينغن، المجلد الحادي عشر، رقم ١٢١، بتاريخ ١ مايو ١٨٣٨، ورقم ١٢٢، بتاريخ ٢ مايو ١٨٣٨، ص ٤٨١ - ٤٨٣؛ ٤٨٧ - ٤٨٨.

- [239](#) رافائيل بورغ، تقرير عن طوائف الجرف المحليين وعن العمل والرواتب وتكاليف معيشة الطبقة العاملة في القاهرة، من بورغ إلى لستانتون رقم ٤٧، القاهرة، ١٤ أكتوبر ١٨٧٠، أرشيف رقم ٤٩٥، F.O. ١٤١/٧٣.
- [240](#) المسيو دي ريني، الإحصائيات في مصر، الإسكندرية ١٨٧٠-١٨٧١، ص ٨٣ - ٨٤.
- [241](#) علي مبارك، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٩ - ١٠١.
- [242](#) جيرمان مارتن، البازارات في القاهرة والشركات العربية الصغيرة، القاهرة/باريس، ١٩١٠.
- [243](#) أندريه ريمون، قائمة بالشركات التجارية في القاهرة في ١٨٠١م، مصدر سابق، ص ١٥٣.
- انظر أيضًا: علي مبارك، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٩.
- [244](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٨ - ١٩٩؛ ٢٠٠ - ٢٠١.
- [245](#) الدول الأجنبية: الشركات الصناعية المصرية في مصر في الخارج، مرجع سابق، ص ٤٨١.
- انظر أيضًا: جون بورنج: تقرير عن مصر وكندا، لندن، ١٨٤٠، ص ١١٧.
- [246](#) قائمة ريمون: أرقام ٤١، ٤٢، ٤٩، ٥٠؛ الدول الأجنبية: الشركات الصناعية المصرية في مصر في الخارج، مرجع سابق، ص ٤٨٦.
- [247](#) المسيو دي ريني، مصدر سابق، ص ٨٣؛ علي مبارك، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٠.
- [248](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٦.
- [249](#) نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ١٨.
- [250](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٣١.
- [251](#) نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ٢٢.
- [252](#) المرجع نفسه، ص ٢٣.
- [253](#) جوان كول، مرجع سابق، ص ٣٩٨.
- [254](#) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.
- [255](#) نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ٢٦.
- [256](#) جيرمان مارتن، مرجع سابق، ص ٤٥ - ٤٦.
- [257](#) ماكس مايرهوف، بازار المخدرات واللوائح الطبية في القاهرة، رقم ٣، كراسة ١ - ٢، أرشيف القاهرة للبحوث الاقتصادية في الشرق، الثالث، ١٩١٨، ص ٣٧.
- [258](#) نبيل السيد الطوخي، مرجع سابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
- [259](#) المرجع نفسه، ص ٩.
- [260](#) لائحة المخدمين: ١٥ سبتمبر ١٩٠٢، OR ١٩٠٢، ص ٤١١ - ٤١٤؛ الحكومة المصرية، وزارة الداخلية، التشريع الجنائي والإداري، ط ٣، مجلد ٢، القاهرة، ١٩١٤، ص ٤٠٢ - ٤٠٥.
- [261](#) جابريل باير، مرجع سابق، ص ١٨١ - ١٨٢.
- [262](#) ماهر حسن، "السبيل والتكية ومدفع رمضان والمحشي والبقلاوة" أبرز موروثات الأتراك وأنواع الأكلات والحرف والألقاب، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، ٢٦ ديسمبر ٢٠١٧.
- [263](#) دياسر ثابت، قصة الثروة في مصر، دار الكتب، القاهرة، ٢٠٢٣.
- [264](#) صالح رمضان محمود، الجاليات الأجنبية في مصر في القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٧٠، ص ٤٨.
- [265](#) المرجع نفسه، ص ١٠٩.
- [266](#) نبيل عبد الحميد، الأجانب وأثرهم في المجتمع المصري (١٨٢٢ - ١٩٢٢)، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٧٦، ص ٥٧.
- [267](#) شارل عيسوي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ترجمة: سعد رحمي، دار الحدائق، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٥٤ - ١٥٥.
- [268](#) صلاح عويس، عرض ومناقشة لكتاب ماكس رودنيك "القاهرة.. المدينة المنتصرة"، جريدة "البيان"، دبي، ديسمبر ٢٠٠٠.
- [269](#) المرجع نفسه، ص ١٥٥ - ١٥٦.
- [270](#) د.محمد فهمي لهيطة، مرجع سابق، ص ٢٦٠.
- [271](#) د.جلال يحيى، فجر التاريخ الحديث، بدون ناشر، الإسكندرية، ١٩٧٦، ص ٤٣٢.
- [272](#) ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها، ترجمة: عبد الفتاح عنايت؛ مراجعة: علي جمال الدين وعزت عثمان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٢٧٩.
- [273](#) د.عبد العظيم رمضان، صراع الطبقات في مصر (١٨٣٧ - ١٩٥٢)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٣٥.
- [274](#) صلاح عيسى، هوامش المقريزي: حكايات من مصر، دار الكرم، القاهرة، ص ٢٠١٩، ص ٩٢ - ٩٣.
- [275](#) تيودور رودستين، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده، ترجمة: علي أحمد شكري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١١١.
- [276](#) د.عاصم الدسوقي، كبار ملاك الأراضي الزراعية ودورهم في المجتمع المصري (١٩١٤ - ١٩٥٢)، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٨.

- [277](#) دار الكتب والوثائق القومية، محافظة ديوان معية سنية تركي، محفظة ١٥، وثيقة ٣٩ (٨ محرم ١٢٧٤ هـ/ ٢٩ أغسطس ١٨٥٧م).
- [278](#) د.أحمد الشربيني، تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)، مرجع سابق، ص ٤٣ - ٤٤.
- [279](#) المرجع نفسه.
- [280](#) دار الكتب والوثائق القومية، محافظة ديوان شوري المعاونة، محفظة ٤، ج. ٢، وثيقة بدون رقم (٣ ذو القعدة ١٢٨٠ هـ/ ١٠ أبريل ١٨٦٤م).
- [281](#) د.رؤوف عباس حامد، النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة (١٨٣٧ - ١٩١٤)، مرجع سابق، ص ١٠١.
- [282](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات محكمة مصر الشرعية، سجل ١١، إعلانات قديمة، مادة ١٩٠، ٢٧ جمادى الأولى ١٢٩٨ هـ/ ٢٧ أبريل ١٨٨١م، ص ٢١٩.
- [283](#) دار الكتب والوثائق القومية، محافظة ديوان معية سنية تركي، محفظة ٥٢، من أمن عموم الجمارك المصرية المهردار إلى المعية، وثيقة ١١٨ (١٦ ربيع الثاني ١٢٩٢ هـ/ ٢٥ مايو ١٨٧٥م).
- [284](#) نبيل السيد الطوخي، طوائف الحرف في مدينة القاهرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٤١ - ١٨٩٠)، رسالة دكتوراه، جامعة المنيا، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠٠١، ص ١١٩.
- [285](#) جريدة "الشرق"، القاهرة، العدد ١٣، ٧٦، ديسمبر ١٩٠٣، ص ٣.
- [286](#) الجالية التي تعشق الهجرة لأنها سبيل المجد، مجلة "المصور"، القاهرة، العدد ١٦٣٢، ٢٠ يناير ١٩٥٦.
- [287](#) وفاة المسيو كوتسيكا، مجلة "المصور"، القاهرة، العدد ٤١٨، ١٤ أكتوبر ١٩٣٢.
- [288](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات ديوان التجارة والمبيعات، سجل ٥٢٩٥، ج ١، وارد قيد القرارات، وثيقة ١٣، (١٦ شوال ١٢٦٨ هـ/ ١٣ أغسطس ١٨٥٢ هـ)، ص ٢٤٣.
- [289](#) Charles Issawi, Egypt at Mid-Century: An Economic Survey, London: Oxford University Press, 1954, p. 73.
- [290](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات ديوان التجارة والمبيعات، سجل ٥٢٩٧، ج ١، وارد قيد القرارات، وثيقة ٣٢٤، (١١ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ/ ١٥ أبريل ١٨٥٢ هـ)، ص ٢٤٣.
- [291](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات ديوان التجارة والمبيعات، سجل ٥٢٩٢، ج ١٠، وثيقة ١١٣، (١٢ جمادى الأولى ١٢٦٣ هـ/ ٢٨ أبريل ١٨٤٧ هـ)، ص ١٣٢.
- [292](#) جون مارلو، تاريخ النهب الاستعماري لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى الاحتلال البريطاني ١٨٨٢، ترجمة: عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٣٧٩.
- [293](#) Charles Issawi, Op. Cit., p. 43-44.
- [294](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، إشارات، سجل ٤، مادة ١٧٤ (١٠ شوال ١٢٨٢ هـ/ ٢٦ فبراير ١٨٦٦ هـ)، ص ٦٩.
- [295](#) عادل محمود علي محمود النجار، أحمد عبود باشا والاقتصاد المصري (١٩٢٩ - ١٩٦٤)، سلسلة "حكاية مصر"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٧، ص ٢٧ - ٣٠.
- [296](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، سجل ١، إشارات، مادة ٣٢٦ (٤ ربيع الثاني ١٢٨٨ هـ/ ٣ يونيو ١٨٧١ هـ)، ص ١١٦.
- [297](#) دار الكتب والوثائق القومية، محافظ مجلس الوزراء، محفظة ١/أ، مجموعة ١٣، وثيقة بدون رقم (٢٥ ديسمبر ١٨٨٨م).
- [298](#) محمد رشدي، التطور الاقتصادي في مصر، ج ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٨٧.
- [299](#) نبيل عبد الحميد، مرجع سابق، ص ٤٠.
- [300](#) جرجس سلامة، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرن التاسع عشر والعشرين (المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم والثقافة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٩٢).
- [301](#) د.أحمد الشربيني، تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ - ١٩١٤)، مرجع سابق، ص ٤٥.
- [302](#) دار الكتب والوثائق القومية، محافظ ديوان شوري المعاونة، محفظة ٢٥، أ، دفتر ٢٨٩، من قلم الإيرات إلى محافظة السويس (٢٧ رمضان ١٢٥٩ هـ/ ٢١ أكتوبر ١٨٤٣م)، ص ٩.
- [303](#) دار الكتب والوثائق القومية، محافظ ديوان شوري المعاونة، محفظة ٤، ج ٢، (١١ جمادى الآخرة ١٢٨٠ هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٨٦٣م).
- [304](#) دار الكتب والوثائق القومية، سجلات مجلس تجار مصر، سجل ٥٧٣٦، صادر المجلس إلى سايره، وثيقة ٥١٧، (٢١ شوال ١٢٧٧ هـ/ ٢ مايو ١٨٦١ م)، ص ١٩٨.
- [305](#) مصطفى عبيد، سبع خواجات: سير رواد الصناعة الأجانب في مصر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٢٣، ص ٧٥.
- [306](#) Armin Kredian, The Private Papers of an Armenian Merchant Family in the Ottoman Empire, 1912-14," Money, Land and Trade: An Economic History of the Muslim Mediterranean: v. 2 (Islamic Mediterranean), Nelly Hanna (Editor), Strasbourg: I.B. Tauris, 2002, p. 150.
- [307](#) الكسندر شولش، مصر للمصريين: أزمة مصر الاجتماعية والسياسية (١٨٧٨ - ١٨٨٢)، تعريب: رؤوف عباس حامد، دار الثقافة العربية، القاهرة،

308 د.محمد رفعت الإمام، الأرمن في مصر: القرن التاسع عشر، جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة/صندوق ساتينج شاكر، القاهرة، ط ٢، ٢٠١٥، ص ٢٠٦.

309 ديزموند ستوارت، القاهرة، ترجمة: يحيى حقي، تقديم: د.جمال حمدان، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٩٤.

310 أنجيسكا دوبروفولسكا وباروسلاف دوبروفولسكي، هليوبوليس: مدينة الشمس تولد من جديد، ترجمة: محمد عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ٢٠٠٨، ص ٤٥.

311 سوزان عابد، هليوبوليس.. مدينة الأحلام برعاية البارون إمبان، مجلة "ذاكرة مصر المعاصرة"، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، العدد ١١، أكتوبر ٢٠١٢، ص ٥٦ - ٥٧.

312 د.سامح عبد الله العلايلي، هليوبوليس مدينة الشمس.. رائدة المجتمعات العمرانية السكنية الجديدة في مصر، جريدة "الشروق"، القاهرة، ١٥ أغسطس ٢٠١٧.

313 د.دينا حشمت، القاهرة في الأدب المصري الحديث والمعاصر: من حلم المدينة الكبيرة إلى عزلة الضواحي، ت: د.دينا حشمت، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٧.

314 وفاة البارون أمبان المالطي العظيم ومشيد مدينة هليوبوليس، مجلة "المصور"، القاهرة، ٢ أغسطس ١٩٢٩، ص ٣١.

315 أسامة خالد، قصر وكنيسة و١١ عقارًا "تركة" البارون في مصر، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٩.

316 سمير عبد المقصود السيد، الشوام في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣.

317 قسطنطين (باشا) المخلصي، محاضرة في تاريخ الروم الكاثوليك في مصر، ألقاها في النادي الكاثوليكي في القاهرة في ٢٧ فبراير ١٩٣٠، مطبعة القديس بولس، حريصا، بدون تاريخ، ص ٦ - ٧.

318 مكي شبكية، تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

319 د.علي عبد المنعم شعيب، التدخل الأجنبي وأزمات الحكم في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٥٦ - ٥٧.

320 د.ضياء جاد الكريم، تجارة مصر المحروسة في القرن التاسع عشر، مجلة "ذاكرة مصر المعاصرة"، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، العدد ٢٤، يناير ٢٠١٦، ص ٣٢.

321 د.علي عبد المنعم شعيب، مرجع سابق، ص ٥٨.

322 قسطنطين (باشا) المخلصي، مرجع سابق، ص ١٤ وما بعدها.

323 جاك كرابس جونيور، الكتابة التاريخية في مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة: د.عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٥١.

324 أحمد طاهر حسنين، دور الشاميين المهاجرين إلى مصر في النهضة الأدبية الحديثة، دار الوثبة، دمشق، ١٩٨٣، ص ٤٠.

325 عبد الرحمن الراعي، عصر محمد علي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٠٠.

326 عبد الله محمد عزيباوي، الشوام في مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٩٥.

327 جريدة "الأهرام"، القاهرة، ٢٩ يناير ١٨٩٠.

328 دار الكتب والوثائق القومية، سجلات ديوان مجلس الأحكام، س ٧/٩/١، صادر إلى مديرية الدقهلية، مضبطة ٣٦، (٢٥ رجب ١٢٩٥ / ٢٥ يوليو ١٨٧٩م)، ص ٨٦.

329 دار الكتب والوثائق القومية، سجلات محكمة مصر الشرعية، سجل ٣٦، إعلانات، مادة ٩، (٢٩ ذي القعدة ١٢٧٥ هـ / ٢٧ يونيو ١٨٥٩ م)، ص ٢١٩.

330 د.ذوقان قرقوط، الأسطورة والحقيقة في التاريخ العربي الحديث: محمد علي وجمال عبد الناصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٣٧.

331 مصطفى عبيد، مرجع سابق، ص ٢١٣ - ٢١٤.

332 د.ضياء جاد الكريم، مصدر سابق، ص ٣٢.

333 منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٨.

334 جوان ريكاردو كول، الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر: الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط، ترجمة: عنان علي الشهاوي، مراجعة وتقديم: عاصم الدسوقي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٧٢.

335 James Carlile McCoan, Egypt as it is, London: Cassell, Petter & Galpin, 1877, p. 20.

336 د.علي بركات، تطور الملكيات الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية (١٨١٣ - ١٩١٤)، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٠٢.

337 د.مصطفى النحاس جبر، سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية (١٩٠٦ - ١٩١٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٩٩.

338 انظر: مقدمة ودراسة د.محمد عفيفي: "المعلم يعقوب ومشروعه بين الواقع التاريخي والأسطورة": في: شفيق غربال، الجزائر يعقوب والفارس لاسكاريس، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٧.

339 د.لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، طبعة الشروق الأولى، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٥٩ - ١٦٠.

340 د.عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨ - ١٩٣٦)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٧٥.

341 د.رفعت السعيد، سيرة ذاتية لمناضلي اليسار، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤٧.

- 342 جاك كرايس جونيور، مرجع سابق، ص ٢٥١.
- 343 محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، دار بيروت، ١٩٥٦، ص ٤٤.
- 344 أبو خليل القباني، اختيار وتقديم: محمد يوسف نجم، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٣.
- 345 ممدوح مبروك، شوام في بلاط الصحافة المصرية، الإسكندرية، مجلة "ذاكرة مصر المعاصرة"، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، العدد الثاني، مارس ٢٠١٠، ص ٧٦ - ٧٧.
- 346 سمير عطا الله، الدور اللبناني في تأسيس الصحافة المصرية، جريدة "الشرق الأوسط"، لندن، ٦ سبتمبر ٢٠٠١.
- 347 أغنياء السوريين المتصرين، مجلة "المصور"، القاهرة، العدد ٤١٤، ١٦ سبتمبر ١٩٣٢، ص ١٠.
- 348 مروان سعد الدين، سليم صيدناوي بك، مجلة "ديوان الأهرام"، القاهرة، العدد ١٤، إبريل ٢٠١٣، ص ٤٨ - ٤٩.
- 349 صلاح عيسى، هوامش المقريزي: حكايات من مصر، دار الكرم، القاهرة، ص ٢٠١٩، ص ٩٣.
- 350 وفاء يحيى، "صيدناوي الخازندار".. من بيع الملابس والأدوات المنزلية إلى تسويق الكتب والفنون، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، ٢٩ أغسطس ٢٠١٠.
- 351 نورهان مصطفى، قصة حفيدة "صيدناوي": ممثلة فرنسية عاشت طفولتها في مصر وأنشأت مؤسسة خيرية بالأقصر، جريدة "المصري اليوم"، ١٣ أبريل ٢٠١٧.
- 352 أغنياء السوريين المتصرين، مصدر سابق.
- 353 المصدر نفسه.
- 354 الحكم في قضية مقتل توفيق كرم، مجلة "المصور"، القاهرة، ١٩ فبراير ١٩٢٦، ص ٩.
- 355 إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة: فؤاد طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٠.
- 356 علي مبارك، مرجع سابق، ص ٢٤٤.
- 357 يونان لبيب رزق ومحمد مزين، تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى سنة ١٩١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٨٥.
- 358 دار الكتب والوثائق القومية، سجلات محكمة مصر الشرعية، سجل ٣، إشارات، مادة ٢٣٩، (١٢ شوال ١٢٨٠ هـ/ ٢١ مارس ١٨٦٤ م)، ص ٨٩.
- 359 دار الكتب والوثائق القومية، سجلات محكمة مصر الشرعية، سجل ٢، إشارات، مادة ١٠٤، (٥ شوال ١٢٧٦ هـ/ ٢٦ أبريل ١٨٦٠ م)، ص ٣٦.
- 360 نبيل عبد الحميد، مرجع سابق، ص ٥٨.
- 361 د. ماجد عزت إسرائيل، طوائف المهن التجارية في مصر (١٨٤٠-١٩١٤م)، تقديم: بيتر جران، مركز التاريخ العربي للنشر، أسطنبول، ٢٠٠٤، ص ٣٢.
- 362 سحر علي حنفي، العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٩٧.
- 363 د. أحمد أحمد الحتة، تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، ط ٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣١٧.
- 364 سحر علي حنفي، مرجع سابق، ص ٢٠٠.
- 365 د. أحمد الشربيني، مرجع سابق، ص ٦٤.
- 366 حامد محمد حامد، القاهرة النصارى في عصر سلاطين المماليك، في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٥.
- 367 د. ماجد عزت إسرائيل، الأقباط في مصر من محمد علي باشا إلى جمال عبد الناصر (١٨٥٠ - ١٩٧٠): دراسة تاريخية وثائقية، تقديم: د. عاصم الدسوقي، مركز التاريخ العربي للنشر، أسطنبول، ٢٠٠٤، ص ٢٧.
- 368 كامل ميخائيل عبد السيد، الأقباط أبناء الفراعنة، محاضرة ألقاها في جمعية أصدقاء الكتاب المقدس، مطبعة النجاح، القاهرة، ٢٧ يناير ١٩٥٥، ص ١٢.
- 369 Febe Armanios, Coptic Christianity in Ottoman Egypt, Oxford University Press, 2011, p. 15.
- 370 Mohamed Saleh, On the Road to Heaven: Taxation, Conversions, and the Coptic-Muslim Socioeconomic Gap in Medieval Egypt, The Journal of Economic History, Volume 78 Issue 2, Cambridge University, 2018, p. 425.
- 371 Febe Armanios, Op. Cit., p. 15-18.
- 372 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢٩.
- 373 تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٤ و ١٨٦ و ١٩٥.
- 374 حامد محمد حامد، القاهرة النصارى في عصر سلاطين المماليك، في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
- 375 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٢٩.
- 376 المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٦٣ - ١٦٧.
- 377 المرجع نفسه.
- 378 المرجع نفسه، ج ٤، ص ٤١٦.
- 379 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠١٤ وما بعدها.
- 380 حامد محمد حامد، القاهرة النصارى في عصر سلاطين المماليك، في: د. نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨٩.
- 381 تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠١٦ - ١٠١٧.

[382](#) Donald S. Richards, "The Coptic Bureaucracy Under the Mamluks", in Raymond, A. et al. (eds.), Colloque international sur l'histoire du Caire 27 mars-5 avril 1969 / al-Nadwa al-duwaliyya li-tārīḥ al-Qāhira, General Egyptian Book Organization, Cairo, 1972, pp. 373-381..

[383](#) Doris Behrens-Abouseif, Locations of Non-Muslim Quarters in Medieval Cairo, Annales islamologiques, 1987, 22, pp. 117-132.

[384](#) حامد محمد حامد، القاهرة النصارى في عصر سلاطين المماليك، في: د.نزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٠٩.

[385](#) رمزي تادرس، الأقباط في القرن العشرين، مج. ١، مطبعة جريدة مصر، القاهرة، ١٩١١، ص ٦٢ - ٦٥.

[386](#) أنطونيوس الأنطوني، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، مج. ١، بدون ناشر، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

[387](#) المرجع نفسه، ملحق ٣، شكل ٧.

[388](#) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م، كراسات التاريخ المصري، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٠٨، ١٢٩، ١٩٣، ٢٣١.

[389](#) أنطونيوس الأنطوني، مرجع سابق.

[390](#) جاك تاجر، مرجع سابق، ص ٢٤١.

[391](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٣.

[392](#) المرجع نفسه، ج ٣، ص ٢٨٦.

[393](#) المرجع نفسه، تعليق: أيمن فؤاد سيد، ج ٣، ص ٥٣٥ - ٥٣٦.

[394](#) المرجع نفسه.

[395](#) د.سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج ٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٥٦.

[396](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٨٦.

[397](#) محمد الششتاوي: منتزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٠٩ - ١١٠.

[398](#) المرجع نفسه، ص ١٠٩.

[399](#) أوليا جلبي، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٣٧.

[400](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، تعليق: أيمن فؤاد سيد، ج ٣، ص ٥٣٥-٥٣٦.

[401](#) عبد الرحمن زكي، موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، مكتب الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١١٩.

[402](#) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٣٨.

[403](#) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ١٩٩١، ص ١٩٩.

انظر أيضًا: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٤٥.

[404](#) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ١، المطبعة الأميرية الكبرى، القاهرة، ١٨٩٣، ص ٩٩.

[405](#) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ج ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١١٣ - ١٢٦.

[406](#) د.رشيد العفافي، أحمد زكي باشا ومخطوطات الإسكوريال، كتاب "المجلة العربية"، الرياض، العدد ٢٥٤، نوفمبر ٢٠١٧، ص ١٢.

[407](#) London: Saqi Books, 2021. Raphael Cormac, [Midnight in Cairo: The Divas of Egypt's Roaring '20s](#).

[408](#) لويس عوض، أوراق العمر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٥٥٠ - ٥٥١.

[409](#) George Duncan and Billy Brooks, 'Letter from Cairo, Egypt', Chicago Defender, 7 June 1924, p. 13.

[410](#) Edward William Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, With a new introduction by John Manchip White, New York: Dover Publications, 1973, p. 352.

[411](#) Ibid., p. 315.

[412](#) Ibid., p. 341-346.

[413](#) Harper's Bazaar, 23 February 1884, p. 119.

[414](#) نُشرت هذه المذكرات بصورة متقطعة في جريدة "الأهرام" من ٣١ يوليو ١٩١٥ إلى ٢١ سبتمبر ١٩١٥، وأعيد نشرها في: فؤاد راشد، تاريخ المسرح العربي، دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٠.

[415](#) LSE women's library 4/IBS/6/034; Francesca Biancani, Sex Work in Colonial Egypt: Women, Modernity and the Global Economy, London-New York, I.B. Tauris, 2018, p. 91.

[416](#) Raphael Cormac, Op. Cit.

[417](#) William Nicholas Willis, Anti-Christ in Egypt, London : Anglo-Eastern Publishing Co, 1914, p. 41.

[418](#) Raphael Cormac, Op. Cit.

[419](#) شبرا: أقدم من القاهرة وأكبر من ثلاث محافظات، مجلة "المصور"، القاهرة، ٢٩ يوليو ١٩٤٩.

[420](#) حي شبرا المصري يتوغل في التاريخ مئتي عام، جريدة "البيان"، دبي، ٢٩ أغسطس ٢٠٠٢.

- [421](#) محمد فاروق، "شارع شبرا.." تاريخ حي مشاهير الفن والأدب والسياسة "مصنع الرجال"، جريدة "الأخبار"، القاهرة، ٣ سبتمبر ٢٠٢١.
- [422](#) حي شبرا، محافظة القاهرة، البوابة الإلكترونية، ٢٠٢٤.
- [423](#) أمين سامي، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٩.
- [424](#) صلاح عيسى، هوامش المقريزي: حكايات من مصر، دار الكرم، القاهرة، ص ٢٠١٩، ص ٥٠.
- [425](#) يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢/١٦، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٦-١٩٥٦، ص ٢١٢.
- [426](#) المرجع نفسه.
- [427](#) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ٢، دارابن كثير، دمشق، ٢٠٠٦، ص ٢٦.
- [428](#) محمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٣٣.
- [429](#) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج ٦، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٩٩ - ٢٠٠.
- [430](#) محمد بن أحمد بن إياس، مرجع سابق، ص ٣٣٨.
- [431](#) محمد شعبان أيوب، دولة المماليك، تاريخ المماليك السياسي والعسكري، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٥٢٠.
- [432](#) محمد بن أحمد بن إياس، مرجع سابق، ص ٣٩٤.
- [433](#) محمد شعبان أيوب، مرجع سابق.
- [434](#) د. إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٤١.
- [435](#) صلاح عيسى، هوامش المقريزي: حكايات من مصر، مرجع سابق، ص ٥٠.
- [436](#) James Aldrige, Cairo: Biography of a City, Boston: Little Brown Boston nd, 1969, pp. 55-58.
- [437](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحرير: أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٨.
- [438](#) جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٩ - ١٩٥٦، ص ٥٢ - ٥٥.
- [439](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٨.
- [440](#) طارق سويلم، القطائع: زيارة للمدينة المفقودة قبل القاهرة: في: دنزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٢.
- [441](#) جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٦.
- [442](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٩.
- [443](#) المرجع نفسه.
- [444](#) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٢٢.
- [445](#) جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٥.
- [446](#) محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق: جميل محمد عبد الله المصري، مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٩٥.
- [447](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٩٠.
- [448](#) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٩١ - ٩٢.
- [449](#) جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٦ - ٥٧.
- [450](#) Tarek Swelim, Op. Cit., pp. 59-63.
- [451](#) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، ج ١٣، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٤٧٤.
- [452](#) المرجع نفسه.
- [453](#) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤، ص ٩٩.
- [454](#) المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٣.
- [455](#) اسمها عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير.
- [456](#) هم بنو خولان عمر بن مالك بن زيد بن عريب من القبائل التي نزلت هذه الخطة.
- [457](#) الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله وحمو أحمد بن طولون قتل معهم الخليفة في ليلة واحدة سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م.
- [458](#) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، مرجع سابق، ج ٤، ص ٩٩.
- [459](#) قال إنه عثر على مبلغ مليون دينار (أو ما ما توازي قيمته هذا المبلغ) في ذلك الكنز. انظر: أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، مرجع سابق، ص ٧٦.
- انظر أيضًا: ابن دقماق، مرجع سابق، ج ٤، ص ٩٩.
- [460](#) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، مرجع سابق، ص ٣٣٧.
- [461](#) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٠٥.

[462](#) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٥٦.

[463](#) أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي، مرجع سابق، ص ٧٦.

[464](#) طارق سويلم، القطائع: زيارة للمدينة المفقودة قبل القاهرة: في: دنزار الصياد (تحرير)، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٠.

[465](#) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ١٦٢.

[466](#) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ص ٥٢.

[467](#) أبو الحسن نور الدين السخاوي، تحفة الأحباب وبغية الطلاب: في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، ج ٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤.

[468](#) جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٠.

[469](#) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

[470](#) المقريزي، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٥.

[471](#) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق: لويس شيخو، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢، ص ٨١.

[472](#) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣١١.

[473](#) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق: سالم الكرنكوي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - الهند، ١٩٧٢.

انظر أيضًا: السيوطي، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٥.

[474](#) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٦٩.

[475](#) المقريزي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٠.

[476](#) هو محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن تشوان بن عبد الظاهر القاضي فتح الدين ابن القاضي محيي الدين الجدامي المصري المعروف بابن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء ومؤمن المملكة بالديار المصرية؛ مولده بالقاهرة سنة ٦٠٨هـ تفقه ومهر في الإنشاء والأدب وسار في الدولة المنصورية (قلاوون) برأيه وعقله وحسن سياسته. توفي بقلعة دمشق سنة ٦٩١هـ ودفن بسفح قاسيون.

[477](#) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: دنزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ج ٢، ص ٢٤٧.

[478](#) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٠.

[479](#) أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي، مرجع سابق، ص ٥١.

[480](#) تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

[481](#) ابن دقماق، مرجع سابق، ج ٤، ص ١١٠.

[482](#) جلال الدين السيوطي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٠.

[483](#) د. أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط ٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١.

[484](#) عبد الرحمن الراجعي، عصر محمد علي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٤٠٠.

[485](#) LaVerne Kuhnke, Lives at Risk Public Health in Nineteenth-Century Egypt, Comparative Studies of Health Systems and Medical Care Series, Berkeley: University of California Press, 1990, p.137.

[486](#) انظر: ديوان تفتيش صحة مصر: م / ١/٥، ج ٦، خطاب رقم ٥، في ١٩ ذو القعدة ١٢٦٦/٢٦ سبتمبر ١٨٥٠؛ د. خالد فهمي، كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة: د. شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٣٤ - ١٣٥.

[487](#) سيلفيا شيفولو، الطب والأطباء في مصر: بناء الهوية المهنية والمشروع الطبي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد ٩٥٥، ٢٠٠٥، ص ٥٢ - ٥٣.

[488](#) LaVerne Kuhnke, op. cit., p. 147.

[489](#) أنطوان بارتليمي كلوت، مرجع سابق.

[490](#) جي فاريت، محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة: محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد ٤٩٢، ٢٠٠٥، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

[491](#) عبد الرحمن الراجعي، عصر محمد علي، مرجع سابق، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

[492](#) سيلفيا شيفولو، مرجع سابق، ص ١٢.

[493](#) المرجع نفسه.

[494](#) المرجع نفسه.

[495](#) هنري حبيب عيروط، الفلاحون، ترجمة: محيي الدين اللبان ووليم داوود مرقص، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد ٤٤٨، ٢٠٠٥، ص ١٦٨.

[496](#) إيمان علي، سؤال للحكومة عن مدى تناسب عدد الأطباء في مصر بعدد السكان في كل محافظة، موقع "اليوم السابع" الإلكتروني، ٢٦ فبراير ٢٠١٩.

[497](#) محمد غنيمه، لم يصبه العرش، دار الرواق، القاهرة، ٢٠٢٣، ص ٨.

[498](#) المرجع نفسه، ص ٧.

- 499 محمد مهري، رحلة مصر والسودان، مطبعة الهلال بالفجالة، القاهرة، ١٩١٤، ص ١٩١.
- 500 عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مرجع سابق، ج ٣.
- 501 محمد صبري السوربوني، الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي والمسألة الشرقية (١٨١١ - ١٨٤٩)، ترجمة: ناجي رمضان عطية، مراجعة وتقديم: أحمد زكريا الشلق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١١٨.
- 502 إلياس زخورة، مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر مصر، المطبعة العمومية بمصر، القاهرة، ١٨٩٧، ج ١، ص ٣١.
- 503 محمد غنيمه، مرجع سابق، ص ٩٢.
- 504 جميل خانكي، الذكري المتوئمة لتثبيت محمد علي الكبير على عرش مصر، المطبعة العصرية، القاهرة، ص ٥٢.
- 505 عبد الرحمن الرفاعي، ثورة ١٩١٩.. تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.
- 506 المرجع نفسه.
- 507 رشاد كامل، الملكة نازلي: غرام وانتقام، دار ميم، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٢٥٢.
- 508 د.أمل فهمي، أمراء الأسرة المالكة (١٨٨٢ - ١٩٢٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٧، ص ٦١.
- 509 سعد زغلول، مذكرات سعد زغلول، تحقيق: د.عبد العظيم رمضان، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.
- 510 مصطفى أمين، من واحد لعشرة، كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، يوليو ١٩٩٠، ص ١٧ - ١٨.
- 511 عبد الله حسين، السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية، ج ٢، مؤسسة هندواي، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١٩٧.
- 512 محمد غنيمه، مرجع سابق، ص ١٤٣.
- 513 د.لطيفة محمد سالم، فاروق من الميلاد إلى الرحيل، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥.
- 514 Sonia Purnel, Clementine: The Life of Mrs Winston Churchill, New York: Viking, 2015, p. 140.
- 515 Janet Wallach, Desert Queen: The Extraordinary Life of Gertrude Bell, London: Weidenfeld & Nicolson, 1996, p.140.
- 516 Martin Gilbert (ed.), Winston S. Churchill: Companion Volume IV, Part 2 – July 1919 – March 1921, London: Heinemann, 1975, p. 434.
- 517 د.محمد رياض، مرجع سابق.
- 518 محمد حسنين مكاوي، التقدم العمراني لمدينة القاهرة والمدن المصرية الأخرى، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٨.
- 519 عيسى شحاته هارون، مرجع سابق، ص ٢٧٦ - ٢٧٩.
- 520 د.جلال أمين، ماذا حدث للمصريين؟، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٢٤.
- 521 جلال أمين، رحيق العمر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٤.
- 522 المرجع نفسه.
- 523 د.جلال أمين، وصف مصر في نهاية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥.
- 524 د.جلال أمين، رحيق العمر، مرجع سابق.
- 525 برناردو جرانوتييه، العشوائيات السكنية: المشكلات والحلول، ترجمة: محمد علي بهجت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ١٢.
- 526 هشام مخلوف ود.نادية حليم، الأحياء العشوائية في مصر: رؤية وصفية تحليلية، المركز الديموجرافي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٤.
- 527 عاطف معتمد، دير الطين، جريدة "الشروق"، القاهرة، ٢٣ أبريل ٢٠٢٤.
- 528 الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، تقرير: تطوير وتنمية المناطق العشوائية في مصر، القاهرة، ٢٠٠٨.
- 529 إبراهيم معوض، القاهرة تسابق الزمن للتخلص من ١١٢ منطقة عشوائية.. والأهالي: "سيبونا في حالنا"، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، ٢٩ أغسطس ٢٠١٦.
- 530 الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، مصدر سابق.
- 531 الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، الكتاب الإحصائي السنوي، القاهرة، ٢٠٠٨.
- 532 أحمد زايد، سكنى المقابر في مدينة القاهرة، الكتاب السنوي لعلم الاجتماع، العدد الثالث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١١١.
- 533 د.أحمد كمال أبو المجد، محاضرات الافتتاح: في: تحديات التوسع العمراني: حالة القاهرة، تحرير: راوية فاضل وسمير الصادق وإسماعيل سراج الدين، جائزة الأغا خان للعمارة، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢٤ - ٢٥.
- 534 د.سعد الدين إبراهيم، القاهرة: نظرة اجتماعية؛ في: المرجع نفسه، ص ٥٦.
- 535 د.جانيت أبو لغد، في: المرجع نفسه، ص ٦٣.
- 536 عزت القمحاوي، عمارة الريبة: هوس البناءات الكبرى والشوارع الواسعة، موقع "المنصة" الإلكتروني، ١٨ ديسمبر ٢٠٢١.
- 537 د.محمود عبد الفضيل، رأسمالية المحاسب: دراسة في الاقتصاد الاجتماعي، دار العين، القاهرة، ٢٠١١.
- 538 بيسان كساب، عن العمران والعزلة: سياسة تسليع السكن في مصر؛ في: محمد جاد (محرر)، مُلاك مصر: قصة صعود الرأسمالية المصرية، دار المراه، القاهرة، ٢٠١٨، ص ٨٢.
- 539 حسن عاشور، مبارك يتفقد مدينة الرحاب ومشروعات الإسكان بالقاهرة الجديدة، جريدة "الأهرام"، ١٧ ديسمبر ٢٠٠٣.

- 540 أحمد أنور، الانفتاح وتغير القيم في مصر، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٢٥.
- 541 د.ميلاد حنا، الإسكان والمصيدة: المشكلة والحل، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٥٢.
- 542 القاهرة: ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ - تخطيط العاصمة في إطار تاريخ مصر وتطورها؛ في: تحديثات التوسع العمراني: حالة القاهرة، مرجع سابق، ص ١٣٩ - ١٤٠.
- 543 أبو زيد راجح، التغيير في النمط الإسكاني لمدينة القاهرة في: المرجع نفسه، ص ١٧٥ - ١٧٦.
- 544 د.وحيد عبد المجيد، عاصمة جديدة.. أم مدن حديثة؟، جريدة "المصري اليوم"، القاهرة، ١٧ يوليو ٢٠١٥.
- 545 بنت هانسن وسمير رضوان، العمل والعدل الاجتماعي في اقتصاد متغير: مصر في الثمانينيات - دراسة في سوق العمل، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٧٦.
- 546 د.محمد رياض، مرجع سابق، ص ٧٢.
- 547 في ١٩٦٠ كانت القاهرة والجيزة تستحوذ على نصف حجم الهجرة الداخلية في مصر، وفي عام ١٩٧٦ كانت الهجرة إلى القاهرة في حدود ثلاثة أرباع المليون، وإلى الجيزة ثلث مليون، وفي ١٩٨٦ هبطت الهجرة إلى القاهرة إلى حدود نصف مليون، ولكنها ارتفعت في الجيزة إلى نصف مليون.
- 548 د.محمد رياض، مرجع سابق.
- 549 Viola Shafik, Popular Egyptian Cinema: Gender, Class and Nation, Cairo/New York: The American University in Cairo Press, 2007.
- 550 نزار الصياد، القاهرة على شاشة السينما: صورة المدينة خلال قرن من الحداثة؛ في: د. نزار الصياد، مرجع سابق، ص ٢٢٧.
- 551 Ameer Saad, Bourgeois Cairo, 1930: Cinematic Representations of Place in the Middle East-Class City"; In: Nezar AlSayyad, Heba Safey Eldeen, Cairo/New York: The American University in Cairo Press, 2022.
- 552 مي التلمساني، الحارة في السينما المصرية ١٩٣٩-٢٠٠١م، ترجمة: رانيا فتحي، المركز القومي للترجمة، رقم (٢٣٠٧)، القاهرة، ٢٠١٤.
- 553 نزار الصياد، القاهرة على شاشة السينما: صورة المدينة خلال قرن من الحداثة؛ في: د. نزار الصياد، مرجع سابق، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
- 554 هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب: قراءة سوسيوثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥.
- 555 مجدي عبد الهادي، صورة المهملشين في السينما المصرية.. نحو سينما متصلة بالواقع، موقع "حلول للسياسات البديلة" الإلكتروني، ١١ يناير ٢٠٢٤.
- https://aps.aucegypt.edu/ar/articles/1350/the-image-of-the-marginalized-in-egyptian-cinema-toward-a-reality-based-cinema
- 556 إبراهيم العريس، السينما والمجتمع في الوطن العربي: القاموس النقدي للأفلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٥.
- 557 نزار الصياد، القاهرة على شاشة السينما: صورة المدينة خلال قرن من الحداثة؛ في: د. نزار الصياد، مرجع سابق، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.
- 558 كريم فرغلي، السينما والرقص على الحبال المشدودة، دار الربيع العربي، القاهرة، ٢٠١٧.
- 559 نزار الصياد، القاهرة على شاشة السينما: صورة المدينة خلال قرن من الحداثة؛ في: د. نزار الصياد، مرجع سابق، ص ٢٣٤.
- 560 سمير فريد، الواقعية الجديدة في السينما المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
- 561 نبيل راغب، العناصر النمطية في السينما المصرية، تقديم: مذكور ثابت، سلسلة "ملفات السينما"، (١٥)، المركز القومي للسينما، القاهرة، ٢٠٠٠.
- 562 محمود قاسم، تاريخ السينما المصرية: قراءة الوثائق النادرة، وكالة الصحافة العربية (ناشرون)، القاهرة، ٢٠١٨.
- 563 عصام زكريا، القاهرة في أفلام مخزجي الثمانينيات: بين الغضب والولع، جريدة "عمان"، مسقط، ١ يونيو ٢٠٢٤.
- 564 Nezar AlSayyad and Mohammad Salama, "Naguib Mahfouz's Cinematic Cairo: Depictions of Urban Transformations in Twentieth-century Egypt"; In: Nezar AlSayyad, Heba Safey Eldeen, Cairo/New York: The American University in Cairo Press, 2022.
- 565 نزار الصياد، القاهرة على شاشة السينما: صورة المدينة خلال قرن من الحداثة؛ في: د. نزار الصياد، مرجع سابق، ص ٢، ص ٢٢٨.
- 566 أماني إبراهيم، مملكة الظلال.. كيف عبّرت السينما عن التطور الزمني لمنطقة وسط البلد؟، موقع "باب مصر" الإلكتروني، ١٢ ديسمبر ٢٠٢١.
- 567 العايق: هو قاطع الطريق، أو اللص الذي (يعوق) طريق التجار وينهب قوافلهم، وأصلها من اللغة العربية "العائق". وقد ظهرت في المجتمع المصري في العصر المملوكي فئة "العُيَّاق" وهم اللصوص وقطاع الطرق، والذين كانوا يترصدون بالقوافل في أوقات ضعف الدولة والحكومات ويحاربهم الولاة في أزمنة المجد والقوة. في العصر العثماني أصبحت تطلق على كل ماهر في صناعته، كنوع من المبالغة في المهارة، واختص بها الشماشجي الذي يقوم بتجهيز الملابس للحاكم حيث يجعله يرتدي أجمل الملابس، فأطلق عليه بعد ذلك كلمة عايق، ومن هنا أطلقت على من يجيد ارتداء الملابس ويبدو في أعين الناس أنيقًا.
- 568 الذعارة: تعني الذين يسبقون الجيوش صائحين فيصيحون الأعداء بالذعر، وقد ظلوا يعانون من البطالة أو العمالة المؤقتة في الحرف الحقيمة، وكان بعضهم من الخارجين من السجون ومعظمهم من القرى وقد هاجروا إلى المدن عندما زادت الضرائب على أهل الريف. كما تطلق على طائر دائم القلق، لا يستقر في مكان، وأيضًا تطلق على اللص الخاطف المارد.
- 569 المناسر تعني اللصوص، واشتهرت هذه العصابات المسلحة في العصر المملوكي والعصر العثماني وفي فترات لاحقة في مصر. كان المناسر ينقضون فجأة على الأسواق أو القرى أو الحواري وينهبون البضائع ويهربون بسرعة. أطلق عليهم "منسر" من طائر النسر المشهور بالانقضاض المفاجئ على فريسته. كان زعماء المنسر يطلق عليهم "شيوخ منسر"، وهي كلمة ما زالت مستخدمة في مصر الحديثة.
- 570 الحرفوش: هو ذميم الخلق والخُلُق، وهو المقاتل والمصارع واللص. تعود كلمة حرفوش في معناها للجذر (حرفش) وقد جاء في لسان العرب في

معنى الكلمة:

"الرَّجُلُ إِذَا تَهَيَّأَ لِلْقِتَالِ وَالْغَضَبِ وَالشَّرِّ، وَرَبَّمَا جَاءَ بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ. وَاحْرُتَفَسَتْ الرِّجَالُ إِذَا صَرَ عَظْمُهُمْ بَعْضًا، وَالْمُخْرَنْفُسُ: الْمُتَقَبِّضُ الْغَضَبَانَ".

[571](#) جراد الجعديّة: تعني الرعاع واللصوص من أهل الفساد.. أشبه بالذعر والحرافيش والدهماء. ويطلق عليهم جراد لكثرة عددهم.

[572](#) الشطار: من اللصوص ويتصفون بالقوة الجسدية والدهاء والخداع، وكان البارزون فيهم يجذبون انتباه الحكام فيستخدمونهم لحمايتهم.

[573](#) العيارون: يُعرف العيار في اللغة بالرجل كثير الحركة، حيث جاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي: "العيار الكثير المجيء والذهاب والذي الكثير التواف". وقال ابن الأعرابي: والعرب تمدح بالعيار وتذم به. يقال غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في طاعة الله عز وجل. أما كتب التاريخ فقد اختلفت فيما أطلقتته على العيارين والشطار من تسميات ونعوت فسموهم "الرعاع والأوباش والطارين"، حيث جاء في حديث الطبري عن حوادث سنة ١٩٧ هـ / ٨١١م قوله: "ذلت الأجناد وتواكلت عن القتال إلا باعة الطرق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاة والطارين وأهل السوق". أسموهم بالفتيان حتى أصبحت كلمة مرادفة للعيارين والشطار.

[574](#) حشرات الحسينية: تعني السفلة في قاع المجتمع. يقول الجبرتي في تاريخه عن فترة الحملة الفرنسية: ثارت حشرات الحسينية، وأزاعر "جمع أزعر" البرانية، والمعدمين! ومعهم بعض المتعممين الذين لم ينظروا في عواقب الأمور، تجمع الكثير من الغوغاء، أبرزوا ما أخفوه من سلاح، حضر إليهم القائد الفرنسي ديوي فضربوه وتخنوا جراحه، وقتلوا الكثير من أبطاله وفرسانه، وهدموا مصاطب الحوانيت، وتمتسوا وراءها، ونهبوا دور النصارى والمسلمين، وأخذوا الودائع والأمانات.

[575](#) د. ابتسام علام، مرجع سابق، ص ١٧ - ١٨.

[576](#) عبد الباسط عياش، طائفة الشحاتين.. موجز تاريخ فشل دولة، موقع "المنصة" الإلكتروني، ٥ مارس ٢٠١٩.

[577](#) د. محمد رجب النجار، الشطار والعيارين.. حكايات في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١.

[578](#) رينهاردت دوزي، تكلمة المعاجم العربية، تحقيق: محمد سليم النعيمي، ١١ جزءاً، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٩ - ٢٠٠٠.

[579](#) محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت/ دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠.

[580](#) ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، ط أوقاف قطر، الدوحة، ٢٠١٥، ج ١٣، ص ٣١٦.

[581](#) د. إبراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مطبعة الجمهورية، دمشق، ١٩٩٣، ص ١٤٤.

[582](#) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، دار الشرق العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢١٤.

[583](#) تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق: زيتشتين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩١٩، ص ٤٤.

[584](#) تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص ١١٤.

[585](#) بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق ودراسة: د. محمود رزق محمود، ج ١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ١٥٣ - ١٥٦.

[586](#) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ج ٥٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٤٨٠.

[587](#) أندريه ريمون، القاهرة: تاريخ حاضرة، مرجع سابق، ص ٣٦٨.

[588](#) شاكور مصطفى، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق في العصر الفاطمي؛ في: في التاريخ الشامي، ج ٢، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٨، ص ١٧٤ - ٢١٣.

[589](#) ابن طولون الصالح، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٩٥ - ٢٠٣.

[590](#) إبراهيم زعرور، مرجع سابق، ص ١٤٢.

[591](#) تقي الدين المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، ج ٢، ق ٢، ص ٣٨١.

[592](#) ابن طولون الصالح، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص ٧٠.

[593](#) المرجع نفسه، ص ١٤٥.

[594](#) المرجع نفسه، ص ٩٥.

[595](#) المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، ٣/٢١١.

[596](#) المرجع نفسه، ٣٧٥/٤.

[597](#) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، ج ١، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٤٠٥.

[598](#) جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ج ١٥، ص ٩٧.

[599](#) المرجع نفسه.

[600](#) ابن بطوطة، مرجع سابق، ٢١٤/١.

[601](#) محمد بن محمد بن صرّى، الدرّة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار سعد الدين/ دار كنان، دمشق، ٢٠١٤، ص ٦.

[602](#) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ص ٢٤٠.

- [603](#) محمد مظلوم، التسول في عاصمة الدولة العثمانية "مهنة وأصول"، موقع "انديندنت عربية" الإلكتروني، ٢٣ ديسمبر ٢٠٢٣.
- [604](#) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.
- [605](#) عبد الوهاب الشعراني، تطهير أهل الزوايا من خبائث الطوايا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٨.
- [606](#) أبو نصر السراج الطوسي، اللع في التصوف، تحقيق: د. عبد الحليم محمود/ طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة/ مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٠.
- [607](#) علي مبارك، مرجع سابق.
- [608](#) أندرية ريمون، القاهرة: تاريخ حاضرة، مرجع سابق، ص ٢٦٨.
- [609](#) صلاح عيسى، هوامش المقرئ: حكايات من مصر، دار الكرم، القاهرة، ٢٠١٩.
- [610](#) د. ابتسام علام، الجماعات الهامشية - دراسة أنثروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- [611](#) د. آدم صبرة، الفقر والإحسان في مصر: عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ - ١٥١٧م، ترجمة: د. قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٣.
- [612](#) أ.ب. كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١.
- [613](#) أوليا جليبي، الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، ٣ أجزاء، ترجمة وتحقيق: الصفصافي أحمد القطوري، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠.
- [614](#) إدوارد ولیم لاین، عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم: مصر ما بين ١٨٣٣ - ١٨٣٥، ترجمة: سهر دسوم، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.
- [615](#) عباس محمود العقاد، الديوان: في الأدب والنقد، دار الشعب، القاهرة، ١٩٢١.
- [616](#) أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢.
- [617](#) أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠.
- [618](#) رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ٢٠١٢.
- [619](#) أحمد محفوظ، خبايا القاهرة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩.
- [620](#) د. علي شلبي، أزمة الكساد العالمي الكبير وانعكاسها على الريف المصري (١٩٢٩ - ١٩٣٤)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٧.
- [621](#) د. نسمة سيف الإسلام سعد، فقراء مدينة القاهرة في النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٧ - ١٩٥٢)، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٣٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢٤.
- [622](#) معاوية محمد نور، بين ثقافتين، كتاب "الدوحة"، الدوحة، العدد ٨٦، يوليو ٢٠١٨، ص ٥١.
- [623](#) د. محمد شومان، خطاب الشارع: تحولات الحياة والموت في مصر، سلسلة "كتاب اليوم"، دار "أخبار اليوم"، القاهرة، سبتمبر ٢٠١٧.
- [624](#) د. سيد عويس، هتاف الصامتين: ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات في المجتمع المصري المعاصر، دار الطباعة الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧١.

الفهرس

1. [إهداء](#)
2. [مقدمة](#)
3. [أسوأ خطة عسكرية في التاريخ](#)
4. [القطائع بمدينة الأحلام](#)
5. [أكويكب القاهرة.. مدينة بروحين](#)
6. [عمارة الأثرياء](#)
7. [الممالك.. البناؤون العظام](#)
8. [أحاديث الجوى.. والقاهرة التي اختفت](#)
9. [أولاد الناس.. في زمن الممالك](#)
10. [مقباس النيل.. بين حلوان والروضة](#)
11. [إصلاح ما خربه الفرنسيين](#)
12. [أمن المدينة.. بين الأغا والوالي](#)
13. [من الممالك إلى العثمانيين.. تاريخ الفساد](#)
14. [طوائف وحرف](#)
15. [إمبراط العثمانيين.. محشي.. وبقلاوة](#)
16. [الأجانب.. تجار وصناع.. ومحتكرون](#)
17. [نفوذ الشولم](#)
18. [قاهرة النصارى](#)
19. [بركة الفيل.. أجمل متنزهات القاهرة](#)
20. [زقاق القناديل.. شارع الأشراف](#)
21. [إساعة الحظ في الأريكية](#)
22. ["أسرار" جمهورية شبرا](#)
23. [إلى "عندما يحكم" العيال](#)
24. [إخمار وجه.. ومن الترف ما قتل](#)
25. [بيمارستانات مصر](#)
26. [صعود الطب وإنهياره](#)
27. [إلى.. يصبه العرش](#)
28. [القاهرة ١٩٢١.. "جميل تشرشل وكبرياءه"](#)
29. [كوميديا ونديات وعشوائيات.. تحديات المستقبل](#)
30. [القاهرة السينمائية : تجاعيد مدينة](#)

31. [التسول.. تاريخ الاستجداء في مصر](#)

32. [الشارع.. لمن؟](#)

33. [سيرة موجزة](#)

Landmarks

1. [Cover](#)

جدول المحتويات

إهداء	4
مقدمة	5
أسوأ خطة عسكرية في التاريخ	8
القطائع .. مدينة الأحلام	13
!كوكب القاهرة.. مدينة بروحين	15
عمارة الأثرياء	19
المماليك.. البناؤون العظام	22
أحاديث الجوى" والقاهرة التي اختفت"	26
أولاد الناس" .. في زمن المماليك"	32
مقياس النيل.. بين حلوان والروضة	35
!إصلاح ما خربه الفرنسيين	37
أمن المدينة.. بين الأغا والوالي	39
من المماليك إلى العثمانيين.. تاريخ الفساد	47
طوائف وحرف	50
!ميراث العثمانيين.. محشي وبقلاوة	58
الأجانب.. تجار وصناع ومحتكرون	60
نفوذ الشوام	68

قاهرة النصارى	74
بركة الفيل.. أجمل متنزهات القاهرة	78
زقاق القناديل.. شارع الأشراف	82
! ساعة الحظ في الأزبكية	84
"أسرار" جمهورية شبرا	91
!"عندما يحكم" العيال	96
! خمارويه.. ومن الترف ما قتل	99
بیمارستانات مصر	103
صعود الطب وانهيائه	107
! لم يُصبه العرش	111
! القاهرة ١٩٢١.. جمل تشرشل وكبرياؤه	117
كومباوندات وعشوائيات.. تحديات المستقبل	122
القاهرة السينمائية: تجاعيد مدينة	132
التسول.. تاريخ الاستجداء في مصر	142
! الشارع.. لمن؟	153
سيرة موجزة	158